مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ
شمال أفريقيا القديم

تأليف
اصْطيفان اكْصيل

ترجمة
محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE
DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء الثاني

الدولة القرطاجية

الرباط، 2007

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ
شمال أفريقيا القديم

تأليف
اصْطيفان اگْصيل

ترجمة
محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE
DE L'AFRIQUE DU NORD
Par Stéphane GSELL

الجزء الثاني
الدولة القرطاجية

الرباط، 2007

أكاديمية المملكة المغربية

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062

الرمز البريدي 10100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني : **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

فاكس 75.51.01 (037)

اسم الكتاب : **«تاريخ شمال أفريقيا القديم»**

أصله الفرنسي : "Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord"

تأليف : اصْطيفان اگْسيل Stéphane Gsell

ترجمه إلى العربية : محمد التازي سعود

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2007/1096

ردمك : [illegible] (المجموعة)

ردمك 9981 [illegible] (الجزء الثاني)

محتويات أجزاء

كتاب "تاريخ شمال أفريقيا القديم"

لاصْطيفان اڭْصيل

الكتـاب الأول

قرطاجة وممتلكاتها في أفريقيا

الفصل الأول

مدينة قرطاجة

1

تُعتبر قاصية الجنوب الغربي لصقلية من جهة، والرأس الطيّب المقابل لها من جهة أخرى حداً للمضيق الرابط بين حوضي البحر الأبيض المتوسط. فبين هذا الرأس ورأس سيدي علي المكّي (الذي يعرف أيضا باسم رأس الطرفة) ينفتح الشاطئ الإفريقي عريضا. ذلك هو الخليج الذي شاهد - ولمدة ثلاثين قرنا - حظوظ أوتيكا Utique وقرطاجة Carthage وتونس. فرأس قرطاجة، وهو عبارة عن نتوء صخري، يقسم الخليج إلى قسمين ينتهي أحدهما عند الشمال برأس سيديْ علي المكّي. وقد ضاقت سعة هذا القسم منذ العهد البونيقي بسبب رسوبات نهر مجَرْدة.

لقد كتب بوليبْ Polybe قائلا : «إن قرطاجة توجد في خليج بشبه جزيرة بارزة، معظم محيطها يحده البحر من جهة، وإحدى البحيرات من جهة أخرى. ويبلغ عرض البرزخ الذي يربطها بليبيا نحوا من خمسة

وعشرين اسْطاداً (أي 4440 مترا)[1]. وبالجانب المواجه للبحر من هذا البرزخ – وعلى مسافة قليلة – تقوم مدينة أوتيكا، بينما تقوم تونس Tynès على الجانب الآخر من جهة البحيرة» [1] فالسُّبْخَة الريّانة، وهي مستنقع واقع بشمال البرزخ من جهة أوتيكا ومصب مجَرْدة، كانت في العهود العتيقة على الخليج الذي كان آنذاك يتجوف عند الجنوب الغربي وعند غرب رأس سيدي علي المكّي. ويفصل السبْخَة الريّانة اليوم عن البحر حاجز من الكثبان كوّنته مجروفات النهر المجاور. والبرزخ يبلغ عرضه خمسة كيلومترات في أضيق مكان به. فيكون قد اتسع قليلا إذا كانت المعلومات التي أعطاها المؤرخ الإغريقي صحيحة.

ويضيف پوليبْ Polybe قائلاً [٢] : «إن البرزخ الذي يربط قرطاجة بليبيا تسده تلال يصعب تخطيها. وقد أنشأت خلالها يد الإنسان ممرات نحو الداخل». هذه التلال هي جبل النّهيلي والجبل الأحْمر اللذان يمتدان غربا حتى نهر مجَرْدة، وأعلى مكان بهما يرتفع إلى 328 مترا. وفي العهد الذي ندرسه، كان النهر يسايرهما أيضا من جهة الشمال حتى مصبه.

كانت قرطاجة إذن تقوم على هضبة صغيرة، تحميها الطبيعة من جميع الجهات. وشبه الجزيرة هذا، له شكل مثلث تقريبا، قاعدته تمتد من الشمال إلى الجنوب، أما قمته فتدخل من ناحية الشرق في البحر بنتوء يبلغ ارتفاعه 130 مترا. ذلك هو رأس قرطاجة أو رأس سيدي بوسعيد. من هذا المكان يتجه خط من الأجراف نحو الشمال الغربي، وبعدما تنحدر الأجراف في المكان الذي يوجد به الميناء الصغير المسمى

(١) بوليب، ك.1، 73، 4، 5.
(١) بوليب، ك.1، 4، 75.

بالمرسى، تعود وترتفع وتتسع فتكون جبل الخاوي وجبل الرمل (الذي يفصله رأس كمارْت) شرقي الجون القديم الذي أصبح هو السبْخَة الريّانة. وهناك مرتفعات أخرى تقوم على الساحل بالجنوب الغربي من سيدي بوزيد حتى البرْج الجديد، ولكنها تستمر نحو الغرب وداخل الهضبة على شكل قاعدة عريضة تنحدر قليلا لتنتهي على نحو نصف فرسخ من الساحل. وفي الشمال والشمال الغربي يمتد سهل في اتجاه المرسى، وجبل الخاوي، والسبْخَة، أما في الجنوب فيقوم تلاّن يفصل بينهما شعب ضيق، أحدهما يعرف باسم تلّ يونون Junon الذي يفوق خمسين مترا، والآخر هو تلّ سانْلوِي الذي يبلغ ارتفاعه نحوا من ستين مترا، بينما لا تلوح على الأرض بالجنوب الغربي والجنوب الشرقي لهذه التلال سوى تموجات ضعيفة في اتجاه كل من البحر الأبيض المتوسط، وبحيرة تونس والبرزخ.

وهناك خط [2] هو عبارة عن حاجز رملي يفصل البحيرة عن البحر، ويكون ذيلا للهضبة. ويظهر أن هذا الخط في أواسط القرن الثاني ق.م لم تكن سعته سوى نصف اسْطاد، أي 89 مترا، حسب أبْيان Appien، غير أن بقايا أثرية تشهد أن الخط في أصله كان يبلغ كما هو اليوم ستمائة متر.

وقريبا من هذا المكان، عند الشمال الشرقي يتجون الساحل قليلا، حيث الجون الصغير المسمى بالكْرَم Kram يكوّن ملجأً، وإن كان ضئيل القيمة. وفيما وراء ذلك، في اتجاه سيدي بوسعيد، فإن الساحل الذي ينخفض حتى البرج الجديد ثم يصير وعراً، هو معرض لرياح الشمال الشرقي التي تهيمن من أواسط الربيع إلى أواسط الخريف، أي أثناء مدة من السنة كان القدماء يفضلون الإبحار فيها.

هذا هو موقع قرطاجة في خطوطه العامة. أما طبُغْرافية المدينة البونيقية فإن معرفتنا بها سيئة، بحيث لا نجد سوى معلومات غامضة ومتناقضة أحيانا، وواضحة الخطأ أحيانا أخرى عند بعض الكتّاب الإغريق واللاتانيين، وبالخصوص عند أپْيان Appien الذي كان مصدره هو پوليبْ Polybe. وكلها معلومات تتعلق بالعهد الذي سبق سقوط قرطاجة. وكان پوليبْ Polybe شاهد عيان لحادثة هذا السقوط، غير أن القسم من تاريخه الذي يروي فيه الحادثة قد ضاع، أما أپْيان فيعطينا أكثر من حجة على إهماله، بحيث لا نستطيع أن نتخذه مرشدا موثوقا به. لقد محيت المدينة الفينيقية من الوجود سنة 146 ق.م، وأنقاضها أعيد استعمالها أو غطتها المدينة الرومانية التي هدمت من بعد وأقبرت ثم استعملت مقطعا للحجارة، واليوم تزحف على مكانها المباني الجديدة شيئا فشيئا. والمدافن المختفية في باطن التراب هي وحدها التي بقي منها قسم كبير. وإن علماء الآثار ليخطئون غالبا عندما يزيفون مفهوم النصوص فيجعلون من بعض النظريات حقائق مؤكدة، أو يضيفون للعهد البونيقي بقايا أثرية بعضها أحدث عهدا والبعض الآخر من عهد غير واضح.

2

وكما سبق أن أوضحنا، يمكن قبول كون قرطاجة تأسست في 814 - 813 ق.م، وليس هناك ما يؤكد أنها حلت محل مستوطنة فينيقية أخرى. وهل أطلق اسم "قَرْتْ حَدَشْتْ" Qart Hadasht منذ الأوائل على هذه المدينة ؟ ذلك أمر لا يمكن تأكيده. فقبل هيكاتي Hécatée الذي كتب في أواخر القرن السادس أو في أوائل القرن الخامس ق.م لا نعرف أي كاتب إغريقي ذكر كَرْخيدون التي هي الصيغة المحرفة لقَرْتْ حَدَشْتْ.

أما بِيرْسا Byrsa وهو اسم مكان، فيظهر بكثرة في النصوص القديمة المتعلقة بقرطاجة البونيقية. وهو لفظ يرى فيه البعض نقلا لكلمة سامية قد يكون معناها (المكان المحصن)، وهذه نظرية منقودة.

والمدينة، حسب سِرْفيوس Servius (٣) تكون قد حملت في الأول اسم بيرْسا Byrsa، ثم اسم تيروس Tyros وأخيرا كَرْثاگو Carthago اشتقاقا من كَرْثا Cartha المكان الواقع بين تيروس (صُور Tyr) وبين بيروتوس (بَيْروت) وبه وُلدت ديدون. وهذا تفسير اشتقاقي واهم لكلمة كَرْثاگو، الصيغة اللاتانية لاسم لا شك أن معناه هو (المدينة الحديثة). ومن ناحية أخرى لايحتمل أن تكون المستوطنة الإفريقية قد حملت نفس الاسم الذي حملته أمّها صُور Tyr. وهل الإشارة المتعلقة بِبيرْسا لها قيمة أكبر ؟ يحسن بنا أن نحتاط.

ومع ذلك فإن حكاية جلد الثور تشهد بأن الكاتب المجهول الذي أذاعاها وهو إغريقي أو قرطاجي «مُتَهَيْلن» كان يرى ناحية قرطاجة المسماة باسم بيرْسا وكأنها الموقع الذي اختاره مؤسسو المستعمرة، ففي هذا المكان نشرت أليسّا Elissa الجلد (Bursa) الذي غطى الأرض التي حلت بها هي ورفقاؤها(٤).

لكننا نعلم بشهادات قاطعة أن المدينة البونيقية في العهود الأخيرة كان اسم بيرْسا يطلق فيها على القلعة التي أقيمت فوق تلّ وعر، ورغما عن عدم وجود حجج قاطعة فالمتفق عليه هو أن هذه القلعة كانت تقع

٣) سرفيوس : في *In* Aeneid، 4-670.
٤) جستان ك 517، 9.

على تل سانْلوي Saint-Louis الذي يرتفع بمنحدرات وعرة، ويشرف على موقع قرطاجة، وهذا الرأي يتفق جيدا مع القصة التي خلفها لنا أَبْيان Appien عن استيلاء الرومانيين على المدينة.

على أن بعض النصوص قد تدفعنا للاعتقاد بأن هذا الإسم قد أطلق على ناحية أوسع. فحسب سِرْفيوس Servius فإن المساحة التي غطاها جلد الثور بلغ محيطها اثنين وعشرين اسْطاداً، أي نحوا من أربعة كيلومترات. وحسب بول أوروز Paul Orose فإن القلعة المسماة بيرْسا Byrsa كان لها محيط يفوق بقليل الميلَيْن، أي نحوا من ثلاثة كيلومترات. وكلا الرقمين يفوق جدا دائرة تلّ سانْلوي حتى في حضيض المنحدرات. وهناك نص ثالث نجده في مخطوطات التعاليق على سرْفيوس، وهو نص ليس مما كتبه هذا العالم، ويروي فقرة من كُرْنيلْيوس نيبوس Cornélius Népos، تقول «كان لقرطاجة فيما مضى مظهر مدينة مزدوجة، فالقسم الداخلي كان يسمى بيرْسا، أما القسم الخارجي المحيط بالآخر فكان يسمى ماگاليا Magalia» . كما وقع الظن بأنه قد عثر في نصوص أخرى على ما يؤكد استعمال لفظ بيرْسا للدلالة على (المدينة)، أي على مجموع المدينة نفسها حيث كان السكان يتجمعون. غير أن هذه الحجج المقدمة يتعلق البعض منها بالقلعة وبعضها الآخر غامض. والنص المعزو لنيبوس هو وحده الذي يسمح بهذا التأويل. ولكن، إلى أي مدى يمكن الوثوق به ؟ وعلى النقيض من ذلك فمن المؤكد أن بيرْسا Byrsa كان اسما لقسم من المدينة هو القلعة وحدها، أو هو الحي الذي كان يشمل حتى القلعة. أما أن يكون الاسم قد أُعطيَ أول الأمر لناحية أخرى من قرطاجة، ثم نُقل إلى القلعة فذلك ما لا برهان عليه.

ويحسن التصديق بأن الوقت الذي كانت تشيع أثناءه حكاية جلد الثور كان الناس فيه يرون حي القلعة على أنه المكان الذي حل المستوطنون الفينيقيون فيه أول الأمر. فأَبْيان Appien يصرح بذلك، ولاشك أنه إنما كان يردد رأيا قديما. وبهذا يمكن تفسير نص سِرْفيوس الذي يذكر أن بيرْسا كان الاسم الأول لقرطاجة. ومن ناحية أخرى يمكننا أن نفهم أنه إذا كان هذا الحي قد اعتبر نواة للمدينة، فإن اسمه قد أطلق تعسّفاً على المدينة كلها، مما دون الأراضي المخصصة للمدافن والأراضي التي كانت تقل بها المساكن.

والرأي الذي كان يجعل قرطاجة الأولى في بيرْسا، هل هو رأي ينبني على أساس ؟ يظهر أن هذا السؤال يصعب علينا الجواب عليه. فالمستوطنون الأولون قد لفت انتباههم تل سانْ لُوِي وما يتيحه من فوائد لحماية أنفسهم من الهجمات، كما استطاعوا إقامة قلعة على قمته ومساكن على المنحدرات التي تنزل نحو البحر من ناحية الشرق والجنوب الشرقي، بينما تركت للأموات منحدرات الجنوب الغربي لأنها أكثر وعورة. وبالطبع فإن الساحل فيما جاور الميناء لا بد أنه قد وقع الحلول به، فكان هناك - على ما يحتمل - حي خارجي. وفي هذا الحي البحري البعيد عن مركز الدفاع، لم تكن به السفن أو البضائع على ما يظهر في أمان، لكن في غير هذه الجهة، كما في مستعمرة أَكْريجَنْت Agrigente الإغريقية مثلا كان الميناء أكثر بعدا عن المدينة.

ويظن بعض العلماء المحدثين أن المستوطنة التي أنشأها البحارة الفينيقيون كانت على النقيض من ذلك تمتد مباشرة حول الميناء وخلفه. ويعتقد بعضهم أن هذا الميناء كان في جون الكْرَم. وأضاف بعضهم أن قلعة ربما كانت مقامة على الكُدْية الحَبْسِية، وهي ربوة علوها ستة عشر

مترا، وتقع على نحو ستمائة متر إلى الشمال الغربي للجون. وهذا الرأي يجب تنحيته لأن هذا التل الصغير يتكون من ردوم هي أحدث عهدا. ويرى علماء آخرون أن الميناء ربما كان يقع جنوبي تل البرج الجديد، وأن القلعة كانت على التل نفسه، وحيث أن الساحل اليوم في هذه الجهة غير متأكد منه، فالمفروض أحد شيئين : إما أن نتوء البرج الجديد في البحر قد تضاءل بفعل عملية التّحات، وأن هذا النتوء ربما كان فيما مضى يحمي جوناً من رياح الشمال الشرقي، وإما أن البحر كان يدخل متغلغلا إلى داخل الأراضي في اتجاه تلّ سانْلوي، ويكون بهذا حوضا كبيرا مصونا جدا، ربما أنه ردم في العهد الروماني. لكن ننبه إلى أن عملية التَّحات كانت ضعيفة في البرج الجديد : فهناك جدران بنيت في العهود العتيقة على طول الساحل، وهي اليوم لا تبعد عنه إلا ببضعة أمتار، ومن ناحية أخرى، فالافتراض الثاني لا يعتمد حسب رأينا سوى على حجج واهنة. وسنرى على كل حال أن قرطاجة البونيقية في عهودها الأخيرة، لم يكن بها على الإطلاق أي ميناء في المكان الذي قيل إنه كان به ما يسمى حوضا. فهناك مقابر قديمة جدا في الجنوب والجنوب الغربي للبرج الجديد، ومن المستغرب أن يكون الأحياء قد تخلوا للأموات عن الأراضي التي لها جوار مباشر بميناء ما، وهي لذلك ثمينة بالنسبة لهم. والخلاصة هي أن موقع المدينة الأولى يبقى مجهولا، ومع ذلك فلا نعتقد عدم قبول الرواية التي تجعل تل سانلوي ضمن المدينة.

وحوالي نهاية القرن السابع وأثناء القرن السادس ق.م، كانت المدافن تشغل الجانب الجنوبي الغربي من التل المذكور وقسما من تل يونون Junon، وتمتد مقبرة في ناحيتي دْويمَسْ، ودَرْماش، بين تلّيْ يونون والبرج الجديد، وعند الجنوب كانت المدينة تمتد. فإلى الشمال من هذه المقبرة، وفي أراض غير مبنية طبعا، جرى في العصور الموالية حفر

المقابر العديدة الموجودة في بسيط الأوديون l'Odéon وفي أرض الموارلي والبرج الجديد وكذلك المقابر التي بجهة شمال الشمال الشرقي من البرج الجديد. وفي عهد متأخر وقع الدفن أيضا بالجنوب الغربي لتل سانلوي وبتل يونون وعلى المنحدر الجنوبي للبرج الجديد. وحتى في المقبرة القديمة بدويمُس، ودَرْماش، لم يعد الدفن يقع، وجرى حسبما يظهر الامتناع حتى عن إقامة المساكن. ففي درماش كانت الآثار البونيقية الوحيدة التي كشفتها التنقيبات، في مستوى أعلى من مستوى المقابر، هي معامل الفخارين.

إذن فحتى سقوط قرطاجة كان يوجد بشمال المدينة القديمة (أي المدينة) منطقة واسعة، لا تكسوها منازل، هي منطقة الموتى. وهذا لا يؤكد مطلقا أن سوراً لم يقم فيما وراء هذه المنطقة. ويقال لنا إن قرطاجة كانت كلها – وباستثناء جهة البرزخ – محاطة بالماء، وأنها فيما وراء السور الذي يسد البرزخ كانت تشمل جميع الهضبة، وأن محيطها كان من اثنين وعشرين ميلا (أي اثنين وثلاثين كيلومترا ونصف)، أو أنه كان من ثلاثة وعشرين ميلا (أي أربعة وثلاثين كيلومترا)، وأن القلعة المسماة بيرْسا Byrsa كانت تقع وسط المدينة. ولا يظهر لنا إمكان رفض هذه الأقوال، كما لا يمكن تأكيد كون قرطاجة لم تتجاوز من جهة الشمال خطا يربط تل سانْلوي بتل البرج الجديد، ولا تأكيد كون محيطها لم يتجاوز أبدا سبعة كيلومترات.

لما تحدث ديودور الصقلي Diodore le Sicilien عن أحداث نهاية القرن الرابع ق.م ذكر جهة تدعى "المدينة الجديدة" نيابوليس Néapolis (تقع على مقربة بخارج قرطاجة القديمة)[٥]. وقد أقام به القائد بومِلْكار

٥) ديودور : ك 20، 44، 5-1.

Bomilcar استعراضا شاركت فيه قوات عديدة. لأنه بعد ما سرّح جميع من استغنى عنهم أبقى إلى جانبه 4500 جندي منهم. وقد قسمهم إلى خمسة جيوش أدخلها للمدينة القديمة، واتجه بها من طرق مختلفة إلى الساحة العامة. وسرعان ما أرغمت هذه الجيوش على التراجع إلى المدينة الجديدة حيث احتلوا موقعا عاليا. فالمدينة الجديدة كانت إذن تضم مساحة واسعة عارية ومنبسطة تقريبا، يستطيع جيش أن يتجمع فيها، كما كان بها مرتفع هو عبارة عن موقع دفاعي صالح. ولابد أن المساحة كان لها وجه عريض ينفتح على المدينة القديمة، لأن المهاجمين عند مهاجمتهم لهذه المدينة القديمة قسموا إلى خمسة جيوش. وكل هذه المعطيات تتناسب مع الناحية التي تمتد عند شمال المقبرة، ونلاحظ أن نيابوليس، وهو الاسم الذي أورده ديودور، ليس على وجه التأكيد الترجمة الصحيحة لتسمية بونيقية، ذلك أن اسم قَرْتْ حَدَشْتْ Qart Hadasht الذي له هذا المعنى، لا يمكن أن يدل في آن واحد على المدينة القديمة والمدينة الجديدة.

ويقول أپْيان Appien إنّ ميگارا Mégara كانت منطقة واسعة جدا، تقع في المدينة وتجاور السور. ولما دخلها الرومانيون ليلاً سنة 147ق.م، وصل ضجيج المعركة التي كانوا يخوضونها – حسب نفس الكاتب – إلى معسكر قرطاجي، واقع على البرزخ خارج المدينة، وبعيدا عنها بخمسة اسْطادات، أي 888 مترا. كانت ميگارا مليئة ببساتين الفاكهة والحدائق التي تفصل بينها فواصل من الحجر الجاف والسياجات الشائكة، كما تخترقها عدة من القنوات العميقة والمتعرجة. ويذكر أپْيان Appien ميگارا أيضا في غير هذا المكان، فيروي أن المنتدبين الذين بعثهم مجلس الشيوخ الروماني بعد تدمير قرطاجة، قد منعوا سكنى هذه الناحية. ونعثر على نفس الإسم – ولكن مع تغيير بسيط – في ملْهاة لِبْلوط Plaute باسم Poenulus – كانت قد مُثِّلت بخمسين سنة قبل سقوط قرطاجة : (a Magaribus).

أما زوناراس Zonaras الذي اختصر ديون كسيوس Dion Cassius، فإنه حين تحدث عن الحرب البونيقية الثالثة ذكر هجوما رومانيا على مكان يدعى ميگاليا Mégalia، يقع داخل الأسوار على صخرة عالية وعرة بناحية البحر وبعيدة جدا عن بقية المدينة. ونفس الحادثة رواها أبْيان Appien الذي لم يذكر اسم المكان، ولكنه قال إنه يشرف على البحر، وبه وعورة تامة، ويصعب اختراقه. وكان بالسور من هذه الجهة باب يمكن الدخول منه إلى المدينة. وكان الرومانيون تحت قيادة مَنْكينوس Mancinus ، فنزلوا من البحر وعددهم 3500، واحتلوا في ليلة واحدة موقعا قويا بالغرب من السور. وقد سبق أن ذكرنا فقرة من كُرْنيلْيوس نيبوس مدرجة في بعض مخطوطات سِرْفيوس، تقول : إن ميگاليا كان هو الإسم الذي يدعى به القسم الخارجي من قرطاجة حول بيرْسا.

فلا شك إذن أن كلاًّ من ميگارا Mégara وماگارا Magara وميگاليا Mégalia وماگاليا Magalia إنما هي صيغ مختلفة لنفس الاسم. ويذكر سِرْفيوس لفظا بونيقيا هو ماگار Magar الذي يظهر أن معناه هو الضيعة والمزرعة. فهل هذا اللفظ هُوَ الذي سميت به إحدى جهات قرطاجة ؟ إننا نجهل ذلك. وقد بحث العلماء عن تفسيرات أخرى، فتساءلوا ألايكون اللفظ الفينيقي مماثلا للفظة العبرانية التي تعني المكان العاري، أو مماثلة للفظ الذي يعني الكهف (المغارة) ؟ كما ظنوا أنهم عثروا عليه في كتابة تعرفنا بمعبد سيد - تانيتْ ميارَتْ Sid-Tanit Méarat، وقالوا إن اسم الربّة تتلوه إشارة طبوغرافية (٦) . ونقرأ في معجم حِزقْيوس Hesychius أن ميگارا معناه (المساكن تحت الأرض) فلاشك

٦) يسمي المغاربة حتى اليوم معبد اليهود باسم الميعارة. وإذا صح ما يقوله المؤلف يكون المعنى معيارة أي معبد سيد تانيت، وتكون الميعارة هي ميارت الواردة في النص والتي قال عنها إن معناها معبد.

إذن أن اللفظة مستعارة من اللغة الفينيقية، وأن الإغريق لما عثروا على نفس اللفظ بقرطاجة، أو على ما يكاد يشبهه، وتسمى به إحدى جهات المدينة، قد كتبوه بنفس الصفة.

أما كلمة ماگاليا Magalia فقد استخدمها اللاتانيون مع كلمة ماباليا Mapalia في الدلالة على الأكواخ الإفريقية. واللفظ كان من أصل فينيقي أو ليبي. ففي عهد الإمبراطورية الرومانية كانت توجد بمكان ما بقرطاجة طريق الأكواخ Via Mapaliensis ويظهر أن هذا المكان في العهد البونيقي كان قسما من ميگارا. ولربما أن الطريق سُمّيت باسم الأكواخ والأخصاص التي غالبا ما تكون مؤقتة، والتي يأوي إليها سكان فقراء، على غرار ما يغلب وجوده في أرباض المدن الكبرى. ولكن هذا لا يسمح بالاعتقاد بأن هذه الجهة من المدينة قد أخذت اسمها الذي معناه الأكواخ والذي حوفظ عليه خلال القرون، وذلك رغما عن التدمير الكلي لقرطاجة سنة 146 ق.م، وترك سكانها مدة مائة سنة، فلا شك أن هذه الأكواخ التي احتفظ اسم الطريق بذكراها لم تقم قبل العهد الروماني. وتطبيق لفظ ماگاليا على الإسم الذي كان من قبل يدل على إحدى جهات قرطاجة، تطبيق يظهر أن عالما صغيرا هو الذي قال به. فليس لهذا الرأي قيمة تاريخية. وأكثر من ذلك، يجب أن لا نذكر بهذه المناسبة اسم ملْگا Malga الذي يطلق حتى اليوم على مكان قريب من تل سانلوي، إذ الظاهر أن لفظ ملگا من أصل عربي.

والخلاصة هي أن ماگارا وميگارا هما على ما يظهر الصيغتان الأشد قربا من الاسم البونيقي. ولربما أن هذا اللفظ هو ميعارت كما يظهر من النقوش.

وأين كـانت تقع هذه الناحيـة المسماة باسم ميكارا، والمليئة بالبساتين ؟ تعرفنا النصوص بأن مساحتها كانت واسعة، وأنها كانت قسما من المدينة، وأن سور المدينة كان يحميها، وأنها كانت تحيط ببيرْسا، وأنها من جهة الغرب لم تكن بعيدة عن البرزخ، وأنها في المكان الواقع على بعد كبير من باقي المدينة، كانت تحد من جهة البحر بخط من الصخور الوعرة. إن هذه الإيضاحات المتنوعة والتي يمكن التوفيق بينها على الوجه الأكمل تساعد على القول بأن ميگارا تتطابق مع جميع القسم الشمالي للهضبة، الموجود داخل المدينة كما قلنا. بل إذا كان النص المعزو لكُرْنيليوس نيبوس Cornélius Népos صحيحا تمام الصحة فيجب الاعتقاد بأن ميگارا قد كانت تمتد أيضا إلى غرب المدينة. ذلك أن الأجراف الصخرية التي تسلقها الرومانيون في هجومهم، كانت تقع لا بد قريبا من رأس قرطاجة، إما من جهة الجنوب الغربي وإما من جهة الشمال الغربي. ونحن نرفض الرأي الحديث الذي يجعل ميگارا في البرج الجديد وفي درماش، ولا يجعل لها سوى سعة من عشرين هكتارا. ويستحيل علينا أن نجد في هذه الجهة الناحية الواسعة جدا، التي تجاور إحدى قاصياتها البرزخ، والتي لها ساحل بحري بعيد جدا عن بقية المدينة.

3

لابد أن الصُّوريين الذين أنشأوا قرطاجة لم يتركوها من غير جهاز للدفاع، فاسم بيرْسا يشهد بذلك إذا صح أن معناه هو المكان الحصين، وإذا صح أنه أطلق على مكان المدينة الأولى.

فحوالي منتصف القرن السادس لم يستطع الثائر ملّكوس Malchus أن يدخل المدينة إلا بعد حصارها. وكما رأينا كانت المدافن تمتد من تل جونون Junon إلى تل البرج الجديد، مرورا بدْويمَسْ، ودَرْماش، فأين كان يمر السور الذي كان يحيط بالأرض التي سكنها الأحياء جنوبي الأراضي التي استقر فيها الموتى ؟ فإذا كان القرطاجيون التزموا بالقاعدة التي لم يحد عنها الرومانيون، وسار عليها الإغريق على وجه العموم من عدم الدفن داخل الأسوار، فإن هذه الأسوار كانت تمتد على بعد قليل جنوب المرتفعات التي تخترق شبه الجزيرة. لكن لم يتأكد بأن الناس في المدينة الإفريقية لم يريدوا أن يسبغوا على المقابر نفس الحماية التي ضمنوها للأحياء، فبعد ذلك بزمن كانت المقابر داخل السور الذي شمل الهضبة كلها. ويظهر أن خطا دفاعيا قد أنشيء، وكان يذهب من تل سانْلوي، ويمر ببسيط الأودْيون، ويصل للبحر عند الشمال الشرقي للبرج الجديد، وذلك لمراقبة الأطراف، في ظروف أكثر صلاحية من سور تشرف عليه المرتفعات. وأياً ما كان الأمر فإن النصوص القديمة لا تخبرنا بشيء في هذا الموضوع، كما أننا لا نعرف خط السور الذي كان في القرن السادس يحمي المدينة من جهة الغرب بين تل سانلوي والبحيرة.

وهل حوفظ على الأسوار التي كانت تحيط بالمدينة حين امتدت قرطاجة فوق ناحية ميگارا ؟ يظهر أن كل ما يمكننا الاحتجاج به هنا هو إشارة غامضة لزوناراس Zonaras عن حادثة وقعت سنة 174 ق.م. فقد ذكر هذا الكاتب أن مَنْكينوس Mancinus لما دخل إلى ميگاليا (ميگارا)، حفر السكان المحاصرون الخنادق وصنعوا حباكا لحماية السور المتعرض الواقع أمام المساكن.

في العهود الأخيرة للمدينة البونيقية، كانت الأسوار تضم حظائر لإيواء الفِيَلة، وهي الحيوانات التي لم يستعملها القرطاجيون في الحرب إلا في القرن الثالث. ففي هذا العهد إذن وقع بناء هذا القسم من سور المدينة. لكننا نجهل ما إذا كان البناء قد أجري اتباعا لخط سور أكثر قدماً، وبه مرافق أخرى أم لا. ولربما أن الأخطار التي تعرضت لها قرطاجة أثناء حملة ريگُلوس Régulus في 256-255 وأثناء ثورة المرتزقة في 241-238 هي التي دفعت بها إلى تقوية تحصيناتها أو تجديدها. وبعد قيامها بهذه الأعمال الكبرى، لابد أنها قامت بإصلاحها في عدة مناسبات.

ويعطينا سْترابون Strabon رقما مبالغا فيه جدا عن طول السور(3)، بينما نستطيع حسب رأينا أن نعتبر رقم 22 أو 23 ميلا صحيحا إلى حد ما، وهو الرقم الذي ذكره تيتْ ليڤْ Tite-Live نقلا عن پوليبْ Polybe على ما يحتمل. وحسب أَپْيان Appien الذي نعلم أن مصدره هو پوليبْ Polybe، فإن سيْبيون Scipion بعدما استولى على البرزخ كله، قد حفر من البحر إلى البحر، أي من السبْخة الريّانة إلى بحيرة تونس خندقا طوله خمسة وعشرون اسْطاداً – 4400 مترا – وكان هذا الخندق على مدى رمية سهم الأعداء، أي تحصينات المدينة التي كان الأعداء يختفون بها. فلابد إذن أن قسم السور الذاهب من البحر إلى البحر، والذي كان يسد شبه الجزيرةَ من جهة اليابسة، قد كان له نفس الطول تقريبا. فالسور كان يسير في خط مستطيل في أرض مستوية، ويقسم البرزخ في أضيق مكان به على بعد نحو الفرسخ من تل سانلوي. ويظهر أن الأرض الواقعة بين السور وتل سانلوي كانت بها مساكن قريبا من التل (٧) ثم

(٧) يذكر سترابون في ك 17، 3، 14 أن الأكربول أي بورسا كانت تحيط بها المساكن.

البساتين كما في القسم الشمالي من الهضبة. ولعل اسم ميگارا قد امتد إطلاقه إلى هذه الناحية. وهكذا، وحسبما يؤكده كرنيليوس نيبوس، فإن القسم الخارجي من المدينة الذي يسميه الكاتب باسم ميگاليا - أي ميگارا - يكون قد شمل حقيقة القسم الآخر - (المدينة) - الذي أطلق عليه هذا الكاتب اسم بيرْسا. فالخط الذي نعطيه نحن للسور الغربي يمكّننا من أن نجد على الأرض 22 أو 23 ميلا التي ذكرها تيتْ ليڤْ، بينما هذا الرقم يعلو جدا فيما إذا كان السور يمر بعيدا إلى الشرق. وطبيعي أن نعتقد بأن القرطاجيين قد سدوا البرزخ من أضيق جهة به، فبتصغيرهم لجبهة مهددة جدا، يقللون حظوظ نجاح العدو، كما أن التحصينات المقامة بهذا الجانب يمكن أن تنشأ بمصاريف أقل، وتتطلب لا شك عددا قليلا من المحاربين. وهذا يكون معناه حقيقة تمديد الأسوار على ساحل البحر والبحيرة، لكن الهجمات من جهة الماء كانت تظهر أقل ما يخشى منه، إذ يسهل صدّها. ولذلك فلم يكن من اللازم أن تعطى لهذه الأسوار قوة كبرى.

ومع ذلك فجلّ علماء الآثار يسلمون بأن السور الذي كان يواجه اليابسة كان شديد القرب من تل سانلوي، بل بعضهم أكد أن السور كان يمر بهذا التل. وهناك جملتان قصيرتان وردتا عند أَپْيان Appien يمكن ذكرهما تدعيما لهذا الرأي. فقد كتب بأن ثلاثة أسوار كانت تحمي القسم المواجه للجنوب من ناحية القارة، على البرزخ، في المكان الذي كانت بيرْسا توجد به أيضا. إذن ألا يمكن أن نستنتج بأن معقل بيرْسا كان في الجوار المباشر للسور ؟ إن هذه الكلمات تحتوي خطأين، وهما أن اليابسة تمتد إلى الغرب وليس إلى الجنوب من قرطاجة، وثانيا أن بيرْسا لم تكن في البرزخ. كما أمكن لأَپْيان Appien أن يأتي بخطأ آخر: وذلك

حين قال أو ظهر أنه يقول إن بيرْسا كانت تقع حيث تمر الأسوار الثلاثة. والحقيقة هي أن هذه التحصينات كانت تمر أمام بيرْسا. وهذه إشارة عثر عليها أَبْيان Appien عند پوليبْ Polybe، ويظهر أنه قلبها. وفي مكان آخر يصف نفس الكاتب السور فيذكر الزاوية التي على طول خط الكثبان، وابتداء من السور الثلاثي تنعطف لتتجه نحو الميناء. فيظهر من هذه الكلمات أن القاصية الجنوبية للسور الثلاثي كانت بجوار خط الكثبان. لكن ربما إن أَبْيان Appien لم يفهم جيدا أو على الأقل إنه لم يؤد بدقة ما قاله پوليبْ Polybe. ويكفي إدخال تعديل طفيف على الجملة لإبطال النتيجة التي قد تؤدي إليها. فپوليبْ Polybe يظهر أنه تحدث عن القسم من السور الذي، عند اتجاهه من السور الثلاثي نحو الميناء، يكون قد سار مع خط الكثبان بطوله.

وسبق أن قلنا إن مقابرَ بونيقية من عهد متأخر وجدت بالمقبرة القديمة الواقعة على المنحدر الجنوبي الغربي لتل سانْلوِي. ومع ذلك فنعتقد أن لا حجة في كون هذا المكان قد بقي حتى تدمير قرطاجة خارج السور. فمن الممكن أنه كانت هنا كما في شمال المدينة أرض تركت للموتى بعد توسيع المدينة.

ويدّعي پولْ أوروزْ Paul Orose أن قسما من السور كان مشتركا بين المدينة وبيرْسا. وقد قيل إِن هذا الزعم يصح إذا كان السور يماشي حاشية تل سانلوي (بيرْسا)، عند الجنوب والغرب. لكن أوروز يضيف بأن هذا السور المشترك كان يشرف على بحيرة تونس، وقال أيضا في بضعة أسطر متقدمة بأن البرزخ كان عليه سور يبلغ ثلاثة أميال. وهذا يتناسب مع التأويل المقترح. فيظهر إذن أن هذه الفقرات عن

أَپْيان Appien وأوروز لا تزعزع النتائج التي نستخلصها من نصوص أخرى ومن تضاريس الأرض، وهي أن السور كان يقسم البرزخ.

وفي غير هذا المكان كان السور يساير الساحل. لأن أَپْيان Appien يذكر أن السفن الرومانية لم تكن تستطيع الرسو بأي مكان على طول المدينة، وذلك بسبب وجود القرطاجيين على السور. ومع ذلك فإن هذا السور لم يكن دائما على الساحل المباشر للبحر. ففي المكان الذي نزل به مَنْكينوس Mancinus، أي في رأس قرطاجة على ما يحتمل، كان السور يمر فوق مرتفعات صخرية وعرة. وفي المكان الذي اقتحمه سِيبْيون في ميگارا كان يوجد أمام السور أرض يملكها بعض الناس ويقوم فيها حصن. وبالرغم عن النصوص التي تؤكد أن قرطاجة قد كانت، وباستثناء البرزخ، تحاط كلية بالماء فقد ألقي سؤال عن شبه جزيرة رأس كَمارْت Kamart في الشمال حيث تقوم أعالي جبل الخاوي وجبل الرمل، فهل لم يقع استثناؤها من السور ؟ إذ يظهر أن السور كان يمتد في خط مستقيم من الغرب للشرق، ابتداء من الزاوية الجنوبية الشرقية للسبْخَة الريّانة إلى نقطة على الساحل تقع بالشمال الغربي للمرسى. لكن إذا كانت ناحية كَمارْت لا تستحق لذاتها متاعب حمايتها، فلم يكن من الحكمة أن يترك خارج الأسوار أرض واسعة قد يثبت فيها الأعداءُ أقدامهم بالهضبة. ونضيف أن هذا الخط من شأنه أن يقلل من طول السور بنحو خمسة أميال، الأمر الذي لن يساعد على الأخذ بالرقم الكلي الذي هو 22 أو 23 ميلا والذي ذكره تيتْ ليفْ.

وفي الجنوب كان السور يربط الموانئَ - أي جون الكْرَم حيث كان مدخل الموانئ - بالقاصية الجنوبية لتحصينات البرزخ. فهو إذن قد كان

يمر على طول خط الكثبان كما قال أَپْيان Appien. ويمكن أن نفترض أحد شيئين : إما أن السور ابتداء من مدخل الموانئ كان يتجه إلى الغرب، مع بقائه على بعد قليل شمالي المحل الذي يتولد فيه خط الكثبان، وإما أنه كان يكون خطا منكسرا، أو ما يمكن أن نسميه برأس مرتخ، فكان يسير أولاً إلى الجنوب الغربي على طول الجون، ثم يتجه إلى الغرب أمام خط الكثبان، وبعد ذلك يأخذ في اتجاه الشمال الغربي. ولربما أن هذا الافتراض يفسر لنا تعبير «الزاوية التي تنعطف» كما قال أَپْيان Appien، وإن كان من الممكن تأويله تأويلا آخر. وعلى كل حال ففي الجنوب الغربي لخط الكثبان لم يكن السور مباشرة على ساحل بحيرة تونس، لأن القنصل كُنْصورينوس Censorinus استطاع أن يقيم معسكره في آن واحد على البحيرة وتحت السور، وكذلك بالغرب المباشر لخط الكثبان كما يتضح من السياق. غير أن المسافة الفاصلة كانت قليلة: ذلك أن كُنْصورينوس أراد أن تكون له مساحة واسعة فَرَدم جانباً من البحيرة نفسها على طول خط الكثبان ليصنع في المكان آلَتَيْن عظيمتين لنقب السور، وقد دفعها آلاف الرجال نحو السور. وبعيدا إلى الغرب لابد أن السور وصل لشاطئ البحيرة، وأنهساير الشاطئ حتى التقى بتحصينات البرزخ التي كانت تنتهي عند البحيرة نفسها.

يذكر أَپْيان Appien أن قرطاجة يحيط بها سور معتاد وسور ثلاثي. وأن الأخير كان يصون المدينة من جهة القارة. «كل واحد من الأسوار الثلاثة كان يبلغ ارتفاعه ثلاثين ذراعا – 13 مترا و32 سم – عدا الشرفات والأبراج، ... كما يبلغ عرضه ثلاثين قدما أي 8 أمتار و88 سم، وكان بداخل كل سور منها فراغ يكوّن طابقين، بالسفلي منهما كان يأوي ثلاثمائة فِيل مع الزاد اللازم لطعامها، وبالفوقي كانت الحظائر لأربعة

آلاف فرس، ومخازن العلف والشعير، ومعسكرات لعشرين ألفا من المشاة وأربعة آلاف فارس» (٨).

لاشك أن أَپْيان Appien أخطأ حين تحدث عن ثلاثة أسوار علوّها واحد وعرضها واحد، وبها مرافق متشابهة. فمثل هذه المنشآت تتطلب نفقات باهضة، كما أن مساوئها أكثر من منافعها، وقد تجمد حماة الخطين الثاني والثالث في مواقفهم، وربما أنهم لا يستطيعون حتى رؤية ما يجري أمامهم. والمهاجمون حين يستولون على السور الأول، ثم الثاني يجعلون الموقف لا يطاق على السورين الثاني والثالث. لهذا فلابد من القول بأن المقاييس التي ذكرها أَپْيان Appien لا تنطبق إلا على سور واحد، لكنه كان مسبوقا بسورين آخرين حصينين وأقل ارتفاعا، حتى يبقى مجال النظر واضحا، كما تكون الأسوار الثلاثة متقاربة ليتسنى لحُماتها أن ينجد بعضهم بعضاً. والقدماء من عهد البابليّين حتى البيزنطيّين قد استخدموا هذه الطريقة الثلاثية في الاستحكامات. وقد وجدت في إفريقيا مثلا، في زاما Zama عاصمة الملك يوبا الأول (4). ويصعب علينا أن نقول بدقة كيف كان الخطّان الأوّلان يتكونان في قرطاجة. لكن پوليبْ Polybe يذكر خندقا وسياجا (5). فلا شك أن هذا كان هو الخط الخارجي. ولابد أن التراب المستخرج من الخندق قد رمي به إلى الخلف بحيث تكوّن منه ملجأ حصين، ومن ورائه السياج الذي يمكن أن يقف عنده الجنود الحاملون للرماح. وقد أوضح أَپْيان Appien أن جيشا كان يعمل بناحية البرزخ أثناء محاولة أولى للهجوم الروماني سنة 146ق.م، فصدر له الأمر بردم الخندق واقتحام السور الصغير الذي كان موجودا هناك، وأخيرا بمهاجمة الأسوار العالية. فالمقصود

٨) أنظر أبيان، 88.

بالأسوار العالية السور القوي، وبه توجد المرافق كحظائر الفيلة وغير ذلك مما وصفه أپْيان Appien في النص الذي أوردناه آنفا. أما السور الصغير، وكان أقل ارتفاعا، فيظهر أنه كان هو الخط الثاني. ولعل أپْيان Appien سَها عن ذكر السياج لأنه منشأة قليلة الأهمية، كما أنه بالتقريب لم يكن سوى تتويج للخندق. وعلى ما يظهر فإن الخندق الذي يتحدث عنه، هو نفسه الذي عند پوليبْ Polybe. وبهذا فلا لزوم للقول بوجود خندق آخر أمام الخطين الثاني والثالث.

وهكذا فإن السور نفسه كان بمنجاة من المفاجآت ومحاولات النقب. وقد بني بالحجارة المنجورة الكبيرة. أما الارتفاع الذي ذكره أپْيان Appien وهو ثلاثون ذراعا فكان ارتفاع مدار العسس، بينما الأربعون ذراعا – 17 مترا و76 سم – التي نجدها عند ديودور الصقلي وعند أوروز فتمثل الارتفاع الكلي الشامل للشرفات أيضا. وحسب ديودور فإن السمك كان من 22 ذراعا – 9 أمتار و76 سم – وهو رقم أعلى بقليل مما ذكره أپْيان Appien. وعند كل (6) بْليثْرَيْن اثْنين (2 Plèthres = 59m, 20) تقوم الأبراج التي لاشك أنها كانت تبرز إلى الخارج. وهذه الأبراج كانت مقسمة إلى أربعة طوابق، وتشرف – لابد – على أوج السور، وكان المدى بين الأبراج يمكّن الجنود المنصبين بها من أن يبلغوا برماحهم وبسهولة إلى الأعداء الذين قد يتقدمون بين البرجين.

ولا شك أن التحصينات الثلاثية كانت تشمل كل عرض البرزخ، إذ لم يكن هناك من داع يدعو لتغيير الاستحكامات طيلة خط مستقيم يمر بأرض متشابهة الشكل ويمكن أن تحدث بها هجمات من كل جهة. وهذا هو ما تشير إليه النصوص بوضوح كامل (7). فقرطاجة إذن كانت من جهة اليابسة محصنة تحصينا قويا. وقد برهنت على ذلك أحسن برهان

أثناء الحرب البونيقية الثالثة حيث الرومانيون فقدوا كل أمل في الدخول للمدينة بعد محاولاتهم المتعددة ضد تحصينات البرزخ كما يشير لذلك أَپْيان Appien.

ومما يؤسف له أن فقرة أَپْيان Appien المتعلقة بالسور الاعتيادي (البسيط) فقرة مشوّهة. وما بقي منها يذكر أن هذا السور كان يمر فوق بعض المرتفعات الوعرة، فالأمر إذن يتعلق بسواحل الهضبة. غير أن أَپْيان Appien يكون قد أخطأ إذا قال – كما قد يعتقد – بأن السواحل على عمومها مرتفعة وعرة. ولا يصح قوله إلا بالنسبة للسواحل الشمالية وللقسم الساحلي الشرقي الموجود بين رأس قرطاجة والبرزخ الجديد. أما جنوبي البرج الجديد فالساحل منبسط كسواحل بحيرة تونس.

وأياً ما كانت طبيعة السواحل فإن سورا بسيطا، وأقل قوة لا شك من سور البرزخ، قد ظهر أنه يكفي في كل مكان ضد المفاجآت ولصد الهجمات. بمعنى أن هجوما من السفن بجهات، غالبا ما يكون البحر فيها مضطربا، ليس بالعملية السهلة، إذ زيادة على مخاطر النزول للبر فإن على المهاجمين أن يخشوا هجوما خلفيا يقع عليهم من أسطول يخرج لهم من الموانئ الداخلية.

وكان استيلاء الرومانيين عنوة على سور المدينة بتخطّيهم لسور وحيد في ثلاث مناسبات أثناء سنتي 149 و147، لأن قرطاجة لم تكن لها آنذاك بَحْرية حربية توقفهم بعيدا. كما لم توجد استحكامات متقدمة بالشمال الشرقي للبحيرة، في المكان الذي فتحت به الثغرة آلات كُنْصورينوس Censorinus. ويذكر أَپْيان Appien القسم من السور الموجود بين السور الثلاثي الذي على البرزخ وبين الموانئ، بأنه قد كان ضعيفا وغير عال، وأن القرطاجيين قد أهملوه. فحين بنائه لا شك أنهم

اعتقدوا أن الأعداء الآتين من عرض البحر لمهاجمته لن يغامروا بالنزول على حاشية ضيقة، ولا أن يدخلوا البحيرة حيث يمكن حصرهم والقضاء عليهم بواسطة السفن الحربية البونيقية. وكذلك فإن السور كان بسيطا بجهة ميگارا Mégara، فوق الصخور التي تسلقها رجال مَنْكينوس Mancinus الذين نصبوا سلالمهم، ثم لما فتح القرطاجيون أحد الأبواب لصدهم، فإنهم اقتحموه بأنفسهم، وهكذا وجدوا أنفسهم بداخل المدينة. ولما قرر سيبْيون الهجوم على ميگارا بالليل، فإنه كاد يصل لأسفل السور دون أن ينتبه له المحاصرون. وعندما بدأت المعركة صعد بعض جنوده حصنا على ملك بعض الخواص، وصنعوا جسرا وضعوه بين هذا الحصن والسور ومرّوا عليه، ثم أدخلوا قائدهم من باب صغير خفي بالحصن. وفي نفس الوقت كان جيش ثان يتقدم من جهة أخرى إلى السور. ولا يمكننا تحديد النقطتين اللتين وجه سِيبْيون إليهما جنوده، وذلك لأن أَپْيان Appien لا يعطينا التفصيلات اللازمة. لكن إذا كانت البيانات التي أوردناها صحيحة، فإن السور الذي كان يحمي ميگارا لم يكن يسبقه في هذين المكانين أي خط تحصيني آخر.

كان معقل بيرْسا بداخل المدينة يحتل تل سانْلوي. ويؤكد أوروز أن محيط هذا المعقل كان يفوق بقليل 2000 خطوة، وعلى هذا فالسور يكون قد مر بعيدا جدا عن قاعدة المنحدرات. وإذا فرضنا أن هذا صحيح فالقمة تكون محاطة بسور آخر، وتكون هي القلعة نفسها. فأَپْيان Appien يقول إن بيرْسا كانت المكان الأكثر حصانة في قرطاجة.

هذه هي المعلومات التي زودتنا بها النصوص عن تحصينات المدينة. ومن المؤكد أن الرومانيين اهتموا سنة 146 بتهديم جميع هذه الأسوار. وقد وجدت قرطاجة الجديدة من بعد في محل هذه الأسوار

مواد جيدة للبناء، خصوصا إذا كان السور بطوله من الحجر المنجور مثلما في أعلى سور البرزخ.

لقد ظن بعضهم أن بقايا من الأسوار البونيقية قد استمر وجودها حتى اليوم. من ذلك أن تيسّو Tissot صدّق مهاترات المهندس ضُكْس Daux الذي ادّعى أنه عثر بالمكان على خط السور الثلاثي مع أحيادة وأداخله وأبراجه وأبوابه، وقال إن هذا الخط ذهب من خط الكثبان، ومر على نحو 700 متر غرب تل سانلوي، وانتهى بالقاصية الجنوبية الغربية للسبْخَة الريّانة. كما أن بعض علماء الآثار المحترمين قد أضافوا للعهد البونيقي خربة كأنها حصن، تقع على نحو 900 متر إلى الجنوب الغربي من تل سانلوي، وكذلك مجموعة من القاعات المقببة التي تمتد خلف الجدار بالقرب من المسرح المدرج الروماني بنحو 700 متر غرب الشمال الغربي لنفس التل. غير أن هذا كله مجرد افتراضات لا دليل عليها، وكذلك لم يعثر على بقايا متأكدة من السور الذي كان يحمي المدينة من جهة الشمال والشمال الشرقي.

وابتداء من نقطة تقع بالشمال الشرقي للبرج الجديد حتى جون الكْرَم، يوجد على طول الساحل آثار مهمة من أحجار كبيرة منجورة يغطيها ماء البحر أو تبرز منه قليلا. فقد كانت هنا بناءات مختلفة : من أرصفة تحمي مآوي صغيرة، ومن رباعيات تكوّن أمكنة مغلقة، ومن أسوار تكاد تكون موازية للساحل الحالي وكانت واجهة خارجية لكتل من حجر البناء ولِملاط متجمع. ومن بين هذه المنشآت واحدة لا يظهر أن أصلها البونيقي مشكوك فيه، ولربما كانت رصيفا للبضائع، وهي الرباعي المتسع الذي يمتد أمام الساحل بين اللّزَريت Le Lazaret والطرف الشمالي الشرقي لجون الكرم، وسنعيد الكلام عنه، وربما يكون

قد أعيد إصلاحه، وأن أقسامه العليا ترجع للعهد الروماني. وكذلك المنشآت الأخرى، فلا شك أن بعضا منها يرجع للعهد البونيقي.

ولابد أن سور المدينة، بالجنوب الغربي لرأس قرطاجة حتى قرب البرج الجديد، كان يمر خلف الساحل وفوق المرتفعات الوعرة التي تطل على الماء. بينما، بعيدا إلى الجنوب حيث سواحل الهضبة منخفضة ومنبسطة، كان من المستحسن إقامة السور بمحاذاة البحر نفسه. ولهذا فالجدران الطويلة الموازية للساحل، ليست بقايا من أرصفة، كان يستحيل الرسو عندها حين تهب رياح الشمال الشرقي، التي يشتد هبوبها في فصل الرحلات البحرية. وقد افترض البعض أنها حواجز تكسر الأمواج وتمنع الشاطئ من التفتت والانهيار، غير أن الارتفاع الذي يظهر أنها بلغته، يساعد على الظن بأن القصد منها كان غير هذا، بحيث كانت عبارة عن سور يشرف على البحر مباشرة. أما قرطاجة الرومانية فلم تقم تحصيناتها قبل القرن الخامس، لذلك يصعب التأكيد بأن هذه الأسوار المبنية بإحكام بالغ، بقطع صخرية منتظمة، يتراوح مقياس جوانبها بين متر واحد ومتر ونصف، وفي بعض الأحيان ما بين مترين ونصف إلى ثلاثة أمتار، يصعب إذن إرجاعها لهذا العهد المتأخر، وأن تكون قد بنيت على عجل، وبجميع المواد التي تقع عليها اليد. فنحن إذن أقرب إلى أن نراها بقايا من العهد البونيقي. وبالطبع فإن الأسوار التي نتحدث عنها قد وقع تهديمها عند تخريب المدينة. غير أن أسسها قد احتُفظ بها على ما يحتمل في العهد الروماني لحماية الشاطئ من صدمات الأمواج.

وفي أسفل تل البرج الجديد، من جهة الجنوب، وقع التعرف على بقايا لمنشأة ذات شكل رباعي، قياسات جوانبها 50 ، ثم 35، ثم 65، ثم

35 مترا. وهي مبنية بقطع ضخمة من الحجر المنجور يصل طولها إلى 4 أمتار. فإذا قبلنا أن الأسوار الطويلة هي ذات أصل بونيقي، لزم على ما يحتمل أن نقول بمثل ذلك عن هذه المنشأة الرباعية. ولربما أنها كانت حصنا. ومع ذلك فلا يجب التأكيد بكامل الوثوق.

ويشير كَرْتون (8) Carton أنه توجد على نحو 4 كيلومترات غربي جون الكرم خرائب تمتد نحو مائة متر بشاطئ بحيرة تونس، بحيث يوجد من جهة الماء سور بسمك 3 إلى 4 أمتار، أما صخوره التي لها طول متر واحد إلى مترين اثنين فتصل بينها أحجار رابطة، ويشد الجميع من الخلف رصف حجري سُمكه 3 أمتار على الأقل. فيحتمل جدا أنه سور المدينة، لأن طريقة البناء تشبه ما استعمل في الأسوار المسايرة للساحل البحري. وقرطاجة التي جرى تحصينها في القرن الميلادي الخامس لم تكن تمتد إلى هنا، وفوق ذلك فإن أسوار عهد الإمبراطورية السفلى لم تكن تبنى بهذه الطريقة، فأفضل الاعتقاد بأن كَرْتون كان على صواب حين جعل هذه الخرائب من السور البونيقي الذي كان يمتد طوال البحيرة.

بينما بقايا الأسوار التي عثر عليها فوق المرتفعات بين الملْقَى Malga و"البرج الجديد" هي من سور عهد الإمبراطورية السفلى. لكن، وكما ذكرنا، فإن سورا بونيقيا ربما كان يمر شمالي المدافن القديمة. ونعثر على الشاطئ بالشمال الشرقي للبرج الجديد على كتلة ضخمة من الرصف الحجري المستند إلى صخرة عالية، ويبلغ علو هذا الرصف نحوا من 15 مترا، كما أن عرضه يبلغ نحوا من 40 مترا. ويظهر أن هذا الرصف من جهة البحر، كانت تحده أسوار بنيت بأحجار ضخمة طولها

متران وعرضها متر ونصف. وقد قيل إن الأسوار الآتية من الغرب كانت تنتهي هنا. ولكن حجة هذا القول مفقودة.

وقد جرت تنقيبات على المنحدر الجنوبي لتلّ سانْلوي، كشفت عن بقايا لبعض الأسوار التي يمكن التأريخ لها بعهد الإمبراطورية السفلى أو بالعهد البيزنطي. فالسلسلة الطويلة من البيوت المتوازية والمدورة القعر يجب التخلي عن اعتبارها تحصينات بونيقية. لأنها في الحقيقة تدعيمات من العهد الروماني.

واعتمادا على قول ضُكْس Daux يذكر تيسّو Tissot سورَيْن بونيقيين، نزلا من تل سانلوي، واتجه أحدهما للشمال الشرقي لينتهي عند جون الكرم، فهما كما قال يكوّنان تحصينا داخليا. ولا شك أن هذا من نسيج الخيال. وعلى فرض أننا نقبل أن ضُكْسْ قد شاهد حقيقة بعض البقايا من هذين السورين، فلن يكون لنا أي مبرر للاعتقاد بأنهما سابقان عن تخريب قرطاجة الأولى.

4

توجد عدة نصوص تعطينا إيضاحات عما كانت عليه الموانئ في عهد الحرب البونيقية الثالثة (9) وقد بُذلت جهود لإيضاحها ولتكميلها بالبحوث الطبغرافية. لذلك فالمشاكل التي تطرح بشأنها قد نالت حلولا متنوعة.

ولنتأمل النصوص أولاً. إن أهمها يوجد عند أَپْيان Appien، ولابد أنه نقل تقريبا بدقة عن پوليبْ Polybe. يقول أَپْيان Appien :

«إن موانئ قرطاجة قد بنيت بطريقة تجعل السفن تمر من إحداها إلى الأخرى، ومن البحر يدخل إليها من مدخل سعته 70 قدما – (20 مترا

و 72 سم) ويغلق بسلاسل من الحديد. فالميناء الأول، وهو المخصص للتجار، كان مزودا بحبال كثيرة ومتنوعة لربط السفن، وكانت جزيرة توجد بوسط الميناء الداخلي، كما كانت الأرصفة تحيط بكل من الميناء والجزيرة، وعلى طول هذه الأرصفة كانت الحجرات التي أعدت لتستوعب 220 سفينة، وفوق هذه الحجرات كانت مخازن أدوات السفن، وأمام كل حجرة يقف عمودان إيونيان Ioniques، فيعطيان لدائرة الميناء والجزيرة مظهر رواق ذي أعمدة. وفوق الجزيرة بُني لأمير البحر جناح تنبعث عنه إشارات نافخي الأبواق، وينطلق منه الحاملون للاستدعاءات، ومنه يقوم أمير البحر بمراقبته. وكانت الجزيرة تقع أمام المدخل، وترتفع كثيرا، بحيث إن أمير البحر كان يرى ما يجري في البحر، بينما الآتون لم يكونوا يستطيعون أن يروا بوضوح ما بداخل الميناء. وحتى بالنسبة للتجار الواردين بسفنهم، فإن المصانع البحرية كانت مخفية عنهم، لأنها في الواقع كانت محاطة بسور مزدوج وبأبواب تساعد التجار على المرور من الميناء الأول إلى المدينة دون أن يخترقوا المصانع».

وقد ذكر الجزيرة أيضا كل من سْترابون Strabon وديودور الصقلّي. فأما سْترابون Strabon فيقول إنها كانت مستديرة وتحيط بها قناة أُقيمت عليها من كل جانب حجرات بنيت مرتبة على شكل دائري توقف بها السفن. والتعابير التي استخدمها أَپْيان Appien تشهد هي أيضا بالشكل المستدير للجزيرة وللميناء العسكري. والميناءان يكوّنان مجموعة سماها هذا الكاتب في بعض الأحيان باسم (الميناء).

وكان الميناءان متغلغلين في اليابسة، لأن المحاصَرين حفروا من جهة أخرى مخرجا جديدا إلى البحر بعدما سدّ الرومانيون المدخل بحاجز. والمحاصَرون كانوا وراء سور المدينة من الداخل، لأن حفر

المخرج وبناء أسطول كبير (في الميناء)، قد وقع تنفيذهما من غير أن يشعر الرومانيون بالأمر. على أن أپّيان Appien يقول بأن «مدخل الميناء، المنفتح على الغرب، كان إلى الأمام، وعلى بعد قليل من اليابسة».

وفي مكان آخر يذكر «من بين الموانئ ما يطلق عليه اسم كوثون Cothon» ويضيف قائلا : «الكوثون Cothon كان به قسم رباعي الشكل [٩]، وقسم مستدير. وكان يحيط به سور». وبالتأكيد فإن لفظ كوثون Cothon كان يطلق على الميناء الحربي، ذلك هو ما يفهم من فقرة وردت عند سْترابون Strabon الذي يسمي هكذا الجزيرة الواقعة وسط الميناء، والتي كانت توجد بها حجرات السفن. وفوق هذا، فقد أخطأ الجغرافيون الإغريق بإطلاقهم على إحدى الجزر اسما كان في الحقيقة يعرف به أحد الموانئ، كما يشهد بذلك ليس أَپْيان Appien فحسب، بل حتى ديودور Diodore وسْترابون Strabon نفسه. فأحدهما يتحدث عن ميناء قرطاجة الذي يسمى كوثون Cothon، والآخر يتحدث بعد الفقرة المذكورة بقليل عن "فم الكوثون "Cothon. وكذلك فإن لفظ كوثون Cothon كان يطلق على الميناء الأول الذي هو الميناء التجاري ؛ بحيث يقول سْترابون Strabon إن فم الكوثون Cothon الذي كان الرومانيون يراقبونه، كان لا شك هو المدخل الذي يقع به المرور من البحر إلى الميناء التجاري، المتقدم على الميناء الحربي. إذ نعلم أن سِيبْيون كان قد سد هذا المدخل بحاجز. وحيث إن الميناء الحربي كان دائري الشكل فيحسن الاعتقاد بأن القسم الرباعي من الكوثون Cothon كان هو الميناء التجاري.

٩) يبين السياق أن هذا القسم الرباعي كان أشد تعرضا لتهديد القائمين بالحصار.

ولفظ كوثون Cothon، يظهر أنه يرتبط بجذر سامي معناه "قطع" و"بَضَعَ"، وبهذا فهو لا يدل على ميناء طبيعي، وإنما يدل على حوض من صنع الإنسان. فالحوض المزدوج المسمى بهذا الاسم، والذي كان يمتد خلف سور قرطاجة، كان إذن قد حفر في أرض الهضبة (١٠).

وفيما يتعلق بموقع هذا الميناء المزدوج، فإن النصوص تؤكد أنه كان يشرف عليه الأكْرُبول أي تل سانْلوي، الأمر الذي لا يعرفنا بشيء مهم، وأنه كان يوجد بجوار خط الكثبان الذي يفصل البحر عن بحيرة تونس. والحاجز الروماني الذي سد المدخل كان يذهب من خط الكثبان، فكان إذن يتقدم خلال جون الكرم. وعلى النقيض من ذلك فإن المخرج الجديد الذي فتحه القرطاجيون كان يفضي إلى نقطة لم يكن عمق البحر بها، ولا عنف الرياح لِيَسْمحا ببناء حاجز مماثل. وبهذه الإشارة نفهم أن المقصود هو نواحي الساحل الشرقي. ويمكن أن نستخلص من هذا أن مدخل الكوثون Cothon كان يوجد في نقطة أخرى على الساحل، محمية حماية جيدة : أي إنه كان بداخل الجون. وإذا كانت هذه النقطة كما يقول أَبْيان Appien – حقيقة على بعد قليل من الساحل، فيجب أن نفترض أن بعض المنشآت الخارجية كانت تتقدم الأحواض الواقعة بداخل اليابسة. وزيادة على ذلك، فإن السفن لم تكن تستطيع الدخول في الكوثون Cothon، بحيث إن سِيبْيون الذي كان يريد أن يمنع عن القرطاجيين كل وسيلة للتزود بالمؤن، ما كان ليتعب نفسه في إقامة

١٠) في العربية نجد الثلاثي قطن ومنه القَطَنُ بمعنى موضع الإقامة، والكوثون هو الميناء الذي تقف – (تقطن) – به السفن، كما نجد في العربية مادتي كَتَنَ وأكتنَ بمعنى ألصق الشيء بالشيء. والكوثون كانت به حبال متعددة ومتنوعة لربط السفن حتى لا تذهب بعيدا، وربطها كأنما هو إلصاقها بمكانها. وعلى هذا فالأغلب على الظن أن كوثون معناها في البونيقية موضع إيقاف السفن وربطها حسبما تشير إليه الألفاظ العربية، وهي شقيقة البونقية. وهذا أحسن مما ذكره المؤلف.

حاجز يسد به المدخل الذي ذكره كل من أپيان Appien وسترابون Strabon. ولو كان هناك منفذ آخر، فما كان المحصورون لينشئوا قناة تفضي لعرض البحر. وفوق ذلك، فلو أن ممرا كان قد وُجد من قبل بهذه الجهة فإن الظروف لم تكن به لتساعد على إنشاء مدخل للميناء.

أمام سور المدينة كانت تمتد منشأة عريضة، سماها أَپْيان Appien باسم خوما Xwma وهي مما قبل الحرب البونيقية الثالثة بكثير، وكانت تستعمل لاستيداع البضائع، كما أنها كانت ترابا مركوما مسطحا. لأن سِيبْيون حفر بها خندقا. وكان القائد الروماني أراد الاستيلاء عليها، لأنها تساعد في الهجوم على الميناء الذي كان يجاوره نظرا لذلك، بحيث تسمح لنا فقرة واردة عند أَپْيان Appien بالاعتقاد بأنه كان يجاور القسم الرباعي من الكوثون Cothon، أي الميناء التجاري. ولا شك أنه أنشئ تلافيا أو استدراكا للتراكم بأرصفة هذا الميناء، فكان كالملحق به، بحيث إن السفن - إذا ساعدتها الأحوال البحرية - كان بمستطاعها أن تحمل أو تضع به حمولتها دون احتياج للدخول إلى الحوض.

ولكي يمنع القرطاجيون العدو من الاستيلاء على هذا المكان، فإنهم أنشأوا أثناء الحصار سورا خلال الخوما، كان موازيا لسور المدينة. وكان للسور الثاني علوّ قليل، ولكنه كان طويلا جدا ومزودا بعدة أبراج أقيمت على مسافات متوالية. وكان عرض المسطح يشمل : 1) المسافة الفاصلة بين خطّيِ الدفاع. 2) أسفل السور. 3) المسافة الواقعة بين هذا السور وواجهة "الخوما"، وهي المساحة التي استطاع الرومانيون أن يقيموا بها منشآت تواجه أبراج السور المنخفض. وهناك إيضاح آخر يشهد، إذا كان صحيحا، بالاتساع الكبير لهذا المسطح الذي كانت به البضائع : ذلك أن سِيبْيون بعدما طرد القرطاجيين عن هذا المكان جعل

به جيشا من 4000 رجل ليقفوا على سور بناه به، ومن هذا السور كانت قذائف جنوده تنال الحماة القرطاجيين على سور المدينة.

ويحتمل أن الخوما لم يكن بعيدا عن المخرج الجديد. فبعد معركة جرت في عرض البحر، أرادت السفن البونيقية أن تدخل، فلما وجدت سفنا أخرى قد سدّت الممر اصطفت على شكل خط طوال المسطح.

ولنلاحظ أيضا أن تعاليم بَحْرية مُدْرَجة في كتاب للقديس هيبوليت(١١) Hippolyte تشير إلى وجود خوما تقع بمدخل الميناء على يمين البحارة القادمين الذين سايروا خط الكثبان ببحيرة تونس، والكاتب ينصحهم بالرسو في مأمن بهذه المنشأة. لكن إذا وقفنا عند النصوص، يستحيل علينا أن نقول هل الخوما المتحدث عنه هنا له أصل بونيقي، وهل كان عبارة عن أرض مسطحة كبيرة كالتي يتحدث عنها أَپْيان Appien، أو إنما كان رصيفا عاديا. فاللفظ الإغريقي يحتمل المعنيين (10).

5

قبل أن أحدّد بالدراسة الطبغرافية موقع الميناء المزدوج الداخلي، لابد من مناقشة افتراضين، قدم أحدهما السيد سيسِل طور Cecil Torr، وقدم الآخر السيد كَرْتون Carton. فالأول يؤكد أن الميناء التجاري كان يقع على عرض البحر، طوال الساحل الشرقي، من البرج الجديد إلى ما حول اللَّزَريتْ Le Lazaret. وأن الأرصفة التي تكون قد حدته، ربما كوّنت زاوية مستقيمة بالجنوب الشرقي، وكونت خطا منحنيا بالشمال، وأن

(١١) أنظر مولر ج ١ ص 471 تجد في الفقرة 124 الكلام على Stadiasmus maris magni.

هذا الميناء الداخلي قد يكون هو ما سمي باسم الكوثون Cothon. أما الميناء الحربي الواقع وراء الميناء التجاري فيصرح السيد طُور Torr بأنه يجهل موقعه الحقيقي.

لكن، وكما سبق أن رأينا، كان لفظ كوثون Cothon يعني الحوضين المحفورين بداخل اليابسة، ويطلق بقرطاجة في آن واحد على الميناء التجاري والميناء الحربي. فهل كان سِيبْيون يبني حاجزا ضخما ليغلق به مدخلا لميناء معزول إلى الأمام من سور المدينة، وهو لا شك يستطيع الاستيلاء عليه بسهولة ؟ وهل كان بمستطاع المحصورين أن يقوموا بخدمات عظيمة (بداخل الموانئ) دون أن يعلم بذلك الرومانيون، لو أن أحد هذه الموانئ كان معرضا تمام التعرض لأعين الأعداء ؟ ولو كان القرطاجيون قد اكتفوا بتحطيم أحد الأرصفة، فهل كان أَيْيان Appien يقول إنهم حفروا المخرج الجديد ؟ إن إنشاء هذا الميناء الخارجي في جهات، حيث البحر عميق وحيث رياح الشمال الشرقي تهب بعنف شديد، توجب إحداث أرصفة عالية وقوية. غير أن المتأكد هو أن أي أثر من هذا لا يوجد في عرض البحر، كما لاحظ ذلك السيد دُرُكْفُوي De Roquefeuil.

أما السيد كَرْتون فيجعل الميناء التجاري في جفنة عريضة جدا (أو محارة) جوانبها تكون قد شكلت تقريبا قوس دائرة خلف الساحل الحالي بين خرائب الرباعي المجاور للبرج الجديد وبين نقطة تقع عند شمال قصر دَرْماش [١٢]. ومقاييس هذا الجون الطبيعي تكون قد بلغت 1500متر طولا و250 أو 300 متر عرضا، (في أعلى تجويفة القوس).

١٢) قصر درماش كان يعرف من قبل بدار مصطفى بن اسماعيل، ثم عرف بقصر سي محمد باي من بعد.

ويكون القرطاجيون قد صانوا هذا الجون، من جهة البحر، بقسم من سور المدينة يكون وتراً للقوس. كما يظهر أنه كان هناك ممر مائي بالشمال الشرقي قرب المنشأة الرباعية الشكل، وفي مؤخر جون الكرم وجد على ما يحتمل مدخل ثان مشترك بين الميناء التجاري والميناء العسكري. ويرى هذا العالم الأثري أن الميناء العسكري هو المستنقعان الساحليان الممتدان شمالي الجون. وخلف هذا المدخل وجد ممر خصوصي يؤدي إلى الميناء الحربي، بينما كان حوض مستطيل الشكل، تحوطه الأرصفة، يمكّن التجار من قيادة سفنهم إلى الميناء الذي كان مخصصا لهم. وبعد تهديم سور المدينة سنة 146 ق.م. لم تعد الأمواج تلاقي هذا الحاجز. وحسب رأي السيد كَرْتون، حملت الأمواج الرمال وأخذت تملأ الجفنة، ثم إن الرومانيين ردموها كلية وأقاموا عليها بناءات مختلفة، من بينها حمّامات واسعة بنيت أو أصلح بناؤها في عهد أنطونان التقي Antonin le Pieux.

هذه الجفنة (أو المحارة) لم يذكرها أي واحد من الكتاب القدماء. بل إن أَپْيان Appien يعطي على العكس من ذلك إيضاحات تتعارض مع نظرية السيد كَرْتون، ويؤكد أنه لابد من المرور في الميناء الأول للدخول في الثاني، وعلى هذا فالميناء العسكري ينفتح إذن في آخر الميناء التجاري. ومن جهة أخرى، فقد أوضحنا اعتمادا على هذا الكاتب أن الميناءين كان لهما مدخل واحد وفي جون الكرم.

فهل الحجج التي قدمها السيد كَرْتون مقنعة لطرح شهادات النصوص ؟

أولاً، يقول : إن المنشأة الرباعية كانت حصنا، لابد أنه لعب دورا مهما في الدفاع، وأن الجانب الشرقي لهذا الرباعي كان يستمر في البحر

في اتجاه الجنوب الغربي بواسطة سور يبلغ طوله نحوا من أربعين مترا، وأنه كان رصيفا. وفيما وراء هذا الرصيف، في اتجاه الجنوب، وعلى امتداد نحو من 60 مترا لم تشاهد بقايا من سور المدينة المتكون من أحجار منجورة كبيرة. إذن كان هنا مدخل ميناء كبير يتحكم فيه حصن قوي.

إننا مستعدون لإرجاع هذه المنشآت للعهد البونيقي، كما أن النظرية التي تجعل من الرباعي حصنا ليست مما يمتنع التصديق به. ولكن بعد قبولنا لهذا، لابد من الاعتراف بأننا نجهل لماذا أقام القرطاجيون حصنا بهذا المكان، ويسوغ أن نخمن تخمينات أخرى غير ما ذكره السيد كرتون. وهي أن الرصيف الذي من 40 مترا لم يَحْمِ قناة بميناء كبير، بل لعله حمى مأوى صغيرا لبضع سفن ترسو عند أقدام الرباعي. ونتساءل عن انقطاع السور البحري، هل هو أمر مؤكد ؟ وعلى كل فنحن نرفض أن يكون هذا المكان قد جُعل فيه مدخل لميناء يستعمل كثيرا، ويكون دخوله عند هبوب الرياح الشرقية صعبا وخطيرا.

ثانياً، قام السيد كَرْتون بعملية كشط بسيط فوق مستوى الماء، على الضفة مباشرة، عند جنوب حمّامات أنْطونان. فأقنعته نتائج هذا الكشط بأن الضفة اصطناعية تماما، وأنها مكونة من أتربة منقولة. ومع ذلك، ولكي نصدق نظرية الجفنة (أو المحارة) التي يكون عمقها مناسبا لكبريات السفن التجارية، فمن الواضح أننا لا نكتفي بهذه العمليات السريعة التي أجريت بمكان لابد أن الأمواج حملت إليه كل أنواع المجروفات، بل يجب القيام بتنقيبات تجرى تحت مستوى البحر، بداخل المساحة التي كانت توجد بها الجفنة، والتي قد يكون الرومانيون ردموها.

ثالثاً، في ناحية دَرْماش بين الحمّامات ومحطة قرطاجة، وعلى بعد نحو من 250 أو 300 متر من ساحل البحر، وقع اكتشاف عدة

مـئـات من الأنصـاب المكرّسـة لتـانيتْ بينـي بَعْل Tanit Péné Baal ولبَـعْلْ حمّـون Baal Hammon والتي يكثر وجودها بقـرطاجـة. ولـهذه الأنصـاب المكتـشـفة خـاصـيـة هامـة، وهـي أنـه لوحظ على سطحـهـا أنابيب كلكيرية لديدان البـحـر، كـمـا لوحظ عليـهـا مـحـارات صـغـيـرة، تؤكـد بوضـوح أنـهـا أقامت في البـحـر مدة طويلة إلى حد ما، والبـعض منها به ثقـوب لرَخْويات ناخرة. ولم يستطع السيد كَرْتون أن يقوم بدراسة عن الأحوال التي كانت توجد عليـهـا بالضبط هذه الأنصاب. ولكنه علم مع ذلك أنها قد عثر عليها مشتتة ومجموعة في عمق الأرض، مرة على متر واحد، وآناً على مترين، وفي أكـثـر الأحـيـان على 5 أو 6 أمـتـار وأكـثـر. ويظن أنـهـا كـانت من قـبل منصوبة على طول ساحل الجفنة، حيث تكون قد سقطت. كـمـا أن عددا كبيرا من هذه الأنصـاب التي تغطيها القـواقـع، قد جرى العثور عليه بعيدا إلى الشرق، على مقربة من البئر المعروفة باسم بئَر الزريق Bir-ez-Zrig بنحو 170 مترا من البحر.

فـأمـا كـون هذه الأنصـاب قـد أقـامت في مـاء البـحـر، فـأمـر لابد من تصديقه. ولكن أين ؟ لا ندري عن ذلك شيئا، فـأمـا الأولى فـقد عثر عليها بأمكنة يتراوح علوّها بين 6 و11 مترا. ولهذا فالمتأكد أن جلها، إن لم نقل كلها، كان مدفونا فوق مستوى الماء. فلو كانت قد بقيت في نفس المكان الذي حلت به في مـاء البحر لوجب أن يكون العثور عليها بمكان أسفل بكثير من الذي عثر به عليها. لأن ضفاف الجفنة أي الميناء التـجـاري، كـانت على مـا يظهـر مـزودة بـأرصـفـة يمكن أن تقف عندها السفن الكبيرة، وأن تكون مياهـهـا عـمـيـقـة تبعـا لذلك. ولاشيء من جهة أخرى يؤكد أن أرض قرطاجة تعلو فوق سطح البحر بأكثر مما كانت عليه منذ ألفي سنة. فنستنتج من ذلك أن هذه الأنصاب قد استخرجت

منذ العهود القديمة من ماء البحر الذي أغرقت فيه، ولسنا ندري سببا لذلك. ومن أين استخرجت ؟ إننا لا نجرؤ على مسايرة السيد كَرْتون في التأكيد على أن ذلك وقع بالجوار المباشر للأمكنة التي استخرجت اليوم منها. ويقال إن أنصاب بئر الزريق قد وجدت في مجرى لبالوعة مائية كبيرة تنصب في البحر. فيمكن الظن، كما قال السيد كَرْتون، بأن المد البحري قد أوصل الماء إلى هذا المكان، وساعد الرخويات على أن تنمو عليها. لكن إذا صح هذا الرأي، فإنه يمنع من أن تكون هذه الأنصاب شاهدة لصالح نظرية الجفنة. ويضيف السيد كَرْتون قائلا : «يمكن أن يكون بناء هذه القنوات (يقصد مجرى البالوعة) راجعا إلى العهد البونيقي». فالجفنة لم تمتد إذن إلى هناك، ويجب أن نفترض بأن الأنصاب ذات القواقع، التي عثر عليها بعيدا إلى الغرب، قد نُقِلت إلى ما لا يقل عن ثمانين مترا من هذه الجفنة التي كانت الأنصاب بقعرها من قبل. فهل يستحيل التصديق - نظرا لكونها نقلت بعد إخراجها من الماء - بأنها حملت من بعيد، أي من مكان يصل البحر لساحله الحالي؟ أو أنها على غرار أنصاب بئر الزريق بعدما ارتمت في مجرى لبالوعة متصلة بالبحر قد وقع إخراجها ؟ وأيضا هل رُمي بها في قنوات قد تكون متشعبة عن الميناء التجاري الواقع كما سنرى شمال جون الكرم، ومارة على طول الميناء العسكري الواقع شمالي هذا الميناء الأول، وتمكّن السفن التجارية من أن تحمل أو تنزل حمولتها في الناحية الواقعة بين البحر وتل سانلوي، في وسط المدينة حسب رأينا ؟ هذا الافتراض الأخير لا يمكن دعمه بأي نص دقيق، ولكنه يفسر لنا وجود أرصفة داخلية تؤرخ بالعهد البونيقي، وهذا فيما إذا ثبت وجود هذه الأرصفة بصفة قطعية.

والخلاصة هي أن النظرية التي دافع عنها السيد كرْتون بلباقة مخالفة للشهادات القديمة، ولا تذكر إلا حججا منقودة حسب رأينا، ولن نستطيع الأخذ بها.

إذا كان لجون الكرم عند تأسيس قرطاجة نفس الشكل الذي له اليوم، فيمكن الظن بأن هذا المأوى الطبيعي كان هو الميناء الأول للمستعمرة الفينيقية. وعلى كل ففي هذه الناحية، كما قلنا، يجب البحث عن المدخل – المدخل الوحيد – للموانئ الداخلية التي كانت موجودة إبان الحرب الثالثة ضد الرومانيين.

لكن يوجد شمال هذا الجون مستنقعان بحريان تغير شكلهما بوضوح بسبب الخدمات المتنوعة التي جرت في عهد أخير. ويقوم هذان المستنقعان على محور يسير من الجنوب إلى الشمال. وأقربهما إلى الجون له شكل متطاول، أما المستنقع الآخر فضفته الشمالية تمر على بعد يتجاوز قليلا نصف كيلومتر جنوبي تل سانلوي، وشكله مستدير ويحيط بشبه جزيرة مستديرة. وجل علماء الآثار جعلوا في هذه الجهة الميناءين اللذين وصفهما أَبْيان Appien.

وحسب بلِي Beulé الذي أجرى التنقيبات بهذه الجهة، فإن المستنقع المتطاول الشكل يمتد في مكان حوض كبير، ذي شكل رباعي مستطيل تقريبا، لأن ضلعه يتكون من خط ينحني قليلا – وله 456 مترا طولاً على 325 مترا عرضا، كما أن قناة بعرض 23 مترا تصله بالحوض الثاني المستدير الذي يبلغ قطره 325 مترا. أما شبه الجزيرة فكان فيما مضى جزيرة دائرية الشكل قطرها 106 أمتار، وكانت تقع بوسط الحوض. ومن جهة الشمال كان رصيف عرضه 9 أمتار و60 سم يصل الجزيرة باليابسة، والرصيف نفسه كان مقطوعا بممر عرضه 4 أمتار و55 سم،

وطبعا كان عليه جسر، كما أن الأرصفة كانت تحيط بالميناءين والجزيرة. وكان مقياس الحوض الأول أربعة عشر هكتارا، بينما الثاني يتجاوز الثمانية بقليل.

ومع أن ما ذكره بُلي Beulé ليس كله أكيدا، فإننا نستطيع التسليم بأنه عرّفنا، بكيفية لا بأس بها من الدقة، بمظهر الميناءين الداخليين كما كانا عليه عند تهديم قرطاجة البيزنطية في نهاية القرن السابع للميلاد. لكن الحوضين - كما أوضح ذلك هذا الكاتب - يتجاوبان جيدا مع ما ترويه النصوص، حتى إننا فيما يتعلق بوضعهما العام على الأقل لن نرفض أنهما يؤرخان بالعهد البونيقي، بحيث أننا نجد بهما "الكوثون" Cothon المحفور باليابسة، بداخل سور المدينة، فنجد قسمي هذا الكوثون Cothon المتتابعين، ونجد أن أحدهما رباعي الشكل، وهو يمثل الميناء التجاري، وأن الآخر مستدير ويمثل الميناء العسكري، وبوسطه الجزيرة الدائرية الشكل، وهي مقر إمارة البحر. ونفهم لماذا أمر سيبْيون Scipion أن يبنى ابتداء من خط الكثبان الحاجز المخصص لسد المدخل الواقع في جون الكرم، ونفهم كيف أن المحصورين استطاعوا بحفرهم لقناة قصيرة أن يصلوا عرض البحر بالكوثون Cothon الذي كان يمتد بموازاة الساحل الشرقي، كما نفهم كيف أن الميناء الرباعي الشكل - وهو الأشد قربا من الجون - قد كان يبدو مهددا جدا من لدن الرومانيين.

ولا يمكننا التسليم بما قال به بعض العلماء : من أن الميناء الحربي كان يضم كلا من الحوض الرباعي والحوض المستدير. فأَپْيان Appien يقول بأن مجموعة الأعمدة التي كانت على الضفة كلها للميناء العسكري، كان لها مظهر رواق كبير مسقوف، وسْترابون Strabon يقول إن حجرات السفن كانت مهيأة على شكل دائرة على القناة التي كانت تحيط بالجزيرة

المستديرة الموجودة في هذا الميناء. وجوانب الحوضين كانت أطول من أن يملأها 220 موقفا للسفن. وحسب أَپْيان Appien فإن الجزيرة الواقعة وسط الميناء الحربي قد كانت تشغل منه داخله، على نحو 750 مترا من المدخل. وأخيرا لا يوجد نص يذكر أن الميناء العسكري كان ميناء مزدوجا. ولقد افترض البعض حقيقة أن الكوثون Cothon كان في العهد البونيقي مكونا من حوض واحد له قسم رباعي وقسم مستدير، ولكن هذا الافتراض تصادمه نفس الاعتراضات. وتعارضه فقرة من أَپْيان Appien تشهد بأنه كان يوجد أكثر من ميناء داخلي واحد، لأنه يذكر الخدمات التي لم يرها الرومانيون وقام بها القرطاجيون في الموانئ.

وحيث أن المدخل الوحيد كان في جون الكرم، وأن الميناء التجاري كان متقدما على الميناء العسكري، فيجب، إذا صدقنا بأن هذا الميناء العسكري هو المستنقعان البحريان، أن نستنتج بأن الأول أي الميناء التجاري كان يقع بالجون نفسه. وسنرى من بعد ما إذا كان بهذا الجون مقدمة ضيقة للميناء. أما هنا فيكفينا أن نؤكد بأن ميناء عظيما للتجارة – واقعا قبل القناة المفضية للكوثون Cothon – لم يكن له وجود زمن قرطاجة البونيقية. فأَپْيان Appien يقول بأن المدخل كان على بعد قليل من الأرض. ولقد سبق لنا أن نبهنا إلى أن بناء حاجز سِيبْيون Scipion ينحي افتراض وجود ميناء خارجي، وأن الموانئ التي أجريت فيها خدمات جهلها الرومانيون المحاصرون، لو كانت هي تلك التي وصفها أَپْيان Appien في مكان آخر لكان الميناء التجاري خلف سور المدينة كما لابد أن يعتقد.

فيحسن إذن الوقوف عند الرأي الذي يرى أن المستنقع المتطاول الشكل هو الميناء التجاري، ويرى أن المستنقع المستدير الشكل هو الميناء الحربي.

وفي أي عهد وقع حفر "الكوثون" Cothon ؟ لا نستطيع الجواب لأن النصوص التي تذكر الحوضين المكوّنين له ترجع للعهود الأخيرة لقرطاجة. على أن الميناء العسكري الذي لم يكن أقيم قبل الميناء التجاري، كان لا شك موجودا قبل نهاية الحرب البونيقية الثانية، وذلك لأن اتفاقية سنة 201 منعت عن القرطاجيين أن يملكوا أكثر من عشر سفن ثلاثية المجاديف. بل لابد من التسليم بأنه لم يكن متأخرا عن الحرب الأولى التي حدثت بين 264/63-241 والتي أهملوا ملاحتهم بعدها. وليس لدينا حجة على أن الميناء الجنوبي أكثر قِدماً من الآخر. وهذا الكوثون Cothon، هذا الحوض المزدوج كان بالتأكيد عملا عظيما، لكن تكاليفه أقل، ثم إن ما يقدمه من الأمان ضد عواصف البحر وضد الأعداء هو أكثر مما يقدمه ميناء خارجي.

6

هل كانت أبعاد الحوض الأول هي نفس أبعاده في العصر البونيقي وفي العصر الروماني ؟ ذلك مالم تؤكده الاستبارات التي قام بها السيد بلي Beulé، زيادة على أن الأقيسة التي يذكرها، هي أقيسة مغلوطة، إذن فلا يحق التأكيد بأن ميناء كهذا لا يستجيب لتصورنا عن التجارة البحرية القرطاجية، خصوصا وأن السفن التجارية لم يكن جميعها يدخل لهذا الحوض. ونجهل موقع الممر، الذي كان من خلف جون الكرم، يمكّن من الدخول إلى الكوثون Cothon، على أن سورا عظيما يتجاوز سمْكه على ما يظهر 12 مترا، يسير من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي قد كشف عنه جزئيا قرب الساحل بالشمال الشرقي للجون، ولكن يشك

كثيرا في أن يكون هذا البناء، الذي لا نزال نجهل الغاية منه، راجعا للعهد البونيقي.

وقد ظن السيد بُلي Beulé أثناء تنقيباته أنه عثر تحت أرصفة الميناء الروماني والبيزنطي على العناصر اللازمة لتمَثّل الميناء العسكري الذي وصفه أَپْيان Appien. فالحوض الذي كان له مع حجرات السفن اتصال مباشر، كان قطره على ما يحتمل نفس القطر الذي كان للحوض الروماني، أي 325 مترا، وكذلك فإن بعض الجدران لوحظت بها اقتلاعات سمْكها 30 سم. وكانت الاقتلاعات متتابعة على دائرة الميناء، ويبعد بعضها عن بعض بعدا متراوحا بين 5,80 م – 5,90 م. فيظهر أنها بقايا الجدران الفاصلة بين الحجرات. كما أن قطعتين من أعمدة حجرية مطلية بملاط من الكلس ومسحوق الرخام الأبيض البالغ في الدقة قد وقع العثور عليهما أثناء هذه التنقيبات. وقد عثر على إحدى القطعتين بالجزيرة، وعثر على الأخرى تحت الرصيف الخارجي. فيظهر أنهما من الرواقين، وإن كان هذان الرواقان لم يكونا سوى رواقين كاذبين، إذ الأمر يتعلق بأعمدة مرضونة [١٣] حفرت في وجهها ثمان فرضات، بينما ظهرها الذي يقل عرضه عن 47 سم بقليل قد أدمج في الجدار. وحسب السيد بُلِي Beulé كانت هذه الأعمدة مقامة على رأس الحيطان الفاصلة بين الحجرات، بمعنى أنها كانت على ساحل الماء. وبالجهة الشمالية من الجزيرة عثر على ثلاثة جدران ضخمة تتكون من كتل الحجر الحواري Tuf (التفة)، فيجعلها بُلي Beulé من قصر إمارة البحر، كما يعزو لهذا القصر مختلف قطع الأنضاد [١٤] المطلية بملاط الكلس ومسحوق الرخام الذي عليه أثر اللون الأحمر.

١٣) Colonnes engagées (المترجم).

١٤) أنضاد البناء = Entablement (المترجم).

لقد انتقد هذا التمثل بشدة، وإن كان السيد ملْتزر Meltzer قد اجتهد ليوضح أن هذا التمثل في خطوطه الكبرى ليس مستبعدا. ويمكننا حقيقة أن نقبل كون حوض وجزيرة مستديرين استدارة كاملة، ولهما السعة التي ذكرها السيد بُلي Beulé، قد كانت سواحلهما كافية لإيواء 220 سفينة. وحيث أن الفراغ المهيأ يتجاوز بقليل 1300 متر، فلابد أن يكون العرض نحوا من 5,90 م لكل مأوى، بما في ذلك نصف الجدارين الفاصلين، أي إننا نعدّ فراغا من 5,60، ونوافق بُلي Beulé على جعل سمك مقدم الجدار من 30 سم، وبهذا يكون المدخل كافيا لإدخال سفينة لها خمسة صفوف من المجدفين، ثم تزيد السعة بعد ذلك نظرا لتباعد الجدران التي تكون شعاعات للدائرة، وهكذا فالمأوى أو الحجرة التي لها 45 مترا في الطول يكون عرض مؤخرها 6,37م، إذا كان سمك الجدران الفاصلة هو نفس السمك دائما. أما الجزيرة فإن قطرها لا يتعدى 100 متر، ولهذا فعرض الحجرات يتناقض بسرعة، كما أن طول هذه الحجرات محدود بسبب قيام بناية إمارة البحر بوسطها، لذلك فالسفن الصغيرة هي التي كان يمكنها الإيواء هنا. ومن بين 220 حجرة، كان 53 منها تحفّ بالجزيرة، أما 167 الباقية فكانت تحف بالحوض.

ومع ذلك فلسنا على كامل الاستعداد للاعتقاد بأن السيدين بُلي Beulé وملْتزَر Meltzer قد حلاّ المشكلة حلا نهائيا. وذلك للأسباب التالية:

إذا كانت الجزيرة والحوض البونيقيان لهما نفس المقاييس التي جعلها السيد بُلِي Beulé للجزيرة والحوض الرومانيين، وإذا كانت الجزيرة والحوض في العهدين معا قد وجدا بنفس المكان، فكيف استطاع القرطاجيون أن يجدوا بشرق مينائهم العسكري، بين هذا الميناء والساحل البحري، الأرض اللازمة لإنشاء حجرات طولها 45 مترا

تقريبا، ولإقامة سور الميناء الذي يذكر أپّيان Appien أنه متكون من سور مزدوج، وفي الأخير لإقامة سور المدينة ؟ ونعدّ من الطرف الشرقي للجزيرة حتى ساحل البحر 100 متر تقريبا، بينما سعة الحوض حول الجزيرة كانت من 109,50م. إذن فلابد أن نستنتج بأن الساحل البونيقي - سواء أكان ساحلا طبيعيا أم اصطناعيا - قد كان بهذا المكان يمر بعيدا خلف الساحل الحالي. على أنه توجد اليوم بالشمال الشرقي والجنوب الشرقي للمستنقع البحري المستدير بقايا واضحة جدا من سور المدينة البونيقي حسب رأينا، والذي يساير البحر. وهي بقايا قليلة البعد عن ساحل البحر. أما بين هذين الجانبين -الشمال الشرقي والجنوب الشرقي -، أي حيث منحنى الميناء المستدير يكون متقدما جدا نحو الشرق، وعلى امتداد نحو 60 مترا، فإننا في الحقيقة لا نلاحظ وجودا لبقايا الخط المتكون من الكتل الضخمة المنجورة، التي لاشك أنها كوّنت السناد الخارجي لسور المدينة. فهل كان هنا بناء واسع بارز، أي مسطح أنشأته في البحر يد الإنسان ؟ فلربما إن الأتربة عند حفر الحوض الشمالي تكون قد رمي بها داخل إطار حجري وقع بناؤه من قبل. ولكن يسهل الرد على هذا الافتراض. وفوق هذا، فقريبا جدا من الساحل الحالي، بالمكان الذي يتوقف به خط الكتل، تعرف السيد كرْتون Carton على سور مرصوف شبيه بالذي يصاحب، في مكان آخر، السور المتكون من الحجارة الضخمة، والذي يكوّن نواة سور المدينة. فإذا كان هذا حقيقة بقية من السور البونيقي للمدينة، فإن تمثل السيد بُلي Beulé لا يمكن قبوله.

في هذا الميناء العسكري جرت محاولة للاقتصاد في استعمال الأرض. ولهذا السبب كانت مخازن الأدوات البحرية على ما يحتمل توجد فوق الحجرات. ولكن يصعب علينا الاقتناع بأن هذه المآوي كانت مهيأة

بصفة تجعل فتحاتها إنما تكفي لدخول السفن الكبرى وخروجها، وأنهم لم يهيئوا من مكان لآخر بعض الممرات التي تساعد على الوصول لضفة الحوض من اليابسة أو من وسط الجزيرة. فالميناء كما تصوره السيدان بلي Beulé وملْتزر Meltzer ما كان سوى مستودع للسفن الحربية، ينقصه مكان الإصلاحات الكبرى للسفن التي حدثت بها أتلاف، كما ينقصه على الخصوص مكان لصنع السفن الجديدة.

ومن ناحية أخرى يتحدث أَپْيان Appien عن أرصفة كبيرة تحيط بالجزيرة والميناء. فالحجرات إذن لم تكن تنفتح على ضفة الحوض بل كانت مرافئ جافة. فلابد أن الأرصفة التي كانت تتقدمها قد كانت مسطحات منحدرة تجذب فوقها السفن لتوقيفها ثم لتعويمها. وهكذا أمكن أن يكون للحجرات، ومنذ مدخلها عرض يفوق 5,60 م وجدران فاصلة ذات سمك يفوق 30 سم، لأنه تافه بالنسبة لجدران تحمل فوقها طابقا أعلى، ومعرضة للصدمات، كما أن ممرات قد تكون أنشئت هنا وهناك. ويحتمل أن بعض أعمال الإصلاح أجريت فوق الأرصفة بسهولة أكثر مما لو كانت بداخل المرافئ.

ولا شك أن الأعمدة المرضونة التي يبلغ مقياس مؤخرتها نحوا من 47 سم لم تكن مثبتة في جدران عرضها 30 سم. ونضيف بأنه ليس أكيدا بأن القطعتين اللتين عثر عليهما بلُي Beulé ترجعان للنسق الذي وصفه أَپْيان Appien، لأن قطعا مماثلة قد عثر عليها في أماكن مختلفة بالساحل الشرقي، من جوار الكرم إلى غاية البرج الجديد. وهل كان بمقدمة الحجرات أعمدة مرضونة أو أعمدة كاملة ؟ إننا نجهل ذلك. وعلى كل حال، كان لابد لهذين الرواقين أو لهذين الرواقين الكاذبين والطويلين جدا أن لا يظهرا متواضعين، ولابد أن يكون النضد الذي يتوّجهما قد

وضع على علو يفوق علو السفن التي تدخل المرافئ. ثم إن الأعمدة التي عثر بُلي Beulé على أجزاء منها لم يبلغ علوها أكثر من 4 أمتار، وليس هذا كافيا لما خصصت له.

فالتنقيبات الواسعة جدا هي التي ستخبرنا هل بقي من الميناء البونيقي بقايا تمكننا من تمثل أوثق من التمثل الذي قام به السيد بُلي Beulé. فالأتربة التي أزيحت منذ 1908 بالجزيرة المستديرة قد كشفت عن أعمدة مستطيلة الشكل، تكوّنها كتل من الحجر الرملي المصفر، وهي كتل جيدة القطع، يتراوح طولها بين 1,50م و1,60 وارتفاعها بين 80,70 سم، وعرضها كذلك بين 80 و95 سم، وهي متراكبة دون ملاط، ثم إن هذه الأعمدة المفصول بعضها عن بعض بنحو 1,20 إلى 1,50م تضم اليوم عددا لا بأس به من القواعد، وهي موزعة على عدة صفوف تسير من الشرق إلى الغرب، ولكن من غير أن تكون متوازية فيما بينها توازيا مطلقا. والأحجار قد اقتطعت في العهد البونيقي، لأن البعض من هذه الكتل به أحرف فينيقية منقوشة، أو خط عليها باللون الأحمر الرمز الديني المعروف بعلامة تانيتْ Tanit الذي يشاهد على العديد من المباني القرطاجية. وعثر أيضا بالجهة الشمالية من الجزيرة على بقايا من جدران تسير من الشمال إلى الجنوب، وتتكون – على غرار الأعمدة – من كتل ضخمة من الحجر الرملي المصفر. وكذلك فإن التنقيبات الأخيرة قد كشفت عن عدة أشياء، منها بقايا لأنضاد مكسوة بملاط ومسحوق الرخام، شبيهة بالتي تحدث عنها بُلي Beulé، ومنها بقايا من أعمدة مرضونة مصبوغة وبها فرضات، ومكسوة بملاط ومسحوق الرخام، وتتفق مقاييسها تقريبا مع القطع التي ذكرها بُلي Beulé، ومنها كذلك قاعدة لعمود، بها قولبان بارزان يفصل بينهما قولب غائر، كما اكتشف تاج عمود من الطراز الأيوني.

فيتأكد إذن أن الأرض المنحصرة بين الأرصفة الرومانية قد سبق أن أقيمت عليها مبان بونيقية. ولكن نظام الأعمدة والجدران لا يتفق مطلقا مع الرأي الذي يعطيه نص أَپْيان Appien عن مباني جزيرة الإمارة البحرية، حيث الحجرات لها جدران فاصلة على شكل شعاعات الدائرة، وبالوسط يقوم جناح إمارة البحر الذي قد نفترض أنه كان مستديرا أو ذا شكل مضلع. وإذا كانت الأحجار المكونة للأعمدة والجدران لا تزال بمحالها التي كانت بها حقيقة في عهد قرطاجة الأولى، فلابد من الاعتقاد بأنها تنتمي لقواعد بنايات أكثر قدما، وأنها أقيمت على تصميم يختلف جيدا عن تصميم الحجرات وجناح إمارة البحر، وهو افتراض جرئ. أما القطع الهندسية الباقية فلا نستطيع تمثل المجموعة التي هي جزء منها، ولا أن نقول إنها كانت من ضمن رواق الأقواس الذي كان حسب أپيان Appien يحيط بالجزيرة، ولا أنها كانت تزخرف جناح الإمارة، إلى غير ذلك.

ونفس الكاتب يؤكد أن سورا مزدوجا كان يحيط بالميناء العسكري. وأن الأبواب المفتوحة بالسور الأول لم تكن – على وجه التأكيد – على نفس مِحْور الأبواب التي بالسور الثاني. وهكذا فمجال النظر كان يسد أمام أَعين المتطلعين. ومع ذلك فقد كان من الممكن اتخاذ طريقة تكاليفها أقل. ويتحدث أَپْيان Appien في مكان آخر عن (السور) المحيط بالكوثون Cothon. فتساءل ملْتزر Meltzer عن المعلومات الأخرى، هل هي مطابقة للحقيقة ؟ هلَ السور المزدوج المزعوم لم يكن في الحقيقة هو السور المستمر الذي يسد الميناء الحربي من جهة ؟ ومن جهة أخرى، ألم يكن هو سور المدينة الذي كان يساير البحر عند شرق هذا الميناء والقسم الشمالي من سور آخر قد يكون شمال الميناء التجاري ؟ ولكن، في هذه الحال يكون أَپْيان Appien

قد أساء التعبير، لأن سوره الثاني كانت تكونه أقسام من سورين متميزين غير مرتبطين فيما بينهما، ولم يقم هذا السور إلا بالشرق والجنوب. ولهذا فيحسن قبول كون الميناء المستدير كان حقيقة محاطا بسور مزدوج.

ويبقى علينا أن نبحث كلام أَپْيان Appien المتعلق بمدخل الميناءين. فهو يقول إن المدخل ينفتح على الغرب، وأنه كان على بعد قليل أمام اليابسة. لقد سبق أن رأينا أن أَپْيان Appien ارتكب أخطاء في معرفة الاتجاهات. وهنا واحد من هذه الأخطاء (11) لأن مدخلا خارجيا واقعا في جون الكرم، لا يمكن أن يواجه منشأ خط الكثبان، فقيعان الرمل بهذه الجهة شديدة القرب اليوم من سطح الماء، وإذا كانت في العهود العتيقة ربما أقل بقليل مما هي عليه اليوم، فلابد أنها كانت تمنع السفن الكبرى من المرور.

إذن، فماذا كان هذا المدخل الذي كان يسبق المجاز الضيق المحفور في اليابسة أمام الميناء التجاري ؟

توجد شرقي الجون آثار رصيف حجري سعته تقارب 30 مترا، وطوله 120 مترا، وهو يتشعب عن النقطة التي تفصل الجون عن الساحل الشرقي، والتي تتقدم في البحر في اتجاه جنوب الجنوب الشرقي. وقاصية الرصيف مستديرة على شكل سداد بحري، أما تاريخ هذه المنشأة التي قصد بها حماية الجون من الأعاصير الشرقية والشمالية الشرقية، فلا يمكن التأكد من معرفتها. ولكن يحتمل جدا أنها ترجع للعهد البونيقي، لأن جون الكرم الذي كأنه دهليز للكوثون Cothon، قد كانت له آنذاك أهمية بحرية عظمى. بل يسوغ لنا أن نفترض أن الرصيف البحري وقع إنشاؤه قبل حفر الحوض المزدوج، وذلك فيما إذا

كان الميناء الأول لقرطاجة يوجد في نفس هذا الجون، فكان بهذا في مأمن كبير. ولربما أن المدخل الواقع "على بعد قليل أمام اليابسة" قد كان في الحقيقة هو السداد الذي كانت تمر به السفن القادمة من عرض البحر. وفي الحقيقة تكون كلمة (المدخل) التي يعبر بها أَپْيان Appien غير صالحة. ومن ناحية أخرى، يحسن التمييز بين هذا المدخل الزائف والمدخل الحقيقي المذكور عند نفس الكاتب، وهو مدخل عرضه 70 قدما، وكان يسد بسلاسل الحديد. إذن فيتعلق الأمر في هذا النص الثاني بالمجاز الضيق الواقع بمؤخرة الجون.

لكن وقع تقديم افتراض مخالف، وجرى التساؤل الآتي : هل القرطاجيون لم ينشئوا ميناء أماميا يغلقه مرفآن، أحدهما هو الذي تحدثنا عنه من قبل، ويكون قد استعمل في آن واحد حاميا من الهياج البحري وحاجزا من الرمال ؟ وبين هذين المرفأين يكون المدخل الذي فَتْحَته 70 قدما.

إن النصوص لا تشير لميناء أمامي. ولكن الاستخبارات التي قام بها السيد رُكْفُوي Roquefeuil مكّنته من أن يلاحظ بالجون وجود عائق في قعر البحر يمتد على نحو 600 متر، ويكاد يوازي الساحل الذي يبتعد عنه قرابة 70 أو 80 مترا. وهو على قسم كبير من امتداده يتكون من نتوءين مسنّمين، يبعد أحدهما عن الآخر 25 مترا، وبينهما مهاد. والنتوء الجنوبي أطول من الآخر ويتجه شرقا نحو قاصية المرفأ الذي له 120 مترا، ثم يختفي على نحو 30 مترا من المرفأ. وحسب السيد رُكْفُوي Roquefeuil، فإن عائقا كهذا لا يمكن أن يكون طبيعيا، لأن قعر الجون ليس من صخر. وبهذا فالنتوؤان بقية من سورين كانا سنادا

للمرفأ. ولربما أن مسلكا بحريا له السعة التي ذكرها أبيان Appien قد يكون هيئ بين قاصية هذا المرفأ وسداد الرصيف الحاجز.

كل هذا مجرد افتراضات قد تكون مغرية، ولكن على طول المسنمين لم يقع التعرف على أي أثر من الأحجار المنجورة، ولا من حجر الرصف. وبالجنوب الغربي لا يتصل المسنمان مع ساحل خط الكثبان الذي هو نقطة الانطلاق المفترض للمرفأ المزعوم. وبهذا فليس مؤكدا أننا هنا أمام عمل من صنع الإنسان. وإذا لم يكن البحر خلف المسنمين في العهود العتيقة أعمق مما هو عليه الآن، فإن تخطيط هذا المرفأ الذي ليس لدينا ما يساعد على تحديد عهد إنشائه، لَيبدو عجيبا جدا، فهو يسير بموازاة ساحل الجون، وعلى بعد قليل منه، ويكون امتداده بلغ شأوا كبيرا، بينما هو لايحدّ سوى ميناء ضيق جدا، بل ميناء أغلبه غير صالح للاستعمال. وكان بإمكان سِيبْيون Scipion الاستغناء عن إقامة حاجز كبير يمنع به الوصول إلى الكوثون Cothon، بحيث كان يكفيه الاستيلاء على المرفأ الواقع خارج سور المدينة وغلق المجاز البحري.

وأين يجب أن تجعل الخوما التي كانت في إبان السلْم تستعمل محطا لبضائع السفن التجارية، والتي استولى عليها الرومانيون قبل سقوط قرطاجة ببضعة أشهر ؟

إن وُهْلِر Oehler يرى أنها هي المرفأ المزعوم، فإذا فرضنا أن السنادات تنزل عموديا، فإن سعة المسطح لن تزيد على 30 مترا، أي مقياس المسافة بين الجوانب الخارجية للمسنمَيْن. وهذا لا يكفي ليكون محطا مريحا للبضائع. إننا نعلم أن القرطاجيين أقاموا على الخوما سورا زُوّد بين مسافة وأخرى بعدة أبراج، وأن هذا السور قد امتد طوال المرفأ وليس خلاله، لأن عدة أبراج ما كانت لتقف على جبهة 30 من

الأمتار. ولكن كيف والحالة هذه - استطاع الرومانيون أن يقيموا عدة منشآت بمواجهة هذه الأبراج ؟ وأخيرا، إذا كان أپْيان Appien لم يبالغ حين أكد أن سِيبْيون Scipion جعل بالخوما 4000 جندي فمن الواضح أن مساحة المرفأ لم تكن تكفي لتقبلهم.

أما السيد هَنْتس Hantz فيميل للبحث عن الخوما بعيدا إلى الجنوب، كما يرى أنها مرافئ لميناء خارجي يظن أنه عثر عليه شرقي خط الكثبان، غير أن هذه المرافئ التي نشك في وجودها لا تتجاوب بأية صفة مع المسطح الشاسع الواقع أمام السور.

وعلى طول الساحل الشرقي، بين زاوية جون الكرم واللَّزَريت Le Lazaret وقع العثور على بقايا منشأة رباعية، شكلها شبه منحرف تقريبا. وهذه المنشأة يكونها غربا الساحل على امتداد نحو من 300 متر، ومن الجنوب الغربي تتكون من الرصيف الذي طوله 120 مترا، ما يكونها من ناحية الشرق سور يبلغ طوله 425 مترا، يرتبط على شكل زاوية حادة بسداد الرصيف، ويكاد يسير موازيا للساحل، كما تتكون من ناحية الشمال من سور معترض، طوله نحو 100 متر، ويربط السور الطويل بالساحل. فحسب رأي البعض كان هنا حوض اصطناعي يتصل بالبحر، بواسطة مسلك ينفتح على الجهة الشمالية للرصيف. ولكن لا يوجد نص قديم يشير لهذا الحوض المزعوم الذي قيل إن مرفأه الشرقي هو السور الذي طوله 425 مترا، وعلى هذا، يكون معرضا لسوء الأحوال البحرية، وقد لا يقاومها إلا بصعوبة.

وحسب رأي آخرين، تكون أسوار المنشأة الرباعية الشكل قد نطقت مسطحا شاسعا لابد أن يكون هو الخوما، وهذا الافتراض يعتمد على حجج قوية. فالرباعي الذي كانت مساحته نحوا من 40.000 متر

مربع، يستحق صفة "شاسع" التي أطلقها أپيان Appien على الخوما. ولابد أنه كان شديد القرب من الممر الجديد للكوثون Cothon المفضي إلى الساحل الشرقي. كما أنه كان يمتد أمام سور المدينة التي كان يجاورها على طول 300 متر. ولقربه الشديد من الميناء التجاري فقد كان كالملحق لهذا الميناء. ولا شك أن الراجلين والعربات كان بمستطاعهم دخوله من جهة اليابسة باختراقهم الأبواب المفتوحة في سور المدينة. ولضمان المواصلات مع جنوب المدينة وجنوبها الغربي فنحن نفترض أن جسرا متحركا قد أقيم فوق المجاز الذي عرضه 70 قدما، والذي يكون هو مدخل الكوثون Cothon. وهكذا فالمسطح يكون قد أتاح للرومانيين موقعا ممتازا لمهاجمة الميناءين الداخليين. ونفهم كيف أن المحصورين أرادوا تنحيتهم عنه ببناء السور. ولو كان هذا السور قد أقيم على الحافة الشرقية للمنشأة الرباعية لكان شديد البعد عن سور المدينة الذي لا يستطيع حُماته أن ينجدوا حماة الخط الأول، مع العلم بأن القذائف المرسلة من السور المنخفض كان لابد لها أن تقع على الأعداء الذين يحاولون النزول من البحر بالجبهة الشرقية للمسطح. فهذا السور قد أقيم إذن خلال الخوما، وربما عند وسطه. وتكون الأبراج التي تحدث عنها أپْيان Appien قد تتابعت على نحو 350 - 375 مترا. فنرى جيدا كيف أن الرومانيين عندما نجحوا في الاستيلاء على القسم الشرقي من المسطح قد أقاموا منشآت هجومية بمواجهة السور، وكيف أن سيبيْون Scipion بعد استيلائه على المسطح الرباعي كله قد أمر أن يُبنى فيه سور يكون على مدى رمية السهم، أي أن يكون - على أكثر تقدير - على 40 مترا من السور البونيقي، وكيف أن 10.000 جندي الذين كانوا يتناوبون على حراسة هذا السور كان لهم مجال من 27.000 متر مربع على الأقل. وهو مجال كاف، ولا داعي للقول بأن الرقم الذي ذكره أپْيان Appien مبالغ فيه جدا.

ونضيف أن موقع الخوما عند أَبْيان Appien يتطابق مع موقعه الوارد في التعليمات البحرية[12]، حيث أن المحط القديم للبضائع قد وقع إصلاحه، وكان لا يزال مستعملا في العهد الروماني.

ومع ذلك فالقول بأن الرباعي هو الخوما يصطدم باعتراض جدي، وهو أن هذا المحط يكون قد أقيم بكيفية قل أن تساعد السفن على الدنو منه، بحيث لابد للبحر أن يكون كامل الهدوء لتقترب السفن من الضفتين الشمالية والشرقية المعرضتين تماما لرياح الشرق والشمال الشرقي. والجانب الجنوبي الغربي هو وحده الذي يكون في مأمن عن الهيجان البحري، غير أن سعته أقل نسبيا. وفوق ذلك، فإن حركات السفن التي تأتي لترسو عنده، أو التي تبتعد عنه تعرقل حركات السفن الأخرى التي تدخل إلى الكوثون Cothon أو تخرج منه وتساير السداد المكوّن للناصية الجنوبية للرباعي. أما الجبهة الشرقية التي يبلغ طولها نحو نصف كيلومتر فتكون على النقيض من ذلك غير صالحة للاستعمال في أغلب الأحيان. لكن قد يجاب على ذلك بأن المكان وقع عليه الاختيار لعدم وجود أحسن منه، وأن المسطح لم يوجه وجهة أخرى بسبب عمق البحر وراء المكان الذي يقوم به السداد، كما كان من اللائق أن يعطى للمسطح طول كبير أمام سور المدينة لتكثير المنافذ المفتوحة بالسور ولتسهيل المواصلات مع الميناء التجاري.

ويمكن أن نستنتج اعتراضا آخر، ولكن من قصة ذكرها أَبْيان Appien عن إحدى الهجمات التي قام بها القرطاجيون ضد الآلات المنصوبة بمواجهة السور. فالقرطاجيون لم يأتوا من جهة اليابسة، إذ لم يكن من هذه الجهة مسلك، كما قال أَبْيان Appien. ومع ذلك فلا يقبل أن يكون المحصورون ألغوا كل اتصال من خلال السور بين المدينة

والخوما الذي لا يمكن لحماته أن يبقوا معزولين. ومن جهة أخرى كان يسهل المرور من الثغرات التي فتحها الرومانيون. غير أن هؤلاء كانوا لا شك يقظين من هذا الجانب. فيظهر إذن أن أپْيان Appien أراد أن يقول : لو أن القرطاجيين أتوا من جهة اليابسة لما كان لهم أي حظ في مفاجأة الأعداء وإيقاع الخسارة بهم. ولكن لابد من الاعتراف بأنه قال هذا بتعابير غير واضحة. وقد عبَر المهاجمون البحر في مكان لم يكن لينتظرهم به أحد، وتقدموا سيرا على الأقدام، والماء يصل إلى صدورهم، أو تقدموا سابحين دون أن يستعملوا السفن، لأن العمق غير كاف. وهذا كلام عجيب، إذ كيف نفسر أن الرباعي المخصص لرسو السفن الكبيرة يكون مسبوقا بالمضاحل ؟ إن الهجوم لم يتم على الجبهة الجنوبية الغربية للمسطح التي هي الأكثر ملاءمة للاقتراب من الضفة، والتي يمتد بها مرفأ تكاد السفن تسايره للدخول إلى الميناءين الداخليين، كما لم يتم على جبهته الشرقية المتجهة لعرض البحر، والتي برغم تراكم الرمال لا يزال العمق بها يقارب المِتْرَيْن، والتي اتجهت السفن البونيقية لتصطف عندها قبل الهجوم الليلي بقليل. فتبقى الجبهة الشمالية وهي أقل الجبهات الثلاث طولا، ويظهر أنها لم تستعملها السفن، لأن المياه المحيطة بها لم تكن عميقة. فيكون الذين شاركوا في الهجوم قد اخترقوا السور على بعد قليل جهة الشمال، كما أن بعضهم قد يكون قدم من الخوما، من قسمها الواقع خلف السور، وارتموا في البحر، وداروا مع القاصية الشمالية لهذا الخط الدفاعي.

واقترح بعضهم تفسيرا آخر. وهو أن القرطاجيين يكونون قد عبروا الجهة الغربية من جون الكرم، وهكذا يكونون قد وصلوا للحاجز الذي بناه سِيبْيون Scipion ليسد به مدخل الكوثون Cothon، ثم إنهم

ساروا على ممر هذا الحاجز، وإنهم وصلوا لقسم المسطح الذي كان في قبضة الرومانيين.

ذلك أن هذا الحاجز الذي كان ينطلق من خط الكثبان قد كان يلتقي مع الرباعي. وكان الحاجز قد تم بناؤه آنذاك، لأن سِيبْيُون Scipion لم يكن ليقيم على الخوما قبل أن تتوفر له الوسيلة السهلة والسريعة للوصول إليه فمن هنا اقتاد لا شك الآلات التي تغلب بها على التحصينات البونيقية، ومن هنا فر جنوده الذين فاجأتهم بالليل هجمة المحصورين. وفي كلتا الحادثتين لم يرد ذكر للسفن، على أن حديث أپْيان Appien نفسه لا يساعد على الاعتقاد بهجوم للقرطاجيين عن طريق الجون والحاجز، بحيث إن الرومانيين الفارين يكونون قد شقوا وسط القرطاجيين طريق نجاتهم بممر سعته لا تزيد على 7 أمتار. وإذا كان الرومانيون لم يراقبوا الحاجز الذي يضمن مواصلاتهم بين معسكرهم الواقع على خط الكثبان وبين القسم الذي كانت به جيوشهم وآلاتهم بمحط البضائع، فإنهم يكونون قد ارتكبوا إهمالا غير معقول. إذن فالافتراض القائل بهجوم على الجبهة الشمالية يمكن قبوله أكثر من غيره.

وختاما، فإن الخوما لابد أن يكون هو المنشأة الرباعية الشكل، ولا نرى أين يمكن أن يقع إذا كان ليس بهذا المكان.

ويقول أَپْيان Appien إنه أُنْشِئَ قبل الحرب البونيقية الثالثة بزمن طويل، فلربما أنه يرجع لتاريخ حفر الميناءين الداخليين اللذين استخدمت أتربتهما في إنشائه. كما يمكن إرجاعه لتاريخ أحدث عهدا، أي عند إخلاء الحوض وأرصفة الميناء التجاري التي أصبحت غير كافية بسبب اتساع التجارة البحرية.

ويقول سيسْرون Cicéron إن قرطاجة كانت محاطة بالدوانئ، الأمر الذي يسوغ معه الفهم بأنها كانت لها موانئ أخرى غير الحوض المزدوج للكوثون Cothon.

على طول خط الكثبان بجنوب الجنوب الغربي لجون الكرم، ظن بعضهم أنه عرف وجود بقايا من ميناء قديم يتكون من مرافئ عظيمة، مقياسها نحو من 800 متر من الشمال للجنوب و300 متر من الغرب للشرق. وأن مدخل هذا الميناء كان بالشمال الغربي، بين اليابسة وسداد ينتهي به المرفأ الشمالي. ومع ذلك، وحتى لو كان هذا الحوض قد وجد حقيقة، فلا شيء يؤكد بأنه من العهد البونيقي. وكذلك لا شيء يؤكد أن فرضة المرسى La Marsa قد كان بها آنذاك ميناء بشمال الهضبة، لأن الفرضة فوق ذلك غير مأمونة.

غير أن سُفُناً رومانية قد أرست عند الشمال الغربي لقرطاجة، في الجون القديم الذي أصبح هو السبْخَة الريّانة التي يصونها جيدا جبل الرمل وجبل الخاوي عن الرياح الشرقية. كما أن أساطيل معادية قد خاضت بحيرة تونس وتوقفت بها، وكان مدخل البحيرة أقل اتساعا مما هو عليه اليوم. وكان الجون والبحيرة بعدين عن الميناءين الداخليين وعن قلب المدينة، ومع ذلك كان القرطاجيون يضطرون إلى أن يرسوا بهذين الملجأين للسفن التجارية والحربية عندما يكتظ الكوثون Cothon. وكانت البحيرة تتصل مع البحر بواسطة مسلك طبيعي كان ينفتح على الجنوب الغربي لحلق الوادي La goulette. وبين جون الكرم والزاوية الجنوبية الغربية للبحيرة، لا تزال توجد آثار قناة حفرتها يد الإنسان، لكن لا يوجد نص يذكر أنها ترجع لعهد قرطاجة الأولى، بل يشك حتى في كونها قديمة.

ونكاد لا نعرف شيئا عن المدينة وأبنيتها. أما الساحة الكبرى، حيث كان الشَّعْب يتجمع، وهي الأكورا l'Agora أو الفوروم Forum عند الكتّاب الإغريق واللاتانيين، فكانت قرب الكوثون Cothon وتتصل بالأكْرُبول، أي تل سانْلوي بواسطة ثلاث طرق صاعدة. وبجوارها على ما يحتمل كانت تقوم البناية التي تنعقد بها اجتماعات المشيخة، وقرب هذه البناية كان يوجد المكان الذي يصدر به الولاة المعروفون باسم السوفيت Sufètes أحكامهم. ويذكر أحد النصوص رواقا عموميا كان حنّون Hannon قد عزم حول أواسط القرن الرابع ق.م أن يقيم به مأدبة للشعب. فيمكن لمن أراد، أن يعتقد أن هذا الرواق كان على جوانب الساحة.

وقريبا من هذا، كان يوجد معبد لمعبود اعتقد الإغريق أنه أبُولون Apollon. أما على القمة الوعرة لتل بيرْسا Byrsa، بداخل القلعة، فكان يقوم معبد إسكْولابْيوس Aesculapius أي إشْمون Eshmoun الذي هو أجمل وأغنى معابد المدينة. ويصعد إلى الحوزة المقدسة المحيطة به ب 60 درجة. ويحتمل أن هذا المعبد كان يشرف على المدينة، ويقع تبعا لذلك حيث تقوم كنيسة سانْلوي بالتقريب. ويقال إن المجلس – أي اللجنة الدائمة للمشيخة – وكذلك المشيخة قد عقدوا هناك اجتماعات ليلية في القرن الثاني. ولا نعلم أين كانت تقع المعابد الأخرى التي كانت عديدة والتي ذكر الكثير منها في النصوص والنقوش. ومن بين المعابد المهمة، هناك اثنان لابد أنهما للآلهة التي سماها الإغريق واللاتانيون باسم هيرا Héra، يونو Iuno، كرونوس ساترنوس Chronos Saturnos. وقد وصف الشاعر فرجيل Virgile معبدا أقامته ديدون Didon للربّة يونون Junon (في وسط المدينة). ويكون من قلة الفطنة أن نظن بأن الشاعر يقوم هنا

بعملية للآثار، وأنه أراد أن يعين لنا المحل الذي كان يقوم فيه المعبد الحقيقي ليونون بقرطاجة البونيقية. فتلّ يونون Junon قد أطلق عليه هذا الاسم في القرن التاسع عشر، لأن بعض العلماء اعتقدوا أن معبد الربة كان على هذا التل. وهو ظن لا يعتمد على حجة قوية.

في المدينة السفلى، بين تل سانلوي والبحر، وقع العثور على الآلاف من الأنصاب النذرية الصغيرة، وعليها كتابات التكريس للربة تانيتْ بني بَعْل Tanit Pené Baal وللرب بَعْل حمّون Baal Hammon، ويرجع تاريخها تقريبا للقرنين السابقين لتهديم قرطاجة على يد الرومانيين. وفي فَدّان البهيم – أي بين التلّ ودار بَسّيس وقصر دَرْماش – كانت هذه الأنصاب حقيقة تكوّن أكداسا. وكثير مثلها عثر عليه قرب هذه الأمكنة : أي بجوار القصر، وقرب محطة قطار قرطاج، وفي بئر الزّريق، وبين تلّ سانْلوي وتل يونون، وبجهة البحر وغير ذلك. كما عثر على مجموعات منها بجزيرة الميناء المستدير وبالجنوب الغربي لهذا الميناء. وأخيرا فإن نذورا منفردة أو قليلة العدد عثر عليها في أمكنة أخرى. ولا شك أن بعضا منها كان قد فقد أو أعيد استعماله في بناءات أحدث عهدا، بينما بعضها الآخر يظهر أنها نصبت بنفس المكان الذي استخرجت منه اليوم. ولم يُكرَّس أيّ نصْب قرطاجي لآلهة أخرى، بحيث إنها كانت مخصصة لتانيتْ بني بَعْل Tanit Pené Baal ولبعْل حمّون Baal Hammon، اللذين رآى فيهما الإغريق هيرا Héra وكْرونوس Chronos، ورآى فيهما اللاتانيون يونو Iuno وساتُرْنوس Saturnos. ولابد أنها كانت منصوبة بأمكنة مختلفة من المدينة وبأعداد كبيرة نسبيا. وفي "فَدّان البَهيم" بلغت من الكثرة إلى حد أن طرح السؤال : هل بالقرب من هنا كان يقوم المعبدان المخصصان للإلهين اللذين ابتهل الأتقياء إليهما

معا ؟ ويحتمل أن الأنصاب كانت تحيط بالمعبدين، وكانت تعلو أوعية مدفونة في التراب، وتضم بقايا القَرابين والهدي. وكانت النذور إذا ضاق بها الحرم المقدس تحمل لتترك المكان لنذور غيرها، ثم تطرح في مكان مجاور.

وبشمال الشمال الشرقي للبرج الجديد، وسط مقبرة بونيقية كبيرة، عثر على نقش هو عبارة عن إهداء لأَسْتارْتي Astarté وتانيتْ لُبْنان Tanit du Libanon ويحتمل أنها متأخرة عن القرن الرابع، وتشير لبناء معابد جديدة لهاتين الإلهتين. فهل اللِّيبَنون – أي الجبل الأبيض – كان يقع بقرطاجة بنفس المكان الذي عثر به على الكتابة المنقوشة ؟ لا يجب تأكيد ذلك، لأن الحجرة المنقوشة صغيرة الحجم جدا، ولربما أنها قد نقلت من مكانها بسهولة. ومن ناحية أخرى، ليس أكيدا أن الإسمين الإلهيين : أسْتارتي Astarte وتانيتْ Tanit يدلان هنا على ديمِتير Déméter وبِرْسفون Perséphone. كما أن اكتشافا يساعد على الاعتقاد بأن بناء مكرَّسا لسيريسْ Cérès قد كان موجودا بهذه الجهة في العهد الروماني، أمر لا يظهر لنا أنه حجة كافية. وفي بداية القرن الرابع بنى القرطاجيون معبدا – (فردا أو مزدوجا) – لديمتير Déméter وابنتها، اللتين كانوا يقيمون لهما الشعائر حسب الطقوس الإغريقية. ويحتمل جدا أن يكون هذا المعبد أقيم خارج المدينة بجهة ميگارا Mégara، ولكن موقعه لا زال مجهولا [13].

وقد كانت الأرض ثمينة بقلب المدينة القديمة، حوالي الساحة العمومية – لذلك فالطرق كانت قليلة الاتساع، وعلى جوانبها المنازل العالية التي قد تصل لستة طوابق. ولربما أن مساكن جميلة وفسيحة على ملك الأرستقراطية، قد بنيت في ميگارا بعيدا عن ضجيج الموانئ، وكانت في بساتين منعشة الهواء.

وبناحية دَرْماش، عثر فوق مقابر من القرنين السابع والسادس على بقايا من معامل وأفران ومخازن للخزافين. وهذه المؤسسات الصناعية التي كانت تصنع بها الأواني العادية والدّمَى ترجع للعهود الأخيرة من تاريخ قرطاجة البونيقية.

وكان التزود بالماء ذا أهمية فائقة لهذه المدينة الكبيرة. والهضبة لم يكن بها سوى بعض العيون المائية التي ليست غزيرة، كما أنها كانت بعيدة عن الأحياء التي تزدحم بها المساكن. ولكن نعثر على طول الساحل على الماء العذب في باطن الأرض، لذلك فقد حفر القدماء الآبار. ولا شيء يؤكد أن العهد البونيقي كانت به المياه الجارية تصل بواسطة جسور لجر الماء. ومياه الأمطار كانت تجمع في المخفيات، ويظهر أن كل منزل كانت له مخفيته، ولاشك أن صهاريج عمومية كبيرة قد وجدت، ولكن لا نستطيع أن نقول عنها شيئا. وقد عزا بعض علماء الآثار لقرطاجة الأولى المخفيات العريضة العتيقة الواقعة في الملقى وفي البرج الجديد، غير أن هذا الرأي لا يجد اليوم من يدافع عنه، لأن طريقة بنائها وترتيباتها الداخلية تشهد بأن هذه المنشآت رومانية.

إن ازدحام المدينة بالسكان، ولربما عدم وجود ما يكفي من الماء أيضا، إن كل ذلك لم يكن مناسبا للأحوال الصحية. والنصوص تذكر عدة من الأوبئة المرعبة التي خلفت كثيرا من الضحايا.

وليس لنا سوى إشارة واحدة عن عدد سكان قرطاجة. فحسَب سْترابون Strabon كانوا 700.000 شخص في بداية الحرب البونيقية الثالثة، أي في عهد الانحطاط. لكن وقع الاعتراض على صحة هذا الرقم. ولا شك أنه مبالغ فيه. وهناك أرقام أخرى يبدو أنها تناقضه. ولكن هل تستحق أن يطمأن إليها أكثر منه ؟ إن حَسْدربَعْل Asdrubal الذي كان

على رأس الجيوش أثناء السنة الأخيرة للحصار، لم يكن تحت إمرته – حسبما يقوله أپْيان Appien – سوى 30.000 محارب. وحين دخل الرومانيون المدينة التجأ – حسب هذا الكاتب – 50.000 من الرجال والنساء إلى بيرْسا Byrsa – وحتى إذا أدخلنا في حسابنا تكاثر الموتى في الشهور المتقدمة، فلابد من التسليم بأن أكثرية السكان لم تستطع اللجوء إلى القلعة. لكن أَپْيان Appien يقول عكس ذلك. وفي نهاية القرن الرابع، حينما نزل أگتوكْليس Agathoclès بغتة في إفريقيا وتوجه لقرطاجة، تكوّن بالمدينة على جناح السرعة جيش من 45.000 رجل كما يقول ديودور Diodore. ومن ناحية أخرى، فإن المساحة التي تغطيها المساكن كلية لم تكن بالغة السعة. فقد كانت محدودة عند الشمال بالمدافن الواقعة بين المدينة وميگارا، وكانت منقصة عند الجنوب الشرقي بوجود الحوضين والأرصفة ومباني الكوثون Cothon. والحق أننا لا نعلم حتى أين كانت تتقدم من جهة الغرب. ومع ذلك لا يمكن أن نجعلها مساحة تفوق بكثير 250 هكتارا. أما منطقة ميگارا الشاسعة فالمؤكد أنها كانت قليلة السكان، لذلك فنحن نتحفظ فيما يتعلق بالرقم الذي ذكره لنا ستْرابون Strabon. ومع ذلك فلا نعتقد وجوب الأخذ بأرقام أخرى، اقترحها علماء معاصرون، ناتجة عن إحساسات غامضة أو عن حسابات منقودة جدا.

8

قام الأب دُلاتْر Delattre بالاشتراك مع المصلحة التونسية للآثار بتنقيبات في هضبة قرطاجة. وبمواتاة الحظ وقع اكتشاف عدة مقابر من العهد البونيقي. ويساعد الأثاث الجنازي الذي تضمه هذه المقابر على

التأريخ لها بصفة عامة. ونعلم عن طريق الاكتشافات التي تمت في عدة من بلدان البحر الأبيض المتوسط متى صنعت بعض المجموعات من الأشياء التي جلبت إلى إفريقيا. وهكذا فالأوعية الصغيرة المصبوغة من الطراز الكورَنْثي، والخزف الذي من الطين الأسود المعروف باسم البوشيري Bucheri، المماثل لما عثر على الآلاف منه في أتروريا، كل ذلك يرجع بنا إلى نهاية القرن السابع والقرن الموالي له، كما أن الأوعية ذات الطلاء الأسود ذي المظهر المعدني تتوزع بين بداية القرن الرابع وأواسط الثاني - (ونعلم أن المدينة هدّمت في 146 ق.م) - أما المصابيح الإغريقية فأغلبها لابد أن يرجع للقرنين المتقدمين على الكارثة. والدّمَى التي من طين مشوي، سواء أكانت من صنع إغريقي أم تقليدا له، فطريقة صنعها تعطينا معلومات تأريخية ودقيقة إلى حد ما. ولا تصعد النقود المضروبة في قرطاجة إلى ما فوق منتصف القرن الرابع. أما الخزف المحلي الذي بفضل هذه المعالم الاستدلالية رتبت أصنافه المختلفة ترتيبا زمنيا، فيستخدم بدوره لتحديد زمن المقابر. ومن ذلك مثلا أن المصابيح المنبسطة تقريبا هي أقدم من التي لها جوانب تعلو جدا وتنقلب كثيرا نحو الداخل، بل وتلتحم بعد ذلك فتحيط بعنق ضيق. وكذلك الأوعية التي لها بلبلات، والتي نشاهد على استدارتها أنبوبا صغيرا منحرفا، وكذلك المرمدات ذوات البطن الواسع، والتي لها أذنان وذيل طويل جدا، وكذلك أيضا القارورات ذات الشكل المغزلي بعنق طويل وقائمتين طويلتين، كل ذلك لا يبدو أنه متقدم على القرن الرابع. أما عادة إحراق الموتى التي لا نشاهد لها وجودا في مقابر القرنين السابع والسادس، فإنها انتشرت أكثر فأكثر في القرنين الأخيرين لقرطاجة البونيقية. كما أن أنصابها تمثل شخصا رافعا يديه على هيأة الصلاة هي معاصرة لمدافن من عهد متأخر.

وسنكتفي بأن نعطي هنا بعض المعلومات الطبغرافية، محيلين على الجزء الرابع من كتابنا هذا لدراسة المقابر والطقوس والآثاث الجنازية.

إذا كانت قرطاجة قد تأسست حقيقة في 814 - 813 فلابد من التسليم بأن أقدم المقابر، أي التي حفرت في أواخر القرن التاسع وفي القرن الثامن، لم يقع بعدُ العثور عليها. وعلى النقيض من ذلك، فإننا نعرف عدة من مقابر القرن السابع، وعلى الخصوص تلك التي من القرن الموالي. فهي موجودة على الجانب الجنوبي الغربي لتل سانلوي. وكذلك على تل يونون Junon من جهة البحر بالسهل، بشرقي هذا التل الأخير وجنوب نجد الأوديون والبرج الجديد، توجد جبانة شاسعة الأطراف وترجع لنفس العهد، وقد فتح بها أكثر من 1300 قبر. فالقسم الغربي منها الذي نقّب به الأب دُلاتْر Delattre يعرف باسم جبانة دويمس Douimès كما أن القسم الشرقي الذي نقّب به كُكْلير Gauckler يعرف باسم جبانة دَرْماش. وكذلك فإن مقابر من القرن السابع وقع اكتشافها أيضا على المنحدرات الجنوبية للبرج الجديد.

بينما لم تكشف التنقيبات سوى عدد ضئيل من المقابر التي يمكن إرجاعها بالتأكيد إلى القرن الخامس، لأن الأشياء الإغريقية التي لابد أن تهْدينا تكاد تكون مفقودة بها. وذلك إما لأن التجارة لم تكن في هذا العهد تجلبها إلى قرطاجة، وإما لأن السراديب التي وضعت بها هذه الأشياء لم يعثر عليها بعد.

وبشمال جبانَتَيْ دويمَسْ - دَرْماش، توجد على المرتفعات قبور دفن بها الموتى في القرنين الرابع والثالث (14). وقد نقب في بعضها الواقع عند المسرح الروماني وتحته، أي بالمنحدر الجنوبي لنجد الأوديون، ونقب بأخرى في المكان المعروف باسم "دار الموالي"

بالجنوب الشرقي للأوديون، كما نقب بأخرى في أرضين لابن عطار، وشافّار Chaffard الواقعتين بالغرب وبالشمال الغربي لصهاريج وبطاريات البرج الجديد، وكذلك نقب بمنها عدد لا بأس به في أرض الخرائب بين الصهاريج وبطاريات البرج الجديد، وحتى تحت موقع البطاريات نفسها.

وبشمال الشمال الشرقي لنَجْد البرج الجديد، في اتجاه ميتم سانْت مونيك Sainte Monique، توجد جبانة كبيرة جدا، تعرف باسم جبانة سانت مونيك أو جبانة الربوب. وقد نقب بها الأب دُلاتْر Delattre عدة سنين وعاين بها مآت السراديب. وهي بصفة عامة أحدث عهدا من السابقة، ويبدو أنها استعملت منذ أوائل القرن الرابع حتى الثاني، وعلى الخصوص أثناء القرن الثالث.

على أن مقابر أقل قدما من مقابر المسرح و"دار المورالي" قد وقع اكتشافها بعيدا إلى الشمال فوق النجد، حيث بني في عهد سِبْتيم سِقِير Septime Sévère الأوديون الذي أزاحت مصلحة الآثار التونسية الأتربة عن خرائبه. وقد كتب تِرتوليان Tertullien قائلا : «منذ عهد قريب، حين إقامة أسس الأوديون بهذه المدينة انتهكت عدة من المقابر القديمة، فرأي الشعب برعب العظام التي لم تجف بعد نحو خمسمائة سنة والشعور التي احتفظت برائحتها»(15). وقد أكدت التنقيبات تماما هذه الإشارة المذكورة. فالمقابر التي عثر عليها تحت أسس البناية الرومانية ترجع على وجه التقريب للقرن الثالث وللنصف الأول من الثاني، حيث إن أقدمها تقع بالجنوب، بجوار المسرح. وفيها وضعت الجثث غير المحروقة، أما بالشمال فتقع المقابر التي تضم عدة موتى محروقين، وهذه ترجع لعهد قريب جدا من نهاية قرطاجة. والأثاث الجنازي بها

فقير جدا. فهي إذن جبانة لأبناء الشعب. ويعاصر قسم منها جبانة الربوب الأرستقراطية.

فنلاحظ إذن أن الجبانات من وراء المدينة القديمة، كانت تمتد من الجنوب إلى الشمال. كما أن جبانتي دْويمَسْ - دَرْماش لم تستعملا لموتى جدد بعد القرن السادس. وعلى النقيض من ذلك فإن السراديب القديمة الواقعة على المنحدر الجنوبي للبرج الجديد استخدمت أيضا في عهود متأخرة، أي في القرن الرابع أو الثالث. وعثر بتلّ يونون Junon على مدافن من العهد التاريخي الأسفل. وأخيرا ففي الجانب الجنوبي الغربي لتل سانلوي دفن عدة من الموتى إما بداخل المقابر القديمة، وإما فوقها. وفي اثنين من سراديب الجبانة القديمة وقع تكديس عدة عشرات من الجثث التي يصحبها أثاث من القرنين الثالث والثاني. وفي باطن الأرض دُسّت أمْفورات Amphores سليمة أو مكسرة، وهي تضم جثة طفل أو تغطي جسد شخص بالغ، كما أنّ هناك مرمدات مليئة بالعظام المحروقة، وهناك أيضا بقايا محروقة لا يصونها وعاء. وفي حفرة عامة مددت المآت من الهياكل العظمية، على شكل طبقات يعلو بعضها بعضا. وتؤكد النقود المصاحبة أن هذه الكوم من الجثث ليست سابقة للقرن الثالث، ولربما أن الدفن جرى بعجلة كبيرة أثناء بعض الدواهي. والمدافن الأخيرة الأخرى الواقعة بنفس المكان هل نرجعها أيضا لبعض الظروف الاستثنائية ؟ أو هل مدفن بيرْسا Byrsa بقي مستعملا منذ القرن السابع إلى تهديم المدينة، ولو أن المنازل - حسبما يقول سْترابون Strabon - قد وقع بناؤها حول التل ؟ إننا لا نستطيع قول شيء. ومع ذلك، فلنلاحظ أننا على ما يبدو لم نعثر هنا على قبور تؤرخ بالقرنين الخامس والرابع.

ونذكر أيضا بعض المقابر من العهد الأخير – العهد التاريخي الأسفل – التي عثر عليها هنا وهناك، بشمال منطقة الجبانات، أي في مْصيدْفَة، على 900 متر غرب الجنوب الغربي لقرية سيدي بوسعيد. وبقصر رئيس الأساقفة، على 800 متر عند الجنوب الشرقي للمَرْسَى. وعلى نحو 200 متر جنوب هذا القصر. وفي كدية الزعْتَر، على كيلومتر واحد جنوب الجنوب الشرقي للمَرْسى. لقد كان إذن مسموحا بدفن الأموات بجهة ميگارا، في الأرض التي كانت مِلْكية خصوصية لا شك. كما أن قبورا أخرى ترجع على ما يحتمل لآخر عهود قرطاجة البونيقية قدِ عثر عليها بين بحيرة تونس والبحر، قرب منشأ خط الكثبان، وبالكْرَم، وأبعد من ذلك قليلا ناحية الغرب.

الفصل الثاني

السيطرة القرطاجية على أفريقيا

1

في القـرن الخـامس ق.م كـونت قـرطاجـة لنفسـها منطقـة نجـهل حدودها. كمـا أننا لسنا أحسن معرفة بسعـة هذه الـمنطقـة في القرون التي تلت.

ونبدأ أولاً بتنحية المعلومات الغامضة والمخطئة. يقول سْترابون Strabon إن الفينيقيين استولوا على جميع البلاد التي ليس بها حياة البداوة[16]. ولا شك أن هذا الكلام غير صحيح، لأن التل بمنطقتي مدينة الجزائر ووهران منطقة زراعية – وذلك ما يعرفه سْترابون Strabon – ومع ذلك فلا شيء يبرهن على أنه كان خاضعا للقرطاجيين أو لفينيقيين آخرين. ويستحيل كذلك تصديق أَپْيان Appien [17] في ادعائه بأن قرطاجة كانت سيدة على أكثر من نصف ليبيا.

وقد سلم بعض العلماء المعاصرين بأنها كانت تملك قسما لا بأس به من ولاية قسنطينة. فحسب ملْتزير Meltzer الذي لم يدل بأي حجة، فإن سيادتها تكون امتدت على الساحل حتى فيلبْفيل Philippeville، بل وربما إلى أبعد من ذلك، حتى رأس بوگْرون Cap Bougaroun ومصبّ الوادي الكبير. وانطلاقا من هنا تكون حدودها قد اتخذت بصفة عامة وجهة الجنوب الشرقي، ثم وجهة الجنوب. وكان موفَرْس Movers من قبل قد أكد بأن المنطقة البونيقية بلغت رأس بوگرون. ويبدو أنه اعتمد في هذا الرأي على جملة لسْترابون Strabon تقول إن أرض الليبيين الفينيقيين Libyphéniciens تمتد داخل الأراضي التي فوق السواحل الواقعة بين أرض الماسيسيليّين Masaesyles والصيفال Céphales أي رأس مسراتة بالشمال الغربي لسدْرة الكبرى. لكن رأس بوگرون هو الحد الذي يعطيه الجغرافي الإغريقي للماسيسيليين من جهة الشرق. ولفظ "ليبيين فينيقيين" قد أخذ عدة من المعاني. فبعض الكتاب الذين هم أحدث عهدا من سْترابون Strabon يطلقونه على بعض سكان القسم الذي خضع من تونس للقرطاجيين. بينما الليبيون الفينيقيون عند بلْين القديم Pline l'Ancien وعند بطلِمي Ptolémée لم يسكنوا سوى مناطق ضيقة جدا. وهل أصاب سْترابون Strabon، أو على الأصح الكاتب الذي نقل عنه سْترابون Strabon، في إعطائه لهذا الاسم سعة عظيمة ؟ يسوغ لنا أن نشكّ. وعلى أي حال، لا يوجد نص يبرهن على أن هذا الاسم قد أطلق على مجموعة السكان الذين يعيشون في الأراضي المكونة لمنطقة قرطاجة. ومع ذلك فهذا هو ما يفترضه موفرْس Movers.

إن اللغة والحضارة البونيقيتين قد تركزتا بشرق الجزائر، حيث عاشتا لمدة طويلة جدا. ولكن ربما تكونان قد جلبتا إلى هناك بواسطة التأثيرات السليمة، وليس عن طريق الفتح العسكري. ولكي نؤكد أن

لقرطاجة قد ملكت هذه الأرض أو تلك المدينة، لابد من وجود الحجج الواضحة، وهي لسوء الحظ قليلة جدا.

عند الحديث عن إحدى الحملات التي قام بها أحد المساعدين العسكريين للقائد أگاتوكليس Agathoclès [18] في أواخر القرن الرابع، ذكر ديودور الصقلي Diodore Sicilien خمسة مدن وقعت على التوالي في قبضة الإغريق الذين قدموا من جهة الشرق، وهي : طوكاي Tocai، فلّيني Phelline، مسْكالا Meschala ، أكْراهيبو Acra Hippou وأخيراً أكْريس Acris. ويذكر بصراحة أن الأخيرة منها كانت حرة، لذلك نستطيع أن نفترض أن الأربع الأخر كانت تابعة لقرطاجة. فإحداها وهي أكْراهيبو كانت على البحر، ويحتمل أن تكون هي هيبون Hippone (بالقرب من بونة Bône). أما أكْريس التي لم تكن خاضعة للقرطاجيين فيبدو أنها كانت واقعة بشرق الجزائر. ونميل إلى الاعتقاد بأن فِلّيني كانت تقع بمنطقة أشجار الفَرْنان chêne-Liège بشمال نهر مجردة [19]. ولا مانع لدينا من أن نرى أنّ طوكاي هي ثوگا Thugga المعروفة اليوم باسم دُقّة Dougga جنوب هذا النهر.

إننا نعلم عن طريق پوليبْ Polybe وديودور Diodore [20] أن القائد القرطاجي حَنّون استولى حوالي 247 خلال الحرب البونيقية الأولى على هيكاتومْبيلوس Hécatompylos المدينة الإفريقية الكبيرة. وتنبئنا فقرة وردت عند سانْ جيروم [21] أن هيكاتومْبيلوس هي اسمٌ لثوفسْت Theveste وهذا الاسم – ثوفست – قد وقعت موازاته مع ثيباي أي طيبة المصرية التي وصفها هومِروس Homère بأنها هيكاتومبولوس (التي لها مائة باب [22]). وثوفسْت اليوم هي تبسّة Tebessa الواقعة بالجنوب الشرقي للقطر الجزائري.

وكانت سيكا Sicca أي مدينة الكاف في قبضة قرطاجة سنة 241، لأن المرتزقة الهائجين وقع إرسالهم إليها، إذ كان لابد من إبعادهم عن العاصمة، ولكن مراقبتهم كانت ضرورية. وكان حَنّون هو الحاكم على قسم ليبيا الخاضع للقرطاجيين، فأسندت إليه الجمهورية أمر ردهم إلى الصواب.

وقد وسع عَمِلْكار بَرْكا Amilcar Barca المنطقة البونيقية بعد حرب المرتزقة سنة 237-238، كما أن صهره حَسْدُرْبَعْل Hasdurbal أخضع بعض النوميديين وألزمهم أداء الجبايات.

بعد ذلك رأى القرطاجيون گايا Gaia مَلِكَ المسيليين ينتزع منهم بعض الأراضي التي استردها لهم منه سيفَكْس Syphax ملك الماسيسيليين من بعد. وفي سنة 203 كان القرطاجيون متحكمين في السهول الكبرى التي يحتمل جدا أن تكون هي سهول سوق الأربعاء وسوق الخميس، أي دَخْلَة أولاد بوسالم التي يخترقها نهر مجَرْدة. وقد احتفظوا بهذه السهول بعد حرب حَنِيبَعْل Hannibal، غير أن مَداوْرُس Madauros الواقعة بين سوق أهْراس وتبِسّة لم تخضع لهم، لأنها في نهاية القرن الثالث خرجت من يد سيفَكْس واستولى عليها مَسّنيسا ابن گايا. وبالطبع فإنهم لم يحكموا سِرْتا Cirta أي قسطنطينة الواقعة بعيدا إلى الغرب، لأن هذه المدينة كانت إحدى عواصم سيفَكْس Syphax سنة 203، ومنذ نهاية 206 لا شك.

في مكان آخر سندرس تطاولات مسِّنيسا Massinissa خلال النصف الأول من القرن الثاني. وهي تطاولات أحالت قرطاجة إلى المنطقة التي جعل منها الرومانيون ولايتهم الإفريقية سنة 146. فمن جهة الجنوب كانت الحدود تصل إلى ثيناي Thaenae – هي اليوم ثينة – قرب

سفاقس، بعد أن مرت قريبا جدا من مدينتين بحريتين، هما هَدْروميت Hadrumète أي سوسة وأشولا Acholla (جهة رأس كبودية). ونتسائل هل امتدت في عهد سابق السيطرة البونيقية بين هذه الحاشية الضيقة التي تساير الساحل التونسي وبين ثوقسْت Theveste التي استولى عليها حنّون حول سنة 247 ؟ إنه افتراض مقبول، ولكنه مجرد افتراض. أما كَبْسا Capsa – هي اليوم قَفْصة – فكانت في نهاية القرن الثاني مدينة كبيرة. ولعل القرطاجيين سبق لهم أن احتلوها قبل ذلك، بحيث يكونون قد فهموا القيمة الستراتيجية والتجارية لهذا المكان الذي هو عبارة عن واحة مزودة بما يكفي من الماء في منطقة جافة، كما أنها ملتقى لعدة طرق طبيعية بين خليج قابس والقطر الجزائري، بين موسّطة تونس ومنطقة الشطوط. ومع ذلك فلابد من وجود حجج أكثر إقناعا من الحكاية التي تعزو تأسيس قَفْصَة إلى هرقل الفينيقيّين (23)، وأكثر إقناعا أيضا من أن هذه المدينة كان يوجد بها في عهد تْراجان Trajan ولاة يحملون اسم "السوفيت" Sufète الفينيقي.

ولم تكن الأرض الإفريقية وأهلها التابعون لقرطاجة خاضعين جميعا لنظام موحد، بحيث كان هؤلاء الأهالي يُدعى بعضهم باسم الليبيين، كما يُدعى الآخرون باسم النوميديين. فاسْمُ ليبوس Libyes الذي كان عند هيرودوت (24)، وعند كتّاب آخرين أحدث منه عهدا يدل عموما على أهالي شمال إفريقيا من مصر حتى المحيط، قد أخذ مدلولا أضيق، وأطلق على رعايا قرطاجة الذين يعيشون بالمنطقة التي استلحقتها رسميا، والذين كانوا ملزمين بالخدمة العسكرية وبأداء الضرائب المنتظمة. وبهذا المعنى استعمله ديودور الصقلي (ربما نقلا عن تيمي Timée) واستعمله پوليبْ Polybe. أما طْروگ بومْبي Trogue-Pompée

وتيتْ ليف Tite-Live اللاتانيّان فيترجمانه بكلمة أفْري Afri التي يجهل أصل اشتقاقها[25]. أما لفظ نوماد Nomades فهو إما أن يكون النعت الإغريقي نوماديس Nomades الذي صار اسما علما، وإما أنه، وفي الغالب، صيغة محرفة بسبب جناس لاسم قبيلة إفريقية، ويكون اللاتانيون بدورهم كتبوه بصيغة نوميداي Numidae. وهو كما نشاهد عند ديودور Diodore وپوليبْ Polybe [26] كان أول الأمر يدل على جميع أهالي بلاد البربر الذين لم يكونوا خاضعين لقرطاجة حتى المحيط غربا والصحراء جنوبا، وفيما بعد لم يعد يطلق على سكان شمال المغرب الذين لم يعودوا يسمون إلا باسم ماوْروسِيوي Maurousioi والموري Mauriولا على نوماد البراري الذين يسمون باسم گايْتولوي Gaitouloi وگايتولي Gaetuli.

ومن بين النوميديين، كان يوجد بجوار المنطقة البونيقية نفسها من اعترفوا طوعا أو كرها بسيادة الجمهورية، مع احتفاظهم بصفة حلفاء. وكانت هذه السيادة مضمونة بوسائل مختلفة، من بينها إرسال حاميات إلى بعض المدن. ولكنها لم تكن قوية قوة السيطرة الواقعة على الليبيين. ولابد أنها امتدت قليلا أو كثيرا نحو الغرب والجنوب، وكانت خطوات التقدم تتعاقب مع التقهقر.

ويحتمل أيضا أن الحدود بين ما يمكن تسميته بأرض الإمبراطورية التي يسكنها الليبيون، وبين منطقة الحماية التي يسكنها النوميديون، لم تكن دائما نفس الحدود. والنصوص التي تذكر مدنا واقعة على مسافة بعيدة من قرطاجة وتخضع لها، لا تساعدنا مطلقا على معرفة نوع الرباط الذي يربطها بها. إن ديودور يذكر وجود النوماديس بالقرب من طوكاي، وبالتالي الأهالي الذين يعيشون خارج المنطقة البونيقية

حقيقة، وهذا يكون علامة تبيّن – ومع كثير من الالتباس – سعة هذه المنطقة حوالي نهاية القرن الرابع، إذا كانت طوكاي حقيقة هي دُقّة Dougga. لقد استلم حَنّون 3000 من الرهائن عقب استيلائه على ثوفست Theveste. وهذا الرقم عال جدا، لذلك فهو يسمح لنا بافتراض أن المدينة لم تلحق بأراضي الإمبراطورية التي كان لا شك لقرطاجة فيها وسائل أكثر فعالية لضبط رعاياها في نطاق الواجب.

وبمناسبة المعاهدة التي أنهت حرب حَنيبَعْل، وردت عند أَپْيان Appien إشارة تخبرنا أن القرطاجيين كانوا قد وضعوا حاميات بالمدن الواقعة خلف "الخنادق الفينيقية"، وأنهم أخذوا الرهائن من هذه المدن. والحق أن هذه الخنادق، حسب بعض العلماء، لم تكن موجودة في العهد البونيقي. فلابد أنها هي الحفير الملكي Fossa regia الذي أمر سيبْيون إيمِلْيان Scépion Emilien بحفره بعد تهديم قرطاجة ليبيّن حدود ولاية أفريكا التي كانت سعتها كما ذكرنا هي سعة المنطقة التي تركها مسّنيسا لمجاوريه. فيظهر أن أحد الكتاب الرومانيين كان يهمه تبرير الاغتصابات التي قام بها الملك، فاستحسن تزييف المعاهدة المعقودة سنة 201، وأضاف إليها فقرة تلزم المغلوبين بإخلاء جميع الأرض خارج هذا الحفير الذي أسماه كذباً باسم "الحفائر الفينيقية". ولم تلق هذه التنسيقات بنصّ وارد عند أوماخوس Eumachos [27] الذي يحتمل أن يكون أحد مؤرخي حَنيبَعْل، والذي يذكر بما يكفي من الوضوح الحفير الذي حفره القرطاجيون حول منطقتهم نفسها. فالحفائر الفينيقية إذن كانت تبين حدود أراضي الإمبراطورية. فإلى أي عهد يرجع تاريخها ؟ إننا نجهل ذلك. ولربما أن هذه الحدود وقع تخطيطها في العهد الذي قام فيه عملْكار بَرْكا بتمديد حدود السيطرة البونيقية [28].

وحسب ما يرويه أبيان Appien، فإن معاهدة 201 قد تركت لقرطاجة المنطقة الموجودة دون الحفائر، ولكنها ألزمت بحسب جميع حامياتها مما خلفها. فيحق لنا إذا كان هذا صحيحا أن نعتقد بأن السهول الكبرى وكذلك ناحية دوقة Thugga قد كانت تقع دون الحفائر. فقرطاجة كانت لا تزال تملكها بعد ذلك بأربعين سنة. غير أنه لا يعقل أن تكون باحتفاظها بهذه الجهات قد خرقت واحدا من أهم شروط المعاهدة. ولمدة خمسين سنة أبدت لروما كثيرا من الانقياد وكثيرا من التواضع، لذلك فلا نستطيع التسليم بأنها دفعت بنفسها جهرا لارتكاب الخطأ، ولا أنها أقدمت على التشكي بعدما جردها مَسِنّيسّا مما حازته عن غير حق. فالحفائر إذن كانت تمر غرب السهول الكبرى، ولكن على بعد قليل منها، حيث أن مَدَاوْرُس كانت سنة 203 في مِلْك سيفَكْس Syphax حليف القرطاجيين الذي رد عليهم أرضا استولى عليها گايا Gaya، والذي لا شك أنه لم يستول على مدينة واقعة داخل الحدود الرسمية التي احتفظوا لأنفسهم بكامل ملكيتها.

ولابد من القول بأن پوليبْ Polybe يذكر بصفة مغايرة شروط المعاهدة المتعلقة بالمناطق التي تركت لقرطاجة أو انتزعت منها. كما أنه لا يشير للحفائر البونيقية. وهذا حسب رأينا ليس حجة في إنكار وجودها، بل إنه حجة في إشعارنا بالشك في صحة الفقرتين اللتين تذكرانها حسب أَپْيان Appien، كما تشعرنا بالشك في قيمة النتائج التي يمكن استخلاصها حول موقع هذه الحفائر.

ونظرا لجهلنا الكبير بسعة الأراضي التي خضعت لقرطاجة من بلاد البربر الشرقية منذ أواسط القرن الخامس، فإنه ليستحيل علينا أن نقدر ولو بصفة إجمالية عدد السكان الذين كانوا يعيشون بها. ويزعم

ديودور أن 200.000 من الأهالي والعبيد الثائرين قدموا حوالي 395 لمحاصرة العاصمة. لكن ليس لدينا من وسيلة للتدقيق في هذا القول. وكذلك فإن پوليبْ Polybe بعدما أكد بأن أغلب سكان ليبيا أبدوا الاستعداد للانضمام إلى المرتزقة الثائرين سنة 240، قال إن هؤلاء الثائرين انضم إليهم 70.000 ليبي في ناحية قرطاجة [29]. وعلى فرض صحة هذا العدد، وعلى فرض أن قومة شعبية قد حدثت، فهذا يجعل السكان نحوا من 500.000 نسمة، ويكون العدد ضعيفا. لكن، لو أن جميع الرجال القادرين على حمل السلاح قدموا من جميع أنحاء الولاية، فهل كان بالمستطاع إطعامهم ؟ وهل جميع السواعد المتهيئة كان لابد منها لدحر القرطاجيين الذين كان الوهن قد أخذ منهم مأخذه ؟ ونقرأ في مكان آخر أن سيبْيون الإفريقي Scipion l'Africain استولى سنة 204 على 8000 أسير في إحدى المدن المجاورة لأوتيكا Utique، وأن الرومانيين قبل ذلك بنصف قرن أسروا 20.000 أو 27.000 أسير أثناء حملة قصيرة لم تتجاوز هضبة الرأس الطيب، حيث جاءوا من البحر[30]. ولكننا لسنا في حاجة لهذه النصوص الواهنة لنتيقن بأن أحواز قرطاجة قد كانت مكتظة بالسكان.

ويشير كتاب مختلفون إلى وجود عدد كبير من "المدن" في المنطقة البونيقية. والقائد أكتوكْلس Agathoclès استولى منها بسرعة على أكثر من مائتين في منطقة قرطاجة، وكذلك في المنطقة التي كانت توجد بها نيابوليس Néapolis وهَدْروميت Hadrumète وثَبْسوس Thapsus أي في منطقة الساحل خلف الضفاف الشرقية للقطر التونسي. كما أن مائتين من المدن قد خضعت لرِيگُلوس Régulus. وفي مدة عامين، أي من 174 إلى 173 انتزع مسِّنيسّا من يد مجاوريه سبعين مدينة وحلّة Bourg، كما

انتزع منهم بعد ذلك خمسين مدينة في إقليم دقة Thugga. وفي أواسط القرن الثاني أيضا كان لا يزال حسب سْترابون Strabon ثلاثمائة مدينة تابعة للقرطاجيين بالمنطقة التي انتقصتها اغتصابات الملك النوميدي.

من الواضح أن جميع هذه الأمكنة المسكونة لم تكن مدنا بالمعنى الحقيقي، وأن الكتاب كانوا يطلقون هذا الاسم حتى على القرى. وزيادة على هذا يمكن أن نسلم بأن أكثرية الأهالي المستقرين لم يكونوا يعيشون متشتتين في الأرياف، بل كانوا يكوّنون تجمعات متفاوتة الأهمية، ولا شك أن كثيرا منها ظهر للوجود قبل الفتح البونيقي. فطبيعيا أن الأهالي أتوا وتجمعوا عند منابع المياه، وفهموا أن تأمين سلامتهم كان يفرض عليهم أن يتجمعوا. إذ حتى في عهد السيطرة القرطاجية كان يُخشى من الهجمات المفاجئة التي يقوم بها النهاب.

ويزعم جُسْتان Justin أن المدن والحلل الإفريقية كانت تنتشر في الأرض المنبسطة. وهذا صحيح بالنسبة لبعض المراكز في الساحل، وفي السهول الكبرى التي يخترقها نهر مْجَرْدة، وكذلك بالنسبة لبعض المناطق الأخرى. لكن الأهالي على العموم كانوا يفضلون الإقامة بالمرتفعات، حيث الدفاع يكون سهلا وحيث الهواء نقي. ويضيف جُسْتان أن هذه المدن والحلل لم تكن لها أسوار. وهذا خطأ ثان من جانبه. لأن الكثير منها كان محصنا كما يبرهن على ذلك عدة نصوص وربما حتى بعض البقايا الأثرية.

هل أسست قرطاجة لنفسها مستوطنات بداخل الأراضي ؟ ليس لدينا ما يؤكد ذلك، بحيث أن الأراضي التي خضعت لها أو نفترض أنها خضعت لها لا نجد نحن أي محل فيها يحمل اسما من أصل فينيقي غير مشكوك فيه.

لم يذكر المؤرخون سوى القليل جدا من أسماء مدن المنطقة البونيقية. كما أننا نجهل عادة أين كانت تقع. ومن ناحية أخرى لم تقع اكتشافات أثرية تشهد بصفة قاطعة بأن المدن المزدهرة في القرون الميلادية الأولى، كما تشهد بذلك خرائبها، قد كان لها ماض عريق جدا.

والمدينة التي يتردد اسمها كثيرا عند الكتّاب هي تونس Tynès وتحمل اليوم نفس الإسم. وقد أقيمت هذه المدينة بالجنوب الغربي للبرزخ الذي يربط هضبة قرطاجة باليابسة، على 16 كيلومترا من تل بيرْسا Byrsa. وقد احتلتها في حقب مختلفة جيوش قدمت لحصار العاصمة أو لتهديدها. وهكذا استولى عليها الليبيون في بداية القرن الرابع، وكذلك أكاتوكْلِس، وريگُلوس، والمرتزقة الثائرون ثم سيبْيون الإفريقي (31). وكانت محاطة بأسوار، وتغطي أحد المرتفعات فوق اللسان الذي يفصل بحيرة تونس عن "سبْخة السجّومي"، لذلك فالوصول إليها براً إنما كان من ناحيتي الشمال والجنوب. أما البحيرة التي كانت قابلة للملاحة وتتصل بالبحر الأبيض المتوسط، فقد كادت تجعل منها مدينة بحرية.

أما تونس البيضاء Tynès la blanche التي استولى عليها أكاتوكْلِس بعد ميگليبوليس Mégalépolis فهي محلّ آخر. ولا نعلم بالتدقيق موضع هاتين المدينتين الواقعتين بين قاصية هضبة الرأس الطيب وقرطاجة. وكذلك فإن معلوماتنا ليست أحسن حالا فيما يخص أدون Adyn المدينة المهمة التي حاصرها ريگُلوس Régulus، والتي ربما كانت تقع جنوبي تونس. ومثل ذلك يقال عن گُرْزا Gorza التي ذكرت من بعد، والتي يظهر أنها كانت على بعد قليل من أوتيكا، أما سلِيكا Salaeca التي ذُكر اسمها بمناسبة حملة سيبْيون الإفريقي، فكانت على نحو خمسة عشر ميلا، أي

22 كيلومترا، من معسكر روماني أقيم على بعد ميل واحد من أوتيكا، ولا شك أنها كانت بغرب هذه المدينة. ولا نعلم شيئا مدققا عن ثولوس Thoulos وأندا Anda ولا عن أبا Abba المذكورة أيضا باسم أوبا Obba. وكلها ذكرت بمناسبة نفس الحملة، وكلها لم تكن تبعد كثيرا عن أوتيكا وقرطاجة. أما ثودَليس Teudalis التي انضمت إلى الرومانيين إبان الحرب البونيقية الثالثة فكانت على قول بْلين Pline بالقرب من هيبوديارِتوسHippo Diarrhytus أي مدينة بنْزَرْت بداخل الأراضي. وكذلك تيزَكا Tezaga التي استولى عليها الرومانيون سنة 148، فكانت على ما يظهر تقع على بعد قليل من قرطاجة. ونفِريس Néphéris الموقع الحصين الذي استولى عليه سيبْيون الأميلي Scipion Emilien في شتاء سنة 146-147 كانت بشرق جبل الرصاص، على جانب الدارة المعروفة باسم خَنْقَة الحجاج، وكانت تقوم فوق الصخور على ارتفاع نحو 250 مترا. وفي سنة 150 حاصر مسِّنيسّا مدينة أورُسْكوبا Oroscopa كما أسماها أَپْيان Appien الذي قد يكون نقل عن پوليبْ Polybe. ونحن نجهل موقع هذه المدينة التي ربما كانت مدينة جبلية نظرا للاسم الإغريقي الذي أطلقوه عليها. والمكان المعروف باسم ڤاكا Vaga – هي اليوم باجَة – شمالي نهر مْجَرْدة، لا شك أنه كان من ضمن المنطقة البونيقية. وحيث أن هذه المدينة لم تشملها حدود الولاية الرومانية فالمعتقد أن مسِّنيسّا استولى عليها. وقد عُثر بها على سراديب جنازية من الطراز الفينيقي، ويمكن أن يكون تاريخ هذه السراديب من عهد لم تعد فيه باجَة مِلْكاً لقرطاجة (32).

ولم يرد ذكر للمدن التي كانت موجودة بالسهول الكبرى وسقطت في قبضة الملك النوميدي. فقد قال أَپْيان Appien إن هذا الملك أصبح سيّداً للمنطقة المعروفة باسم توسْكا Tusca والتي بها 50 مدينة. وحيث أن القدماء كانوا يطلقون اسم توسْكا على الوادي الكبير، وهو النهر

الذي يصب في البحر الأبيض المتوسط قرب طَبَرْقَة بعد اختراقه لأرض خمير، فإن تيسّو Tissot وآخرين معه قد افترضوا بأن المقصود بمنطقة توسْكا هو هذه الأراضي. ولكن يصعب التسليم بوجود هذا العدد من الأمكنة المسكونة بجبال خمير وغاباتها، حيث الخرائب الأثرية القديمة قليلة العدد. لذلك فيحسن عوضا عن ذلك، التفكير في ثوگا Thugga التي هي اليوم دُقّة Dougga بجنوب نهر مْجَرْدة. إننا نعلم أن الناحية التي توجد بها دقّة قد كانت آهلة بالسكان حتى قبل عهد الميلاد، ونعلم أيضا أن القرطاجيين لم يعودوا يملكونها في أواسط القرن الثاني، لأنها لم تكن من ضمن الولاية الرومانية. وإذا جعلنا ثوگا Thugga هي طوكاي Tocai التي استولى عليها أحد المساعدين العسكريين للقائد أكاتوكْليس، تكون إحدى المدن المهمة قد كانت موجودة هنا منذ نهاية القرن الرابع، ولا نزال نرى حتى اليوم في دقّة مدافن أهلية قديمة، فلربما أن البعض منها يرجع لعهد السيطرة البونيقية. كما أن نقشا عثر عليه في قرطاجة، وهو عبارة عن نذر لتانيت بُنْي بَعْل Tanit Pené Baal وبَعْل حَمّون Baal Hammon، يذكر اسما ربما لأحد الليبيين المنتسبين إلى ثوبرْسِكو Thubursicu أي طبِرْسُق، المكان المجاور لثوگا Thugga.

والمعركة التي انتصر فيها سيبْيون على حَنيبَعْل جرت على ما يحتمل بالقرب من زاما Zama، ولكننا نجهل هل كانت هذه المدينة إحدى المدينتين اللتين نعرفهما وتحملان نفس الاسم. فأولاهما كانت بالشمال الغربي للقيروان، بينما الثانية كانت شمال مَكْثَر Maktar، ونتيجة لذلك لا نستطيع القول أين كانت تقع مَرْگَروس Margaros أو نَرَگارا Naraggara، ولا پَرْثوس Parthos وسيلاّ Cilla وثون Thon، وكلها حلَلٌ واقعة بالقرب من ميدان المعركة. ويذكر أَپْيان Appien مدينة اسمها مَرْثاما Marthama

التي جمع فيها حَنيبَعْل جنوده بعد فراره إلى هَدْرُميت (سُوسة). وقد سبق لنا الحديث عن سيكا (الكافْ) وثوفست Théveste (تبِسّة) اللتين كانتا في القرن الثالث تابعتين لقرطاجة.

3

إن الكتاب المعروف غلطاً باسم رحلة سيلَكْس Scylax، والذي كتب في أواسط القرن الرابع ق.م، يذكر مجموعة من أسماء الأماكن طوال ليبيا، من سدْرَة الكبرى إلى أعمدة هرَقْل، ويضيف قائلا : «جميع هذه المدن والمتاجر يملكها القرطاجيون». ويقول بوليبْ Polybe : في بداية الحرب البونيقية الثانية (الواقعة سنة 218) كان القرطاجيون سادة على جميع سواحل البحر الداخلي من أضرحة فيلين Philène بسدرة الكبرى حتى الأعمدة. ونعرف من جهة أخرى أن قرطاجة كانت لها مستوطنات على الساحل الإفريقي للبحر المحيط الأطلسي.

ولدينا ما يسوغ الاعتقاد بأنها نشرت سيطرتها على سواحل الأبيض المتوسط قبل عهد الرحلة بكثير. فمن عهد باكر بالتأكيد، ولربما في النصف الأول من القرن الخامس، وطّن حَنّون المستوطنين على الساحل الغربي للمغرب، بل وحتى وراءه.

والمدن البحرية التي كانت ضمن الإمبراطورية القرطاجية، كان البعض منها مستعمرات فينيقية قديمة، مثل لبْتيس Leptis، وهَدْرُميت Hadrumète، وأوتيكا Utique، وإحدى المدينتين المعروفتين باسم هيبون Hippone، ولِكْسوس Lixus، بينما كان البعض الآخر مستعمرات حديثة قامت لا شك على الأبيض المتوسط وعلى ضفاف المحيط.

ويصف ديودور سكّان هذه المدن بأنهم ليبيون فينيقيون Libyphéniciens. وهو لفظ نلاقية في نصوص أخرى، ومعناه غالبا (فينيقيوليبيا). ولربما يكون قد أعطي معنًى أضيقَ، لأن فقرة من سترابون Strabon تساعد على افتراض أنه أطلق بالخصوص على المستعمرات المتدرجة بين رأس بوكَرّون عند شمال قُسّنْطينة ورأس مسْراتَة بمدخل سَدْرة الكبرى. أما المستعمرات الواقعة غربا حتى المحيط فكانت تحمل اسم الميتاكونيت Métagonites.

ويكون من عدم التبصر تصديقنا لپوليبْ Polybe في قوله : إن القرطاجيين كانوا سادة على جميع السواحل. والمحتمل هو أن سيطرتهم لم تكن ممتدة إلا على طول السواحل المحيطة بالمنطقة التي استتبعوها لأنفسهم في بلاد البربر الشرقية. وفي غير ذلك لابد أن الأهالي كانوا يشغلون قسما مهما من السواحل، بين مكان بونيقي وآخر، وأحيانا حتى في الجوار المباشر للمدن الفينيقية والبونيقية نفسها. وكان من صالح الجمهورية أن لا يبدي لها العداء هؤلاء الأهالي. ولا شك أن أهل قرطاجة قد كانت لهم بعدة أماكن بعض المتاجر، ومأوٍ يترددون عليها، وأمكنة لتزويد سفنهم بالماء العذب ومحطات للصيد البحري. غير أن رؤية أثرهم في مكان ما ليس دليلا على وجود مستعمرة حقيقية.

إن الأمكنة التي اختارها الفينيقيون والقرطاجيون لينشئوا بها المدن شاهدة على معرفتهم بالسواحل الإفريقية، حيث الموانئ الصالحة قليلة جدا. لقد كانوا يتذكرون كلاًّ من صُور Tyr وأرادوس Arad، فيفضلون أن يقيموا بالجزر القريبة جدا من اليابسة، حيث يقل تعرضهم للهجمات المباغتة، وحيث كانت سفنهم من وراء الجزيرة الملجأ من الهيجان البحري. وكانوا يستقرون بالرؤوس لأن نتوؤها يوقف الرياح

الخطيرة، ولأن البحارة يرونها من بعيد، ولأنها قد تتيح موقعا دفاعيا حسنا. وبهذا نفسر كثرة الأماكن التي تبتدئ أسماؤها بكلمة "روس" (روش) التي معناها رأس cap بالفينيقية. وحيث إن مستعمراتهم كانت مراكز تجارية، فلابد أنها كانت أيضا، وبقدر ما استطاعوا لذلك سبيلا، عند نهاية الطرق الطبيعية الآتية من الداخل، والتي غالبا ما تساير مجاري المياه. لكن، نظرا لكون الرسوبات تتراكم عند مصبات الأنهار وتحوّل هذه المصبات عن مواقعها، كما هو الشأن في البحر الأبيض المتوسط الذي ينعدم فيه المدّ، فإنهم كانوا يبتعدون قليلا عن هذه الأنهار. وعلى النقيض من ذلك فإنهم أقاموا على طول المحيط عدة مدن عند الأنهار التي، رغما عن الحواجز البحرية الخطيرة، كانت مصباتها أحسن الملتجآت بساحل مستغلق.

وكانت هذه المستعمرات محصنة. ذلك ما يجب التسليم به حتى ولو أن المصادر لم تذكره بالنسبة للكثير منها. ودون أن نتحدث عن القراصنة، فإن الأفارقة كان لهم ميل شديد إلى النهب، مما يدعو لأخذ الاحتياط منهم.

ويحتمل أن بعضا من المدن قد انحصرت مساحتها فيما تحيط به أسوارها، وأن غيرها قد ملكت من الأراضي ما لا نعلم عنه شيئا مدققا. ويظهر أنه لا جدوى من محاولة تقدير عدد السكان بمدن نعلم بوجودها فحسب، بحيث لم يصلنا سوى خبر واحد : وهو أن حَنّون الذي ذهب لتأسيس سبع مستعمرات، صحب معه على ما يظهر 30.000 رجل وامرأة. ولكن هل هذا الرقم صحيح ؟ وفي أمكنة مختلفة، بل ربما في جميع الجهات، كان المستوطنون الذين هم من أصل فينيقي يتقبلون الأهالي ويتآلفون معهم بالزواج، الأمر الذي أحدث، وإلى حد ما من العمق، تغييرا

لى أخلاقهم. ذلك ما يقوله سالوسْت Saluste عن لبْتيس Leptis الواقعة بين الخليجي سَدْرة. وفي غيرها اكتشفت آثار تشهد بقيام حضارة مختلطة(33).

وسنذكر فيما يلي المدن التي كانت على سواحل إفريقيا، وكانت تابعة لقرطاجة، ولا شك أن ما سنورده به نقصان كبير. إن پوليبْ Polybe يخبرنا أن هذه المدن كانت كثيرة العدد بجهة سَدْرة التي لن نذكر لها سوى اثنتي عشرة مدينة. ولكن كتابات من العهد الروماني، وعلى الخصوص مؤلف بطلِمي Ptolémée، والتعليمات البحرية المعروفة باسم (Stadiasme de la grande Mer)، وجدول بوتِنْگير Peutinger، ورحلة أنطونان Antonin، كلها تذكر جملة من المواضع البحرية. ولابد أن نفترض بأن الكثير منها مسكون في العهد البونيقي، لكن لا يحسن أن نختار في هذه الوثائق - وبدون تبصر - أسماء نتمم بها النقص الواقع في نصوص تتعلق بعهود أكثر قدما. لهذا فإن رحلة سيلَكْس Scylax ستكون أهم مصادرنا. كما أن إشارات قليلة عن مدن ساحلية، قد وردت مبعثرة في المؤلفات التاريخية لكل من پوليبْ Polybe وديودور الصقلي وتيت ليڤْ Tite-Live وغيرهم. وتعرفنا رحلة حَنّون بعدة مستعمرات على المحيط الأطلسي. واحتفظ لنا إتيان البيزنطي Etienne de Byzance بعدد قليل من الأسماء المنقولة عن المؤلف الجغرافي الذي كتبه هيكاتي المليتي Hécatée de Milet في نهاية القرن السادس أو بداية الخامس. لكن لم يمكن التعرف عليها وتعيينها باستثناء مدينة واحدة أو اثنتين. وزيادة على ذلك لا يتأكد أن الأمر هنا يتعلق بمراكز فينيقية، باستثناء مدينة أهلها «ليبيون فينيقيون» ومدينة «للفينيقيين بليبيا»، ومدينة أخرى وجزيرة تقعان «في ليبيا التي للفينيقيين».

وحتى إذا طرحنا جانبا افتراضات الاشتقاقات اللغوية المنقودة، فإننا نلاحظ أن الأسماء التي من أصل فينيقي يكثر وجودها على سواحل شمال إفريقيا في القرون الميلادية الأولى. والمعتقد أن هذه الأسماء أطلقت على مدن ومتاجر أسسها فينيقيو المشرق أو القرطاجيون. على أن هؤلاء أمكنهم أن يطلقوا أسماء من لغتهم على بعض المراكز الأهلية التي كانوا يترددون عليها، كما أمكنهم الاحتفاظ بالأسماء الليبية لأماكن أخرى استولوا عليها. والأفارقة أنفسهم أمكنهم استخدام أسماء أجنبية عن لغة آبائهم، والكثير منهم خضعوا لتأثير الحضارة البونيقية. ومع ذلك فإن الاستعمال الرسمي للغة الفينيقية في بعض المدن بعد سقوط قرطاجة، كما تشهد بذلك بعض النقود البلدية، ليست برهانا حاسما على الماضي الفينيقي لهذه المدن. وهذا صحيح، خصوصا وأن بعض الأحجار تحمل كتابات تكاد تكون كلها ذات طابع شخصي، وقد نقشت هذه الكتابات في أبجدية من الطراز المعروف باسم البونيقي الجديد Néopunique، كما هو الشأن في أغلب الكتابات على النقود[34]. وكذلك، فإن بعض التنقيبات بالمدافن قد أطلعت أثاثا جنازيا مماثلا للذي يعثر عليه بالمقابر التي هي أقل قدما في قرطاجة الأولى. وبدون شك فإن هذا الأثاث كان مستعملا بالخصوص في المدن التي كان سكانها ينتمون لسكان العاصمة، غير أن التجارة نشرته أيضا بين الأهالي.

فنرى أن بحث أسماء الأمكنة، والنقود، والنقوش، والمكتشفات الأثرية، إذا كان يجلب تكملة مفيدة للمعلومات الهزيلة التي نعلمها من النصوص، فإن هذه الشهادات ليست ذات قيمة غير منازع فيها. وستتضاعف كمية المكتشفات، ومع ذلك فلا أمل في أن تتسع معرفتنا

في أخلاقهم. ذلك ما يقوله سالوسْت Saluste عن لبْتيس Leptis الواقعة بين خليجي سَدْرة. وفي غيرها اكتشفت آثار تشهد بقيام حضارة مختلطة(33).

وسنذكر فيما يلي المدن التي كانت على سواحل إفريقيا، وكانت تابعة لقرطاجة، ولا شك أن ما سنورده به نقصان كبير. إن بوليبْ Polybe يخبرنا أن هذه المدن كانت كثيرة العدد بجهة سَدْرة التي لن نذكر لها سوى اثنتي عشرة مدينة. ولكن كتابات من العهد الروماني، وعلى الخصوص مؤلف بطُلِمي Ptolémée، والتعليمات البحرية المعروفة باسم (Stadiasme de la grande Mer)، وجدول بوتِنْگير Peutinger، ورحلة أنطونان Antonin، كلها تذكر جملة من المواضع البحرية. ولابد أن نفترض بأن الكثير منها مسكون في العهد البونيقي، لكن لا يحسن أن نختار في هذه الوثائق - وبدون تبصر - أسماء نتمم بها النقص الواقع في نصوص تتعلق بعهود أكثر قدما. لهذا فإن رحلة سيلَكْس Scylax ستكون أهم مصادرنا. كما أن إشارات قليلة عن مدن ساحلية، قد وردت مبعثرة في المؤلفات التاريخية لكل من بوليبْ Polybe وديودور الصقلي وتيت ليڤْ Tite-Live وغيرهم. وتعرفنا رحلة حَنّون بعدة مستعمرات على المحيط الأطلسي. واحتفظ لنا إتيان البيزنطي Etienne de Byzance بعدد قليل من الأسماء المنقولة عن المؤلف الجغرافي الذي كتبه هيكاتي المليتي Hécatée de Milet في نهاية القرن السادس أو بداية الخامس. لكن لم يمكن التعرف عليها وتعيينها باستثناء مدينة واحدة أو اثنتين. وزيادة على ذلك لا يتأكد أن الأمر هنا يتعلق بمراكز فينيقية، باستثناء مدينة أهلها «ليبيون فينيقيون» ومدينة «للفينيقيين بليبيا»، ومدينة أخرى وجزيرة تقعان «في ليبيا التي للفينيقيين».

وحتى إذا طرحنا جانبا افتراضات الاشتقاقات اللغوية المنقودة، فإننا نلاحظ أن الأسماء التي من أصل فينيقي يكثر وجودها على سواحل شمال إفريقيا في القرون الميلادية الأولى. والمعتقد أن هذه الأسماء أطلقت على مدن ومتاجر أسسها فينيقيو المشرق أو القرطاجيون. على أن هؤلاء أمكنهم أن يطلقوا أسماء من لغتهم على بعض المراكز الأهلية التي كانوا يترددون عليها، كما أمكنهم الاحتفاظ بالأسماء الليبية لأماكن أخرى استولوا عليها. والأفارقة أنفسهم أمكنهم استخدام أسماء أجنبية عن لغة آبائهم، والكثير منهم خضعوا لتأثير الحضارة البونيقية. ومع ذلك فإن الاستعمال الرسمي للغة الفينيقية في بعض المدن بعد سقوط قرطاجة، كما تشهد بذلك بعض النقود البلدية، ليست برهانا حاسما على الماضي الفينيقي لهذه المدن. وهذا صحيح، خصوصا وأن بعض الأحجار تحمل كتابات تكاد تكون كلها ذات طابع شخصي، وقد نقشت هذه الكتابات في أبجدية من الطراز المعروف باسم البونيقي الجديد Néopunique، كما هو الشأن في أغلب الكتابات على النقود[34]. وكذلك، فإن بعض التنقيبات بالمدافن قد أطلعت أثاثا جنازيا مماثلا للذي يعثر عليه بالمقابر التي هي أقل قدما في قرطاجة الأولى. وبدون شك فإن هذا الأثاث كان مستعملا بالخصوص في المدن التي كان سكانها ينتمون لسكان العاصمة، غير أن التجارة نشرته أيضا بين الأهالي.

فنرى أن بحث أسماء الأمكنة، والنقود، والنقوش، والمكتشفات الأثرية، إذا كان يجلب تكملة مفيدة للمعلومات الهزيلة التي نعلمها من النصوص، فإن هذه الشهادات ليست ذات قيمة غير منازع فيها. وستتضاعف كمية المكتشفات، ومع ذلك فلا أمل في أن تتسع معرفتنا

التاريخ الأول لمدن استمرت في الحياة والنمو في العهد الروماني. ونتيجة لذلك فإن المباني التي عاصرت بها قرطاجة البونيقية اضطرت على العموم إلى الاختفاء من الوجود.

4

وصف سْترابون Strabon سَدْرَة الكبرى غربا وشرقا قبل أضرحة الفيلين Philène، فذكر مكانا يعرف باسم شارَكْس Charax، وقال عنه إن الفينيقيين يستعملونه متجرا ويبادلون فيه الخمر بنبات السِّلْفيوم Silphium الذي كان ينقله سراً بعض أهل سرنيكا (بَرْقة)، فهؤلاء إذن كانوا يتعاطون التهريب. أما شارَكْس فيحتمل أنها هي مدينة السلطان، التي كانت على 200 كيلومتر من موقع الأضرحة، والتي يوجد بها جون صغير محصون عن رياح الشمال الغربي. وغير بعيد من هنا يوجد في اتجاه الشرق مستنقع بحري يمكن أن يستعمل ملجأ.

ولمدة وجيزة، في عهد أحد ملوك البَطالِمَة، صار برج أُفْرَنْتاس Euphrantas عوضا عن الأضرحة حدا بين ممتلكات قرطاجة وبين سرنيكا التي أصبحت تابعة لمصر. وكانت افْرَنْتاس بقصر الزعفران، حيث كان يوجد في العصور القديمة ميناء طغا عليه الرمل اليوم. أما مكومادس Macomades المذكورة في وثائق العهد الروماني فكانت تقوم نفس المكان، واسمها فينيقي "مَقومْ حَدَش" أي المدينة الجديدة.

والساحل الغربي لسدرة الكبرى، التي يمتد من ورائها المستنقع البحري الكبير المعروف باسم تورْغَة Taorga، يذكر به بطلمي Ptolémée محلة باسم مَكوماكا Macomaca، وهو اسم نجد فيه اللفظ الفينيقي مقوم Maqom، ويتطابق هذا الموقع مع ملْفا Melfa، أما كتاب التعليمات

البحرية فيسميه الملاحات، لذلك أفترض بذكاء أن الفينيقيين كانوا يسمونه "مقوم مَلاَحات" Maqom Malahat أي مدينة الملاحات، وبهذا فقد كان ميناء للصيد البحري.

إن سَدْرة الكبرى تنتهي عند رأس مسْراتة، وعلى نحو 75 كيلومتر غرب هذا الرأس تنصب في البحر الأبيض المتوسط مياه النهر الصغير المعروف عند القدماء باسم كينوبس Cinyps. وهنا كان دورْيوس Dorieus اللّسِدموني قد أسس حول نهاية القرن السادس مستعمرة لم يلبث القرطَاجيون أن هدموها بتعاون مع قبيلة الماكِس Maces الأهلية. ولا يبدو أن القرطاجيين احتلوا موقع هذه المدينة، لأنه كان قاحلا في العهد الذي كتبت فيه رحلة سيلَكْس. غير أن سْترابون Strabon يخبرنا بأنهم أنشأوا بشرق مصب نهر كينوبْس حاجزا لعبور بعض المهاوي، أي بعض المستنقعات. ولا شك أن هذه المنشأة كانت تشمل طريقا يساير الساحل.

تقع لِبْتيس Leptis على 18 كيلومتر بالشمال الغربي لنهر كينوبس، وهي اليوم لَبْدة، وكانت تعتبر مدينة فينيقية قديمة. ويسوغ الاعتقاد بأنها انحطت عن مرتبتها أو تخربت في عهد دورْيوس Dorieus ثم تداركتها قرطاجة. ويعرفها بعض كتاب الإغريق باسم نيابوليس Néapolis أي المدينة الجديدة. وكانت تقوم على جانب نهر لَبْدَة الذي يكوّن حوضا طوله 1000 متر وعرضه 350 مترا قبل أن يصل للبحر بممر ضيق، ويكون الحوض ميناء أوجدته أو وسعته يد الإنسان في وقت لا ندريه، وربما كان ذلك في عهد الإمبراطورية الرومانية فحسب. وقد ازدهرت لَبْدة بمجاورتها لمنطقة خصبة، ولربما أنها كانت تبعث بالقوافل إلى الفزّان وحتى إلى قلب إفريقيا. ومع أن العناصر الأهلية كانت متغلغلة

بها، فقد بقيت لمدة طويلة على وفائها لقرطاجة وللغة والأنظمة والحضارة الفينيقية[35].

وتذكر رحلة سيلَكْس بوضوح أن مدينة گُرْفارا Graphara (والصحيح گَفارا Gaphara) هي مِلك للقرطاجيين. وكانت واقعة على أحد المرتفعات الذي له، حسب رواية Stadiasme، مرفأ من كل جانب ومنبع للماء. وهذا الرأس، الذي هو رأس الجَفارة الذي احتفظ باسمه القديم، يبرز في مكان يقع على ثلاثين كيلومتر غربي الشمال الغربي للَبْدة.

كان الرومانيون يطلقون على مدينة طرابلس اسم أوِيا Oea، كما أن بعض النقود المضروبة بالحرف البونيقي تحمل صيغة ويعات Ouiat ويذكر سِلْيوس إيتالِكوس Silius Italicus أن سكانها كانوا عبارة عن خليط من المستوطنين الصقليين والأفارقة. ولا ندري ما يمكن أن نقوله حول هذا الكلام. ولا تذكر الرحلة "أويا"، كما لم تذكر في أي نص يرجع لما قبل الميلاد. ومع ذلك فلا شك أن هذه المدينة التي حافظت على اللغة الفينيقية - مثلما حدث في لِبْتيس - حتى أثناء العهد الإمبراطوري قد كانت موجودة في العهد البونيقي. وتمتد مدينة طربلس شرقي أحد الرؤوس الذي تزيد في طوله الصخور البحرية. وهذه لا تجدي حمايتها حين يشتد هياج البحر.

أما صَبْراته Sabratha فيذكر سِلْيوس إيتالكوس - عن صواب أو خطأ - أنها مستعمرة لصُور. والرحلةَ أوردت اسمها بصيغة أَبْروتُنون Abrotonon وهي الصيغة المستعملة عند الإغريق. وفي نفس العهد تقريبا سماها المؤرخ إيفور Ephore بنفس الاسم وقال إنها مدينة لليبيين الإفريقيين. وتسميها بعض النقود المضروبة بالحرف البونيقي الجديد باسم صَبْرَتان Sabrathan، الذي حاولوا إيجاد أصل فينيقي له : (سوق

القمح) ولكنه اشتقاق منقود. وقد تركت المدينة آثارها بالقرب من واحة صَبْرية Sabria. وبسبب انعدام أي ملجأ طبيعي على الساحل، فإن القدماء بنوا به المرافئ، ولكن لا تفسير للازدهار الذي عرفته صَبْراته إلا بوجود تجارة نشيطة مع الداخل، لأن البلاد المحيطة بها ليست فلاحية.

وعلى مسيرة يوم في البحر من أبْروتُنون Abrotonon، توجد حسب الرحلة (الملاحات : المدينة والميناء). وكان اسم هذا المكان هو زوكيس Zouchis أو ما يقارب هذه الصيغة. ونقرأ في سْترابون Strabon أن زوكيس كان بها زيادة على الملاحات المتنوعة معامل لصباغة الأرجوان، وأنها كانت تقع على بحيرة واسعة تتصل بالبحر بواسطة مدخل ضيق. فالأمر يتعلق إذن ببحيرة البيبان Bibân التي كانت تلتجيء إليها السفن.

وفي هضبة زَرْزيس Zarzis القريبة جدا من جزيرة جَرْبَة، كانت توجد في العهد الروماني مدينة تحمل اسم زيتا Zita. ولا شك أن رأس زيثا Zeitha الذي ذكره بطلمي يجب جعله بالقاصية الشمالية لهذا النتوء الواقع باليابسة. ويبدو جيدا أن اسمها مرتبط باللفظ الفينيقي الدال على شجرة الزيتون.

أما جَرْبة، فتسمّيها الرحلة باسم جزيرة المضاحل، ويسميها إرَتُسْثين Eratosthène ومعه كتّاب إغريق آخرون باسم جزيرة اللوتفاجيين Lotophages، ويدعوها ثيوفْرَسْت Théophraste باسم فاريس Pharis، ويسميها پوليبْ Polybe باسم منانْكس Méninx، ولربما هي جزيرة فْلا Phla المذكورة عند هيرودوت. وكانت كثيرة الزّرع منذ أواسط القرن الرابع، لذلك فلا شك أنها كانت تابعة لقرطاجة. وقد بلغها أسطول بحري كان تحت قيادة قنصلي سنة 253، كما ذهبت لتخريبها حملة رومانية أخرى سنة 217.

وتذكر الرحلة على مسيرة نصف يوم بالبحر مدينة تسميها المخطوطات باسم إبِيخوس Epichos بصيغة الابتداء وإبيخون (بصيغة المفعول به) وكذلك إسخيدون على ما يظهر (بصيغة الإضافة)، فالمحتمل أن بهذا الاسم تحريفا، وافترضوا أن المكان المقصود به هو جِكْتي Gigthi (بوكرارة) الواقع على خليج بجنوب جَرْبة. وهو افتراض واهن جدا، ومع ذلك فيمكن أن جكْتي - المدينة المهمة في عهد الإمبراطورية - كان لها ماض فينيقي لأن الحديث كان فيها يجري باللغة البونيقية حتى في القرون الميلادية الأولى.

أما تاكَباس Tacapas أي قابِسْ فهي واحة عظيمة وميناء في آخر سدْرة الصغرى، وهي المنفذ البحري لمنطقة البحيرات (الشطوط) بالجنوب التونسي. وقد وصفت بأنها "السوق الكبيرة جداً" في سْترابون Strabon الذي يحتمل أنه نقل عن مؤلف كتب بنحو مائة سنة قبل الميلاد. ولابد أنها ازدهرت من قبل، ولكن لا ندري هل كان للقرطاجيين سيادة عليها.

لقد سبق أن عرفنا اسم مكوماديس Macomades أي المدينة الجديدة، ولكن نصوصا متأخرة عن عهد الميلاد تعرفنا بشمال شرق قابس، قرب جزيرة الكنائس بموكوماديس أخرى، مطابقة لا شك لنيابوليس المذكورة في Stadiasme. ويحتمل أن الرحلة ذكرت فعلا هذه المدينة في فقرة مبتورة اليوم.

وأمام ثيناي (هَنْشيرْ ثِينَة) التي يجعلها سْترابون Strabon بداية لسدرة الصغرى، تمتد جزيرتا قَرْقنة Kerkenna. وقد تلقى هيرودوت منذ أواسط القرن الخامس معلومات من مصدر قرطاجي عن الجزيرة الكبرى التي سماها كوراونيس Cyraunis، والمتأكد أنها في عهد الحروب البونيقية كانت من ضمن الإمبراطورية القرطاجية، فقد نزل بها

أحد قناصلة الرومان سنة 217 وفرض على سكانها غرامة. وكان أهم ميناء بها في الجنوب الغربي وبه كانت السفن ترسو. وحين مر به حَنيبَعْل سنة 195، عند مغادرته لإفريقيا في ذهابه إلى صُور، وجد به سفنا تجارية فينيقية.

وفي ثيناي Thaenae سنة 149 كانت تصل للساحل حدود المنطقة التي كانت تملكها قرطاجة بداخل القطر التونسي الحالي. وبهذا فجميع المدن البحرية الواقعة شمالها كانت على حاشية المنطقة البونيقية بالتدقيق. ولعل هذه المنطقة لم تمتد أبدا إلى ما بعد ثيناي.

ويطلق پُوليب Polybe وتيتْ ليفْ Tite-Live اسم إمبوريا Emporia (المتاجر) على ممتلكات القرطاجيين بسدرة الصغرى، وكذلك على ما هو أبعد منها في اتجاه الشرق، لأن تيتْ ليفْ يجعل من ضمنها لِبْتيس Leptis المجاورة لسدرة الكبرى. وقد اتخذ اللفظ الفينيقي الذي ترجم بهذا اللفظ الإغريقي (إمبوريا) مدلولا جغرافيا خاصا، بحيث إنه لم يكن يدل فحسب على سلسلة من المدن الساحلية التي لا شك أنه أطلق عليها أول الأمر، بل يدل أيضا على منطقة شاسعة الأطراف تذكر خيراتها الفلاحية بتنويه. وقد أخضعتها قرطاجة لسيطرتها كما يعترف بذلك مسِّنيسّا نفسه، الذي طالب بالأمبوريا. وفي أواسط القرن الثالث، أثناء الحرب ضد المرتزقة، كانت قرطاجة تجلب منها التموين.

ويحتمل أن قسما من الأرياف قد كوّن مناطق تملكها مدن ساحلية مختلفة. كما يحتمل أن أقساما أخرى قد تركت لبعض القبائل التي كانت حليفة أسميا، وتابعة بالفعل. ولم يكن جميع الأهالي ليعترفوا طوعا بسطرة قرطاجة. ولربما أن بعضا منهم انتهزوا الفرص المواتية لينفصلوا عنها مدة تطول أو تقصر. وهناك فقرة واردة في تيتْ ليفْ، ولو

أنها غامضة، يمكن أن تؤدي إلى الاعتقاد بأن الأمْبوريا بمدنها وبواديها كوّنت ما يشبه الولاية، وكانت لِبْتيس عاصمتها الإدارية.

وقد استولى مسِّنيسّا بعد الحرب البونيقية الثانية على البلاد غير المحصنة، ثم استولى من بعد على المدن البحرية.

5

ليس لدينا برهان قاطع على وجود مستعمرات قرطاجية في ثيناي Thaenae وتَبَرورا Taparura (صفاقس)، وأوزيلا Usilla إنشيلا Inchilla، وقد اقترحوا لثيناي اشتقاقا فينيقيا (التّين) لا قيمة له على ما يظهر. لكن بعض النقود تشهد بالاستعمال الرسمي للغة البونيقية بهذا المكان حوالي عهد الميلاد. وهل تكون أوزيلا هي مدينة الأوزليتانيّين Usalitani التي انضمت للرومانيين أثناء حربهم الأخيرة ضد قرطاجة ؟ والتي أعلن أنها مدينة حرة عند تكوين ولاية إفريقية ؟ وهل لفظ زيلا Zella صيغة أخرى لنفس الإسم ؟ حسب سْترابون Strabon فإن زيلا Zella المدينة الحرة كانت تقع قرب ثَبْسوس Thapsus، مثل أشولا Acholla التي سنتحدث عنها. وهذه كلها افتراضات مقبولة، ومع ذلك فيمكن أن تكون مدينة الأوزليتانيين هي أوزليس Uzalis الواقعة شمالي أوتيكا Utique.

بين أوزيلا وسُلَكْتي – أوْ سلَكْتِي Sullecthi – التي نعرف موقعها يضع جدول بُتِنْگير مدينةَ روسْبي Ruspe على ستة أميال من أوزيلا، ويضعِ أهولا – أو أَشولا Acholla – على اثني عشر ميلاً من سُلَكْتي. واسمُ روسْبي فينيقيّ. ونجهل نحن أين كانت تقع هذه المدينة التي لم يذكرها أي نص قبل عهد الإمبراطورية. أما أَشُولاَ التي كانت تحمل اسما فينيقيا لا شك، فكان يقال عنها إن مؤسسيها معمرون قدموا من

مالْطة، ويذكرها تيتْ ليفْ Tite-Live في حادثة ترجع لبداية القرن الثاني. أما أپْيان Appien فيقول إنها والت الرومانيين سنة 149، وإن هؤلاء جازوها بأن منحوها صفة «شعب حر». ولا نعلم بالضبط أين كانت تقع، إذ لا يوجد أي أثر يناسب المسافة التي ذكرها الجدول بين سلَكْتي وأَشولا. وحسب أحد الآراء فإنها في هِنْشيرْ بَدْرِيَة Henchir Badria بالجنوب الغربي لرأس كبودية (Caput Vada)، وحسب آراء أخرى فهي حوالي ديار الحاج حسن أو في العالية عند الشمال الغربي لهذا المرتفع. ولربما يكون من المستحسن البحث عنها غير بعيد من الشابة Chebba، على النتوء العريض الذي ينتهي بالرأس، والذي هو القسم الأكثر بروزا من الساحل التونسي بين خليج قابِسْ وخليج الحمّامات، لأن موضعا كهذا هو مما كان الفينيقيون يفضلونه، حيث كان بمستطاع السفن أن ترسوا مطمئنة في ناحية الجنوب بمرسى الشابّة.

ويوجد بشمال العالية، على خط من النتوؤات الصخرية الواقعة على الساحل، عدة سراديب جنازية يدخل لها من فتحات على شكل آبار. وهي سراديب من الطراز الفينيقي، أقدمها يحتوي أشياء يمكن التأريخ لها بالقرنين الثالث والثاني الميلاديين. من ذلك صحون فخارية خشنة شبيهة بالتي يصنعها البربر حتى اليوم، وهي تختلط بالعديد من الأدوات الفخارية مما يصنعه البونيقيون أو يجلبونه. وطبقا للطقوس الأهلية فقد كان الموتى يدفنون في وضع المتربع أو كانت عظامهم تكدّس، وغالبا ما يلوح على هذه البقايا أثر اللون الأحمر. والسراديب تعلوها الأنصاب أحيانا، بحيث إن اثنين منها يحملان الرمز الديني المعروف برمز تانيتْ Tanit. وبين السراديب تتخلل الدّلمينات Dolmens التي هي مقابر لاشك أن الأهالي قد بنوها. أما المركز الذي كانت هذه الجبانة تابعة له فلم

يلم العثور عليه، وبدون شك فإنه لم يكن مستوطنة للفينيقيين، بل كان حلّة لبعض الأفارقة الذين اطلعوا إلى حد ما على الحضارة الفينيقية بواسطة صنّاع وتجّار من قرطاجة أو من مدينة أخرى مجاورة.

وعلى 120 اسْطادا من أشولا في اتجاه الشمال يَذكر Stadiasme أليبوتا Alipota التي يقرأ اسمها المضروب بالحرف البونيقي الجديد على بعض النقود التي من عهد السيادة الرومانية. وهذه المدينة كانت إما بسَلَقْطة Salakta التي مع ذلك لم يعثر بها على آثار من العهد القرطاجي، وإما في المهْدية، فوق شبه الجزيرة التي يبلغ طولها 1500 متر وعرضها 300 أو 400 متر، وتمتد في اتجاه الشرق لتنتهي في رأس إفريقيا. وكان بالمهدية ميناء اصطناعي صغير، طغا عليه الرمل اليوم، وهو محفور في الصخر، ومقاييسه 72 مترا على 56. فهل كان هذا الميناء كما ظن الكثير من الناس، منشأة فينيقية ؟ هل كان كوثون Cothon يذكّر موقعه بداخل اليابسة بكوثون Cothon قرطاجة ؟ لا نجرؤ على تأكيد ذلك. ولربما أن هذا الحوض إنما يرجع للعصور الوسطى، حيث إن المهدية التي تأسست في القرن الميلادي العاشر قد كانت مدينة عظيمة وعاصمة للفاطميين. ولكن عددا عديدا من المقابر تشهد بأنه قد كانت هنا مدينة مهمة قبل ذلك العهد بكثير. وتوجد هذه المقابر في رأس شبه الجزيرة، وهي عبارة عن حفر حُفِرت في الصخر، كما يعثر عليها بالخصوص فوق خط المرتفعات الذي يساير الساحل. وتنتشر هذه الجبانة على 11 كيلومتر من غرب الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الغربي للمهدية. وبها المقابر المحفورة التي تشبه مقابر رأس الجزيرة، وبها السراديب التي لها آبار، كما بها الحفر الرباعية المستطيلة الشكل حيث العظام مكدسة. أما الأثاث الجنازي ففقير كما في العالية، وهو في جميعها ليس متقدما على القرن الثالث ق.م، كما أن كثيرا من الموتى قد دفنوا في

العهد الروماني. وهنا أيضا - ولكن بصفة أقل مما بالعالية - لوحظ وجود بعض الطقوس الأهلية. فإذا كانت المدينة مستوطنة بونيقية، الأمر الذي يمكننا التسليم به، فإن قسما من السكان كان من الليبيين لا شك.

وبقصور السّاف، على 12 كيلومتر بجنوب الجنوب الغربي من المهدية، وعلى 4 كيلومترات من البحر يوجد سرداب له بئر كانت به درع من البرنز، ترجع للقرن الرابع أو الثالث وجلبت من إيطاليا. وهناك مدفن آخر من طراز فينيقي إلى حد ما، وأهلي إلى حد ما كذلك. وهو عبارة عن ناووس مماثل لما قبله، وتعلوه تلة جنازية Tumulus.

أما ثَبْسوس Thapsus فقد ذكرتها الرحلة في أواسط القرن الرابع. وقد سقطت سنة 310 في يد أگاثُكْليس المتأمّر Agathoclès le Tyran السِّرَقوسيّ. وأثناء الحرب البونيقية الثالثة أعلنت موالاتها للرومانيين. ولربما أن الاسم الذي كانت تحمله فينيقي. وكانت تشغل زاوية «رأس الديماس» التي يتغير فيها اتجاه الساحل تغيرا واضحا بين رأس كَبودْية وسوسَة. وفي الشمال الشرقي تمتد جزيرة منخفضة ورملية تفصلها قناة عن اليابسة. ولا يشاهد الرائي أي أثر للسور الفينيقي للمدينة، الذي يزعم السيد ضُكْس Daux أنه تعرف عليه، وكذلك فلا معنى للاعتقاد بوجود ميناء داخلي فينيقي أو كوثون Cothon. فالفرضة التي تتقدم بقاياها في البحر، هي من صنع روماني لا شك. ولكن المقابر هنا - كما في غير هذا المكان - تزودنا بمعلومات مفيدة. فهناك سراديب لها آبار، وإن كانت بكل أسف قد نُبشت تقريبا كلها منذ العهود العتيقة، وهي تكوّن جبانة طولها يقارب الكيلومترين. وهذه الجبانة واقعة في كدية صخرية بغرب المدينة وشمالها الغربي. وقد تلقت هذه السراديب موتى من العهد الروماني. ومع ذلك فإن وجود أدوات مستجلبة من الخارج أو

من صنع بونيقي يشهد أن بين الموتى من دفنوا في القرنين الأخيرين للسيطرة القرطاجية. وتشير الأدوات إلى رفاهية أكثر مما بالمهْدية. ومع أننا نَحْزُر وجود بعض العناصر الأهلية بثَبْسوس، فالفينيقيون ربما كانوا أكثرية بها. ومهما كان الأمر، فإن حضارتهم تركزت فيها بأشد مما في الموانئ الواقعة إلى الجنوب. ومن ثَبْسوس جعل Stadiasme بداية المنطقة التي يسميها فُوينيكي Phoinicé.

وحافظت لَمْطة Lemta تقريبا على اسم لِبْتيس Leptis. فقد كانت في عهد الإمبراطورية، وربما من قبل هذا العهد تدعى لبْتيس الصغرى Lepti-minus تمييزا لها عن لبْتيس الكبرى الواقعة بالسّدْرتين. وتوجد نصوص تذكر هذه المدينة حول أواسط وأواخر القرن الثالث، كما تذكرها في حقبة الحرب الثالثة ضد رومة. وهي أيضا مثل أشولا وثَبْسوس قد أطرحت القرطاجيين آنذاك. وكانت تقوم على الجانب الشمالي الغربي لفجوة بحرية واقعة بالساحل. وفي سنة 46 ق.م تحدث كاتب أخبار حَمْلة قَيْصَر عن وجود ميناء، غير أن دخول هذا الميناء كان صعبا بسبب المضاحل الموجودة، لذلك كانت أكثرية السفن ملزمة بالرسو في عرض البحر. أما الأسوار القوية جدا، المذكورة في نفس الأخبار فلا شك أنها بنيت في العهد البونيقي، ولكن لم يبق منها أثر. ومن جهة الغرب نعثر فوق ربوة على سراديب جنازية بعضها له بئر، وبعضها تجمع حول غرفة ملاصقة وكلها قد نبشت. أما في الجنوب الغربي فإن جبانة رومانية تغطي سراديب ذات آبار، يرجع بعضها على الأقل لما قبل تهديم قرطاجة. وبعض الموتى دفنوا بها على الوضع المتربع حسب إحدى العادات الأهلية.

ورُسْبِينا Ruspina (المنَسْتير) يظهر اسمها لأول مرة في الكتابة عن حرب قَيْصر، غير أن اسمها فينيقي، مما يسوغ قبول الرجوع بتاريخ المدينة إلى عهد أكثر قدما. وقد أقيمت فوق تربة صخرية عند قاصية أحد المرتفعات العريضة، بمواجهة ثلاث جزر صغيرة. وكان هناك مرفأ بشرق جزر طونارة Tonnara والكرّنْتينة quarantaine، كما كان هناك ميناء يصونه لسان أرضي عن الرياح الشرقية والشمالية الشرقية، ويقع إلى الجنوب على بعد ميلَيْن، أي ثلاثة كيلومترات. ونذكر أيضا ما قيل من أن أبراجا قديمة جدا للمراقبة قد كانت سنة 146ق.م تشاهد على التلال المجاورة.

ونجهل الصيغة الفينيقية للاسم الذي كتبه الإغريق بصيغ مختلفة، هي هَدْرُميس، هَدْرُميتن، هَدْرميتْس وهدْروميتْس كما كتبه اللاتانيون بصيغة هدروميتوم Hadrumetum. وعلى كل فإن هَدْرُميت هذه قد كانت مستعمرة قديمة أنشأها الصُّوريون، وصارت لها قيمة عظيمة، غير أن تاريخها مجهول تقريبا. حاصرها أگاتُكْليس سنة 310 واستسلمت له. واتخذ بها حَنيبَعْل سنة 202-203 استعداداته لمعركته ضد سيبْيون، ثم عاد إليها عقب معركة زاما، ووالت الرمانيين سنة 149. وكانت تقوم على المنحدرات التي تغطيها سوسة اليوم. ويسوغ الاعتقاد أن قلعتها كانت تقوم على غرار القصبة، فوق الذروة بالجنوب الغربي، كما يجب إطراح ما قاله السيد ضُكْس Daux من أن سورا فينيقيا كان يحيط بمجالات واسعة غربي سوسة وشمالها، إذ لا يوجد منقب أثري موثوق به رأى هذا الخط الدفاعي المزعوم. وكانت مرافئ عتيقة وقع التعرف على بعض آثارها، تحد ميناء خارجياً عند الشمال الشرقي للمدينة الأهلية الحالية. لكن لا يوجد ما يسوغ إرجاعها للعهد القرطاجي، بل يحتمل أن هذه

المرافئ لم تكن موجودة سنة 46 ق.م. وكانت هَدْرُميت في هذا العهد تتوفر على حوض اصطناعي داخلي يحمل اسم الكوثون Cothon الفينيقي. ولا نعلم أين كان يقع. وقد افترض أن دارة قد كانت تمتد قديما بموازاة الساحل تحت الحي الشمالي لسوسة، وإنها قد هيئت لتستعمل ميناء. وهو افتراض يكذبه انحدار الأرض والاكتشافات التي وقعت بهذا الحي. ومن ناحية أخرى أكد ضُكْس Daux أنه عثر على الكوثون Cothon بالشمال الغربي للميناء الخارجي الذي كان يتصل معه بقناة طولها 260 مترا، وأن الكوثون Cothon كان له تقريبا 175 مترا طولا، على 160 مترا عرضا. غير أن تحقيقات جرت أخيرا قد أكدت أن هذا غير صحيح. ومع ذلك، فلربما أن الكوثون Cothon كان قد حفر بالقرب من المكان الذي حدده له ضُكْس.

وفي شمال المدينة العربية، تحت طريق الكنيسة، وتحت الكنيسة نفسها، وقع العثور على أنصاب نذرية، كانت فيما مضى مثبتة بالأرض، كما عثر على أوعية تضم عظام أضحيات حيوانية. فقد كان هنا معبد واسع الأرجاء، وبالنظر لطريقة صنع هذه الأنصاب فإنه كان موجودا منذ العهد القرطاجي.

وقد عثر على سراديب ذات آبار عند الجدار الغربي للقصبة، كما عثر على غيرها منذ سور المدينة الأهلية من جهة الشمال الغربي، وبهذا المكان الأخير عثر على وعاء مصبوغ، وعليه رسوم لوجوه، صنع في القرن الرابع، وكان من ضمن الأثاث الذي وضع بجانب الميّت. والمقابر المجاورة للقصبة تؤرخ على أقل تقدير بنفس القرن الرابع، لأنها كانت تحتوي على نقود قرطاجية تصاحب بقايا محروقة. كما أن جبانة ذات مظهر فينيقي تمتد بالشمال الغربي للقصبة، تحت المعسكر الفرنسي،

والتحريق فيها أكثر وجوداً من الدفن، ولا شك أن أثاثها الجنازي ليس فيه ما يرجع لعهد سابق على القرن الثالث، بل حتى على القرن الثاني قبل الميلاد. وكثير من المرمدات المليئة بالعظام المحروقة تحمل أسماء الموتى التي خُطت بريشة الرسّام أو بالفحم، بخط عادي متوسط بين الأبجدية البونيقية والبونيقية الجديدة. وجميع هذه الأسماء فينيقية، تشهد بأن الأهالي إذا كانوا قد أتوا وخالطوا المعمِّرين، فإن هؤلاء قد فرضوا لغتهم كما فرضوا حضارتهم.

وفي «الكنيسيِّة»، على 6 كيلومترات جنوبي سوسَة، عُبِد أحد أرباب الفينيقيين في معبد تحيط أسواره بنايات رومانية. وأثناء القرنين الأولين من عهد الإمبراطورية كان العديد من العبّاد يزورونه. ولكنه يرجع لعهد أكثر قدماً، لأن إحدى التقدمات البونيقية «للمَوْلى - كذا - تانيتْ بُني بَعْل» المنقوشة على النصب تعرض نموذجا من الكتابة التي يمكن الصعود بها تقريبا إلى القرن الثاني قبل الميلاد.

إن الناحية التي قامت بها مدن هَدْروميت، وروسْبينا، ولِبْتيس، وثَبْسوس، وأشولا قد سمّاها پوليبْ Polybe باسم بُسّتيس Bussatis أو بوزَخيس Buzachis كما سمّاها كل من تيتْ ليڤ Tite-Live وپْلين القديم Pline l'Ancien باسم بوزَكْيوم Byzacium. وقال پوليبْ Polybe إنها ذات شكل مستدير، وإن دائرتها لها 2000 اسْطاد، أي 355 كيلومتر. وهو قول نجده أيضا عند پْلين الذي قال 250 ميلا المتناسبة مع 2000 اسْطاد. لكننا لا نجد سوى 100 كيلومتر بين سوسَة ورأس كَبوديْة، حيث كانت أَشولا، غير أن القسم الساحلي الذي كان يحد منطقة بوسَتيسْ، يمكن أنه تجاوز سوسَة شمالاً ورأس كبودية جنوباً. ثم إن الرقم الذي ذكره پوليبْ Polybe لا يساعدنا على أن نعرف إلى أي حد كانت تتقدم في اتجاه الداخل هذه

المنطقة التي كانوا ينوّهون بخصبها. وقد كانت تابعة لقرطاجة، ومع ذلك فلابد من الاعتقاد بأنها لم تكن خاضعة كلها لسيطرتها المباشرة، وإنما كانت تشمل جهات تملكها المدن المذكورة في الصفحات السالفة.

وعلى الجانب الآخر لخليج الحمّامات، بشمال سوسَة، أنشئت المدينة التي سماها الإغريق، ومن بعدهم الرومانيون، باسم نِيابوليس Néapolis. وقد وصفها توسِديد Thucydide في أواخر القرن الخامس بأنها متجر قرطاجي، كما أنها ذكرت في الرحلة. وكانت موقعا حصينا، واستولى عليها أگاتُكْليس سنة 310، كما استولى عليها القنصل بيزون Pison سنة 118. وكانت تقع على كيلومترين إلى الجنوب الغربي من المكان الذي تشغله نابُل Nabeul التي ورثت اسمها. وفي نيابوليس كان ينتهي الطريق الذي يأتي من قرطاجة، والذي يمر بقاعدة هضبة «الرأس الطيب».

وتقع «القليبية» على نحو ثلاثين كيلومترا بجنوب الجنوب الشرقي من الرأس، وقد حافظت على اسم كلوبيا Clupea الذي أطلقه الرومان عليها. أما الإغريق فكانوا يدعونها باسم أسْبيس Aspis. وكانت المدينة العتيقة تقع بالمرتفع الذي يسمى «رأس مصطفى»، على تل مستدير، ارتفاعه 84 مترا، ويذكّر مظهره بالتّرس Aspis. أما الميناء، فكان مصونا عن رياح الشمال الشرقي، ويقع على نحو كيلومترين إلى الجنوب الغربي من هذا التل. وكانت أسْبيس بعيدة بعداً كافيا عن النواحي الخطيرة بالرأس الطيب، ولا يفصلها سوى 75 كيلومترا عن بَنْتلارية Pantelleria حيث الرسو بين صقلية وإفريقيا. وعلى خط مستقيم تقدر المسافة بنحو 160 كيلومترا حتى قاصية الجنوب الغربي للجزيرة الكبيرة. وكان أگاتُكْليس قد اعتبر المكان صالحا لإنشاء موقع حصين، فأسكن به الصقليين. وبعد إخفاقه في مشروعاته الإفريقية، صار الموقع بالطبع

قرطاجيا. واستعمله الرومانيون مرتكزا أثناء حملة ريـكُلوس Regulus في أواسط القرن الثالث. ورأت المدينة الرومانية من بعد تحت أسوارها سنة 208، وأخيرا قاومت بيزون Pison سنة 148 الذي حاصرها دون جدوى.

بعد مجاوزة رأس هرْميس Cap Hermès (الرأس الطيب، أو رأس أدار) ندخل لخليج قرطاجة الذي يحده من جهة الشمال الغربي رأس أپلُّون Cap d'Apollon الذي سماه كل من تيت ليڤْ اللاتاني، وپوليبْ Polybe اليوناني، باسم "الرأس الجميل". وهو اليوم رأس سيدي علي المكّي، أو رأس الطرْفَة. وقد كان الساحل الغربي لهضبة الرأس الطيب قسما من ضاحية قرطاجة، إن صح التعبير. والنصوص لا تذكر بهذه الناحية سوى المحجرات والمياه المعدنية في العهد البونيقي. فالمحجرات كانت تعطي حجر الجير المحاري، وقد استغلت من عهد باكر، أي منذ القرن السابع كانت تستخرج منها المواد لإقامة مدافن المدينة المجاورة، وكانت تحفر هنا وهناك طوال الساحل، منذ "الهُوارية" إلى "سيدي داود"، على امتداد يقارب 13 كيلومترا. ويظهر أن أهمها كان بالقرب من الهُوارية، على 5 كيلومترات عند الجنوب الغربي للرأس، بالمكان الذي يسمى حتى اليوم باسم "الغار الكبير". وكان يسهل نقل هذه الحجارة التي يكفي أن تحمل على القوارب العابرة للخليج. أما المياه الحارة الواقعة بمواجهة العاصمة فكانت توجد أيضا بحمّام كُرْبوس.

6

حدَث في تشكّل الساحل بين هضبة قرطاجة ورأس سيدي علي المكّي تغيّر كبير منذ العهود العتيقة، بسبب المجروفات التي رسبها نهر مجردة الذي سماه پوليبْ Polybe ماكَراسْ Macaras وسماه الكتاب

اللاتانيون بَكْرادا Bagrada. ويجري هذا النهر في ممر يقوم على جانبه الأيسر خط من التلال يتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتقع أوتيكا (هَنْشير بوشاطَر) عند قاصيته، كما يقوم على جانبه الأيمن مرتفع يتجه من جنوب الجنوب الغربي إلى شمال الشمال الشرقي، وينتهي عند قلعة الأندلس. ويتابع النهر سيره ليصب في البحر الأبيض المتوسط عند الجنوب الشرقي للمستنقع البحري غار الملح، Porto-farina. وينتشر سهل مستنقعي حول خرائب أوتيكا Utique التي يفصلها اليوم عن البحر 10 كيلومترات. لكن النهر كان له مجرىً غير هذا في عهود السيطرة اليونيقية وبعدها أيضا. فپوليبْ Polybe يخبرنا أن النهر في القرن الثالث قبل الميلاد، كان شمالاً يساير الجبل الأحمر وجبل النهيلي، أي السلسلة التي تقف بين القارة وشبه جزيرة قرطاجة، وأنه كان يصب عند الشمال الغربي للجون الذي حلت السبْخَة الريّانة محلّه. وبهذا فإن أوتيكا Utique آنذاك كانت مدينة بحرية، ذكر ميناءها أو موانئها كتاب متعددون.

ولا يعرف على وجه التأكيد الإسم الفينيقي الذي نطق به الإغريق على صيغة أتوكي ونطق به اللاتانيون بصيغة أوتيكا Utika[36]. وقد رأينا أن أوتيكا كانت مستعمرة لمدينة صُور Tyr، وأنها حسب إحدى الروايات التي ربما لا تستحق الإهمال، قد وقع تأسيسها في نهاية القرن الثاني عشر. وقد ذكرت حوالي 350 في قائمة للمدن التابعة لقرطاجة، إذ كانت حليفة لها رسميا، واستولى أگاتُكْليس Agathoclès عليها قهرا ونهبها. بعد أن حاصرها المرتزقة الثائرون دون جدوى، انضمت إليهم عن طواعية. كما أنها نجحت في مقاومتها لسيبْيون الإفريقي سنة 203-204، لكنها بعد ذلك بنصف قرن استسلمت سنة 149 للرومانيين من قبل أن تبدأ الحرب البونيقية الثالثة.

يقول أپْيان Appien إنها كانت أكبر مدن ليبيا بعد قرطاجة. وكانت تغطي جزيرة - طبيعية أو اصطناعية - وكذلك المرتفعات المشرفة على هذه الجزيرة من جهة الجنوب الغربي. ومن جملة المعابد، كان بها معبد لأحد الآلهة الذي اعتبر أنه أبلُّون Apollon، وهو معبد قيل إنه كان معاصرا لتأسيس المستعمرة، وكان لا يزال موجودا في عهد پلين القديم.

في أوتيكا الفينيقية، لم يقع العثور حتى اليوم إلا على بعض القبور التي يمكن أن تؤرخ بالقرن الخامس وحتى بالسادس. ولا محل لأن نأخذ بعين الاعتبار تُرّهات السيد ضُكْس Daux الذي سخر من رجال الآثار هنا، كما تلاعب بهم في شأن قرطاجة وهَدْرُميت. فالمسلك البحري الضيق الذي يفصل الجزيرة عن اليابسة يحتمل أنه كان ميناء صغيرا، ومن دون شك فإن السفن كان بمستطاعها أن تلجأ وترسو بعيدا، ولكن لا يجب الاعتقاد بوجود ميناء عسكري يكون قد حفر بالشمال الغربي للمدينة ويحيط بقصر إمارة البحر. إذ هكذا وصف ضُكْس خرائب حمام روماني.

في سنة 203 رسا أسطول قرطاجي بميناء يدعى روسُكْمون Rusucmon الواقع بجوار أوتيكا وبغرب أحد الرؤوس، كما يدل على ذلك كلمة روس Rus التي يبدأ بها الاسم، وهو رأس سيدي علي المكّي. فهذا الميناء إذن - أو هذا المرفأ - كان يقع بجهة غار الملح Porto-Farina.

أما المدينة التي حلّت بِنْزَرت محلها فكانت تقع بين البحر وبحيرة واسعة الأرجاء، ويمر بها مصرف مياه هذه البحيرة، لهذا سماها الرومانيون بالاسم الإغريقي، وهو Hippo Diarrhytus، أي هيپو التي يخترقها الماء، تمييزا لها عن هيپو ريجْيوس Hippo Regius التي هي بونة Bône في عَنّابة. وتطلق عليها بعض النصوص المتعلقة بالعهد

القرطاجي اسم هيپو أكْرا Hippo Acra. وهو اسم أطلق أولاً على رأس مجاور لها هو الرأس الأبيض. ونجهل الصيغة الصحيحة للاسم الفينيقي. كما أن هيپو، التي لا ندري هل المقصود منها بنْزَرْت أو بونة، كانت مستعمرة لفينيقيي المشرق. وهناك فقرة واردة عند إتيان البيزنطي Etienne de Byzance – وإن كان بها بتر – تسوغ الافتراض بأن هيكاتي Hécatée الميلتي قد أورد اسم إحدى المدينتين اللتين تحملان اسما واحدا. أما الرحلة فتذكر اسم التي كانت في بنْزَرْت. وقد استولى عليها أكاتُكليس، لأنه عرف أهمية هذا المكان المتوفر بفضل بحيرته على ملتجأ لا يضاهى بساحل الميضق الرابط بين حوضي البحر الأبيض المتوسط. لذلك أخذ يعمل ليجعل منه مركزا حصينا وميناء عسكريا. وأثناء الحرب البونيقية الأولى تجرأ قراصنة إيطاليون على الدخول في القناة، وأحدثوا أتلافا جسيمة. أما أسوار المدينة فقد استعصت على المرتزقة، ولكن حُماتها والُوهم من بعد، كما تحدّت الأسوارُ قائدين رومانيين هما سيبْيون سنة 203 وبيزون سنة 148. ويذكر نص الرحلة – على حالته التي وصلتنا – عدة مدن حول البحيرة، منها مدينة بْسيگاس Pségas ولا شك أن بهذا النص تحريفا، ولا يستحق أن يطمأن إليه.

أما طَبَرْقة Tabarca التي يحتمل أن اسمها ليبي، فترجع لعهد بعيد جدا، وكانت تُدعى في العهود العتيقة ثَبْراكا Thabraca. وتقع بمواجهة إحدى الجزر، في جون يتلقى مياه الوادي الكبير الآتي من جبال خمير. ويظهر أن پوليبْ Polybe قد عرفها، وإن كان هذا لا يشهد بأن مدينة فينيقية قامت هنا. والذي لا شك فيه، هو أن طَبَرْقة قد ذكرت باسم آخر في الرحلة التي تذكر «البيِثكوسيين Pithécuses وأحد الموانئ. وفي المقابلة جزيرة، وبداخل الجزيرة مدينة أوبويا Euboia».

فالبيثكوسيون كانوا حسب هذا النص بين هيپو أكْرا Hippou Acra وبين ثَبْسا Thapsa أيْ فِيلْبڤيل. كما أن أبياتا للشاعر جوڤنّال Juvenal تؤكد شهرة القِرَدة التي كانت تعيش في غابات ثَبْراكا. أما أوبويا فتسمية إغريقية محرفة، ربما عن أحد الأسماء الفينيقية، وكانت على مايبدو مركزا شبيها بالذي استولى عليه أهل جِنَوَة في الجزيرة لأكثر من مائتي سنة، أي من القرن 16 إلى القرن 17. ولابد أن الميناء كان بين الجزيرة والقارة، على غرار ما كان عليه في العهد الروماني، وكما لا يزال حتى اليوم.

وفي بحر طَبَرْقَة تقع جزيرة جالطة La Galite البركانية [١٥]، وقد استخدمت مرفأ لرسو السفن الذاهبة من قرطاجة إلى غرب سردانية أو إلى جزر الباليار. فقد عثر على علامات للاستيلاء البونيقي عليها، من ذلك بعض النقود القرطاجية والمقابر الحديثة العهد نسبيا، المحفورة في التربة اللبيدة Tuf.

أما هيبُو ريجْيوس Hippo Regius فتوجد خرائبها الرومانية قرب بونة Bône على الجانب الغربي للخليج الذي تحميه سلسلة جبال إيدوغ من الرياح الغربية والشمالية الغربية. ومن جهة الشمال يتقدم رأس العسّة Cap de Garde الذي أطلق عليه الإغريق حسبما يظهر اسم هيپو أكْرا. ويساير اليوم نهر سِيبُوزْ موقع المدينة الدائرة، وقبل هذا التاريخ كان مصبه على بعد 7 كيلومترات إلى الشرق. ولم تذكر هيبو في القائمة التي أوردتها الرحلة، غير أننا لا نرى مانعا من أن تكون هي أكراهيبو

١٥) تقع الجزيرة على نحو 70 كيلومتر داخل البحر في اتجاه شمال الشمال الشرقي لطبرقة.

Acra Hippou التي استولى عليها أحد المساعدين العسكريين للقائد أكاتُكْليس، والتي يميزها ديودور بوضوح عن سَمّيتها بنْزَرت. ويذكرها تيتْ ليڤ مرتين بمناسبة الحوادث التي جرت عند أواخر القرن الثالث، بحيث إنه ذكرها مرة أولى باسم هيپو، ومرة أخرى باسم هيپو ريجْيوس. وفي وصفها بكونها ريجْيوس أي مَلَكِية، مفارقة تاريخية، إلا إذا كانت هيبو قد سبق لها أن كانت تابعة لإحدى الممالك النوميدية. غير أن هذا الافتراض يعارضه ما يرويه نفس المؤرخ، لأن الأمر يتعلق بعمل عدائي للرومانيين ضد القرطاجيين.

أزيحت الأتربة في هيبون Hippone، في مجال يبلغ نحوا من 40 مترا، عن جدار قديم جدا كانت تغطية مساكن بنيت في القرون الميلادية الأولى. والجدار من أحجار عظيمة متوازية السطوح، يتراوح عرضها بين متر واحد و 1,20 وعلوها من 60 سم إلى 70، كما يبلغ طولها4 أمتار. وقد تلاءمت الكتل من غير أسمنت، ووقع تشذيبها بالأسفين والمطرقة، بحيث إنها لم تنحت بالأزميل على الطريقة الرومانية. وقد مكث ستّ من القواعد على الأقل بمكانها. وتشاهد على أحد الوجهين حدبات قوية، بينما الوجه الآخر غير منتظم، إذ كان لابد أن يبقى مستورا. والجدار يتجه من الشمال إلى الجنوب ثم ينعطف نحو الغرب. فالاتجاه الذي يسير فيه الجدار لا يساعد على القول بأنه رصيفا بحريا، ولا يحتمل أيضا أنه كان قسما من سور المدينة. ولربما أنه كان حاشية لمسطح أقيم عليه مبنى كبير، كمعبد مثلا. وبالقرب من ذلك، أزيح التراب عن عدة أحجار لها شكل جذع هَرَم مقلوب، تزينه أوراق نباتية. وفيما مضى كانت هذه الأحجار على رؤوس الأعمدة. والطريقة التي استعملت في صنع هذه القطع الحجرية ليست رومانية. أما الجدار فيذكّرنا كثيرا

ببعض المنشآت التي على الساحل السوري، الأمر الذي يجعلنا نرجعه لأصل فينيقي.

وفوق ربوة القديس أُغسْطين Saint Augustin المشرقة على موقع هيپون Hippone، كانت تقوم عدة أنصاب في مكان مقدس. وقد نصبت فوق أوعية مليئة بعظام الحيوان. وهذه عادة سبق أن رأيناها في هَدْروميت. ويرجع جل هذه النذور لعهد الإمبراطورية الرومانية. وهي لا تشهد إلا بأن بعض الطقوس الفينيقية القديمة، قد بقيت حية في هيبو ريجْيوس. ومع ذلك فإن أسلوب وصوَر بعض الأنصاب تشير إلى عهد أكثر قدما، مع أننا لا نستطيع تأكيد كونها معاصرة للسيطرة القرطاجية.

وأحسن من المخلفات الأثرية والمعلومات المقتضبة الواردة في النصوص، فإن بقاء اللغة المنقولة من سورية إلى إفريقيا واستمرارها حية حول مدينة هيبون حتى القرن الخامس للميلاد، ليشهد بأن هذه المدينة قد كانت موطنا مهما للحضارة الفينيقية.

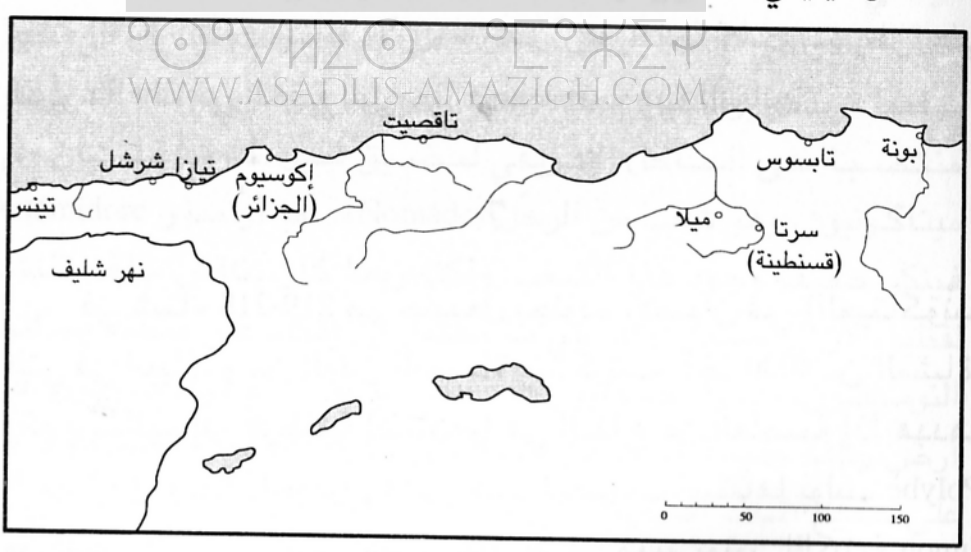
وكانت "ثَبْسا Thapsa المدينة والميناء" التي ذكرتها الرحلة، تختلط لا شك بثَبْسوس Thapsus، المدينة التي جرى ذكر اسمها في عهد حرب حَنيبَعْل، وكانت تقع على مسافة قليلة من سرْتا (القسنطينية). ويعرّفنا أحد الجغرافيين الرومانيين [١٦] باسم نهر يحمل نفس الاسم، وهو ثَبْسوس القريب من روسِكاد Rusicade التي هي فيليبْڤيل، الميناء الحالي لقُسّنطينة، بالقرب من مصب وادي الصفصاب، أي نهر ثبسوس. وقد

(١٦) هو ڤيبيوس سكستير Vibius Sequester في ص. 151 من نشرة ريز Riese لكتاب : Geographi Latini minores.

سبق أن لاقينا ثبسوس أخرى على الساحل الشرقي للقطر التونسي.

أما اسم روسكاد Rusicade فلابد أنه أطلق أولاً على المرتفع (روش المشرف على فيلبڤيل، والذي لا يزال الأهالي يسمونه رأس سْكيكْدة، ثم أطلق بعد ذلك على المدينة نفسها. أما المكتشفات الأثرية بهذا المكان الذي يدل من بينها على ماض فينيقي، فإنه عديم الأهمية. ومن هذه المكتشفات رأس نُحِت في الحجر الرملي، وتاج عمود من الطراز الأيوني، ونَصْبُ نذري، وسرداب جنازي به بعض الأشياء من البرنز والزجاج. ولربما أن هذه البقايا ترجع لعهد متأخر عن العهد الذي كانت فيه ثَبْسوس تابعة لقرطاجة.

وعلى 4 كيلومترات بجهة الشمال الغربي لفيلْبڤِيل يوجد جون مَصون عن الرياح الغربية. ولعل السفن التي لم تكن في مأمن بميناء ثَبْسوس، قد استعملت هذا الجون ميناء عند حدوث الهياج البحري. وبهذا الجون توجد سطورة Stora، القرية الصغيرة التي ذُكر لاسْمِها اشتقاق فينيقي مشكوك فيه جدا.



شاطئ البحر المتوسط، من بونة إلى تينس

أما شـولو Chullu، التي هي القالة Collo اليوم، فكانت تقع على الجانب الشرقي لنتوء واسع ينتهي عند الشمال برأس بوكرون. ولم يورد اسمَ القالة أيٌّ نص قبل عهد الإمبراطورية الرومانية. أما مصبغات الفرفير Pourpre التي أكسبتها آنذاك بعض الذكر، فليست حجة كافية لأن يكون أصلها فينيقيا. لكن جرت بالقالة تنقيبات أثرية في بعض السراديب الجنازية المشتملة على أثاث مشابه لما عُثر عليه بقرطاجة في أحدث المقابر عهدا، وكذلك لما عثر عليه بمدافن العالية والمهْدية ولَمْطة وسوسَة مما سبق أن ذكرناه، كالفخّار البونيقي، والأشياء المستجلبة مما وراء البحار كالأوعية ذات المينا الأسود اللماع وكالمصابيح الإغريقية والأقداح التي بشكل نصف كروي بزخارف نباتية مقولبة. والموْتَى وقع تحريقهم على العموم، وإن كانت العظام غير المحروقة قد وقع العثور عليها مكدسة هنا وهناك. وقد وضعت في بعض المقابر نقود قرطاجية، ووضعت في غيرها نقود لملوك نوميديين، كما وضع النوعان معا في بعضها الآخر. وترجع هذه المقابر لعهد نستطيع ذكر حدوده تقريبا بين نهاية القرن الثالث وبداية الأول، ولربما أن قرطاجة كانت مسيطرة على شولو Chullu في الحقبة التي حفرت فيها أقدم هذه المقابر.

7

في شتاء 218-219 مر حَنّيبَعل بجنوده الإسبان في (الميتاگونْيا التي في ليبيا). و"من المدن المسماة ميتاگونيت" أخذ 4000 من المشاة، وقع إرسالهم إلى قرطاجة ليساهموا في الدفاع عن العاصمة إذا هددها الرومانيون، وكذلك ليكونوا رهائن. هذه المعلومات استقاها پوليبْ Polybe من النص الإغريقي لنقش كرّسه حَنيبَعْل في معبد يونون اللكينية Junon

Lacinienne القريب من كروتون Crotonne. إذن فقد كان بشمال إفريقيا منطقة تدعى في الإغريقية باسم ميتاگونيا Métagonia وكانت تضم عدة من المدن التابعة للإمبراطورية القرطاجية [37].

ويرد هذا الاسم في نصوص أخرى. فمرتفع ميتاگونيوم Promunturium Métagonium الوارد عند ميلا Mela ينطبق على رأس بوگَرون الذي تعتبر نهايته أبعد نقطة إلى الشمال بالساحل الجزائري. وكذلك في رأس بوگرون – وقبل حنّيبعل بنصف قرن – نجد تِمُسْثين Timosthène أحد أمراء البحر على عهد بطلمي فيلادِلْف Ptolémée Philadelphe يجعل ميتاگونيون Métagonion الواقع قبالة مرسيليا على حد قوله. أما پْلين القديم Pline l'Ancien فيؤكد أن الإغريق أطلقوا اسم ميتاگونتيس Métagonitis على نوميديا التي يحدها من الغرب نهر أمْبساگا Ampsaga (الوادي الكبير)، الذي ينصب في البحر على مسافة قليلة من الجنوب الغربي لرأس بوگرون. والجغرافي الشيخ هيكاتي Hécatée كان يعرف لفظة ميتاگونيون، إذ كان يطلقها حسب إتيان البيزنطي Etienne de Byzance على إحدى مدن ليبيا التي نجهل موقعها. ويذكر إِرَتُسْثين Eratosthène أن جبل إبيلوكْس Abilyx الذي كان منتصبا على الساحل الإفريقي لمضيق جبل طارق، قد كان «في ميتاگونيون، وهو شعب من الرحّل Nomades». أما أرْتِمدور Artémidore فينكر حقيقة وجود هذا الشعب. ولكنه ربما كان يناقش سلفه نقاشا لفظيا، لأن إِرتُسْثين أراد على ما يحتمل أن يتكلم على منطقة يسكنها النوميديون. ويقول سْترابون Strabon : يطلق اسم ميتاگونيون على أرض جافة عقيمة قريبة من مصب نهر ملوشة (مَلْوِية)، وبصفة عامة على جميع البلاد الجبلية التي تمتد حتى هذا المكان منذ رأس كوتس Cap Cotès أي رأس شْبَرْتل Cap Spartel بالزاوية الشمالية الغربية

لإفريقيا. وأخيرا فإن بطلمي يذكر بالقرب من المضيق قبيلة هي الميتاكونيتيون وناحية هي الميتاكونيت. ويطلق اسم رأس الميتاكونيت على مرتفع واقع غرب ملوشة Molochath، وبهذا فهو يقصد إما رأس الماء Cap de l'eau أو رأس المذاري الثلاث Cap des trois fourches(38).

من كل هذه الأقوال نستنتج أن الإغريق قد ترجموا لفظا فينيقيا، وأطلقوا ميتاگونيون أو ميتاگونيا على الحاشية الساحلية الممتدة من رأس بوگَرون حتى رأس شْبَرْتل، ثم استعمل اللفظ بعد ذلك ليدل بالخصوص على أمكنة وجهات كانت أقساما من هذا الساحل. وهناك افتراض يحتمل أن يكون صحيحا، وهو أن اللفظ كان معناه أول الأمر: «الأرض التي بعد الگونيون». فيكون "گونيون" صيغة للإسم الذي أطلقه الفينيقيون على رأس بوگَرون، ثم حدث تجاوز لغوي وأصبح الرأس أيضا يدعى ميتاگونيون.

ومعلوماتنا عن المدن الميتاگونية ضئيلة جدا. فبين رأس بوگَرون وخليج بجاية، كانت مدينة إيگلْگيلي Igilgili القديمة تشغل شبه جزيرة منخفضة. وتوجد بهذه المدينة مدافن من الطراز البونيقي، لكننا لا نستطيع أن نقول متى حُفرت، لأنها نبشت منذ عهد بعيد جدا، وضاع أثاثها الجنازي. ثم إن الافتراضات التي تجعل لاسم إيگلگيلي أصلا فينيقيا هي افتراضات بالغة في الوهن.

وبْجايَة التي حلّت محل صلْداي Saldae تتيح للسفن ملجأ مصونا صيانة جيدة من جهة الغرب، والشمال، والشمال الشرقي قرب مصب وادي الصمام. ولابد أن القرطاجيين لم يكونوا يهملون هذا المكان الذي أشار سْترابون Strabon لأهميته البحرية. وحسب بعض المعلومات التي

ليست أكيدة، فقد عثر فيما مضى بهذا المكان على أنصاب تحمل كتابات بونيقية قصيرة. وتذكر الرحلة أن ثَبْسا Thapsa أي فيلبْفيل ويولْيو أكْرا Ioulieu Acra أي شَرْشال توجد بينهما مدينة زيدا Zida، ولعل الصواب هو زَلْدا Zalda.

وتعرفنا بعض الوثائق التي من العهد الروماني خمس مدن واقعة بين بْجايَة ومدينة الجزائر. وكلها تبتدئ أسماؤها بكلمة "روش" الفينيقية. وهي روسازوس Rusazus وهي اليوم "أزَفّون" عند جنوب رأس كُرْبلان Cap Corbelin، وروسِپِّسير Rusippisir التي يُحتمل أنها كانت في تاقْسَبْت على أرس تَدْلِس، وروسكُرو Rusuccuru الواقعة بِدَلِّيس قرب مصب وادي سبَاوْ Sebaou على الجانب الشرقي لمرتفع يوقف رياح الغرب، وَروسوبيكاري Rusubbicari في مَرْس الحجّاج على نتوء خفيف بالساحل، وروسْگوني Rusguniae في رأس ماتيفو Matifou الذي يسد جون مدينة الجزائر من جهة الشمال الشرقي. فهذه الأسماء التي لم يذكر أي واحد منها في الرحلة، هي إشارة وليست براهين مؤكدة لمراكز فينيقية. ومثل ذلك يقال - لابد - عن بعض الاكتشافات الأثرية التي وقعت بالساحل : ففي تاقْسَبْت عثر على معبد به مرمدات Urnes تضم عظاما حيوانية، وكان فوق المرمدات أنصاب أكثرها يؤرخ له بعهد الإمبراطورية، ولكن بعضها به تضريس قليل البروز، ومظهرها أكثر قدما. وفي دَلّيس عثر على كتابة بالخط البونيقي الجديد، ونصب يعرض رموزا بونيقية لكنه، على غرار الكتابة، يمكن أن يكون من عهد ما بعد سقوط قرطاجة. وأخيرا كتل حجرية كبيرة شذبت بالأسفين والمطرقة، ويمكن أنها حطام مبنى فينيقي، ولكن أعيد استخدامها في جدار روماني.

إذا كان الفينيقيون أو القرطاجيون قد احتلوا روسْكوني Rusguniae، فقد أقاموا دون شك قبالتها أيضا، في إيكوزْيوم Icosium (مدينة الجزائر)، حيث كان بمستطاع الميناءين أن يحمياهم بالتناوب، لأن أحدهما في مأمن عن الرياح الشرقية، والآخر عن الرياح الغربية الشديدة العنف. ومدينة الجزائر تدين باسمها العربي لجزر صغيرة، قريبة جدا من اليابسة، وهي اليوم متصلة بها. وموقع كهذا فينيقي حقيقة. ومع ذلك فلا توجد حجة تعزز هذا الاستنتاج. أما الأسطورة التي تجعل تأسيس إيكوزيوم قد حدث على أيدي رفاق هِرَقْل فليست حجة جادة، حتى ولو قبلنا أن هرقل هذا هو مِلْقارت Melqart رب مدينة صُور Tyr. وقد عثر على نصب يعرض رموزا قرطاجية، ويظهر أنه من عهد ما بعد الميلاد، كما عثر على مصباح بونيقي بجبانة رومانية في مؤخر سرداب كان يحتوي على فخار إيطالي صنع عند بداية عهد الإمبراطورية، وعلى تميمتين من الطراز المصري كانتا في تابوت حجري نجهل تاريخه.

ونفس الريب يساورنا فيما يتعلق بِتِبازا Tipasa التي يشك في أن يكون اسمها فينيقيا. أما الآثار فليس لدينا سوى ميناء صغير من العهد الروماني بين الساحل وجزيرتين صغيرتين، وكذلك بعض الأنصاب من نفس العهد، وقد رسم عليها الرمز المعروف برمز تانيتْ Tanit، وبعض السراديب من الطراز البونيقي في مقبرة مسيحية، وعبادة لصورة ثعبان في عهد الإمبراطورية السفلى، وهذه كلها حجج ضعيفة لجعل تيبازا مستعمرة فينيقية أو قرطاجية.

أما في شَرْشال فنحن على أرض ثابتة، حيث أن هذه المدينة كانت تدعى يول Iol باسم أحد آلهة الفينيقيين، قبل أن يطلق عليها يوبا الثاني

اسم قَيْصرِية. والرحلة تذكرها في أواسط القرن الرابع من بين ممتلكات قرطاجة. ودون شك فإننا نقرأ في مخطوط الرحلة اسم يوليو Iouliou، ولكنه خطأ وقع فيه أحد النساخ. ولابد أن الميناء كان واقعا بين إحدى الجزر واليابسة على غرار الميناء العسكري الروماني والميناء التجاري الحالي. وقد استخرج من مياهه صنج من البرنز عليه كتابة بونيقية لا يظهر أنها متأخرة عن القرن الثاني ق.م ولا نعرف بشَرْشال وجودا لأي قبر يمكن التأريخ له بالحقبة التي ندرسها هنا. ومع ذلك فيحتمل جدا أن القطعة المنحوتة المعثور عليها بهذا المكان، هي جزء من غطاء تابوت يمثل الميت، حسب عادة اقتبسها الفينيقيون من المصريين. ونشير أيضا إلى الجعارين Scarabées المصرية الفينيقية. كما أن عدة من الكتابات المنقوشة بالخط البونيقي الجديد، التي ترجع إحداها لعهد الملك النوميدي مِسِبْسا Micipsa، وبعض المخلفات الأثرية الأخرى تشهد باستمرار اللغة والحضارة القرطاجيتين.

وبين يُول Iol وسيجي Sigé تذكر الرحلة مدنا مختلفة، نجهل مواقعها : وهي هيبْدوموس Hebdomos المدينة والميناء، وجزيرة أسْيون Acion حيث توجد مدينة وميناء، وجزيرة بْساماثوس Psamathos بمدينة وميناء، وخليج بداخله جزيرة بَرْتاس Bartas وميناء، وشَلْكا Chalca مدينة في النهر، ومدينة أرولون Arylôn، وميسْ Més المدينة والميناء. أما الجزر الثلاث التي من بينها اثنتان تحمل كل واحدة منهما مدينة، فيستحيل أن تكون هي الجزر الصغيرة التافهة أو الصخور البحرية المبعثرة على طول الساحل. فلعل الساحل، وهو متكون جزئيا من طين وطَفل تجرفهما الأمواج بسهولة، قد زعزعته بعض الرجات الأرضية، وكان محلا لتغيرات كبيرة خلال العصور، أو لعلّ كاتب الرحلة أو ناسخيها قد ارتكبوا أخطاء وتغييرات.

وعلى 33 كيلومترا من شَرْشال، كانت مدينة كُنوكو Gunugu تغطي مرتفع سيدي ابراهيم، وكان لها من جهة الغرب ميناء يصونه نتوء آخر بارز بالساحل. وليس متأكدا أن كُنوكو اسم فينيقي. ولكن في عدة من السراديب ذات الآبار، والمؤرخة بالقرن السابع، وقع العثور على أثاث سبق أن لاقينا مثله في القالة Collo وفي الساحل الشرقي للقطر التونسي. كما أن فخارا بونيقيا كثيرا قد كانت تصحبه مستجلبات من أوربا، كالأوعية المصبوغة المزينة بالوجوه، والأواني المنزلية ذات الطلاء الأسود، والمصابيح التي من الطراز الإغريقي. فلا شك أن موقع سيدي إبراهيم كانت به مدينة بونيقية مزدهرة ازدهارا لا بأس به. وقد اختلط الأهالي بالمعمرين، لأن بعض الفخاريات الخشنة تشبه تماما تلك التي تضمها الدلْمينات Dolmens الإفريقية، كما تشبه هذه التي لا يزال البربر يصنعونها حتى اليوم. أما عظام الموتى فغالبا ما كدست هنا وهناك. وإذا كانت في الأكثر تحمل أثر التحريق فلربما أن استعمال النار لم يقصد به سوى التعجيل بإزالة اللحم عن الهيكل العظمي.

وكان في العهد الروماني مكانان يقعان بعد كُنوكُو، ويسميان كَرْتيلي Cartili وكَرْتِناس Cartennas. ويحتمل أن أحدهما كان واقعا على مصب وادي الداموس، والآخر يقع في تنيس Ténès، على نجد صخري مشرف من ناحية الغرب على مصب وادي عَلاَلَة Allalah. والأحرف الأولى من الإسمين معا تكوّن – حسب بعض العلماء – اللفظ الفينيقي قَرْت qart أي "مدينة" الذي نجده في قَرْتْ حدَشْت (قرطاجة). هو افتراض يغري، ولكنه يكون أحسن لو دعمته بعض الكشوف الأثرية، خصوصا وأن القبور التي من الطراز الفينيقي بِتِنيسْ تؤرخ بالعصر المسيحي، ولا تفيد شيئا كثيرا. ومع ذلك فنتساءل : ألم تذكر كَرْتِناس

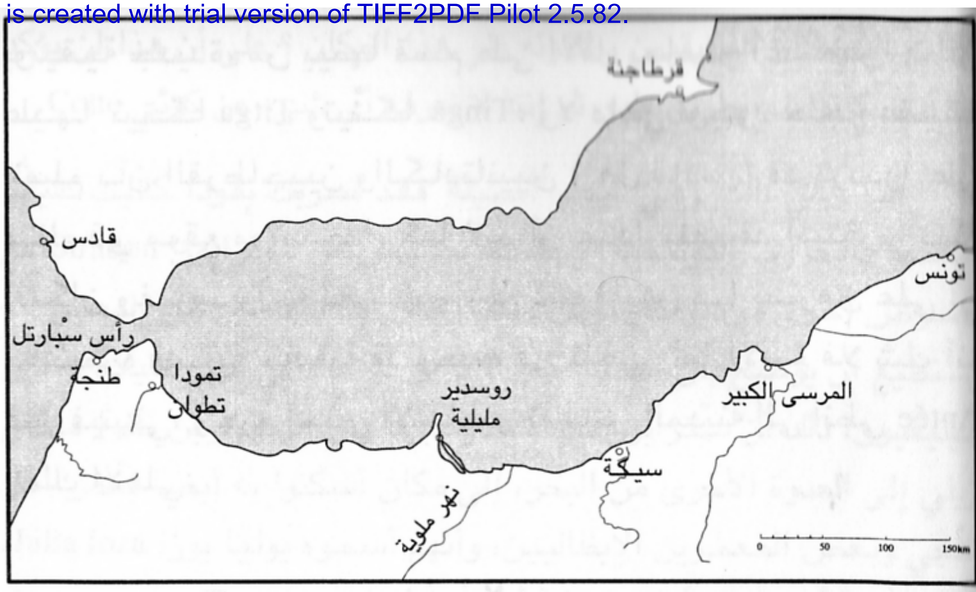
باسم إغريقي في الرحلة المكتوبة بالإغريقية في القرن الرابع والتي تقول: (شلكا = خلقا، مدينة في النهر) ؟ ولفظ خَلْقا يذكّرنا بخلقوس Khalkhos الذي هو النحاس. وبالفعل فإن مناجم غنية بالنحاس تجاور تِنيس، وقد استغلها القدماء. إذن فهل تكون هي خَلْقِيا Khalkheia التي ذَكر پوليبْ Polybe أنها في ليبيا ؟ إن المؤرخ يردد قول أحد سابقيه الذي لم يطلق الاسم على المناجم، وإنما أطلقه على إحدى المدن. وهل خَلْقا الواردة في الرحلة كانت تختلط مع (خَلْقِي Chalcé مدينة الفينيقيين) الواقعة "بعد إحدى المدن في ليبيا" والتي كانت أيضا تدعى خلقي ؟ هذا الإيضاح نقله إتْيان البيزنطي عن كاتب لم يذكر اسمه. ولابد أن إحدى المدينتين المتشابهتين في الاسم والمتجاورتين، قد كان يسكنها الأهالي.

عَلَى جونِ أرْزيو Arzeu الذي يصُونه جبل أورُس Orousse عن الرياح الغربية، كانت تقوم المدينة التي سماها الرومانيون باسم المرسى الكبير Portus Magnus ويحتمل أنِ هذا الاسم أطلق أول الأمر على الجون نفسه. وقد عثر في خرائب Portus Magnus على مكان مقدس يذكّر بما سبق أن عرفتنا به الاكتشافات في سوسَة وهيبون وتاقْسبْت: كالأوعية التي كان بعضها مليئا بالرماد، وبعضها الآخر كان فيما مضى يحتوي هدايا من السوائل، وقد دُسّت في باطن التراب وقامت فوقها الأنصاب. وتعرض إحدى هذه الأحجار رسما لمعبود عار يحمل فوق رأسه سترا. فهو ربة السماء لقرطاجة دون شك. وعلى نذور أخرى توجد إهداءات باللاتانية أو البونيقية الجديدة. وبالنظر لطريقة صنع الفخار ونوع الكتابة وأسلوب النقوش الغائرة، فالمعبد يظهر أنه يؤرخ بالقرن الميلادي الأول. ولربما أن التأثيرات الفينيقية التي تظهر عليه، قد أدخلت على يد التجار أو المعمرين في عهد السيطرة القرطاجية.

أما سيكا Siga التي خلفت بعض الآثار من العهد الروماني على تلّ بِيَسار نهر تافْنَة وعلى 5 كيلومترات من البحر، فكانت سنة 206 خاضعة لسيفَكْس Syphax ملك الماسيسليين، وكذلك الأمر بالنسبة لميناء هذه المدينة الواقع - بمصب النهر قبالة جزيرة رَشْكون Rachgoun. غير أن سيكا أو على الأقل الميناء، قد كانت فيما قبل ملكاً لقرطاجة، كما يتضح من الرحلة التي تذكر من بين المدن والمتاجر البونيقية على السواحل الإفريقية : (سيكي المدينة في النهر، وأمام النهر جزيرة أكرا Acra). على أن بعض النقود التي بالخط البونيقي الجديد الراجعة للقرن الميلادي الأول تسميها شيكعان Shigan.

كانت روسّدير Rusaddir (مليليّة) تقوم على صخرة تعلو بنحو ثلاثين مترا بالجنوب الشرقي لشبه الجزيرة الطويلة التي يكون رأس المذاري الثلاث قاصيتها، وهناك جون صغير كان يستعمل ميناء لها. وعلى نحو خمسة عشر فرسخا إلى الجنوب الشرقي ينصب في البحر نهر كبير هو نهر ملَوِية. واسم روسَّدير فينيقي معناه (الرأس الشديد) أي الرأس العظيم، وكان الإسم قد أطلق أول الأمر على رأس المذاري الثلاث. ونجد هذا الاسم مكتوبا بالحروف البونيقية على قطع نقدية ضربت بالمدينة بعد سقوط قرطاجة. ويسوغ الافتراض بأن الرحلة قد ذكرتها باسم أَكْروس Acros، اللفظ الذي يذكرنا بكلمة روش الفينيقية.

ونهر تَمودا هو وادي مَرْتيل، نهر تِطْوان. وكان پْلين القديم Pline l'Ancien قد ذكر به مدينة لم تعد موجودة في عصره. فهل تكون هي التي ضربت نقودا نقرأ عليها تَمْدات Tamdat أو تَمْدَعْت بالحروف البونيقية الجديدة ؟ ولابد من البرهنة على أنها قد كانت في عهد سابق مستعمرة لقرطاجة، لأن لفظ تَمودا له نبرة أهلية.



شاطئ البحر المتوسط، من تونس إلى مضيق جبل طارق

وعلى الساحل الإفريقي للمضيق، من هضبة سَبْتَة إلى رأس شبْرَتل، كانت ولا شك توجد أمكنة يستطيع الرقطاجيون الرسو بها كما يستطيعون مراقبة المرور. فبعد "عمود هيركليس الذي في ليبيا ورأس أبيلوكس Abilyx" ذكرت الرحلة (مدينة في نهر وقبالتها جزر كَديرا Gadéira). فالعمود هو جبل أشو Mont Acho في شبه جزيرة سَبْتة، أما أبيلوكس فيحتمل أنه جبل القرود. وحيث أن گادس Gadès تقع خارج المضيق بجهة الشمال الغربي، فمن الطبيعي أن المدينة التي سكتت الرحلة عن اسمها لم تكن بمواجهتها، لذلك ذكر اقتراح بأن تكون هي "القصر الصغير"، على مصبّ وادي القصر.

وعند المدخل الغربي للمضيق شرقي رأس شبْرَتِل، يتيح جون طَنْجة الذي له شكل نصف مستدير ملجأ حسنا ضد رياح الغرب والشمال الغربي. وكانت تِنْجي Tingi مدينة قديمة، إذ يظهر أن هيكاتي Hécatée ذكرها باسم ثيجي Thiggé. وهناك نقود بكتابة

بونيقية جديدة، من بينها قسم على الأقل يعاصر أغسطس، تطلق عليها تيتْگا Titga وتينْگا Tinga. ولا داعي لوجود حجج دقيقة لنسلم بأن القرطاجيين والگادتانيين (أهل قادس) قد ترددوا على ميناء ذي موقع مُوات جدا، كما لابد أن عدداً منهم قد استقروا بهذا المكان وغرسوا به لغتهم. ومع ذلك فليس ما يبرهن على أن مستعمرة فينيقية حقيقية قد وجدت في تِنْجي. أما الاسم فلا شك أنه غير فينيقي، وتعزو إحدى الأساطير تأسيس المدينة إلى أنطي Antée الملك الأهلي.

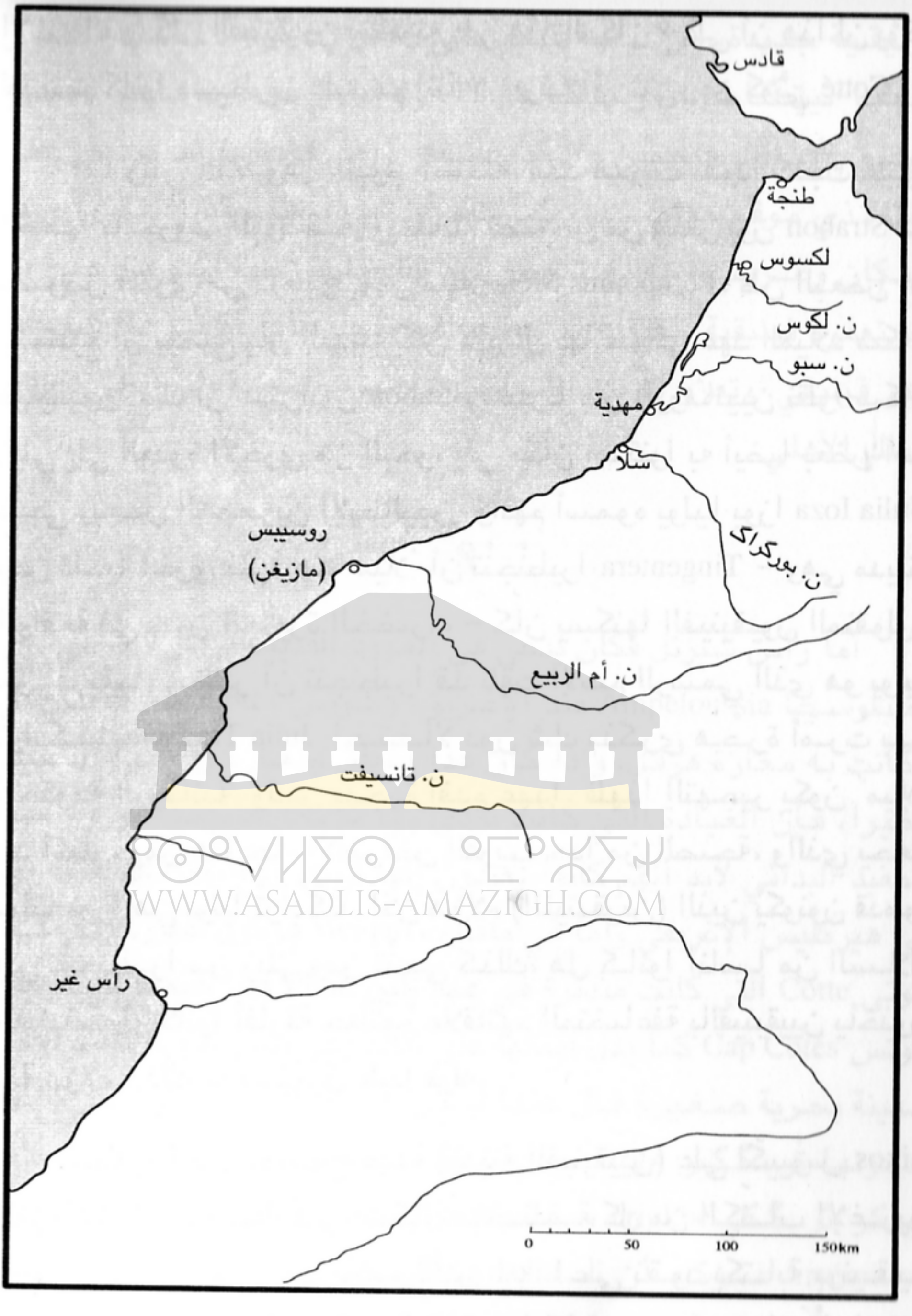
8

أما رأس شبْرَتْل فكان يدعى في العهود القديمة برأس الدوالي، أي أمْبلوسْيا Ampeloussia عند الإغريق، وكوتس Cotès عند الأفارقة، وكانت به مغارة هرقل. وإذا كان هذا يتعلق بمغارة وقع بها التنقيب أخيرا، فإن العبادة التي كانت تؤدى بها لم تكن فينيقية، وزوار هذا المعبد البدائي لابد أنهم كانوا يعبدون إلها ليبيا، وقع بعد ذلك تمثله إما في هيرَكليس الإغريقي وإما في مِلْقارت Mélqart هِركول صُور. أما مدينة كوتى Cotte التي كانت مندثرة في عهد پْلين Pline فقد أقيمت قرب رأس كوتس Cap Cotès كما يدل اسمها على ذلك. وفي نفس الجهة كانت توجد مدينة بحرية صغيرة قال عنها سْترابون Strabon إن الباربار كانوا يدعونها تْريگكس Trigx. ولربما يكون هيگاتي Hégatée عرفها، لأنه (يذكر ثريگكي Trigkhé مدينة واقعة بجوار الأعمدة). أما أرتميدور Artémidor فيؤكد أن اسمها هو لونكس Lygx ويلوم أرَتُسْثين Eratosthène على أنها اختلطت عليه بلِكْسوس Lixos. إذن فهل لونكْس هو

الاسم الذي كان الفينيقيون يطلقونه على هذا المكان ؟ على أن هذا لن يؤكد لنا أنهم كانوا مسيطرين عليه، ثم إننا لا نعرف أي شيء عن كوتي Cotté.

أما زيلي Zili، وهي اليوم "أَصيلة" فقد ضربت نقودا كتبت عليها اسمها بالحروف البونيقية. وبمقابلة نصوص من سْترابون Strabon مع نصوص أخرى من بومْبونيوس ميلا Pomponius Méla، ظن البعض أنه يستطيع أن يوضح بأن المدينة كان لا يزال بها حوالي عهد الميلاد سكان فينيقيون. ذلك أن سْترابون Strabon يخبرنا بأن الرومانيين نقلوا سكان زيلي إلى العدوة الأخرى من البحر، إلى مكان أسكنوا به أيضا بعض أهل تِنْجي وبعض المعمرين الإيطاليين، وأنهم أسموه يوليا يوزا Julia Ioza، ومن ناحية أخرى نقرأ عند "ميلا" أن تِنْجِنْطيرا Tingentera – وهي مدينته الواقعة في جون الجزيرة الخضراء – كان يسكنها الفينيقيون المنقولون من إفريقيا. ويظهر أن تنجنطيرا قد تلقت الاسم الرسمي الذي هو يولْيا تْرادُكْتا Julia Traducta احتفالا دون شك بذكرى هجْرة أَمَرتْ بها الحكومة الرومانية، وليس بهجرة أقدم عهدا. فلهذا التهجير يكون "ميلا" قد أشار، ومن هنا جاء الافتراض القريب جدا من الصحة، والذي يجعل يوليا يوزا هي يوليا تْرادُكْتا. لكن هؤلاء (الفينيقيين) الذين يكونون قدموا إلى تنْجِنْطيرا من زيلي ومن تِنْجي كذلك، هل كانوا أناسا من السلالة الفينيقية، أو كانوا أفارقة جعلتهم علاقاتهم المتضاعفة بالفينيقيين يأخذون لغة هؤلاء ؟ ذلك ما يستحيل علينا قوله.

وتطلق الرحلة بوضوح صفة (مدينة الفينيقيين) على لِكْسوس Lixos التي كتب اسمها على أشكال مختلفة كل من الكتاب الإغريق واللاتانيين، كما دعيت باسم لِكْش Liksh على نقود بكتابة بونيقية جديدة. وكانت مستعمرة قديمة، وبقربها كان يوجد معبد لِهِرَقْل اعتبر



شاطئ البحر المحيط، من مضيق جبل طارق إلى أگادير

أنه أقدم من المعبد الشهير بجزيرة گادس، وقد عثر في خرائب المدينة على كتابة فينيقية نقشت حوالي القرن الثاني ق.م، وهي مشابهة بهيأة حروفها للنصوص المنقوشة الموجودة بالساحل السوري، أكثر مما هي مشابهة للخط القرطاجي. وعلى هذا، فإن لِكْسوس Lixus بقيت على اتصال مع الوطن البعيد لمؤسسيها، ولربما أن هذا الاتصال كان يتم بواسطة الجنوب الإسباني.

وقد كان الموقع الذي تقوم به مقابلا لموقع گادس، كما أن المدينتين كانتا على مسافة مساوية للمجال الذي يفصل إحداهما عن الأخرى، كما أن المستعمرة الإفريقية القائمة على الضفة اليمنى لنهر لكسوس (وادي لكّوس) لم تكن على ساحل البحر، بل كانت تغطي - على بعد 4 كيلومترات تقريبا عن المصب الحالي للنهر - نجداً صغيرا أكثر ملاءمة للصحة من الأراضي الخفيضة والمستنقعية المحيطة به، وتنعشه في الصيف نسمات البحور. وقد كان النهر يجري بأسفل المدينة، ويكون منعطفاته، ثم يتابع سيره لينصب في المحيط بجهة الشمال الغربي، غير أن مجراه الأسفل منذ العهود العتيقة قد تحول إلى الجنوب.

كان النجد محوطا بسور ذي شكل خماسي، وكان المجال المحوط يبلغ في أوسع أبعاده : 320 و280 مترا. وحتى إذا سلمنا بوجود أرباض واسعة، فإن كُرْنيلْيوس نيبوس قد أخطأ كثيرا حين زعم أن لكسوس كانت أكبر من قرطاجة. ولا شك أن بعض الأقسام من هذا السور تؤرخ بالعهد الفينيقي. فهي ترتفع بقواعد منتظمة تكونها كتل ضخمة وضعت بالطريقة الجافة، وبعضها يبلغ 3,60 مترا في الطول على مترين اثنين علوا. والآثار الوحيدة المعروفة من الماضي الفينيقي بلِكْسوس هي: رأس لرجل نحت بطريقة عتيقة على الحجر الرملي، والكتابة التي سبق

أن تحدثنا عنها وكذلك بقايا الجدار. أما معبد هرقل أي ملْقارت Melqart، فكان يبعد عن البحر بمائتي خطوة، ويقع بجزيرة في مصب النهر. وتذكر الرحلة على الضفة الأخرى للنهر مدينة للأهالي تتوفر على ميناء، ولعل مدينة الْعَرائِش حلّت محلها.

وتحمل خرائب لِكْسوس اسم تشِّمشْ Techemmich ويسميه بعض الكتاب العرب باسم تشْمس Techmès أو تشُمّس Techommès. وكذلك فإن بعض النقود التي بعضها ملَكي وبعضها بلدي، والتي ضربت حول عهد الميلاد بهذه الجهة من موريتانيا لا شك، تعرض كتابات بالبونيقية الجديدة، وتقرأ شمِّشْ Shemesh أو مَقومْ شمِّشْ Maqom Shemesh. ويسوغ الاعتقاد بأنها صنعت في لِكْسوس. ولفظ مَقومْ Maqom كان معناه مدينة في الفينيقية، كما أن شمِّشْ Shemesh هي الشمس. فتكون لِكْسوس قد وصفت بأنها "مدينة الشمس"، الأمر الذي لابد أن يفسر بأهمية العبادة التي كانت تؤدى لمعبود شمسي، هو ملْقارْت على ما يحتمل.

وذكر عدة من الكتاب القدامى وجود خليج يقع على الساحل المحيطي. ويُطلِق عليه سيلَكْس المشبوه Pseudo-Sylax اسمَ كوتِس Cotès، ويجعله يبتدئ مما وراء الأعمدة (لا شك من الرأس الذي أطلق عليه كتاب آخرون نفس الاسم)، كما يجعل نهايته عند مرتفع هِرْميس Hermès (على بضعة فراسخ إلى الجنوب الغربي لمصب وادي أبي رَكْراك). ويقول : من هذا المرتفع يسير خط من الصخور البحرية إلى أوربا حتى الرأس المقدس Cap Sacré الذي هو رأس سان فَنْسانْ Cap Saint-Vincent. وحسب سْترابون Strabon فإن "خليج المتاجر" كان يمتد إلى جنوب رأس كوتس، وكانت تقوم على جانبه مراكز التجارة الفينيقية. وبطلِمي أيضا يعرف خليجا للمتاجر، ولكنه يجعله بعيدا إلى

الجنوب، فيما وراء مصب نهر سبو. وعلى غرار لفظة أمبوريا التي كانت تدل على قسم من ساحل سَدْرة، فإن خليج المتاجر يمكن أن يكون اسما مقابلا لتسمية فينيقية وقع الظن بالعثور عليها عند پِلْين Pline. فهذا الكاتب الذي نقل عن أگْريبا Agrippa، ذكر بعد لِكْسوس خليجا (Sinus) حرّف النسّاخ اسمه على عدة صيغ، هي : سَگيگي Sagigi، سگيسي Sagici، سَگاسي Sagaci، سَگوسي Sagyci، سَگيتي Sagyti، وسگُتي Saguti. وقد فضل موفَرْس Movers من بينها صيغة سَگُتي Saguti التي لا يظهر أنها أحسن من غيرها، لأنه وجد فيها اللفظ الفينيقي الذي معناه هو "المتاجر" بالضبط. وهذا افتراض لا يقل هنا عن افتراض مولَّر Müller الذي استصوب سَريگي Sarigi، وزعم أنه المقابل الفينيقي لكلمتي أمْبلوسِيا وكُوتِس Ampeloussia, cotès، ويرى نتيجة لذلك أن الخليج الوارد ذكره عند أگريبا Agrippa هو خليج كوتِس المذكور في الرحلة. وهذا مع العلم بأن أگريبا يقول بأن الخليج يقع بعد لِكْسوس. وفي الأخير، لا نستطيع التأكيد بأن هذه النصوص الأربعة تتحدث عن خليج واحد هو نفس الخليج.

وعلى فرض أن الخليج المذكور في سْترابون Strabon كالخليج الوارد ذكره في الرحلة - قد كان حده عند مرتفع هِرْميس، فإننا لن نستطيع أن نذكر بجنوب لِكْسوس سوى اثنين من المراكز الفينيقية التي يتحدث عنها الكاتب الجغرافي.

فأحدهما هو مستعمرة حَنّون المسماة ثومياتيرْيون Thymiatérion في الترجمة الإغريقية لرحلة القائد القرطاجي، كما سُمّيت ثومياتيرْيا Thymiatéria في رحلة سيلَكْس Scylax. وقد رأينا أنها كانت تشغل لا شك موقع المهْدية، على مصب نهر سبُو، الذي سماه القدامى كْرابيس

Crabis أو سوبور Subur. ورغما عن وجود الحاجز بالبحر فإن النهر كان يستخدم ميناء.

وعلى مصب وادي أبي رَقْراق، يذكر كتاب من العهد الروماني سَلا Sala التي لاسْمِها رَنّة فينيقية، والتي ضربت عند نهاية القرن الأول قبل الميلاد نقودا بكتابة بونيقية جديدة : فيحتمل إذن أنها كانت ذات أصل فينيقي. وكانت تقوم بشالة Chella، على مرتفعات الضفة الغربية وراء الرباط، حيث كانت السفن تأوي للنهر الذي يحمل نفس اسم المدينة : سلا Sala أو سَلَتْ Salat.

ويذكر بطلمِي أبعد منها ميناء روسيبيس Rusibis الذي بالنظر لحروفه الأولى روس Rus، فإنه كان قريبا من أحد الرؤوس البحرية. ويسميه پْلين Pline نقلا عن أگْريپا Agrippa باسم بورْتوس روتوبيس Portus Rutubis، ويخبرنا أنه كان يوجد على بعد 224 ميلا (331 كيلومتر) من لكْسوس، بين نهر سَلَتْ Salat ومرتفع سوليسْ Promunturium Solis أي رأس كَنْتان Cap Cantin. ويقودنا هذا الرقم إلى مدينة مازيغَنْ (الجديدة) التي لها جون يحميه أحد المرتفعات عن الرياح الغربية. ولم يذكر أگْريپَا ولا بطلِمِي أن هذا المكان كانت به مدينة. وتقع مدينة الجديدة على مسافة قليلة من مصب نهر أمّ الربيع، النهر الذي سمته الرحلة باسم أنيدسْ Anides، وسمّاه پوليبْ Polybe أناتِس Anatis، ودعاه باسم أسانَا Asana كلٌّ من پْلين وبْطلمي، والذي له مَصب به ميناء على غرار مصبات الأنهار السابقة.

أما رأس كَنْتان فكان يحمل عند الفينيقيين اسماً كتبه الإغريق بصيغة سولُويْس Soloeis. وقد أقام به حَنّون معبدا كرّسه لأحد آلهة البحر. تمثل في بوسيدون Poséidon. وفي أواسط القرن الرابع ذكرت

الرحلة أيضا أن بقمة المرتفع معبدا لبوسيدون، مع صُور تمثل أشخاصا وأسودا ودلافين، وقد نشأت عنها أسطورة تعزو هذه الآثار الفتية لديدال Dédale.

لقد قلنا إنه ليس بالأمكان تحديد مواقع المستعمرات الخمس التي أنشأها حَنّون بين رأس كَنْتان ونهر دَرْعَة Oued Draa، والتي كانت أولاها على يوم ونصف من الرأس. ويحتمل أن واحدة منها تأسست في "الصويرة" التي يبدو أن جزيرتها الكبيرة كانت تدعى جزيرة يونون Junon، أي أَسْتَرْتِي على ما يحتمل، وأخرى في "أَكَادير" التي احتفظت حتى اليوم باسم بونيقي. بين نهر فوث Phuth (وادي تَنْسِفْت) والأطلس الكبير (رأس غِير) يذكر بطِلِمِي موقعاً باسم أوسّادْيون أَكْرون Oussadion Acron الذي يتناسب على ما يظهر مع رأس سيم Cap Sim. فهل نقرأه روساديون Roussadion ؟ وهل يكون هذا الاسم الأخير صيغة من روشدّير Roush addir أي الرأس الكبير ؟ إن أَكْرِيبا Agrippa قد ذكر بورْتوس روسَدير Portus Rhysaddir وراء مرتفع سوليس Promunturium Solis. ولربما أنه هو "الصويرة" الواقعة على نحو خمسة عشر كيلومترا إلى الشمال الشرقي من رأس سيم Cap Sim. ويتحدث پْلين Pline كذلك عن نهر إيفور Ivor. وحسب معلومات مستقاة من الأهالي، يقع هذا النهر بين الفوت Fut، أي وادي تَنْسِفْت وبين الأطلس، وكانت توجد على ضفافه آثار لسكان اختفوا من الوجود، وآثار مغارس للكروم والنخيل. فهل كان ذلك مستعمرة فينيقية مهجورة ؟ يجب أن لا يقدم هذا الافتراض وكأنه حقيقة مؤكدة.

أما الرحّل Nomades الذين كانوا يعيشون حول نهر لِكْسوس Lixos (وادي دَرْعة) فقد ربطتهم الصداقة مع حَنّون. وكان البحارة الصيادون

القادِسيون يترددون في عهد تالٍ على هذه النواحي، بل ويتقدمون إلى أبعد منها نحو الجنوب. ولكن ليس في هذا كله برهان على أنه كان هناك مراكز فينيقية دائمة.

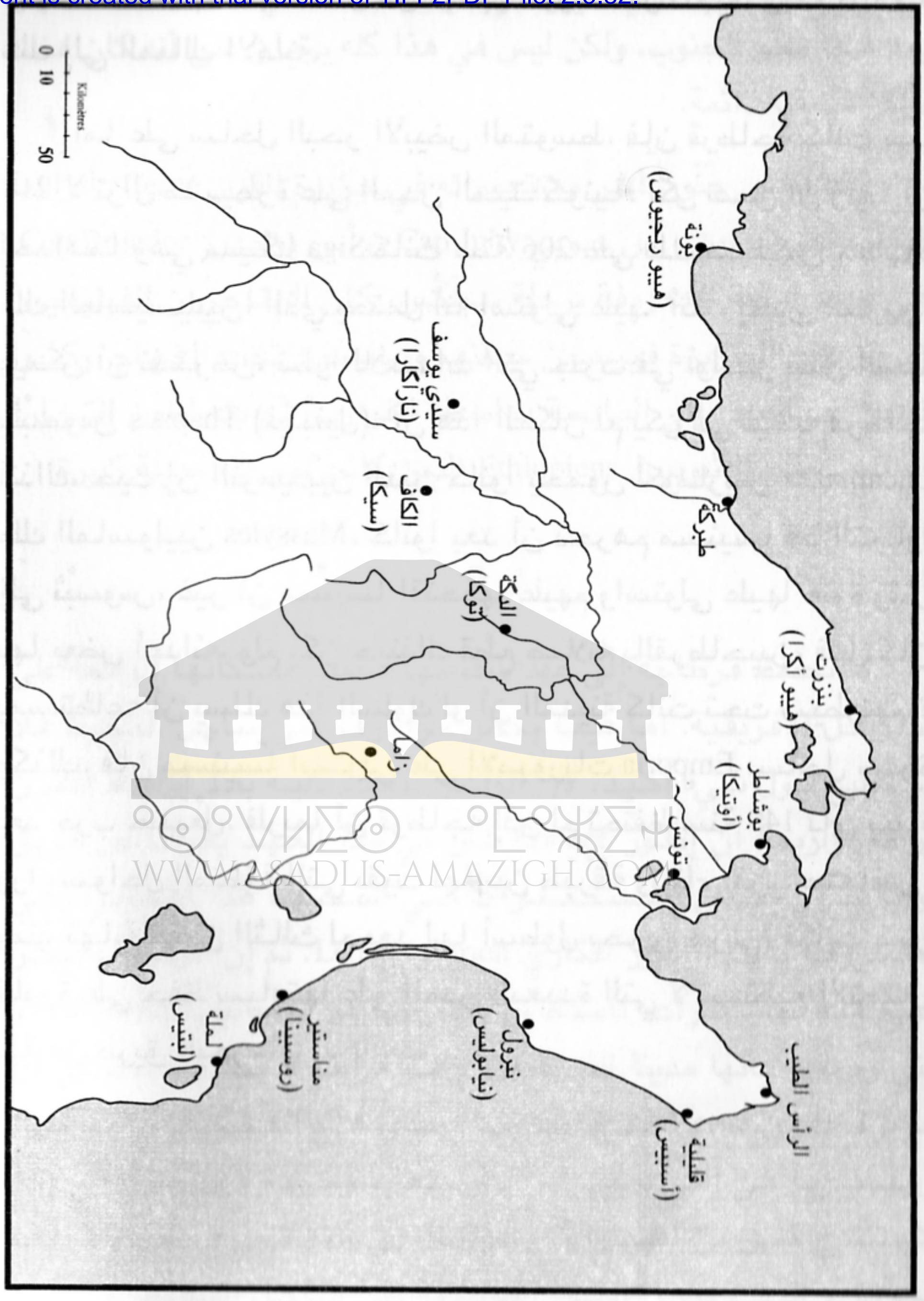
وقد أسس حَنّون آخر مستعمراته في جزيرة القرن Cerné، الواقعة على ما نعتقد بين رأس جوبي Cap Juby ورأس بوجدور Cap Bojador. وفي عهد الرحلة المعروفة برحلة سِيلَكْس، كان المتاجرون الفينيقيون يزورون هذه الجزيرة فيرسون سفنهم ويجلسون تحت الخيام. وكانوا ينقلون بضائعهم إلى اليابسة بواسطة القوارب، ثم يتعاطون التجارة بالمقايضة مع الأثيوبيين Ethiopiens الذين كانت لهم هنا مدينة كبيرة.

9

لم تحتفظ قرطاجة إلى عهد سقوطها بجميع ممتلكاتها الواقعة على السواحل الإفريقية. أما فيما يخص مراكزها على ساحل المحيط فلا نستطيع قول شيء أكيد، لأن الوثائق تنعدم كلية بعد أواسط القرن الرابع. ولربما أن إيفور Ephore كان في هذا العهد يعرف عن طريق رواية حَنّون إحدى المستعمرات التي أسسها هذا الأخير، وهي المعروفة باسم السّور الكاري Le Mur Carien. ثم إن الرحلة لم تذكر جميع هذه المستعمرات، باستثناء واحدة منها هي ثومْياتيرْيا Thymiatéria التي وصفها بأنها مدينة للفينيقيين، وعند قراءته لا يخالجنا شك في أن جزيرة القرن Cerné قد كانت بها إحدى هذه المستعمرات. فهل ثومياتيريا هي التي بقيت آنذاك وحدها موجودة ؟ سيكون في هذا الاستنتاج كثير من المجازفة. والحقيقة هي أننا لا ندري متى ولا كيف هجرت أو هدمت بعض المدن الفينيقية على ساحل المحيط، ولا متى

وكيف انفصل بعضها الاخر عن الإمبراطورية القرطاجية، ووقع ضمه لا شك إلى الممالك الأهلية.

أما على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فإن قرطاجة كانت سنة 218 لا تزال مسيطرة على المدن الميتاكونية. لكن سبق أن رأينا أن إحداهما وهي سيكا Siga كانت سنة 206 على ملك سيفكس Syphax مَلِك الماسيسيليين، الذي يحتمل أنه استولى عليها أثناء إحدى الحروب. ويمكن أن نفترض، نظرا للأحداث التي جرت في أواخر نفس السنة بثَبْسوس Thapsus (فيلبْفيل)، أن هذا المكان لم يكن في قبضة قرطاجة آنذاك، حيث إن النوميديّين الذين كانوا يحمون لَكومازيس Lacumazès مَلِك الماسوليين Massyles، كانوا بعد أن دحرهم مسّنيسّا قد التجأوا إلَى ثبْسوس، غير أن مسِّنيسّا اقتحمها عليهم واستولى عليها عنوة وقتل بها بعض أعدائه. ولم يكن حينذاك قطع صلاته بالقرطاجيين، فهل كان بمستطاعه أن يسلك هذا السلوك لو أن المدينة كانت تحت سيطرتهم ؟ وكذلك، فإن مسِّنيسّا استولى على الإمبوريات Emporia بساحل سدرة بعد حرب حَنيبَعْل. فلربما أن قرطاجة إذن لم تحتفظ سنة 149 بأي ميناء وراء سواحل المنطقة التي بقيت لها بين طبَرْقَة وثيناي قرب صفَاقسْ. ومنذ نهاية القرن الثالث لم يعد لها أسطول بحري حربي، فكانت غير قادرة على حفظ سيادتها على المدن البعيدة التي لا تستطيع الاتصال بها عن طريق البحر.



المنطقة القرطاجية

الكتــاب الثاني

حكومة قرطاجة

الفصل الأول

الدستور القرطاجي - التاريخ الداخلي لقرطاجة

1

ليس لنا عن الدستـــور القـرطـاجي سـوى مـعلومــات هزيلة. وأهم مراجعنا عن هذا الموضوع هو أحد الفصول من كتاب السياسة لأرسْطو، الكتاب الذي ألف حوالي 335 ق.م[39]. ولابد أن تضاف إليه بعض الفقرات من مؤرخين إغريق ولاتانيين، وعلى الخصوص منهم، وفيما يتعلق بالعهود المتقدمة على القرن الثالث، ديودور الصقلي Diodore le Sicilien، وطْروگ بومْبي Trogue-Pompée (في اختصار جُسْتان Justin له). إذ يظهر أن هذين الكاتبين الأخيرين استقيا من تيمي Timée. أما فيما يتعلق بعهد الحروب ضد رومة فيرجع إلى پوليبْ Polybe وتيت ليڤْ Tite-Live وأپْيان Appien. ولم تصلنا عن حكومة القرطاجيين سوى فقرة لا تجدي من مقال كتبه شخص يدعى هيپاگوراس Hippagoras.

إن المـعلومـات التي بين أيدينا صـادرة عن كـتّـاب أجـانب عن قرطاجة، لم يكونوا دائما جيدي الاطلاع، كما أنهم استعملوا في العادة

ألفاظا من لغتهم للتعريف بأنظمة بونيقية، ونضيف بأن هذه النصوص ترجع لحقب مختلفة، من أواسط القرن السادس إلى أواسط القرن الثاني. لذلك يجب أن لا تستعمل هذه النصوص إلا بعد تصنيفها زمنيا، وذلك لأن الدولة القرطاجية لم تقف جامدة أثناء هذه المدة الطويلة.

وفي قرطاجة اكتشفت كتابات منقوشة، أوردت أسماء لبعض الولاة وعلية القوم، وجلّها يرجع للقرنين اللذين سبقا تهديم قرطاجة على يد الرومانيين.

وقد قام عدة من المؤرخين في العصر الحديث بدراسة هذا الموضوع الذي نعرض له هنا، وانتهوا إلى افتراضات تكمل ما في النصوص من نقص، لذلك فإن النتائج التي توصلوا إليها كانت متخالفة جدا فيما بينها.

وقبل تأسيس قرطاجة وبعده نجد في فينيقيا، في صُور Tyr وغيرها، الملوك المفردين الذين لهم سلطة وراثية يزاولونها مدى حياتهم. فهل وجدت الملَكية بهذه المميزات في المدينة التي تعزو الحكاية تأسيسها إلى ملِكة ؟ وهل عوضت الملكية فيها من بعد بحكم انتخابي على غرار ما جرى في الكثير من مدن بلاد الإغريق وإيطاليا ؟ ليس لدينا على ذلك حجة. إن أقدم ملك نعرفه قد كان يعيش في بداية القرن الخامس، وكان، حسب هيرودوت Hérodote قد صار ملَكاً على القرطاجيين نظرا لقيمته. ومعنى هذا أنه اختير للمُلك، ولم ينَله بحق الولادة. وفي رواية لجُسْتان نجد ذكرا للشيوخ ولمجلس شعبي في أواسط القرن المتقدم، هذا كل ما تعرّفنا به النصوص عن الأنظمة السياسية في قرطاجة من عهد تأسيسها إلى نحو من 450 ق.م.

ونفس رواية جستان احتفظت بذكرى عن عملية لقلب نظام الحكم قام بها أحد القادة العسكريين، لكن نتائجها لم تكن دائمة. ذلك أن مَلْكوس Malchus اندحر في سردانية، بعد ما أحرز على انتصارات عظيمة في إفريقيا وصقلية. وعقابا له على اندحاره، حكم عليه القرطاجيون بالنفي مع من بقي من جيشه على قيد الحياة. ولابد أن هؤلاء كانوا مواطنين، وإلا فإن الحكم الصادر في شأنهم يكون غير مفهوم. وعندما عجز المطرودون عن أن ينالوا العفو بالرجاء وبالوعيد، فإنهم نزلوا بإفريقيا وحاصروا قرطاجة وجوّعوها. وأثناء ذلك عاد كَرْتَلون Carthalon ابن مَلْكوس Malchus من صُور، التي كان قد بُعث به إليها حاملا أعشار غنيمة صقلية. وادّعى كَرْتَلون بأن الواجب يفرض عليه أداء فروضه الدينية أولاً، فامتنع عن الذهاب لمقابلة مَلْكوس Malchus الذي لم يجرؤ على منعه من الدخول لقرطاجة. وبعد بضعة أيام نال كَرْتَلون الإذن بالاتصال بأبيه. غير أن الأب لم يرد أن ينسى عصيان الابن، وزعم أنه قدم ليتشفى من فجيعة المطرودين. وهكذا، فإن كَرْتَلون التعس مات، وهو لا يزال مرتديا ملابسه الكهنوتية الفاخرة، مصلوبا على خشبة عالية نصبت أمام المدينة. ولم يلبث مَلْكوس Malchus أن استولى على المدينة، فاستدعى الشعب وشكا إليه الحكم الصادر في شأنه مع أصحابه، ولكنه أعلن بأنه لن يعاقب سوى الذين أشاروا بهذا الظلم، وأنه سيعفو عن جميع الآخرين. وأمر بإعدام عشرة من الشيوخ ثم أعاد الحكم الشرعي. وبعد أيام وقع اتهامه بالتطلع للسيطرة على الحكم tyrannie وجرى إعدامه.

في النصف الثاني من القرن السادس والنصف الأول من الخامس، تولت الحكم مدى ثلاثة أجيال أسرة ماگون Magon، بحيث تولاّه ماگون

نفسه وابناه حَسدْرُبَعْل Asdrubal وعَملْكار Amilcar، وكذلك أبناء حَسدْرُبَعْل الثلاثة، وهم حنيبعل Hannibal، وحسدر بعْل، وسافو Sapho، كما تولاه أبناء عَملْكار الثلاثة وهم حملْكون Himilcon ، وحَنّون Hannon، وجِسْكون Giscon. وقد رأينا كيف وسّع الإمبراطورية هؤلاء الرجال. ولعل الجيوش التي كانت رهن إشارتهم ساعدتهم على السيطرة بالعنف، لكن، ربما أنهم لم يكونوا بحاجة لهذه الجيوش، إذ لا شك أنهم ضمنوا لأنفسهم كثيرا من الأنصار بالمدينة بفضل هيبة انتصاراتهم، وبالفتوح العسكرية التي فتحت الأسواق في وجه الصناعة والتجارة وأتاحت للأرستقراطية المزارع بالتراب الإفريقي، وأخيرا باستخدام الجيوش المرتزقة التي مكنت من خوض سلسلة طويلة من الحروب، هذه الحروب التي نال القرطاجيون مغانمها دون أن يشعروا بفداحتها. ويظهر أن الماكونيين les Magonides اكتفوا في أول الأمر على الأقل بالألقاب العادية وبالسلطة الشرعية. فأحدهم وهو عَملْكار كان "ملكا" حين قيادته سنة 480 لحملة بصقلية، ويسوغ الافتراض بأن "الملك حنّون" الذي خاض المحيط قد كان ابناً له. أما الأوصاف : إمبْراطور Imperator ودكتاتور Dictator ودوق Dux التي تطلقها بعض النصوص اللاتانية على بعض الأعضاء من نفس الأسرة، فتدل على قيادات عسكرية بالإمكان أن يتولاها حتى الملوك. ولسنا ندري هل كان الماكونيون يحتكرون هذه القيادات لأنفسهم. وعلى كل حال فإنهم غالبا ما تقلدوها، حتى إن جُسْتان أشار للإحدى عشرة مرة التي تولى فيها الدكتاتورية حَسدْرُبَعْل ابن ماكون. أما الملكية فلربما أن الماكونيين اختصوا بها لمدة سنوات طويلة.

وتحطمت سيطرتهم حول أواسط القرن الخامس في ظروف لا نعلم عنها شيئا. يقول جُسْتان Justin : «حيث إن هذه الأسرة القوية جدا قد

كان ثقلها فادحا على الحرية العامة، إذ كانت تتصرف في الحكم والعدالة، فقد تقرر إنشاء محكمة بمائة قاض يؤخذون من بين أعضاء مجلس الشيوخ، وهكذا فالقادة ملزمون بعرض أعمالهم على هذه المحكمة بعد كل حرب، فتحثّهم خشية الأحكام والقوانين المطبقة عليهم بقرطاجة على أن يحترموا سلطة الدولة أثناء مزاولتهم للقيادة».

ويخبرنا دِيودور Diodore أن جِسْكون Giscon أحد أبناء عَمِلْكار قد وقع نفيه إلى سلِنُونة Selinonté بصقلية. وكان لجِسْكون أخٌ يدعى حَنّون Hannon. وحيث إن هذا الاسم قد كان واسع الانتشار في قرطاجة، فإننا لا نستطيع التأكيد بأن النصوص الأخرى التي يظهر فيها هذا الاسم تتعلق بنفس الشخص المذكور، ومع ذلك، فالأغلب على الظن هو أن ابن عمِلْكار هو نفسه الشخص المدعو سابِلوس حَنّون Sabellus Hannon الذي عاش في هذه الحقبة والذي ذكر المؤرخ طْروگْبومْبي Trogue-Pompée أعماله الباهرة في إفريقيا. ولا يستحيل أن يكون هو نفسه الملك الذي أسس المستعمرات على ساحل المحيط، ولربما أنه نفس الشخص الذي مدحه الكاتب ديون كريزوستوم Dion Chrysostome بقوله : «لقد غيّر القرطاجيين، إذ صيَّرهم ليبيين بعد أن كانوا صُوريين. فبفضله سكنوا ليبيا عوضا عن فينيقيا، ونالوا الثروات الواسعة، والأسواق العديدة، والموانئ والسفن ذات الصفوف الثلاثة، وسيطروا بعيدا في الأرض والبحر». فلابد أن نستنتج إذن أن حَنّون كان حوالي 450-470 الرئيس الحقيقي لأسرة الماگونيين. وهل كانت له أطماع ؟ هل حاول أن يجعل نفسه فوق القوانين؟ إن أرسْطو يتحدث عن الاضطرابات التي تنخر الارستقراطيات بفعل الرجال الأقوياء الذين يمكنهم أن يصيروا أشد قوة ويتطلعون

للملك، ويضرب المثل على ذلك بحنون القرطاجي. لكن الأغلب على الظن أنه كان يفكر في معاصره حنّون الكبير. غير أن فقرة من جُسْتان يمكن أن تتعلق بالماكونييْن حَنّون وجِسْكون. ذلك أن بومِلْكار Bomilcar الذي وقع إعدامه سنة 309 أو 308 بعد محاولة لقلب نظام الحكم، قد ذكر القرطاجيين على ما يبدو ببعض مظالمهم، حيث إن حنّون اتُّهم بالتطلع إلى الملك، كما أن جِسْكون قد نفي ضحية لنفس التهمة الشنيعة رغما عن براءته إلى غير ذلك.

يحكي المؤرخون پْلين القديم Pline l'Ancien وبلوتَرك Plutarque وإيليان Elien قصصاً تافهة عن حنّون الذي قيل عنه أن مطامعه كانت تهدد وطنه بالخطر. فحنّون القرطاجي، حسب إيلْيان، اشترى طيورا متكلمة وعلّمها أن تقول : «حنّون إله»، ثم أطلقها، ولكن نفسه لم تنشرح لتلامذته الصغار التي نسيت ما تعلمته عندما صارت حرة. وحسب پْلينْ فإن حَنّون القرطاجي العظيم، كان أول رجل يجرؤ على مداعبة أسد ويعرضه مؤنساً، فحكم عليه بسبب ذلك، لأنهم اعتقدوا بأن الشخص الذي يبلغ هذا المبلغ من اللباقة قد يقنع غيره بما يريد، والخطر كل الخطر في أن يستأمن على الحرية العامة من عرف كيف يتغلب على الشراسة. أما بلوتَرك Plutarque فقد تلقى نفس الحكاية وأضاف أن حنّون قد وقع نفيه. فهذه النصوص التي يجمع بينها افتراض بالغ الوهن، تساعد على الظن بأن حنّون الماكوني اتهم بالتطلع للملك، وحكم عليه بالنفي، وربما على أخيه جِسْكون في نفس الوقت.

على أن أسرة الماكونيين لم تختف من تاريخ قرطاجة. فعندما تقرر سنة 410 معاودة الحملة على صقلية كالتي قام بها عملِكار بسبعين سنة من قبل، فإن قادة الجيوش أسندت لأحد أحفاده، وهو حَنيبَعْل بن

جِسْكون. ولم يلبث أحد أقرباء حنيبعل وهو حِملكون ابن حنون أن وقع تعيينه مساعدا له ثم خلفه. ويقول دِيودور إنَ هذين الشخصين كانا ملكين على القرطاجيين. ومع ذلك كان هناك مائة من القضاة يسهرون على الجمهورية ضد من قد يحاولون التسلط عليها. وبفضل المجلس الأعلى المتكون من أعضاء بمجلس الشيوخ، كانت الأرستقراطية مهيمنة على الدولة، واستمرت هذه الهيمنة نحوا من قرنين، إلى عهد البَركيين Les Barcides.

وقد طُرح سؤال : هل قوتها لم تتزايد بإصلاح أدخل على الملكية ؟ ذلك أن هذه الملكية كانت أثناء الحروب البونيقية موزعة بين ولاة يقع تعيينهم سنويا. ويؤكد السيد بيلوش Beloch أن الملكية كانت في أواخر القرن الرابع مدى الحياة. وأنه لا يرى مانعا من الاعتقاد بأنها حتى ذلك العهد كان يتقلدها شخص واحد. ويحتج على ذلك بما يلي :

أولاً : لَقَبُ باسيلْيوس Basileus، فالإغريق، حسب قوله، لم يكونوا عندما أصبح هذا اللقب مقررا ليطلقوه على رؤساء الدولة الذين يكونون ولاة منتخبين لسنة واحدة، كما حدث من بعد.

ثانياً : المقارنة التي عقدها أرسْطو بين ملوك لَسِدمونْيا Lacédémone الذين كانت ملكيتهم لمدى الحياة وبين ملوك قَرطاجة. هذا، وإن النصوص التي تذكر الملوك فيما قبل القرن الثالث لا تساعدنا على أن نقبل نهائيا أو نرفض قطعيا رأي السيد بيلوش، لأن رأيه لا يعتمد أولاً وأخيرا سوى على استعمال الإغريق للفظ باسيليوس. أما الحجة الثانية فيسهل الجواب عليها بأن المقارنة لا تستوجب المطابقة الكاملة، إذ في قرطاجة كما في لسدمونيا كان الملوك يمثلون السلطة العامة العليا. ويكفي هذا لتبرير المقابلة. ويؤكد أرسْطو بأن أعضاء البنْطَرْشيات

Pentarchies – هكذا سمى إحدى الهيئات السياسية القرطاجية – كانوا يحتفظون بالسلطة لمدة أطول من جميع المتولين الآخرين، وذلك لأنهم يباشرون مهام أخرى قبل عضويتهم وبعدها في البنطرشيات. وعلى ذلك فإن هذا القول يكون غير صحيح إذا كان الأشخاص الذين يتولون الملك – في عهد الفيلسوف أرسْطو – لا ينتهون عنه إلا بموتهم. ثم إنه يتكلم على الملوك بصيغة الجمع، الأمر الذي يدل – حسب ما يظهر – على أن الملكية كانت في قرطاجة مشتركة بين عدة أشخاص يحملون اللقب، كما في لَسِدِمونْيا حيث يحمله اثنان.

2

وانطلاقا من أواخر القرن الخامس فحسب، أخذت النصوص تساعدنا على رسم لوحة – ولو أنها ناقصة جدا – لنُظُم قرطاجة. فهي كثيرا ما تذكر "الملوك" (Basileus-Rex). وهو اللفظ الذي نلاقيه في فقرات من إيسوقراط Isocrate، وأرسْطو، وبوليبْ Polybe وغيرهم، حيث يجري الحديث بصفة عامة عن حكومة القرطاجيين، كما نجده في روايات عن الأحداث التاريخية التي امتدت من القرن الخامس إلى الثاني.

يكتب بعض الكتاب اللاتانيين صيغة Sufes في المفرد وSufetes في الجمع، ويقابلون بهما لفظا فينيقيا هو شوفيط Shofet وشوفطيم Shofetim. وتبرهن عدة كتابات بونيقية ولاتانية متأخرة عن سقوط قرطاجة، بأن عدة من المدن الإفريقية كان يطلق بها هذا الاسم على ذوي الأولوية من ولاة المدن. ويتحدث تيث ليفْ Tite-Live عن "شوفَطيم" قادس فينبّه على أنها أعلى منصب بونيقي، كما يذكر بمناسبة الحديث عن شوفطيم قرطاجة أن سلطتهم تقابل تقريبا سلطة قناصلة الرومان.

كما أن غيره قابلوا أيضا الشوفيط بالقناصل، الذين وقعت مقارنتهم أيضا "بالملوك" القرطاجيين، الأمر الذي يبرهن على المرادفة الموجودة بَيْن باسيلْيوس، وبيْن ريكْس، وسوفِسْ، Rex, Basileus, Sufes ويظهر لقب شوفيط كثيرا في الكتابات القرطاجية، بل يكثر وروده إلى حد يفرض عدم القول بأن الأمر يتعلق دائما برؤساء الدولة، الذين لا شك أنهم هم المقصودون بلقب شوفيط عند ذكر التواريخ. أما الشوفَطيم المذكورون على النذور وشواهد القبور فيحتمل أنهم كانوا مطلق قضاة. وهذا هو المدلول الذي كان للفظ في العبرية وفي الفينيقية أيضا نتيجة لذلك، لأننا نعلم شدة القرابة بين اللغتين. ولا نجد في هذه الكتابات التي ترجع لعهد متأخر أي أثر يؤكد وجود أي تسمية أخرى يعرف بها من بيدهم السلطة العليا. فلا مانع إذن من الاعتقاد بأن يكون لقب شوفيط أُطلق عليهم منذ عهد بعيد جدا، بحيث أن هذا اللقب على ما يحتمل كان هو الذي حمله الديكسْتاي Dikastai أي القضاة الذين حلوا محل الملك أو شاركوه سلطته في أواسط القرن السادس بمدينة صُور Tyr مؤسِّسة قرطاجة.

كان الشوفيط – ونقصد هنا رؤساء الدولة – يكوّنون هيأة في عهد الحروب البونيقية، وقبل هذا العهد لاشك، يقول كُرْنيلْيوس نِپُوس Carnélius Népos : كان عددهم اثنين. وهو قول يؤكد إلى حد ما مقارنة الملوك – أي الشوفطيم القرطاجيين – بملوك إسْبَرْطة Spartes وقناصل الرومان، بل أكثر من ذلك إذ إن بعض النقوش تذكر سنة من السنين بذكر اسمي الشوفيطَيْن الاثنين المباشرَيْن للسلطة أثناءها. على أن النص الوارد عند كاتون Caton والذي يذكر أربعة منهم، ربما كان نصا محرفا. ومع ذلك فلا يستحيل أن يكون عدد اثنين لم يبق ثابتا دائما.

ولمـاذا هذه الثنائية ؟ يؤكد موفرس Movers من غير حجة أنها استعيرت من دستور صُور. ولا داعي لتفسيرها بالمحافظة في دولة موحدة، على أسرتَيْن حكمت كل منهما على ما يظهر بانفراد عن الأخرى أول الأمر، ربما كما حدث في إسْبَرْطة. إذن فهل كان المقصود هو إضعاف السلطة العليا بتقسيمها كما حدث في رومة ؟ والقول باستعارة إحدى الجمهوريات من أخرى غيرها، هل يكون مقبولا ؟ إذن فلنعترف بجهلنا.

من المؤكد أن الشوفيط في القرنين الثالث والثاني كانوا يزاولون مهامهم لمدة سنة. أما في عهد سابق فيشك جدا، كما رأينا، في أنهم كانوا يمكثون في وظائفهم مدة أطول من ذلك.

إن الشوفيطية، كالقنصلية في رومة، غالبا ما تولتها الشخصيات التي كان بمستطاعها أن تعد فيمن سبقها في هذا المنصب سلسلة طويلة إلى حد ما من الأجداد. ولكن لم يكن لهم الحق في هذا المنصب بسبب مولدهم فحسب. وهذا أرسطوطاليس يلاحظ أن الملكية في قرطاجة لا تدوم في أسرة واحدة كما في لَسَدِمونيا، ثم يضيف بأن ذلك هو الأحسن. وكان الملوك ينالون سلطتهم من القانون، كما كانوا ينتخبون. من كان ينتخبهم ؟ إن النصوص لا تذكر شيئا. ويحتمل جدا أن مجلس الشعب هو الذي كان ينتخبهم، كما لابد أنه كانت هناك شروط للأهلية الإنتخابية، لأن أرسطو يقول بأن الملكية لم تكن تضفى على رجل من أي أسرة كانت، بل كان يدخل في الاعتبار كل من الثروة والمقدرة. ولربما كان لابد أن تسبقها مزاولة وظائف أخرى أو ولايات، مع التوفر على نصاب محدد للترشيح Cens. وإذا أنعمنا النظر في إحدى الفقرات لنفس الكاتب فإن أداء قدر من المال كان واجبا قانونيا

على من يقع انتخابه. ولا ندري هل كان الشوفيط يعاد انتخابهم ويثبتون في المنصب لعدة سنوات.

أما اختصاصاتهم فكانت مهمة جدا وشبيهة باختصاصات القناصل، غير أننا نجهل كيف كانوا يوزعونها فيما بينهم، ولا شيء يسمح بالاعتقاد بأن أحد الاثنين كان له التبريز على زميله.

كانوا يستدعون مجلس الشيوخ، ويرأسونه، ويعرضون عليه القضايا للنظر فيها، وكذلك كانوا يفعلون مع مجلس الشعب. ثم إن لفظ شوفيط يبرهن على اختصاصاتهم القضائية التي يظهر أنهم حافظوا عليها إلى آخر عهود قرطاجة.

ولربما كانت لهم في أول الأمر، وبقوة القانون، القيادة على جيوش البر والبحر. لكن يحتمل أن القرطاجيين عينوا من عهد مبكر قادة أسندوا إليهم مهمة تسيير الحرب. وكان هذا العمل أحسن وسيلة لتشغيل القادة الأشد كفاءة. وزيادة على ذلك، كان من المستحسن عدم إسناد العمليات البعيدة والتي غالبا ما تكون مدتها طويلة إلى ولاة عليهم واجبات يؤدونها بالمدينة نفسها، كما كان من المستحسن أيضا أن لا تبقى رهن إشارتهم جميع قوات الدولة. ومع ذلك لم يكن الملوك مستبعدين تماما عن الجيوش، حيث إن بعضهم قد قادوا حملات كبيرة في القرنين الخامس والرابع، الأمر الذي يمكن تفسيره على عدة وجوه : فهم إما أن يكونوا قد وجدوا من جديد الفرصة لاستعمال سلطتهم العسكرية التي ربما لم تكن انتزعت انتزاعا قطعيا من يد الملكية، وإما أن المرسوم الذي أسند إليهم الحملة خولهم مثل ما كان للقادة العسكريين من السلطة، وإما أنهم كانوا يجمعون آنذاك بين الشوفيطية والقيادة العسكرية. لكن منذ نهاية القرن الرابع، لم نعد نجد أي ملك ولا

شوفيط على رأس أي جيش. فلا شك أن الأرستقراطية التي كان الحكم بيدها رأت من الحصافة أن تقرر ذلك.

وهل كان الشوفيط رؤساء للدين ؟ لا يوجد نص يسمح بتأكيد هذا. ومن بين أصحاب الولايات في قرطاجة، لا نعرف إلا هؤلاء. لكن في تعريفة للقرابين عثر عليها بمَرْسيليا، ولكنها قادمة من العاصمة الإفريقية، ورد ذكر شوفيطَيْن اثنيْن (وزملاؤهما)، ولا ندري نحن ما المقصود بهذا الكلام.

في رواية لتيتْ ليفْ Tite-Live تتعلق ببداية القرن الثاني ورد ذكر قسْطور Quaestor تابع للشوفيط. وحسب مدلول هذا الاسم اللاتاني، فَقد كانت لهذا القسطور اختصاصات مالية. والقساطرة كانوا عند انتهاء مهمتهم يدخلون في طائفة القضاة، فهم إذن لم يكونوا يزاولون وظائفهم إلا لمدة محدودة من الزمن، أي لمدة سنة واحدة كالشوفيط على ما يبدو. وماذا كان الوالي المعروف باسم Praefectus Morum الذي تذكره حكاية مشبوهة جدا رواها كُرْنيلْيوس نيبوس ؟ هل هو والٍ كانت له بعض اختصاصات النظار Censeurs الرومانيين ؟ أمْ كان عميدا للشرطة ؟ وتوجد كتابات بونيقية تشتمل أو يظهر أنها تشتمل على ألقاب لم يعثر لها على تفسيرات مرضية، كما تذكر كتابات أخرى كتّاباً ولكنها لا تنبئنا بعملهم.

أما القضاة الذين كانوا في النصف الثاني من القرن الرابع ينظرون في جميع القضايا، وكانوا في بداية القرن الثاني يكوّنون طائفة قديرة تعمل مدى الحياة، فسنتحدث عنهم من بعد، لكن، حيث إن الشوفيط كانوا يزاولون القاضاء، فلا بد أنهم كانوا رؤساء لهذه الهيأة، كما كانوا يرأسون الدعاوى المهمة.

في النصوص القديمة نجد ألفاظا مختلفة تستعمل للدلالة على مجلس واحد أو مجلسَيْن، كان لهما تدخل كبير في الشؤون العامة. هذه الألفاظ هي : الجيروسيا Gerousia، السّنْكليتوس Synklétos، السونيدْرِيون Sunédrion والبُولي Boulé والسّيناتوس Sénatus.

ففي أواخر القرن الثالث وأواسط الثاني نجد مجلسَيِ السنْكليتوس والجيروسيا اللذين ذكرهما پوليبْ Polybe بوضوح. بحيث إنه ذكرهما معا في فقرتين له. الأمر الذي يسوغ الاعتقاد بأن هذين المجلسين كان بينهما ارتباط متين. وحيث إنه كان يطلق لفظ سنكليتوس على مجلس الشيوخ الروماني، فيجوز أنه أطلق هذا الإسم على مجلس شبيه بمجلس رومة، لأنه يقول إن سيبْيون أَسَر في قرطاجة سنة 209 عضوَيْن من الجيروسيا وخمسة عشر عضواً من السنكليتوس. وتوحي هذه الأرقام بأن أفراد المجلس الأول كانوا أقل عددا من المجلس الآخر.

وحسب تيتْ ليفْ، الذي يعتمد هنا على فقرة ضائعة من پوليبْ Polybe، فإن قرطاجة كان بها سنة 203 مجلس يسميه باسم السيناتوس، ومجلس آخر له حرمة أكبر، وسلطته تسيّر مجلس الشيوخ. يقول : «... ثلاثون شيخا من بين أكبرهم سنّاً هم الهيأة الأكثر احتراما عندهم (بقرطاجة)، وكانت أكبر سلطة لإدارة المجلس». فهؤلاء الشيوخ المتصدرون هم أعضاء بالهيأة، وكانوا أيضا أعضاء بمجلس الشيوخ، لأن تيت ليفْ يطلق بمكان آخر لقب شيوخ Seniores على أعضاء مجلس الشيوخ. فيتعلق الأمر إذن بهيأة دائمة، لابد أن عملها هو تحضير مداولات الجمعية العامة Plénière، ونجد مثل هذه المؤسسة في بعض المدن الإغريقية كمَرْسيليا وكورَنْث Corinthe. ومع أن البرهان يعوزنا،

فإن التطابق بين الجيروسيا Gérousia وبين الكونسيليوم Consilium (الهيأة) الذي ذكره پوليبْ Polybe وتيتْ ليفْ Tite-Live، أمر يمكن قبوله.

ويكفي هذان النصان لبيان أن عهود الحربَيْن البونيقيتين الأخيرتين عرفت جمعين وُجدا في آن معاً، نسميهما بمجلس الشيوخ Sénat (وهو الجمعية العامة)، والهيأة (أي اللجنة الدائمة). وإذا كان پوليبْ Polybe يستعمل دائما كلمة جيروسْيا بنفس المدلول، فإن الهيأة تكون قد وجدت قبل هذا الزمن، أي أثناء الحرب البونيقية الأولى، قبل أواسط القرن الثالث. وهل نستطيع الرجوع لعهد أقدم من هذا ؟ يحدثنا ديودور الصقلي في كلام له عن بداية القرن الرابع، بأن دونيس Denys بعث رسالة إلى جيروسيا قرطاجة، وأن الرسالة حملها مبعوث من لدن المتأمر Tyran وسلمها لهذه الجيروسيا، وأنها قرئت في السّنْكليتوس. ولربما أن اللفظين (سنكليتوس وجيروسيا) لهما هنا نفس المدلول الذي أعطاه لهما پوليبْ Polybe في الفقرتين السالفتين، ولكن يحتمل جدا أن ديودور Diodore، أو الكاتب الذي نقل عنه ديودور، لم يكن يقصد إلا مجلسا واحدا واستعمل على التوالي هذين اللفظين تلافيا للتكرار. لذلك فإن هذا النص ليس قاطعا.

وحول سنة 355 ذكر أرسطوطاليس جيروسيا قرطاجة التي قارنها مع جيروسيا لَسَدمونيا، وقال أن الملوك يتداولون معها في الشؤون العامة، وإذا حصل الاتفاق فإن رأي الشعب لا يكون ضروريا. فهل تكون هذه الجيروسيا هي التي ذكرها پوليبْ Polybe ؟ ونفس الهيأة التي ذكرها تيت ليفْ ؟ لا نظن هذا، إذ لو كان الأمر كذلك لسكت أرسْطو عن ذكر المجلس الكبير أثناء دراسته عن الدولة القرطاجية. غير أن هذا المجلس الكبير لم يتم تأسيسه – وبكل تأكيد – بعد تأسيس المجلس

المتكون حسب المؤرخ اللاتاني من الشيوخ ومن اللجنة المسيرة لمجلس الشيوخ. وإذا كانت الجيروسيا موجودة في عهد أرسْطو، فإننا لا نفهم أنه نسي ذكر هذه المنظمة السياسية الهامة. وفوق ذلك فإن مقارنة جيروسيا قرطاجة مع جيروسيا لَسَدمونيا لها ما يبررها إذا كان الأمر يتعلق بمجلس الشيوخ، وليس لها ما يبررها إذا كان الأمر يتعلق بالهيأة Conseil. لهذا فإن الجيروسيا عند أرسطو تتقابل حسب ما يبدو لنا مع السنْكليتوس، لا مع الجيروسيا عند پوليبْ Polybe. ولابد أن هذا المجمع قد وجد منذ العهود الأولى لقرطاجة.

وهل تكون الجيروسيا المذكورة عند پوليبْ Polybe قد ذكرت باسم آخر عند أرسطو ؟ من جهة أولى يذكر الفيلسوف مجمع المائة والأربعة، وهم الذين يختصرهم لا شك فيسميهم المائة، ومن جهة ثانية يذكر البنْطَرْشِيات، ويقول إن المائة يزاولون أهم ولاية. ويقارن المائة وأربعة، الذين يميزهم بوضوح عن الجيروسيا، بالإيفورات Ephores في لسدمونيا. ويضيف بأن المائة والأربعة – خلافا للايفور – يُنْتَخَبون لقيمتهم، ولا يؤخذون من بين أي كان من الناس. والبنْطَرْشِيات Pentarchies هي التي تنتخب المائة. وبالطبع فإن البعض افترض أن المائة عند أرسطو هم المائة قاض الذين يقع عليهم الاختيار من بين أعضاء مجلس الشيوخ، والذين أحدثوا حول أواسط القرن الخامس للنظر في سلوك القادة العسكريين. ففي عهد أرسطو كانت جميع الأحكام تصدرها "بعض السلطات". لذلك فمن المحتمل أن تكون هذه السلطات أي هؤلاة بالتأكيد هم المائة، وأنهم وقع تزويدهم منذ البداية باختصاصات قضائية، وأنهم وسعوها فيما بعد، وأصبحوا محكمة عادية مقسمة إلى عدة غرف، مع بقائها مجلسا أعلى للقضاء. أما الإيفور Ephores الذين يقارنهم

أرسطوطاليس بالمائة، فكانوا يحكمون في القضايا المدنية، لكن امتيازهم الأكثر أهمية كان - كما يستفاد من اسمهم - الرقابة التي يزاولونها على الجميع، وبالخصوص على الملوك أي قادة الجيش . لهذا فيسوغ الاعتقاد بأن المائة عند أرسطو كانوا في آن واحد هيأة قضاة، كما كانوا إن صح التعبير لجنة للأمن العام.

ولم يذكر المائة لا پوليبْ Polybe ولا تيتْ ليڤْ Tite-Live. فهل نجعلهم هم الجيروسيا والكونْسيليوم عند هذين المؤرخين ؟ يحكي جُسْتان أن مجلس الشيوخ حكم سرّياً في أواخر القرن الرابع على أحد القادة العسكريين، وهو عَملْكار الذي كان آنذاك بصقلية. لكن حيث أن أرسطوطاليس في نفس الحقبة (بل بعشرين سنة من قبل) يخبرنا بأن بعض السلطات كانت تبت في جميع المسائل القضائية، وحيث يمكن افتراض أن هؤلاء القضاة هم المائة، فبالتأكيد إن مجلس الشيوخ عند جُسْتان يمثل المائة. ولفظة سيناتوس (مجلس الشيوخ) تنطبق على مجمع يسميه پوليبْ Polybe باسم جيروسيا. فتكون مجرد ترجمة للفظ الإغريقي الذي يظهر أن طروگْ بومْبي Trogue-Pompée عثر عليه عند تيمي Timée. بل إنه ليعتذر - إن صح القول - عن كون الكاتب اللاتاني يعني المجلس الكبير بكلمة سيناتوس، إذ الواقع أننا نعلم عن طريق جُسْتان بأن المائة عند إنشاء هيأتهم قد اختيروا عن بين أعضاء مجلس الشيوخ، كما نعلم عن طريق تيتْ ليڤْ أن أعضاء الهيأة ينتمون لمجلس الشيوخ.

بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقترح التعرف على المائة أو المائة وأربعة - أي السيناتوس كما في نص جُسْتان، والجيروسْيا كما عند پوليبْ Polybe، والكونْسيليوم كما عند تيتْ ليڤْ - في طائفة القضاة Ordo iudicum التي ذكر وجودها هذا الكاتب الأخير، نقلا عن پوليبْ

على ما يبدو، في بداية القرن الثاني. وكانت طائفة القضاة هذه Polybe «تزاول سيطرة زاد في قوتها أن القضاة كانوا دائمين، بحيث كان في قبضتهم ممتلكات الناس وحرمتهم وحياتهم. ومن أساء إلى أحدهم جلب على نفسه عداوة الآخرين، ولا يعدم بين الناس من يقوم باتهامه أمام محكمة متحيزة». وكان المتصرفون الماليون Questeurs عند انتهاء مهمتهم ينالون عضوية هذه الهيأة القضائية بحكم القانون على ما يبدو.

ومع ذلك فيجب أن لا نغفل عن الوهن الكبير في هذه الاستنتاجات، لأننا لا ندري هل المائة المذكورون عند جُسْتان – وهم محكمة تأسست ضد الماگونيين – قد امتدت بهم الحياة طويلا لعدة قرون. ولم يقل أرسطوطاليس بوضوح إن المائة أو المائة وأربعة قد كانوا هيأة قضائية، ولم يقل إنهم أخذوا من أحد المجالس. وحكاية جُسْتان عن الحكم السري على عَمِلْكار يشبه الخرافة كثيرا. وربما لا يكون نفع في البحث هل السيناتوس عند جُسْتان هو الجمعية العامة التي سماها تيت ليڤْ سيناتوس، أو هو غير ذلك. ولا شيء يؤكد بأن الجيروسيا عند پوليبْ Polybe والكونْسيليوم عند تيت ليڤْ كانا يصدران الأحكام، بحيث إن المؤرخ اللاتاني لا يشير مطلقا إلى تطابق الكونْسيليوم الذي هو هيأة سياسية مع الأُرْدو Ordo Iudicum الذي هو هيأة القضاة. فالأُرْدو كان متكونا من أعضاء ثابتين، ونفتقر إلى الحجة لتأكيد أن الأمر كان كذلك بالنسبة للمائة أو المائة وأربعة وبالنسبة للجيروسيا عند پوليبْ Polybe. وليس من الممكن أن يكون عدد أعضائه محددا بدقة في مائة أو مائة وأربعة، إذا كانت عضويته لا تُنال بالتعويض عن أحد مات، بل تُنال بمجرد أن المرء سبق له أن زاول وظيفة عمومية، الأمر الذي لا يتوافق مع فقرة أرسطوطاليس التي تذكر أن البنْطَرْشيات تنتخب المائة. فمن المعقول والحالة هذه أن نسلّم بأن النظام القضائي والأنظمة السياسية

بقرطاجة قد حدث فيها تغيير عميق إلى حد ما في مدة 250 سنة، أي من أواسط القرن الخامس إلى بداية الثاني. وهذا الاحتمال وحده كاف ليدخل كثيرا من الشك على التنسيقات المتبعة لبعض النصوص الهزيلة.

وهناك افتراض آخر مؤداه أن تكون جيروسْيا پوليبْ Polybe وكونْسيليوم تيت ليڤْ هي البنْطَرْشيات التي تكلم عليها أرسطو وحده. فقد قال إن البنطرشيات لها اليد العليا في أشياء عديدة ومهمة، وأنها تأخذ أعضاءها بنفسها، وهي التي تنتخب المائة، وتزاول السلطة لمدة أطول من غيرها، لأن أعضاءها يزاولون السلطة بعد خروجهم من إحدى الوظائف قبل قيامهم بأخرى. وعضوية البنْطَرْشِيات ولاية مجانية.

هل كان أعضاء البنطرشيات يؤخذون من بين أعضاء مجلس الشيوخ ؟ وهل كانوا يسدّون فراغا قد يحصل في هيأة المائة ؟ إن هذا الافتراض يمكن أن يتوافق مع النصوص الواردة عند تيتْ ليڤْ وجُسْتان، فقد ذكر أولهما أن الكونْسيليوم كان لجنة من أعضاء مجلس الشيوخ، وذكر أن المائة الذين كوّنوا المحكمة المنشأة في القرن الخامس كانوا قد أخذوا من مجلس الشيوخ. ولفظُ بِنْطَرْشيات يعني لجاناً أو هيآت مكونة من خمسة أعضاء. فكم كان عدد هذه البنْطَرْشِيات (= الخمسيات) ؟ لا نعرف الجواب، كما لا نعرف ما هي صلاحياتها. ولربما أن كل خمسية (= بنْطَرْشية) كانت تشتغل بنوع ما من الشؤون : كالعلاقات مع الخارج، وكالجيش والملاحة، وكالشؤون المالية والدينية، ولربما أنها كانت عبارة عن مجلس للولاة، عن لجنة دائمة لمجلس الشيوخ في المسائل الإدارية أو السياسية التي كانت من اختصاصها. ومن جهة أخرى، ربما أن جيروسْيا پوليبْ Polybe وكونْسيليوم تيتْ ليڤْ كانا مقسّمين إلى لجان مماثلة. لكن من نافلة القول التنبيه على أن كل هذا

مجرد ظنون. ونكتفي بالتذكير بأن أعضاء الخمسيات، كانوا حسب أرسطوطاليس، ينالون هذه العضوية بعد خروجهم من إحدى الوظائف، لكن إذا كان مجلس الشيوخ هو الذي تنتهي مهمتهم به، فإنهم طبعا لا يمكن أن يكونوا بهذا المجلس. ولذلك يجب أن نفترض أنهم كانوا يؤخذون من بين الولاة المنتمين لمجلس الشيوخ، والذين كانوا لا ينقطعون عن عضويته بعد دخولهم في الخمسيات.

وفي الختام، يمكن أن مجلسا مصغرا قد وجد بداخل مجلس الشيوخ قبل الحروب البونيقية، ولكن لا حجة لنا على ذلك، ولا نستطيع القول بأنه مطابق للمائة وأربعة الذين ذكرهم أرسطوطاليس، أو أنه مطابق للخمسيات التي ذكرها نفس الكاتب. والشيء الوحيد الذي يظهر وكأنه قد ثبت، هو أن جيروسْيا أرسطوطاليس تطابق سنْكليتوس پوليبْ Polybe، لا الجيروسْيا التي جعلها هذا الكاتب مرتين تقابل السنكليتوس.

إن پوليبْ Polybe كاتب يدقق في التعابير التي يستخدمها، لذلك فلا مانع من الاعتقاد بأنه حيثما ذكر لفظة جيروسْيا، فقد أعطاها نفس المدلول. ومع ذلك فليس الأمر مؤكدا، فلربما أنه وجد في مصادره هذا اللفظ مستعملا في معنى الجمعية العامة، واستعمله هو من بعد هنا وهناك من غير أن يعوض عنه بلفظ سنْكليتوس. وأيضا، ربما أن النصوص التي كان يرجع إليها لم تكن دائما تزوده بالتدقيقات الضرورية التي تسمح بالقيام بهذا التغيير. وإذا كان هو نفسه في بعض ملاحظاته الطريفة لم يعط للفظ جيروسيا معنى مجلس الشيوخ، فقد أعطاه على الأقل للفظ جيرُنْتيون Gerontion. ولمّا قارن دساتير لَسَدِمونيا وروما وقرطاجة لاحظ أنها بصفة عامة تتشابه، ثم تحدث عن السلطات الثلاث بالمدينة الإفريقية التي هي : الملوك، والجيرُنْتيون،

والشعب، فكلمة جيرُنْتيون قصد بها إذن مؤسسة تقابل مجلس شيوخ رومة وكذلك الجيروسْيا في لَسَدِمونيا. فالأمر يعني الجمعية العامة في الأول، واستطرادا يعني الهيأة التي لم تكن سوى لجنة لهذه الجمعية العامة.

أشرنا لفقرة دِيودور الصقلّي التي يورد فيها هذا الكاتب في آن معا لفظي جيروسيا وسنْكليتوس، ولا يعطيهما على ما يحتمل معنييْن مختلفيْن. وكل الإشارات الأخرى عن الجيروسيا الواردة عند ديودور يمكن أن تدل على الجمعية العامة. ولهذا اللفظ نفس المدلول عند أپْيان Appien الذي يستعمله أحيانا مرادفا للبُولي Boulé.

وسبق أن رأينا أن سنْكليتوس عند پوليبْ Polybe تعني مجلسا شبيها بمجلس شيوخ رومة، وقلما يستعمل پوليبْ Polybe هذه العبارة التي نجدها عند ديودور.

أما لفظ سونَدْريون Sunédrion الذي يطلقه پوليبْ Polybe على مجلس الشيوخ الروماني، فنجده أحيانا في تاريخه بمناسبة الحديث عن قرطاجة، لا شك بنفس المعنى الذي للسنْكليتوس. ويقابلنا في دِيودور لفظُ سونْدريون هذا، وهو يدل على مجلس يطلق عليه پوليبْ Polybe نفس الاسم بينما يسميه ديودور باسم جيروسْيا.

ولا يستعمل پوليبْ Polybe لفظة "بُولي" التي تطلق في بلاد الإغريق على مجلس يهيء القضايا المعروضة على الشعب في المدن ذات الأنظمة الديمقراطية. أما أپْيان Appien فيستعمله بسهولة، ويطلقه حتى على مجلس شيوخ رومة الذي يسميه أيضا باسم سنْكليتوس. فالبُولي القرطاجية تعني عند هذا الكاتب الجمعية العامة لا شك. ولم يورد ذكرا للهيأة Conseil.

أما السيناتوس الذي يذكره جستان فكان مجلسا كثير الأعضاء في أواسط القرن الخامس، لأن مائة من أعضائه وقع عليهم الاختيار ليكونوا محكمة قضائية. والمرات الأخرى التي ذكر فيها جُسْتان السيناتوس، يظهر أنها – وباستثناء مرة واحدة – تتعلق بمجلس للشيوخ مماثل للذي برومة. وكذلك الأمر بالنسبة للسِّيناتوس الذي حسب رواية فِسْتوس Festus نقلا عن كاليدْيوس Caledius كان يتخذ القرارات بناء على تقرير من جانب الشوفيط.

ويذكر تيتْ ليڤْ بوضوح أن الكونْسيلْيوم Consilium هو لجنة من السِّناتوس. ويطلق لفظ سيناتورس Senatores على أعضاء ما يسميه پوليبْ Polybe باسم سَنْكليتوس، كما يطلق اسم سيناتوس Senatus على المجلس الذي يسميه پوليبْ Polybe باسم سونِدْريون Sunédrion ولا مجال للاعتقاد بأن النصوص الأخرى التي يستعمل فيها كلمة سيناتوس لا تتعلق بالمجلس الكبير، فقد استعمل مرتين تعبير سِنْيورِس Seniores في محل سيناتورس Senatores.

ولا نعلم كيف كان مجلس الشيوخ والهيأة (الإدارية) يسميان في اللغة البونيقية. غير أن لفظ مِزْراح Mizrah نجده في عدة كتابات إفريقية، والأغلب على الظن أن معناه : جماعة حِرَفية Corporation أو طائفة، أو هيأة نظامية Corps Constitué، ولكن لا برهان على أنه استعمل للدلالة على مجلس الشيوخ وعلى الهيأة أو على أحدهما. وكلمة ربّ Rab لها معنى الرئيس والشيخ (Princeps, Senior) وهي كثيرة الورود في الكتابات القرطاجية. وقد يتلوها لفظ يبيّن مدلولها، مثل "ربّ كوهنيم" أي رئيس الكهنة، لكنه يذكر في الأغلب مفردا. والكبراء الذين كان نَعْت ربّ يكفي في تلقيبهم، هل كانوا أعضاء بمجلس الشيوخ ؟ إن هذا الافتراض ليس مما يرفض.

لقد افترض البعض أن مجلس الشيوخ كان به ثلاثمائة عضو، وبالهيأة ثلاثون، وعلى رأس هذه الهيأة عشرة أعضاء يكوّنون جماعة. ولكن النصوص التي احتجوا بها أبعد من أن تكون قاطعة.

حسب پوليبْ Polybe، فرض الرومانيون سنة 149 ق.م أن يسلم إليهم ثلاثمائة شخص رهينة، يكونون أبناء أعضاء السنْكليتوس والجيروسْيا، أي ثلاثمائة ابن لأعضاء مجلس الشيوخ نظرا لأن الجيروسْيا ليست سوى هيأة متكونة من أعضاء مجلس الشيوخ الذي هو السنْكليتوس. وكانت هذه الرهائن من الشباب. لكن يصعب التصديق بأن كل عضو كان بمستطاعه أن يسلم شابا هو ابنه، لأن بعضهم لم يرزق أبدا ابناً ذكراً، وبعضهم فقدوا أبناءهم، والبعض الآخر كان لهم أبناء أكبر أو أصغر سناً من أن يصلحوا رهائن. فهذا النص إذن لا يساعد على الاعتقاد بأن العدد الذي حدده الرومانيون يتناسب بالضبط مع عدد أعضاء المجلس، بل يمكن على النقيض من ذلك أن نستنتج بأن العدد الأول كان أقل من الثاني. والإشارة الوحيدة التي يجب التمسك بها هي ما ذكره جُسْتان عن أواسط القرن الخامس، حيث إن عدد أعضاء مجلس الشيوخ كان آنذاك يفوق بكثير مائة عضو على ما يظهر.

في فقرة سبق ذكرها، متعلقة بوفد مبعوث إلى سيپْيون Scipion سنة 203، ذكر تيتْ ليفْ الهيأة الإدارية كما يلي : «بعثوا (أي القرطاجيون) طلبا للسلام ثلاثين شيخا من أكبرهم سنا، هم الهيأة الأكثر احتراما عندهم... الخ» فهل تؤكد هذه الفقرة أن الهيأة كان عددها ثلاثين عضوا بالضبط ؟ نشك في ذلك، ثم إن المهمات التي أنجزها ثلاثون منتدبا قد ذكرت في مناسبات أخرى. فالعدد "ثلاثون" معمول به عند القرطاجيين (40) . ولكن لم يقل عن أي واحد من هذه

الوفود أنه كان متكونا من الهيأة بجميع أفرادها. بل يحسن الاعتقاد بأن الأمر لم يتم على هذا المنوال في إحدى المناسبات. وهي التي كلف فيها أحد الوفود سنة 238 بالمصالحة بين قائدين هما عَمِلْكار بَرْكا Amilcar Barca، وحَنّون. يقول پوليبْ Polybe : «عين القرطاجيون ثلاثين عضوا من الجيروسيْا وبعثوهم إلى بَرْكا». فهذه الألفاظ توضح بما لا غبار عليه بأن الثلاثين موفدا إنما كانوا قسما من الجيروسيا، إذ ما كان القرطاجيون ليعينوهم لو كان الوفد ضم الجيروسيا كلها. ومن هذا يستنتج أن عدد أعضاء الهيأة في أواسط القرن الثالث كان أكثر من ثلاثين فردا، وهذا مع التسليم بأن لفظ الجيروسيا - في هذه الفقرة من پوليبْ Polybe وفي غيرها لنفس الكاتب - تعني المجلس المصغر. ويمكن أن نزيد في التدقيق إذا قلنا بتطابق الهيأة مع المائة وأربعة، في عهد أرسطوطاليس على الأقل. ولكن سبق أن رأينا أن هذا الافتراض واهن جدا.

وأخيرا، فلكي نثبت وجود جماعة دائمة من عشرة أعضاء داخل نفس الهيأة، لا يكفي ذكر بعض النصوص التي تشير لبعثات قصيرة المدى، أنيطت بشخصيات هامة. فذلك إنما يبرهن على أن ذلك كان معمولا به عند القرطاجيين، كما عند الرومانيين، من تكوين بعثات من عشرة أعضاء، وقد سبق لنا القول بأن بعثات أخرى كانت تضم ثلاثين عضوا.

لم يبين الكتّاب كيف كان الفرد يصبح عضوا بمجلس الشيوخ في قرطاجة، كما لم يبينوا هل كان يُطلَب حد أدنى في سن العضو. أما نحن فنعتقد عن طواعية أن هذه الدولة الأرستقراطية كان منصب عضوية مجلس الشيوخ بها لطول الحياة، كما في لَسِدِمونْيا ورومة اللتين قورن مجلس الشيوخ بهما بالمجلس البونيقي. ومع ذلك فإن فقرة من أرسطوطاليس سبق ذكرها، يمكن أن تفضي إلى الافتراض بأن الأمر لم

يكن كذلك عند أواسط القرن الرابع. فقد قال بأن الأشخاص الذين يمرون بالبِنْطِرْشيات كانوا يحتفظون بالسلطة لمدة أطول من غيرهم. إذن فأعضاء مجلس الشيوخ لم تكن عضويتهم دائمة. ولكن كان في المستطاع إعادة انتخابهم. وجلهم كان في الحقيقة أعيد انتخابه بعد انتهاء مهمته.

في رومة وفي كثير غيرها من المدن العتيقة، كان مجلس الشيوخ في الأصل مجلسا لشيوخ الأسَر. وقد أكد بعض العلماء بأن الأمر كان كذلك في قرطاجة، وأن هذه الطريقة في ضم الأعضاء قد استمرت معمولا بها في المدينة. غير أن هذا الافتراض لا يعتمد كلية على براهين قوية، لأنه لا يساعد على الاعتقاد بأن الأعضاء كانوا منتخبين ولا على أن عضويتهم كانت غير دائمة.

وحسب موفَرْس Movers، الذي شايعه ملْتْزير Meltzer، فإن ثلاثمائة أسرة كانت تكوّن أرستقراطية مغلقة، لا تنفتح لتضم أسرة جديدة إلا لسد فراغ قد يحصل، وأنها كانت مقسمة إلى ثلاثين مجموعة شبيهة ببطون القبائل أو فخداتها المعروفة بالفراتْريات Phratries عند الإغريق وبالكوريات Curies عند الرومان. بحيث إن موفَرْس يريد أن يجد هذه المجموعات في الهيتيرْيات Hétairies التي أشار أرسطو لوجودها في قرطاجة [41]. وأخيرا كانت هناك ثلاث قبائل تشمل كل واحدة منها عشر كوريات، وأن ممثلا عن كل أسرة قد كان عضوا بمجلس الشيوخ، كما أن ممثلا عن كل "كوري" كان عضوا بالهيأة، وأن إحدى القبائل نالت الأسبقية على القبيلتين الأخريين، وإن النبلاء كانوا منها أول الأمر، لكن حدث بعد ذلك – أي قبل أواسط القرن الخامس – أن وقع ضم مائتي أسرة جديدة إلى المائة التي كانت تتكون منها هذه

الأرسْتُقراطية الأولى، وهكذا تحول عدد أعضاء مجلس الشيوخ من 100 إلى 300 وعدد أعضاء الهيأة من 10 إلى 30. ومع هذا فإن الهيأة القديمة المكونة من عشرة أعضاء قد وقع الحفاظ عليها، وكونت داخل الهيأة الموسّعة مجموعة ممتازة.

هذه الاستنتاجات كلها تعسفية، لأن عدد أعضاء مجلس الشيوخ مجهول، ولأن الهيأة، يحتمل أن أعضاءها كانوا أكثر من 30، ولأن جماعة العشرة لم يكن لها وجود من غير شك. فلكي يبرهن موفَرْس Movers على أن الأرستقراطية البونيقية كانت تشمل 300 أسرة، فإنه يستدل – زيادة على خبر 300 رهينة التي فرضها الرومانيون سنة 149 – ، والتي رأينا أنها حجة عديمة القيمة – نَقولُ إنه يستدل بفقرة من ديودور تتعلق بالتدابير الجبارة المتخذة أثناء حملة أگاتوكليس سنة 310. يقول : «اختار القرطاجيون 200 طفل من أرفع أصل وقدموهم رسميا قرابين. لكن غيرهم كانوا متهمين فأسلموا أنفسهم عن طواعية. فاكتمل العدد 300». إن ديودور لم يقل إن 300 ضحية اختيارية كانت من طبقة نبيلة واضحة التميز عن بقية الناس، ولا أن أُسَر هذه الطبقة قد وهبت كل واحدة منها ضحية. وفوق هذا، لا يعقل أن 300 أسرة استطاعت – ومن غير استثناء – أن تتوفر على طفل ذَكَر. ومن ناحية أخرى، إذا سلمنا بوجود هذه الطبقة، فلا بد من الافتراض بأن 200 ضحية رسمية كانوا من هذه الطبقة، لأنهم أبناء الأصول الرفيعة. فلماذا إذن 100 أسرة من 300 لاتسلّم سوى طفل واحد وهي غير مكرهة (١٧) على ذلك بينما 200 تسلم طفلين أحدهما بالإلزام والثاني بالتطوع ؟

١٧) وجه الاتهام وعدم الإكراه في كون 100 أسرة احتفظت بأبنائها وعوضت عنهم 100 طفل اشترتهم هذه الأسر وقدمتهم قرابين للآلهة.

فيجب إذن تنحية هذه التمحلات الواهية. وختاما فإننا لا نعلم شيئا عن كيفية نيل العضوية لمجلس الشيوخ.

ولا شك أن أعضاء الهيأة كانوا يحظون بأكبر الاحترام، كما كانوا أكثر أعضاء مجلس الشيوخ نفوذا. لذلك كان يقع عليهم الاختيار ليذهبوا في البعثات المهمة. أما الهيأة نفسها، فإن قلة النصوص التي تشير لها بصفة ما، لا تساعدنا على بيان صلاحياتها. والمعتقد هو أن هذه الصلاحيات لم تكن تختلف عما كان لمجلس الشيوخ. فلابد أن هذه الهيأة الدائمة كانت باتفاق مع الوُلاة العُلاة، تبحث في المسائل التي تقدم للجمعية العامة، وتهيء الحلول التي كان مجلس الشيوخ دون شك يقررها غالبا. ولربما أن الهيأة كانت تتخذ القرارات باسم مجلس الشيوخ في المسائل العادية، كما تتخذها في بعض الأحوال التي لا يستحسن فيها إطلاع كثير من الناس على أحد الأسرار. وطبعا فإن أعضاء الهيأة كانوا يحضرون اجتماعات الجمعية العامة التي هم طرف فيها، ويعبرون بها عن آرائهم إذا دعت الحاجة.

ولم تكن هناك – على ما يحتمل – حدود قانونية لأهلية مجلس الشيوخ، بحيث كان لابد وبصفة عامة أن يستشيره الولاة في جميع القضايا السياسية والإدارية المهمة. ونحن نعلم بوجه خاص نشاطه في ميدان السياسة الخارجية وفي أوقات الحرب، وذلك نظرا لأن الكتاب القدماء يتحدثون عن قرطاجة خصوصا بمناسبة علاقاتها ونزاعاتها مع الإغريق والرومانيين.

فمجلس الشيوخ يتداول في قضايا الحرب والسلام. ويتلقى الكتابات من الدول الأجنبية ومن القادة الأعداء، ويعقد الاجتماع مع

مبعوثيهم، ويقبل أو يرفض طلباتهم، وبدوره فإنه يرسل البعوث، وبعد عودتها إلى قرطاجة تتقدم للجمعية بعرض نتائج المهمة التي أسندت إليها.

ويصدر المراسيم لتكوين الجيش، ولدعوة المرتزقة، وهذا قد يجري تحت الرئاسة العليا لأحد المعتمدين المنتمين لمجلس الشيوخ. وفي الأحوال الخطيرة يأمر بتجنيد العبيد ويعلن تحريرهم. ويجعل المدينة في حالة دفاع. وإذا كان مجلس المواطنين ينتخب القادة العسكريين، فلربما أن مجلس الشيوخ كان له حق تقديمهم. ويدير السير العام للعمليات العسكرية، ويقرر الحملات التي تتخذ، وكذلك إرسال النجدات وإرجاع الجيوش المحاربة بعيدا. ويتلقى تقارير القادة العسكريين، ويبعث إليهم بالتعاليم، ويوبخ العاجزين منهم. وإذا طرأ حدث مفاجئ يستلزم حلولا عاجلة، فإن المجلس يقع استدعاؤه.

وفي مجال السياسة الداخلية كان يتخذ التدابير التي يراها ضرورية لسلامة الدولة، بحيث إنه عمل بجد حتى عطّل مشروعات أحد الطامعين، كما أصلح ذات البين بين شخصيتين قويتين كان الخلاف بينهما يضعف الجمهورية، وكان يهدئ الثوار بالتفاوض معهم، ويجعل حدا لأي سلوك فيه ريبة. وكان المجلس ينتقد الحاكمين إذا دعا لذلك داع، ويحاول أن يمنع الفتن الشعبية ويستنكرها. ويصدر القوانين، كقانون النفقات الذي حدد القدر الأعلى لنفقات الزواج، وكالقانون الآخر الذي منع على القرطاجيين تعلم اللغة الإغريقية، وإن كان هذان القانونان قد اتخذا لأسباب تتعلق بالأمن العام. ولا شك أن المجلس كان من حقه البت في الضرائب والمداخيل العامة، والوجه الذي يستحسن أن تنفق فيه، كما كان من حقه مراقبة الإدارة المالية.

أما الملوك أو الشوفيط الذين يستدعون الهيأة ويرأسونها، فكانوا يقدمون لها المسائل التي يجب أن تبحثها. ونحن نجهل هل كان لولاة آخرين نفس الاختصاصات. ولا نرى أن أعضاء مجلس الشيوخ قد كان لهم حق المبادرة، بل كان لهم حق المناقشة دون شك.

وترينا أكثرية النصوص مجلس الشيوخ يقرر في النهاية، وذلك حتى في بعض الأحوال ذات الأهمية القصوى. مثال ذلك وقع سنة 218 عندما كان لابد من رد الجواب على الرومانيين الذين بعثوا لقرطاجة إنذارا بأن تسلم إليهم حَنيبَعْل إذا كانت تريد تفادي الحرب. ويخبرنا أرسطوطاليس في القرن الرابع بأن الملوك وأعضاء مجلس الشيوخ كان لهم الاختيار في أن يعرضوا أو لا يعرضوا على أنظار الشعب القضايا التي جرت فيها المداولة بمجلس الشيوخ، وذلك بشرط أن يكونوا جميعا متفقين : فالشعب إذن كان يبت في القضايا المختلف فيها. ولكن هل تعني كلمة "جميعا" إجماع الملوك وأعضاء مجلس الشيوخ ؟ لا، بدون شك، لأن إجماع الأعضاء لابد أنه قلما كان يحدث. ولو كان رد القضايا على الشعب لازما كلما انعدم الإجماع، لكان الشعب قد بت في جميعها تقريبا. ونحن نعلم أن الأمر لم يكن في الحقيقة على هذا النحو. إذن فالمحتمل جدا هو أن كلمة "جميعا" إنما تعني السلطتين الموجودتين : أي الملوك من ناحية، ومن أخرى مجلس الشيوخ الذي لأكثريته حكم القانون. وهذا الاستعمال الغريب لكلمة "جميعا" (Pantes) بمعنى (الواحد والآخر) (هؤلاء والآخرين) نجده في فقرات متعددة عند أرسطوطاليس. وأياً ما كان الأمر فإن كاتبنا يذكر هنا حالتين :

أولاً : اقتراح قدّمه الملوك لمجلس الشيوخ، ولكنه لم يحصل على الإجماع، أو حسب رأينا، لم ينل أكثرية الأصوات. ففي هذه الحالة لا يسحب الاقتراح نهائيا، بل على العكس من ذلك يعرض على الشعب ليقرر في شأنه.

ثانيا : اقتراح صادق عليه مجلس الشيوخ، فيستشيره الملوك إذن، ليعلموا هل الاقتراح يعرض على الشعب بدوره بواسطتهم. فإذا لم يتقرر عرضه عليه كان الاقتراح نافذ المفعول، أما إذا عرض فإن التصويت الذي جرى لمجلس الشيوخ حول صلْب الموضوع لا يكون سوى رأي استشاري، يحتمل أن يكون له وزن معنوي كبير، ولكنه لا يحد في شيء حق التقرير الذي صار من خصوصيات المجلس الشعبي.

وباستثناء الأحوال التي انتهكت فيها حرمة الدستور، لم يحدث أن الشعب أدلى برأيه في قضية لم تعرض من قبل على مجلس الشيوخ.

وكان هذا المجلس يجتمع في مبنى مخصص لمداولاته، أقيم دون شك بجوار الساحة الكبرى. ويظهر أن عموم الناس لم يكن يسمح لهم بحضور الاجتماعات.

4

كيف كان تركيب المجلس الشعبي الذي يذكر جُسْتان Justin أنه دُعي للانعقاد منذ القرن السادس ؟ من المؤكد أن جميع سكان المدينة الذكور لم يكونوا مقبولين به ابتداء من سن معينة. وطبيعي أن العبيد لم تكن لهم حقوق سياسية في قرطاجة ولا في غيرها. وقد كان عددهم كبيرا، فمن بينهم خادموا الأسَر الثرية أو الميسورة، وعمال المصانع المهمة إلى حد ما، والمشتغلون في الدور التجارية، والعاملون على ظهر السفن التجارية، ومنهم آخرون تملكهم الدولة وتشغلهم. ولا شيء يبرهن على أنهم عندما يحررون ينالون حق المواطنة في الوقت الذي ينالون فيه الحرية. ولا ندري هل كان أبناء هؤلاء المحررين وذريتهم ينعمون بوضع

قانوني مغاير لما عرفه آباؤهم. ولابد أيضا من تنحية كثير من الرجال الأحرار، وهم الأجانب المقيمون في قرطاجة : من إغريق ولاتانيين وغيرهم... ونجهل ما هي الالتزامات التي كانت مفروضة على هؤلاء الأجانب مقابل حمايتهم في أشخاصهم وأموالهم. ويمكن الافتراض بأن غير هؤلاء، من مواطني المدن الفينيقية وعلى الخصوص منها صُور Tyr مُنشئة قرطاجة Carthage كانوا يشاطرون القرطاجيين حقوقهم حين يتوطَنون بينهم، كما يمكن الافتراض بأن المواطنين وأبناء المواطنين المقيمين في مستوطنات أنشأتها الدولة البونيقية كانوا يستعيدون حقوقهم عندما يعودون للسكنى بوطنهم القديم، بعد الحصول على الإذن بذلك على ما يحتمل. أما الأهالي الأفارقة الذين يكسبون معاشهم بالخدمات اليدوية، والذين يكوّنون قسما من الطبقة الشعبية الدنيا، فلا شك أنهم كانوا مبعدين عن المجلس الشعبي، ولربما أن المقبولين فيه بحكم القانون، كانوا ينحدرون لابد من مواطنين قرطاجيين، ويبلغون لسن قانونية، ويثبتون أن لهم موردا أدنى للمعيشة.

ونظرا لانعدام النصوص في هذه الموضوعات المختلفة، فإننا ملزمون بالرجوع إلى الافتراضات. ففي قرطاجنّة Carthagène وهي مستوطنة بونيقية تأسست بأسبانيا حول سنة 225، أسر الرومانيون سنة 209 ما يقارب 10.000 رجل حر. يقول بوليبْ Polybe، كان بعضهم مواطنين، بينما الآخرون الذين يقارب عددهم 2000 كانوا عمالا. فيظهر أن المواطنين كان أصلهم من قرطاجة أو من المدن الفينيقية أو القرطاجية الموجودة في إسبانيا وإفريقيا، وقد عاملهم سيبْيون Scipion معاملة مختلفة، بحيث ترك للمواطنين حريتهم، وانتزعها من العمال الذين أعلن أنهم عبيد للشعب الروماني، ولكنه وعد أن يعيد إليهم حريتهم عند نهاية الحرب إذا أنجزوا المهام التي سيفرضها عليهم. فلربما أن المدينة

الإفريقية (قرطاجة) والمستوطنة الإسبانية كانت جماعة المواطنين بهما مكونة من بورجوازية تشمل التجار والصناع ومديري الدور التجارية الكبرى ومستخدميها، والموظفين وأصحاب المهن الحرة وغير ذلك.

وكان حق المواطنة يمكن تخويله للأجانب الذين تعتبرهم الدولة أهلا له. فقد كان بجيش حَنيبَعْل البَرْكي Barcide ضابطان مولودان بقرطاجة، هما هيبوقراط Hippocrate وإپِسيد Epycide وكانت أمهما من هذه المدينة، بينما كان الجد إغريقيا من سِرَقوسَة مطرودا من وطنه. ويقال لنا إن حَنيبَعْل واعد جنوده بأنه سيعطيهم الوسيلة ليصبحوا مواطنين قرطاجيين - إذا كانوا يريدون ذلك - جزاء لهم على انتصاراتهم. لكن هل كانت قرطاجة في الأوقات الاعتيادية تتكرم بفتح باب المواطنة ؟ وكم كان عدد مواطنيها في مختلف الحقب من تاريخها ؟ لا نعلم عن ذلك شيئا. أما في المجال العسكري فلم يكن من الضروري أن هذا العدد يكون مرتفعا، لأن الجيوش من عهد الماگونيين كانت تتركب في الأغلب من المحكومين والمرتزقة.

وكان مجلس الشعب يعقد اجتماعاته بالساحة الكبرى بدعوة من الشوفيط. وكان ينتخب القادة العسكريين وربما حتى الشوفيط. وهناك أمر ليس مؤكدا، ولكنه مع ذلك ممكن، وهو أن مجلس الشيوخ كان يعين للمجلس الشعبي المرشحين الذين يود أن يقع انتخابهم.

إن النص الذي أوردناه من قبل لأرسْطو يعرفنا في القرن الرابع ما هي الحقوق التي كانت للشعب في مجالات أخرى، بحيث كان لابد أن تعرض عليه القضايا التي لم يحصل بشأنها اتفاق بين الملوك ومجلس الشيوخ. وقد تعرض عليه أيضا حتى المسائل التي يتفقون فيها. ويضيف أرسطو أن الملوك حينما يعرضون إحدى القضايا على الشعب،

فإن عرضهم هذا ليس لمجرد إخباره بوجهة نظر السلطات، وأن كل من أراد توجيه النقد فله الحق في أخذ الكلمة، وكان للمجلس كامل السيادة في اتخاذ القرارات. فالشعب إذن كانت له سلطات كبيرة، ولكن لم يكن يسمح له بمزاولتها إلا إذا وافق الشوفيط ومجلس الشيوخ على ذلك، أو حدث خلاف بين هذين الطرفين. وفي الحقيقة لا يظهر أنه استشير كثيرا قبل عهد البَرْكيّين، إذ أن نصا واحدا هو الذي يذكر بوضوح أن إحدى القضايا عُرضت عليه في العهود السابقة. فقد وصلت في بداية القرن الرابع رسالة تهديد من دونيس القديم Denys l'Ancien إلى مجلس الشيوخ، فقرئت أول الأمر أمام هذا المجلس، ثم أمام الشعب. ولا شك أن الشعب هو الذي اتخذ القرارات اللازمة.

وحول نهاية الحرب البونيقية الثانية سنة 202، نجد هذا المجلس يتدخل في حادثة خطيرة. فعقب عملية للنهب على ركب روماني إبان الهدنة، تقدم الموفدون الذين بعثهم سيبْيون Scipion أمام مجلس الشيوخ، ثم لم يكفهم ذلك فتقدموا أمام الشعب وعرضوا عليه تظلماتهم. فقرر الشعب أن يدعهم يذهبون من غير جواب.

ولا يبدو أنه كانت هناك سلطات قضائية. ومن بين الآلاف من الأوعية النذرية التي عثر عليها بمكان المدينة، نجد بعض الآحاد منها يذكر «شعب قرطاجة»، ولكننا نجهل سبب ذلك.

ويذكر أرسْطو من غير أن يورد أي تفصيل «المأدبات العامة للهيتيرْيات» التي تشبه - على حد قوله - المأدبات العامة في لَسِدِمونيا التي تحمل اسم فيديتي Phidities. ولا نعثر على إشارات أخرى موثوق بها عن هذه المأدبات. وقد كان لها طابع رسمي، لأن أرسطو يتحدث

عنها أثناء كلامه عن المؤسسات السياسية في قرطاجة. لذلك لا يجب أن نعتبرها جمعيات خصوصية أيْ نوعاً من النوادي الخاصة Clubs، ولا جمعيات مهنية ترخص الدولة بوجودها. لأن التشابه الذي ذكره أرسطو لا يبرهن مطلقا على أن مأدبات إسْبَرْطة وقرطاجة قد كانت مؤسسات متماثلة. وفي نفس الفقرة يلاحظ هذا الكاتب التشابه الموجود بين المائة وأربعة وبين الإيفور Ephores، بينما كان هناك في الحقيقة اختلاف في الطريقة التي كانت تزاول بها السلط في مجلسٍ أعضاؤه متعددون وفي جماعة من خمسة إيفورات. وقد ظن موفِرْس Movers، ولعله على صواب، أن الهيتيريات القرطاجية تتطابق مع الفرَتْرِيات Phratries الإغريقية ومع الكوريات Curies الرومانية. فكل واحدة منها كان لها على ما يظهر عبادتها الخاصة المصحوبة باحتفالات، يبدو أنها كانت تشمل تناول الطعام في مأدبات عامة. ويجب الافتراض بأن هذه المأدبات لم تكن كثيرة الوقوع، ولم تكن تفرض على المؤاكلين حياة مشتركة. فالهيتيرْيات لابد أنها كانت جماعات دينية وسياسية في آن واحد، على غرار الكوريات والفراتريات. وحسب موفَرْس فإنها لم تكن تضم سوى أعضاء من الأرستقراطية. أما من جانبنا فنميل إلى القول بأن جميع المواطنين كانوا موزعين على الهيتيريات. ويبدو أن هذه الهيتيريات كانت بداخل مجلس الشعب تكوّن خلايا للتصويت، بحيث يصوت كل شخص داخل خليته، ورَأْيُ الأكثرية يُعتبر هو رأي الخلية التي لا يحسب لها مع ذلك إلا بصوت واحد في الاقتراع العام. وقد كانت هذه الطريقة في التصويت معمولا بها في رومة. بلِ كانت أيضا في عهد الإمبراطورية الرومانية مستعملة في مدن الولاية الإفريقية، سواء في البلديات أو في المستعمرات ذات النظام الروماني، أو في الجماعات ذات النظام البونيقي على ما يحتمل. وفي هذه الأخيرة – أي الجماعات ذات النظام البونيقي – هل

كانت الكوريات Curiac ميراثا قرطاجيا على غرار الشوفيط ؟ نظن أنه لا داعي للتنبيه إلى أن هذا إنما هو افتراضات بالغة في الوهن.

5

هذه - حسبما وصلت إليه معلوماتنا الضئيلة - هي النظم السياسية بقرطاجة. وقد أثارت انتباه الإغريق الذين لاحظوا بها مشابهات كثيرة مع نظمهم. فإيزُقْراط Isocrate وأرسْطو Aristote ويوليبْ Polybe وغيرهم قارنوا في هذا المجال بين قرطاجة ولَسِدِمونيا اللتين أضاف لهما أرسطو مدن جزيرة كْرِيتْ (اقْريطش عند العرب). كما أجريت مقارنات بين القانون في رومة وفي منافستها الإفريقية. ومع ذلك، فلا يبدو أن أحدا تساءل : ألا يصح أن نفسر بالاقتباس هذه المشابهات التي قد تكون مبالغا فيها، والتي لا شيء يسوغ التأكيد بأنها كانت كما قيل عنها.

وتحدث عن الحكومة البونيقية أكثرُ من كاتب بعبارات المدح، كما أن الانتقادات التي عبّر عنها أرسطو لم تمنعه من أن يصرخ قائلا : «للقرطاجيين على ما يبدو دستور حسن» و«أنظمتهم فيها نظم حسنة كثيرة». ومع أنهم لم يلجأوا دائما لاستعمال أنجع الوسائل لتأمين استقرار الدولة، فإنهم عرفوا كيف يتجنّبون الثورات. وحسب إراتُسْثين Eratosthène فإن قانونهم كان حسنا إلى حد لا يمكن معه أن نعتبر أنهم "باربار". ويلاحظ پوليبْ Polybe أن جل المؤرخين نوهوا بهذا الدستور، ويعترف هو من ناحيته بأن هذا الدستور قد سار سيرا حسنا إلى عهد حرب حَنيبَعْل.

ثم إن بوليب Polybe وهو في هذا كمعاصره كاتون Caton قد وجد في قرطاجة العناصر الثلاثة للحكومة المختلطة المفضلة على جميع ما عداها، حسب نظرية كانت ذات حظوة آنذاك، وهي السلطة الملكية (الممثلة في الشوفيط الذين كانوا في الحقيقة ولاة)، والسلطة الأرستقراطية التي كان جهازها هو مجلس الشيوخ، وأخيرا سلطة الشعب.

ومع ذلك فلم يكن التوازن موجودا بين هذه العناصر الثلاثة في الدستور البونيقي، فرغما عن الحقوق المهمة المخولة للشعب، فإن الأرستقراطية، ومن ضمن هذه الأرستقراطية مجموعة صغيرة جدا من المسيّرين، هيمنت حقيقة على الدولة مدة طويلة جرت بين سيطرة الماگونيين وحكم البَرْكيين، أي منذ أواسط القرن الخامس إلى ما بعد الحرب الأولى ضد الرومانيين. ويقول أرسْطو أن حكومة قرطاجة حكومة أرستقراطية مع بعض السمات الخاصة بالأوليغَرْشيات (حيث الهيمنة تكون للثروة)، وكذلك يستعمل إيزُقْراط Isocrate لفظ أوليغرشية عند الحديث عن النظام السياسي للقرطاجيين.

فمزاولة الولايات عندهم لا يكفي فيها الذكاء الضروري لتسيير الشؤون العامة، بل لابد فيها من الثروة أيضا، إذ المال كان يعتبر فوق كل شيء في هذه المدينة التي كان يبحث فيها عنه بشراسة، ومن غير تردد في اختيار الوسائل. فالسلوك، ولا شك حتى القوانين أيضا، لم تكن تفتح باب الوصول للمهام الانتخابية إلا لأصحاب الثروة، ولربما كان مفروضا على المرشحين توفرهم على ثروة معلومة وعالية، ومفروضا على المنتخبين أداء قدر عال من المال. أما الناخبون فلا شك أنهم كانوا يتقاضون ثمن أصواتهم جهارا.

والرجال الذين كانت بيدهم مقاليد الدولة أحرزوا على ثروات كانوا ينمونها بمختلف الوسائل. فالتجارة البحرية التي كانت تتطلب رؤوس أموال طائلة وتدر أرباحا عظيمة، لا شك أنها كانت في أيدي البعض منهم. ويمكن أن نفترض بأنهم لم يهملوا الصناعة. وهي ضرورية لتزويد التجارة، فكانوا بأنفسهم ملاكا لمصانع يشتغل فيها العبيد، كما كانوا يقرضون الأموال لصغار الصناع من المعتقين أو الأحرار، ويقاسمونهم الأرباح. والاستيلاء الذي وقع في القرن الخامس على منطقة شاسعة في إفريقيا الشمالية مكن من تكوين ضيعات واسعة استغلت بطريقة يقظة ومربحة لا شك. وأخيرا فإن من بيدهم السلطة لم يكونوا يمتنعون عن استعمال وسائل الاغتصاب والابتزاز التي تدر عليهم من المال أكثر مما صرفوه في الانتخابات.

وكانت الملكية العقارية عنصرا ثابتا جدا من عناصر الثروة. ثم إن أخطار التجارة البحرية يمكن التقليل منها بالمشاركة في عدة من العمليات التي تقوم بها الشركات، حيث أن الفرد لا يغامر إلا بقسم مما يملك. وكان نفوذ أصحاب المتاجر والمصارف يخول لأبنائهم التسهيلات للحصول على الأعمال المربحة. والنتيجة كما نرى هي أن هذه الثروات الكبيرة تبقى راسخة تقريبا.

ولم يقم دليل على أن قرطاجة عرفت بصفة قانونية نظام النبل المتوارث الذي يشمل عددا محدودا من الأسر التي اختصت بميزة تدبير الولايات (المناصب العليا)، وتكوين مجلس الشيوخ والهيآت الأخرى. غير أن هذه الأسر النبيلة قد وجدت عمليا. فالكتابات البونيقية تقدمها لنا وهي تتولى المهام الرسمية والمناصب الدينية العالية جيلا بعد جيل. ويعرف الكتاب الإغريق واللاتان من يكونونها باسم : أندوزوي Endozoi،

أرسطوي Aristoi، إبفانيس Epiphaneis، إبِفانْسيتاتوي Epiphanestatoi، نوبلس Nobilés وأوبتماطس Optimates.

وكان لهم شعور بالكبرياء الطبقية، ويسردون بسهولة أسماء أجدادهم، ويتحاشون الاختلاط الكثير بالشعب، بحيث إن الحمّامات التي يدخلها أعضاء مجلس الشيوخ كانت ممنوعة على غيرهم من القرطاجيين.

ولابد أن هذه الأرستقراطية لم تكن أكثر عددا من النبلاء الرومانيين. فمجلس الشيوخ الذي كانت تملأه لم يكن يضم سوى بضع مئات من الأعضاء الذين خصوا بالولايات (المناصب العليا) وبالدخول في الهيآت الأخرى سواء قبل الالتحاق بالمجلس أوبعد مغادرته أو أثناء العضوية. وإذا لم تكن لدينا معلومات عن المراحل التي يقطعها الفرد في الحياة العامة بقرطاجة، فإن أرسطو ينبئنا بأن تولي عدة مهام مجموعة، عمل كان يعتبر هناك من علامات الشرف، الأمر الذي يسمح بالاعتقاد بأن مجموعة السياسيين كانت قليلة.

ولا شك أن بعضا من هؤلاء النبلاء كانوا يفوقون زملاءهم في الثروة، وفي المناصب التي تولاها أجدادهم، والخدمات التي قدمها هؤلاء الأجداد، كما يفوقونهم في القيمة الشخصية. وكان هؤلاء المتفوقون خصوصا هم الذين ينالون الولايات العظمى والقايادات الكبرى، ويسيطرون في المجالس الأرستقراطية. وتسميهم النصوص الإغريقية بالرجال الكبار، بينما يطلق عليهم اللاتانيون اسم الصدور Principes أو صدور المواطنين Principes أوPrimi Civitatis .

ونحن نعلم المكانة التي كان يتبوأها مجلس الشيوخ في الدولة البونيقية. ولكن في القرنين الثالث والثاني كانت تسيره هيأة سماها

تيت ليڤ باسم Consilium principium أي هيـأة الصّدور، التي يحتمل أنها هي الجيروسيا عند پوليب Polybe. وفي نفس الحقبة كانت هيأة من القضاة الدائمين تسيطر حسب تيتْ ليڤْ على حياة الناس وممتلكاتهم. كما أن البِنْطَرشيات وعلى الخصوص المائة وأربعة كانت في عهد أرسطو قوية جدا. ومهما كانت افتراضاتنا عن هذه المؤسسات التي يظهر أن بعضها يختلط بالبعض، فمما لا شك فيه أنها كانت أداة للأوليغَرْشية، لأن هذه الأوليغرشية كانت من جهة أولى تسيّر مجلس الشيوخ، ومن جهة أخرى تراقب من بيدهم السلطة وتعاقبهم إذا دعت الحاجة. فهذه الأداة هي التي كانت حقيقة موطن الحياة العامة بقرطاجة.

أما الشوفيط أي القادة العسكريون فكانوا يتمتعون بسلطات واسعة. وبينما قادة الجيوش في رومة – وإلى ما يقارب نهاية القرن ثالث – كانوا اثنين من الولاة لسنة واحدة، يكلَّفان معا أثناءها بالقوات العسكرية، نجد قرطاجة تسند إليهما القيادة لطول مدة الحرب. ولم يكن لهما في الغالب أن يتقاسما هذه القيادة مع أحد الزملاء. غير أن الشوفيط لم يكونوا يستمرون في المنصب إلا سنة واحدة. فكانوا يشكلون هيأة لابد فيها من التفاهم لأجل العمل. وفي جميع القضايا السياسية والإدارية المهمة كان عليهم أن يراعوا مجلس الشيوخ. وبالخصوص الهيأة الرئيسية لهذا المجلس. وبعد القرن الرابع لم يعودوا يكلفون بعمليات الحرب. وكان القادة العسكريون يخشون الأحكام البالغة في الشدة التي تنزل بهم إذا لم يتناسب سلوكهم ولا النتائج التي حصلوا عليها مع ما كان ينتظر منهم.

وقد لاحظ أرسْطو أن الحقوق المخولة للشعب عند القرطاجيين تناقض المبادئ في نظام ديمقراطي صرف. ولابد مع ذلك أن نتذكر أن

هذه الحقوق كانت لها عمليا قيمة ضئيلة. فالمال في الأغلب هو الذي كان يصنع الانتخابات. وفيما عدا ذلك، يظهر أن أي اقتراح لم يكن يقدمه للمواطنين أحد غير الولاة، وهذا التقديم لا يكون قبل أن يناقش المجلس الاقتراح. وفي عهد أرسطو كان بمستطاع الشوفيط ومجلس الشيوخ أن يقرروا إحالة قضية حصل بينهم اتفاق في شأنها على الشعب. ولكن ليس مؤكدا أنهم كانوا يحيلونها عليه إذا اعتبروا أن رأي الشعب سيكون مخالفا لهم. والخلاصة هي أنهم كانوا يوهمون المجلس الشعبي بأنه يشارك في الحكومة، ويشركونه في بعض الحالات الخطيرة في المسؤوليات التي يأخذونها هم. وإذا لم يتفقوا فإن الشوفيط يعرضون القضية على الشعب. غير أن هذه الخلافات التي كان هو حكما فيها لم تكن كثيرة الوقوع، لأن الشوفيط ينتمون إلى الأرستقراطية. وإذا بدت منهم خيانة لها، فإن عليهم أن يخشوها بعد انتهاء مَأموريتهم السنوية. لذلك فهم لا يريدون عادة ولا يجرؤون على الدخول في المعارضة الصريحة لمجلس الشيوخ.

أما القرطاجيون المكونون لمجلس الشعب فأكثرهم متوقف على النبلاء، إما لكونهم في خدمة الدولة أو الخواص، وإما لأن لهم مصانع صغيرة وتجارات صغيرة، وأفضل زبناءها هم الأغنياء الذين يقتنون منها ما يلزمهم لبيوتهم أو لعمليات الوسق التي يتعاطونها. أما الذين كانت ممتلكاتهم ومداخيلهم الفلاحية تضمن لهم بعض الاستقلال، فكان عددهم صغيرا. إذ يظهر جيدا أن المزارع الخاصة التي يملكها القرطاجيون في منطقة التراب البونيقي قد كادت في أغلبها تكون ضيعات كبيرة. إذن فلم يكن هناك من داع يلح على الزيادة في حقوق المواطنين، خصوصا وأن أكثر هؤلاء لا يمكن أن يدّعوا بأنهم خاطروا بحياتهم من أجل الوطن.

ولابد أنهم كانوا يشكرون حاكميهم على إعفائهم من الأعباء العسكرية، وكذلك على ما كانوا يؤدونه لهم من ثمن لأصواتهم في الانتخابات. ولابد أن قسما من الأسر المعوزة كان يقع التخلص منها بإسكانها في المستعمرات البعيدة إلى حد ما، كما أن بعضا من المواطنين الآخرين كان يضمن لهم دخل له قيمته، وذلك بإسناد بعض الوظائف إليهم عند محكومي الجمهورية. وعلى ما نظن فإن طبقة الحاكمين لم تكن طبقة للنبل المنغلق، لأن أمل الدخول فيها لم يكن محرما على من يستطيعون الوصول إلى الثروة. ومع ذلك فيجب القول بأن هذا المطمح قلما تحقق.

أما الطبقة الدنيا من الشعب، التي ربما كانت مبعدة عن الحقوق السياسية، فإنها كانت مرتبطة بالأرستقراطية عن طريق الأجور التي كانت تتقاضها منها (فمجهزو السفن مثلا لابد أنهم كانوا يشغلون الكثير من العمال) وكذلك بواسطة الإنعامات التي تنشأ عنها علاقات التابع للمتبوع.

والخلاصة هي أن البرجوازيين والعمال كانوا يرضون بحظهم أو ينقادون له. وخلافا لما كان عليه الكثير من الإغريق، والآثينيون منهم على الخصوص، فإن الشعب القرطاجي كان – على حد قول بلوتارك – خاضعا للسلطات. وكان أرسطو يأسف على أنه ضبط بالحيل أكثر مما ضبطته تنظيمات المشرعين الحكيمة، ومع ذلك فهو يلاحظ أن قرطاجة لم تضطرب بفتن خطيرة في الحقيقة، وأنها لم تكابد متآمرا Tyran، أي واحدا من هؤلاء الرجال الذين كانوا يطيحون بدستور إحدى المدن لصالح طبقة من الغاضبين. لأن الفيلسوف يعتبر أن استيلاء أحد المتآمرين هو انتصار لمطالب جماعية أكثر ما هو عمل للعنف يقوم به فرد.

والنظام الأرستقراطي - أو على الأصح الأوليغرشي - لم تكن قيمته فحسب في أنه يجنب الجمهورية الإفريقية من التقلبات التي أضعفت أو خربت الكثير من المدن الإغريقية. وفيما يرجع للسلوك الواجب اتخاذه تجاه المحكومين والحلفاء والدول الأجنبية أو العدوّة، كان الآباء يفضون إلى الأبناء بالتقاليد التي تضمن استمرار سياسة متأنية، لأن الزمان كان معها، وعنيدة برغم الإخفاقات العابرة. ولم تكن الثروة في هذه الدولة هي الشرط الوحيد لبلوغ المناصب العليا، بل كانت القيمة الفردية يحسب لها حسابها. فالتعليم المتين الذي يبدو أن النبلاء كانوا يتلقونه، وإدارتهم لأملاكهم الخاصة، ومزاولتهم لمختلف المهام التي كانت عمليا موقوفة عليهم، وحتى الجمع بين عدد منها، وهو الأمر الذي استنكره أرسطو، كل ذلك كان يزودهم بالتجربة الضرورية لتسيير شؤون الدولة.

وغني عن البيان أن هذا الحكم كانت له مساوئه. بحيث إذا كان الأثرياء يطمحون للزيادة في ثرواتهم، فإنهم كانوا يخشون كثيرا تعريضها للخطر. فالانتصار في الحروب والفتوح كانت تفتح لهم أسواقا جديدة، وتخلصهم من المزاحمين، وتتيح لهم رعايا يحكمونهم، أي يبتزونهم، كما تتيح لهم توسيع ممتلكاتهم العقارية في إفريقيا. ولاشك كان منهم من يناصر بحماس السياسة الإمبريالية للماگونيين، بينما كان الآخرون يرون أن الحروب تتطلب نفقات باهضة (كان بعضها يقع حتما على كاهل الأرستقراطية)، وأنها كانت تعرقل التجارة. ويضاف لهؤلاء - فيما إذا طال أمد الحرب أو تحولت لما لا يرضي - الشاكون في أن المستقبل القريب سيعوض عن تضحيات الحاضر. لهذا حدث أن القرطاجيين قد يبذلون مجهودا كبيرا ولا يعقبه انتصار مباشر،

فيتخلون عن المعركة ويؤجلون تنفيذ تصميماتهم إلى ما بعد، مع أنهم لو صابروا أكثر لضمنوا لأنفسهم النصر النهائي. ومن جهة أخرى فإن جشع النبلاء، وهم الذين بيدهم دواليب الإدارة، كان يحرم الدولة من قسم مهم من مداخيلها ويغضب المحكومين والأتباع.

وفي هذه الأرستقراطية كان الرجال، والأسر، والتكتلات تفرق بينها الأحقاد التي تجد أصولها في المنافسات السياسية، والتجارية ربما. وهكذا نعلم أن النصف الأول من القرن الرابع عرف قرطاجيين اثنين لهما قوة كبيرة، هما حَنّون، وسونْياتوس Suniatus، وكانا متعاديين. وكذلك كان الأمر في آخر نفس القرن عن حنّونٍ آخر وبومِلْكار Bomilcar اللذين انتخبا قائدين. وفي أواسط القرن الموالي نجد نفس العداوة بين قائدين آخرين هما عَمِلْكار بَرْكا، وحَنّون. وكانت هذه العداوات تمتد من جيل إلى جيل وتعرقل السير الحسن للشؤون، وقد تبلغ أحيانا في عنفها حدا ينسي حب الوطن. من ذلك إن سونْياتوس بعث برسالة سرية إلى دونيس السِّرَقوسي الذي كلف حنّون بمحاربته، وأخبره فيها بالاستعدادات الجارية ضده.

على أن الخوف من المطامع الشخصية الكبرى، هو الذي كان بصفة خاصة يسبب القلق الدائم لهذه الأرستقراطية، وللدولة بالتالي. فمن بين الأسر الكبيرة المهيمنة على النبلاء، والتي كان أعضاؤها يشغلون أهم المناصب، ويجمعون بينها غالبا، كان من الطبيعي أن يوجد منها رجال يودون التحرر من الرقابة البغيضة ومن دسائس التكلات المعادية، ومن التهديد بالأحكام القاسية التي غالبا ما تكون غير مستحقة. فكان بمستطاعهم أن يصيروا قانونيا سادة للجمهورية، وذلك

بأن يضمنوا لأنفسهم الأكثرية بالمجالس عن طريق المال أو بغيره من الوسائل. بل قد يحاولون إبطال الموانع بعنف وتحطيم الدستور ليقيموا نوعا من الدكتاتورية أو الملكية.

كانت الأرستقراطية تثبت بثرواتها، وبالمناصب العليا، وبالوظائف التي بيدها، وكذلك بشعور الخشية منها. ولكن قوتها الحقيقية كانت أقل من نفوذها. فالعدد الكبير من العبيد الذين يحرثون ضياعها لم يكونوا ليفقدوا شيئا إذا واجهوها بالعصيان. ولربما أن قسما من الطبقة الشعبية الدنيا ما كان ليرفض، إذا حدثت أزمة، أن يسير مع الثوار الذين يعدونه بسلب الأغنياء. ولابد أن الأهالي كانوا يكرهون النبلاء الذين يمثلون في أعينهم سيطرة قرطاجة القاسية والنهمة. وكذلك المرتزقة المنخرطون في الجيش، فإنهم لا شك يفضلون إذا أتيحت لهم الفرصة أن يزحفوا لنهب المدينة الثرية عوض أن يخوضوا المعارك العصبية لصالحها.

كانت الأرستقراطية دائما على حذر، لشعورها بهذه الأخطار. ولم تكن ترجو نهاية المنافسات الضارة بالدولة، لأن هذه كانت تفرق بين الأسر القوية، وتحدث توازنا بين المطامع. وأحيانا كان يحدث أن يشرك اثنان متعاديان كزميلين حتى في تسيير بعض الحروب التي يعرض اختلافهما اثناءها قرطاجة لأسوار الشرور[42]. ذلك أن النبلاء كانوا يخشون القادة العسكريين على الخصوص. والنبلاء لم يكونوا يكرهون الحروب الطويلة لأن مصالحهم المالية تتضرر منها فحسب، وإنما أيضا لأن هذه الحروب يمكن أن تبرز القادة العسكريين، وتجعل لهم شهرة لدى الشعبيين وتعطيهم الوسائل الناجعة لقلب الحكم القائم. إن دستور رومة ووطنية مواطنيها كانا يجنبانها مثل هذه المخاوف، بينما بلغت المخاوف في قرطاجة حدا جعل الرجال الصالحين جدا لمزاولة القيادة يرفضونها

خوفا من أحكام المجلس الأعلى. لقد كانوا يعلمون أن الأرستقراطية عندما تكون، أو تظن أنها مهددة، فهي تتصرف بقسوة لا رحمة فيها.

وهكذا حافظت على السلطة برغم الأزمات التي ربما كانت أكثر عددا مما بلغنا علمه. والقائمون بهذه المحاولات للدكتاتورية والملكية كانوا جميعا شخصيات من مرتبة عالية.

6

عند أواسط القرن الرابع، كان أشد الرجال اعتبارا في قرطاجة هو حَنّون الكبير Hannon le Grand. وليس لدينا معلومات عن أجداده، وكان يملك ثروات طائلة، تفوق ما للدولة على حد قول جُسْتان الذي يبالغ لا شك. وفي سنة 368 أسندت إليه قيادة الجيش الذي أرسل إلى صقلية لمحاربة دونيس القديم Denys l'Ancien، ثم قام في إفريقيا بأعمال لاتنسى، حكاها المؤرخون القدامى، غير أن تفاصيلها تغيب عنا. فهل قهر الأهالي وأخضعهم ؟ وهل قاد إلى بعيد إحدى التجريدات التي قد تكون جعلته يتصل بملك الموريين Maures الذي صار ضالعا معه من بعد ؟

فَقُوته وصرامته على ما يبدو، وكذلك مطامعه المشتبه فيها، كل ذلك خلق له في الأرستقراطية كثيرا من الأعداء الألداء. ونحن نعرف ما كانت عليه سيرة أحدهم وهو سونْياتوس Suniatus، سنة 368، حيث انفضحت الاتصالات السرية التي كانت لهذه الشخصية البارزة مع المتآمر السِّرَقوسّي، (إذ وقع حجز الرسالة المكتوبة بالإغريقية التي أرسلها إليه) فحكم عليه باعتباره خائنا. وحسب جُسْتان فقد صدر قرار من مجلس الشيوخ يحرم، منذ ذلك الحين على القرطاجيين تعلم اللغة الإغريقية، كما يحرم مخاطبة الأعداء أو مكاتبتهم من غير ترجمان. وقد

وقفت بداعي الوطنية أو لأسباب أخرى - أكثرية أعضاء المجلس الأعلى للقضاء، ومجلس الشيوخ بجانب حَنّون في هذا الظرف. ومع ذلك نستطيع الاعتقاد بأنه اصطدم من بعد بمعارضة ظاهرة أو خفية. وقد حاول إلغاء الحكم الأرستقراطي والتعويض عنه بالملكية لصالحه. والقصة الخيالية التي نقرأها عنه في جُسْتان مستقاة من تيمي Timée على ما يحتمل، ولكن ليس لدينا وسيلة للتأكد من صحتها.

قرر حَنّون أن يتخلص من مجلس الشيوخ بكامله، فاختار لتنفيذ جريمته اليوم الذي كان سيزوج فيه ابنته.

فأقام مأدبتين، إحداهما للشعب وجعلها تحت الأروقة، والأخرى للمشيخة وجعلها بداخل منزله لكي يتم له قتلهم بالشراب المسموم. وقد احتاط الولاة الذين أخبرهم خَدَمَةُ حَنّون، ومع ذلك فإنهم لم يعاقبوه، بل لم يفضحوه لشدة خوفهم منه. واكتفوا بإصدار قرار يحد من نفقات الزواج. وهو قرار يطبق على الجميع، ولا يظهر أن المقصود به إنسان بعينه، وإنما القصد به تلافي الاسراف. لكن حنّون لما أحبط هذا القرار خطته، دعا العبيد للثورة، وحدد يوما للمجزرة التي كان ينوي تحقيقها. فلما علم أن الخيانة قد وقعت عليه مرة أخرى، وخشي من صدور الحكم عليه، زحف ليحتل موقعا حصينا ومعه 20.000 من العبيد المسلحين، واستنجد بالأفارقة وملك الموريين[43]. ولكن حَنّون ألقي عليه القبض، وعلى مرأى من الشعب جُلد وسلّت عيناه وكسرت يداه ورجلاه، ثم قتل أخيرا. وكذلك ألقي إلى العذاب بأبنائه وأهل أسرته، حتى لا يبقى من هذه الأسرة الشريرة أحد يعمل عمله أو ينتقم له.

لكن أحد أبنائه، وهو جِسْكون Giscon، لم يلاق حدفه في نفس الحين مع أبيه. ويذكر عنه دِيودور أنه نفي. ولكن وقع استدعاؤه لما

علمت أنباء الكارثة التي حلت بأحد الجيوش البونيقية بمعركة جرت على نهر كْريمِسوس Crimisos بصقلية، فانتخب آنذاك قائدا لأنه اشتهر بحصافته ومقدرته العسكرية. وبفضله استطاعت قرطاجة من بعد أن تعقد صلحا مشرفا مع الإغريق. ويذكر كاتب آخر هو بولْيان Polyen الحكم الصادر على أخوين هما عَملْكار وجِسْكون. ولكنه لم يذكر إسم أبيهما. فعَملْكار كان أقدر القادة العسكريين بالجمهورية. وانتصر في عدة من المعارك. وقد اتهمه خصومه بالتطلع إلى التأمّر Tyrannie، وحكم عليه بالإعدام. أما أخوه جِسْكون فقد نفي وصودرت أموالهما ووزعت على المواطنين، واختار القرطاجيون قائدين آخرين. غير أن القرطاجيين أصيبوا باندحارات كبيرة جعلتهم في مواقف دقيقة، فندموا على ما سبق أن فعلوه. وإذ لم يكن بمستطاعهم إصلاح إساءاتهم لعِملْكار، فقد استدعوا جِسْكون من منفاه وانتخبوه قائدا مُزوداً بجميع السلطات، وأسلموا إليه أعداءه لينتقم منهم كما يشاء. فأمر جِسْكون أن يؤتى بهم في الأغلال أمام الشعب، وأمرهم أن ينبطحوا في الأرض على بطونهم، ثم داس بقدمه أقفاءهم ثلاث مرات دوسا خفيفا، وقال إن هذا يكفيه في الانتقام لقتل أخيه، ثم سرحهم وهو يقول : «ليس بالشر، بل بالخير أريد أن أرد على الشر». وحلْمُه هذا أوجب له الطاعة الكاملة من هؤلاء الرجال وأهلهم ومن جميع القرطاجيين. وسرعان ما تغيرت أحوال الحرب، وانتصر جِسْكون بفضل إخلاص جنوده وحماسهم.

إن المعلومات التي يذكرها كل من دِيودور وبولْيان Poulyen تتفق إلى حد يسمح بتطبيقها على نفس الشخص. فلربما أن جِسْكون لم يعتقل مع أبيه، ولربما أنه انسحب إلى مكان أمين، وأن القرطاجيين لما لم يستطيعوا قتله حكموا عليه بالنفي. أما عمِلْكار، فهل حكم عليه بالموت

مع حنّون في نفس الوقت ؟ لابد أن نعجب من كون بوليان قد سكت عن الشخص الذي كان له أهم دور في المأساة. وفوق ذلك يكاد يكون من نافلة القول التنبيه على أن حكاية هذا الكاتب لا تستحق الثقة العمياء. وهناك شيء واحد يبقى صحيحا، وهو أن بعد موت حنّون نال أحد أبنائه قيادة عسكرية مهمة جدا. وبعد ذلك بربع قرن فإن عملْكار بن جِسْكون - الذي يحتمل أنه نفس جِسكون المتحدث عنه - نال بدوره قيادة في صقلية، حيث قاد حربا عظيمة ضد الإغريق إلى أن حدثت وفاته سنة 309. ويخبرنا ديودور بأنه كان "مَلِكا". فهذه الأسرة التي كانت، على غرار أسرة الماگونيين، تعد من بين أفرادها قادة عسكريين مشهورين ورجالا للدولة يناصرون السياسة الخارجية الحازمة، قد بقيت من بين الأسر التي لها الصدارة في قرطاجة، ولكن الأرستقراطية احتفظت بحكم الجمهورية.

وقبل عَملِكار بن جِسْكون، كان عَملْكار آخر على رأس القيادة بصقلية مدة عدة سنين. وقد زعموا أنه كان يريد السيادة على قرطاجة، فأبرم اتفاقا سريا مع أگاتُكْليس الذي كان يرجو مساعدته، ومن أجل ذلك فقد أعانه في الاستيلاء على السلطة بسِرَقوسة، ثم تخلى له عن قسم كبير من الجزيرة طبقا لمعاهدة أبرمت سنة 313، ويروي جُسْتان أن مجلس الشيوخ علم بواسطة الحلفاء الصقليين، بالسبب الذي دفع بالقائد إلى أن يسلمهم لأگاتكليس، فقرر أن يحكم على عَملْكار حتى من غير أن يسمع أقواله. وقد بقي الحكم عليه محفوظا في السر، نظرا لأن عَملْكار كان على رأس أحد الجيوش. ولم يجهر أعضاء مجلس الشيوخ بأصواتهم عند التعبير عن آرائهم، وإنما اكتفوا بكتابة هذه الآراء على الأوراق التي أودعوها في صندوق التصويت، ووضعت الأختام على

الصندوق الذي تقرر أن لا يفتح حتى يعود عملكار بن جسكون من صِقِلية. وخلال هذه الأحداث توفي عملْكار الآخر.

ولا نستطيع أن نقول هل كان عدم التبصر أو المطامع الشخصية هي التي دفعت به للعمل ضد المصالح الحقيقية لوطنه. ثم إن ديودور الصقلي يبدو وكأنه يجهل هذه المشاريع المزعومة عن التآمر، وهذه المحاكمة الشاذة التي يحتمل أنها مجرد أسطورة. ولا يتحدث إلا عن غرامة مالية حكم بها على القائد لأنه أبرم الاتفاق. ولربما إن عملْكار نحي وعوّضه ابن جِسْكون. فهل حدثت بسب ذلك في قرطاجة أزمة سياسية ؟ هل حدث صراع بين حزبين يتزعمهما هذان الرجلان، صراع اتهم فيه واحد منهما – وهما معا يسميان باسم عملْكار – بتطلعات إجرامية، فتحول الموقف لصالح الحزب المعادي الذي كان من قبل حزب أقلية ؟ كل هذا مجرد افتراضات .

إن الكوارث التي أصابت أسرتَيْ ماگون Magon وحَنّون Hannon لم تبعدهما عن الحكم نهائيا، وكذلك الأمر بالنسبة لأسرة عملْكار، بحيث لم تمض ثلاث سنين على محاكمته وإعدامه حتى وقع انتخاب بوملْكار Bomilcar ابن أخيه قائدا مع شخص يدعى حَنّون. فلهاتين الشخصيتين المنتميتين لأسرتين متعاديتين أسندت مهمة إنقاذ قرطاجة، لأن أگاتُكْليس كان قد نزل بجيوشه في إفريقيا وأخذ يزحف على المدينة. وقد مات حَنّون في إحدى المعارك ومكث بوملْكار وحده على رأس الجيش. ونال منصب الشوفيط، على افتراض أن بعض مخطوطات جستان تلقبه بحق بلقب ريكس Rex. وحسب قول ديودور فإنه كان منذ مدة طويلة يطمح إلى التآمّر، ولكنه لم يجد لا الوسائل ولا الفرصة ليبلغ ما أراد، لأن الانتصار السريع على أگاتكليس كان من

شأنه أن يجعل حدا للقيادة التي كان ينوي استخدامها لتنفيذ عملية الانقلاب، لذلك لم يجهد نفسه - كما قيل - ليحرز على هذا الانتصار. ثم إن أسبابا مختلفة قد أبطأت به من بعد في تنفيذ ما صمم عليه، بحيث إنه لم يعزم إلا بعد تردد طويل دام سنة أو سنتين. وقد عني بالتخلص من قسم كبير من أعضاء الأرستقراطية الذين بعث بهم لمحاربة النوميديين.

وبحجة إقامة الاستعراض العسكري، جمع الجيش في حي نيابوليس Néapolis خارج المدينة القديمة، وأبقى بجانبه خمسمائة من المواطنين ونحوا من 4000 (وقيل 1000) من المرتزقة الذين كانوا يعلمون في أي شيء سيستخدمهم. وبعدما أمر الآخرين بالذهاب لحال سبيلهم، أعلن نفسه متآمرا. ثم قسم جيشه إلى خمسة طوابير زحفت منفصلة بعضها عن بعض، وهي تفتك بكل من لقيته. فشاع الذعر في المدينة لأن الناس ظنوا أن الخونة أدخلوا الأعداء. وحينما عرفت الحقيقة اجتمع الشباب على عجل وهاجموا بومِلْكار الذي كان قد وصل إلى الساحة العظمى. وانهال من المنازل العالية المحيطة بالساحة وابل من القذائف أرهق المتآمرين الذين تسهل إصابتهم في موقع منكشف. ولشدة ما لحق بهم عادوا إلى نيابوليس مارين بالطرق الضيقة، حيث كانوا لا يفتأون يصابون بالقذائف الواقعة عليهم من الدور. وقد التجأ من استطاعوا النجاة منهم إلى أحد المرتفعات، فجاء القرطاجيون حاملين أسلحتهم واتخذوا مواقفهم بمواجهتهم. ولكي يجعلوا حدا للفتنة فإنهم بعثوا إلى الثائرين وفدا اختير من بين أهم أعضاء مجلس الشيوخ يعرضون عليهم العفو. وقد احترموا هذا التعهد، ولم يستثنوا منه سوى بومِلْكار الذي لقي حذفه بعد عذاب أليم. هذه هي حكاية ديودور. ونقرأ في جُسْتان أن بومِلْكار علق مصلوبا

على خشبة أقيمت وسط الساحة العامة، وأنه جرؤ على مخاطبة الجماهير كما لو كان على منصة للخطابة. وقبل أن يلفظ نفسه الأخير توجه إلى مواطنيه باللوم على ظلمهم وقسوتهم، لا في حقه وحده، بل وفي حق بعض الرجال السابقين مثل حَنّون وجِسكون، وأخيرا في حق عمه عَملْكار. وفوق ذلك فإن جُسْتان فيما يتعلق بالأحداث السابقة على موت بومِلْكار، يورد معلومات لا تتفق مع ما يورده ديودور. فالقائد حسب جُسْتان لم يحاكم لأنه كان يريد قلب النظام، بل لأنه بعد ما خارت عزيمته بسبب اندحار حل به، أراد أن يسلم جيشه إلى أگاتكليس. أما ديودور فيؤكد على النقيض من ذلك بأنه لم يكن هناك أي اتفاق بين بومِلْكار وبين المتآمر السِّرَقوسي.

7

يغيب عنا بعد ذلك التاريخ الداخلي للجمهورية بنحو ثلاثة أرباع القرن. وأثناء الحرب الأولى ضد رومة، كانت النظم السياسية بقرطاجة تسير من دون تغيير، كما يقول پوليبْ Polybe، فكانت الأرستقراطية إذن تحتفظ بالسلطة.

وكان عملِكار بَرْكا وحَنّون الكبير قد لعبا دورا مهما أثناء هذه الحرب. فالأول في صقلية حيث استمر لعدة سنين في مواقع قوية، دحر فيها الجيوش الرومانية غالبا. أما الثاني ففي إفريقيا حيث حارب النوميديين وحالفه النجاح، وقام بفتوحات منها استيلاؤه على مدينة ثوفسْت Theveste. كما أنه عند إبرام اتفاقية الصلح سنة 241 كان حاكما عسكريا للولاية البونيقية. وقد كان هذان الرجلان يكره أحدهما الآخر كرها شخصيا، مضافا إلى العداوة الموروثة. فعملِكار ينحدر من إحدى

الأسر التي لها أسمى مقام في النبل بقرطاجة، وكذلك الشأن بالنسبة لحنّون على ما يبدو. غير أننا نجهل تاريخ أجدادهما.

وعلى كل حال كانا يمثلان سياستين غالبا ما تصادمتا في المدينة الإفريقية. فمن ناحية أولى نجد الإمبريالية والنشاطات العدوانية التي قامت بها الأسرتان الكبيرتان : أسرة ماڭون وأسرة حَنّون الكبير، أول من حمل هذا الاسم. ومن ناحية ثانية نجد الاهتمام بتجنب المهام والأخطار الفادحة، والخوف من التضحية بالحاضر في سبيل مستقبل مشكوك فيه. ولابد أن حَنّون ومجموعة كبيرة من النبلاء كانوا على يقين من استحالة الأخذ بالثأر من الرومانيين، لذلك كانوا يصبرون على أن يعيشوا في الاتفاق معهم، وعلى نسيان الحلم الماضي بجعل قرطاجة ملكة على البحر الأبيض المتوسط الغربي. لقد كان يكفيهم أن تكون عاصمة إفريقية، مهيمنة على منطقة يستخلصون منها لأنفسهم صفوة ما تغله ضياعهم الفسيحة، كما كان يكفيهم أن تملأ المدينة خزينتها بأتاوات محكوميها الليبيين، وأن تستطيع بدون مجهود عسكري كبير إخماد الثورات، وأن تمد شيئا فشيئا سيطرتها في اتجاه الغرب. وكذلك عَملْكار، فإنه قد قبل التفاوض لإبرام العقد الذي يجعل حدا للحرب ضد رومَة، ويتخلى القرطاجيون بمقتضاه عن صقلية، لأنه كان يعلم أن وطنه غير قادر على متابعة الصراع. ولكنه ربما بدأ يفكر في العودة إليه من بعد، وفي انتظار ذلك فكر في أن يهيء عن طريق الفتوح الوسائل الضرورية لضمان الانتصار.

ولكنه بمجرد ما تم عقد السلم وقبل أن يغادر صقلية استقال من قيادته وفضل العزلة بعد رجوعه إلى إفريقيا. ومن دون شك فإن كثيرا من مواطنيه اعتبروه مسؤولا عن تطويل أمد الحرب التي أدت إلى

الإفلاس وكانت نهايتها سيئة. وكانوا يؤاخذونه بأنه أعطى لجنوده وعودا مبالغا فيها، لا تساعد الأحوال المالية على الوفاء بها، لأن المال يعوز حتى لأداء الواجب المفروض للجنود. لهذا فيحتمل أن عزلة عملْكار بَرْكا لم تكن عن رضاه. ولم يكن هناك ما يدعو للأسف، فهو بهذه العزلة يتلافى التدخل في حالة عصبية من الثأر والانتقام، كما كان يحفظ نفسه لليوم الذي تكون فيه قرطاجة قد رممت صدعها، فيستطيع ترك سكونه الذي يبدو أن إرهاقه الصحي قد فرضه عليه.

وكان حنّون الكبير هو الذي أسندت إليه الحكومة مهمة تهدئة المرتزقة، ثم محاربتهم بعد ثورتهم. ولكنه لم يستطع التغلب عليهم. فكان لابد من التوجه إلى عَملْكار الذي لم يكن أحد يطعن في قدرته العسكرية. ولكن حنّون احتفظ بالقيادة، ثم لم يلبث أن انضم إلى زميله عملكار. غير أن الرجلين لم يتفقا، وظهر سوء اختلافهما على سير الحرب. ويبدو جيدا أن السلطة كانت في أيدي رجال يميلون إلى حنّون، وأنهم لم يريدوا تحمل مسؤولية التضحية بهذا القائد. لذلك ترك للجيش أمر اختيار القائد الذي يبقى على رأسه، فاختار الجيش عملكار، ودخل حنّون إلى قرطاجة. ولم تقع تنحيته، بل إنه عاد بعد زمن قليل وشارك عملْكار بَرْكا في تسيير الحرب. ذلك أن القرطاجيين أصيبوا باندحار فادح قرب تونس، فظهر في مثل هذه الحالة الخطيرة أن التوفيق بين الرجلين المتنافسين أمر ضروري، ليكون ذلك مدعاة للوفاق بين جميع المواطنين، أو حتى لا يبقى حنّون بدون عمل، خصوصا لما اشتهر عنه من الخبرة الحربية. وقد تم الاتفاق بين الرجلين على يد ثلاثين موحدا أعضاء بمجلس الشيوخ أو هيأته الإدارية، ودام هذا الاتفاق أمدا طويلا مكن قرطاجة من سحق الثورة.

وبمجرد ما انزاح الخطر، تذكر خصوم عملكار مآخذهم السابقة عليه، وقرروا أن يتخلصوا من الرجل الذي كانت طموحاته تتباين جدا مع مطامحهم. يحكي أبْيان Appien قائلا : بعد هذه الحرب حوكم بَرْكا، وصدر إليه الأمر بتقديم البيانات عن القيادة التي سبق أن زاولها بصقلية، وجرى اتهامه بأنه سبب ثورة المرتزقة بالوعود التي قطعها لهم ولا يستطاع تنفيذها. فاتفق عملكار مع بعض رجال السياسة الذين كانوا يتمتعون بحظوة لدى الشعب، وكان أهمهم هو حَسدْرُبَعْل. وبهذا نجا من الحكم عليه، وانتخب للقيادة مع حَنّون لمحاربة النومديين. وأصبح حسدربعل صهرا له، لأنه لا شك كان من الأرستقراطية، كالمرأة التي تزوجها. ويحدثنا ديودور أن بَرْكا بعد حرب المرتزقة خالط المشبوهين، وإن ثورته اتسعت بمؤازرتهم وبفضل غنائم الحرب، كما زاد صيته بفضل انتصاراته العسكرية، وأنه احتال على الشعب الذي سرعان ما أسند إليه القيادة على ليبيا كلها.

هذه المعلومات لا نجدها في پوليبْ Polybe، ويبدو أنها مستقاة من كتاب رومانيّين شديدي العداوة للبَرْكيين، لأنهم يعطون كما سنرى صورة مخالفة للحقيقة عن مواقف القرطاجيين من حنيبَعْل ابن عمِلْكار. فهي إذن معلومات عارية عن الصحة. ومع ذلك يؤكد پوليبْ Polybe أن الوقت الذي بدأت فيه الحرب البونيقية الثانية، أي بعد عشرين سنة من الأحداث التي نتكلم عليها هنا، كانت مشاركة الشعب في شؤون الدولة قد أصبحت أهم مما كانت عليه في الماضي. إذن فيحتمل جدا أن عمِلْكار قد اعتمد على مجلس المواطنين ليثبت أمام أعدائه. ونحن نجهل جدا هذه الأزمة، كما نجهل القانون القرطاجي العام لنقول هل وصل لأهدافه من غير أن يخرج عن المشروعية البينة. بحيث إننا لا ندري مثلا هل كان بمستطاع الشعب أن ينتخب للقيادة مرشحا لم يقدمه له مجلس الشيوخ. وهل أن بَرْكا لما

اجتمعت ضده أكثرية من هذه الهيأة الأرستقراطية، قد اعتمد على مساعدة أحد الشوفيط الذي قد يكون مجلس الشيوخ رفض اقتراحاته فعرضها على الشعب طبقا للمسطرة التي كانت معمولا بها في القرن الرابع، كما لا ندري هل كان الانتخاب لمنصب القيادة، أو أي تدخل قانوني آخر للشعب يوقف إحدى المحاكمات، كالتي كانت تهدد عملكار. ومن ناحية أخرى، فكون حَنّون قد كلف في نفس الحين مع منافسه بالحرب ضد النوميديين، أمر يشهد بأن انتصار حزب البرْكيين لم يكن آنذاك انتصارا كاملا. ولكن عند نهاية الحرب شاعت وشايات - وإن كنا لا نعلم ما هي - وأرغمت حنّون على العودة إلى قرطاجة.

بقي عمِلْكار وحده على رأس الجيش، فعبر مع حَسدْرُبَعْل إلى إسبانيا، حيث شرع في الاستيلاء على هذه الأرض، مع احتفاظه بالقيادة العسكرية على إفريقيا. وقد خلفه حسدربعل، ثم حنيبَعْل من بعد. ومنذ أن وصل عَملْكار إلى أسبانيا في 237، والبرْكيون يستخدمون حسب هواهم في هذه الأرض ما كان تحت أيديهم من قوات ومن إمكانيات كبرى، بحيث إنهم تحاربوا وتفاوضوا كما بدا لهم، حتى إن الرومانيين أنفسهم بعثوا إليهم الموفدين، كما تبعث للرؤساء الحقيقيين للدول، وعقدوا مع حَسدْرُبَعْل اتفاقا تركت بمقتضاه للقرطاجيين فعلا الأراضي الإسبانية الواقعة جنوب نهر الإيبر. وكانت الحرب البونيقية الثانية حرب حَنيبَعْل، الذي امتدت سلطته بعيدا إلى ما وراء الجيش الذي كان تحت إمرته المباشرة، فسير الحرب لكونه قائدا عسكريا ورجلا دبلوماسيا. وبعده كان أخواه حَسدْرُبَعْل وماگون أحسن قادة الحرب القرطاجيين في هذه الحرب. وكان حنّون آخر - قيل عنه أنه ابن أخته - ساعده الأيمن في معاركه بإيطاليا، كما أن أحد أفراد أسرته المقربين عبر إلى صقلية ليحارب بها. وكان عملْكار قد واعد نارفاس Naravas، أحد الأمراء

النوميديين، بتزويجه من إحدى بناته. ونجهل هل تم هذا الزواج أو لم يتم، ولكننا نعلم أن بنتا لإحدى أخوات حنيبَعْل قد تزوجت على التوالي أميرين من الأسرة المسيلية Massyles، صار أحدهما ملكا على هذه القبيلة الإفريقية، أما الثاني فكان بمستطاعه لو أراد أن يكون ملكا كذلك. ولمدة سنين طويلة ارتفع البرْكيون كثيرا - مثل الماگونيين من قبل - على الأسر الأرستقراطية الأخرى في قرطاجة.

فهل كانت لهم مطامع في الملكية ؟ يروي المؤرخ الروماني فابيوس بِكْتور Fabius Pictor أن حَسدْرُبَعْل صهر عَمِلْكار، عاد إلى إفريقيا بعد ما أحرز على قوة كبيرة في إسبانيا، وكان ينوي قلب النظام والتعويض بالملكية عن النظام الجمهوري. ولكن صدور الدولة تنبهوا لنواياه واتفقوا على مقاومته. ولما علم حسدربعل بما عزموا عليه غادر إفريقيا متجها إلى إسبانيا حيث أخذ يعمل دون أن يعير أي اهتمام لمشيخة قرطاجة. لكن لا يخالجنا شك في أن الذين أخبروا فابيوس بهذا، لم يكونوا يعرفون أكثر منا النوايا الداخلية لحسدربعل [44]. والشيء الوحيد الصحيح هو أنه لم ينجز المشروع الذي نسب إليه. أما حنيبَعْل الذي اعتاد أن يطاع في معسكره، فإنه بعد عودته إلى إفريقيا عامل بشدة الخصوم الذين وجدهم بين مواطنيه. لكن، إذا كان قد عطل المشروعية ليحطم مقاومة الخصوم، فلا يوجد برهان على أنه كان ينوي إلغاء النظام الجمهوري لينصب نفسه هو ملكا.

كان البرْكيون يستطيعون الاعتماد على وفاء جنودهم. وقد رأينا من قبل أن الجيش أثناء حرب المرتزقة قد دعي ليختار بين حَنّون وعَمِلْكار، فوقع اختياره على هذا الأخير. وعند موت عملكار رفع جنود إسبانيا صهره إلى القيادة. وكذلك رفعوا حنيبعل الشاب إلى القيادة بعد موت

حسدربعل. فقد كانوا يحبون هؤلاء القادة الذين كانوا ينتقلون بهم من نصر إلى نصر، ويتخلون عن جانب كبير من مغانم الحروب. فالبرْكيون كانوا إذن يجدون حولهم كثيرا من الرجال المستعدين للسير معهم لو أنهم أرادوا السيطرة بالقوة. ولعل هذه الخشية فرضت الحيطة والحذر على الجماعة التي كانت تحاربهم. ولكنهم كالماگونيين في هذا، لم يكونوا بحاجة إلى استعمال القوة، لأن السلطة كانت في أيديهم بقرطاجة منذ 237. ويجب الاعتقاد بأن عملِكار – ولو أن پوليبْ Polybe وغيره من الكتاب لم يذكروا هذا – قد كلف رسميا بقيادة جيشه في إسبانيا، وأن يسير هكذا بوطنه في سبل جديدة، ذلك أن عملية كهذه تتطلب من الإمكانيات ما الدولة وحدها هي القادرة على تقديمها.

كان الشعب معجبا بهؤلاء القادة الحربيين العظام، ذوي الانتصارات التي تشهد لها الغنائم التي كانوا يبعثون بها من إسبانيا، والذين كانوا يغنون الجمهورية، ويفتحون الأسواق للصناعة والتجارة، ومع ذلك لم يكونوا يريقون دماء المواطنين. وكان الشعب يرى فيهم الآخذين مستقبلا بالثأر الذي يعيد إلى قرطاجة صقلية التي ضاعت سنة 241، كما يرد عليها سردانية التي استولى عليها الرومانيون بعد ذلك بقليل وبدون حق. ولابد أن الشعب في غالبيته كان يميل إليهم، برغم الأواصر التي كانت تربط قسما كبيرا من الطبقة الدنيا بالنبلاء، بحيث أن الشعب انتخب للقيادة كلا من حسدرْبَعْل وحنّيبَعْل اللذين اختارهما جيش إسبانيا، كما انتخب على ما يحتمل بعض الولاة عن أصدقاء البركيين، وكان في جانبهم عند حدوث خلاف بينهم وبين مجلس الشيوخ.

ففي هذا المجلس وهيأته الإدارية، وكذلك في هيأة القضاة كان أعداء عملكار أكثرية عقب حرب المرتزقة. ولكن عددهم صار يقل شيئا

فشيئا. لأن ضخامة العمل المنجز في إسبانيا قضى لا شك على الكثير من الشكوك والأحقاد، حتى إن المتحرجين لاحظوا أن الفتوحات الجديدة، لم تنته فداحةُ أثمانها بسرعة فحسب، بل إنها صارت ذات مكاسب للدولة والأفراد. على أن إسبانيا لم تنسهم إفريقيا التي وسّع بها عملكار المنطقة القرطاجية أثناء حربه للنوميديين، والتي بعث إليها صهره حسدربعل ليضاعف من عدد الأتباع الأهالي، والتي ضمنت أسرته للجمهورية بها عن طريق المصاهرات حلفاء نافعين. وختاما فقد كان في الأرستقراطية رجال تنالهم الرشوة، والأموال الإسبانية ساعدت على شرائهم.

ورغما عن هذا، فمن المحتمل أن حزبا قويا بمجلس الشيوخ حافظ على مشاعر العداء نحو حسدربعل، وأن هذا الأخير قد تجنب مشاورة المجلس الذي لم يكن واثقا منه، فلم يعرض على أنظاره المعاهدة التي عقدها مع الرومانيين سنة 226.

لكن، لا شك أن حنيبعل توفرت له بعد سنين قليلة أكثرية واسعة في الكورية Curie. فحينما عزم على مهاجمة ساكونْت Sagonte غير عابئ بمنع رومة، رأى من الأحسن أن يطلب التعليمات من مجلس الشيوخ، فأذن له المجلس أن يفعل ما يريد ولم يعبأ بإنذارات إحدى السفارات الرومانية. وبعد سقوط المدينة الإسبانية، رفض المجلس تسليم حنيبعل، وقبل خوض الحرب التي بلغتها له سفارة ثانية. وأثناء هذه الحرب كان ابن عملكار يسانده المواطنون، بما فيهم المجلس والشعب، مساندة كادت تصل للإجماع. وكانت أخبار انتصاراته تقابل بالفرح الشديد. وبعد معركة كنْس Cannes، قرر المجلس أن يبعث إليه بمدد كبير، كما

اتخذ في هذه الحقبة وفي السنوات الموالية، الوسائل للسير بالحرب بمضاء، لا في إيطاليا وحدها، بل حيثما وجد رومانيون تمكن محاربتهم.

إذن، لقد كان بمستطاع حنيبعل أن يطمئن إلى المجلس الأرستقراطي. ومع ذلك، فأثناء الأزمة التي حدثت في 238-237، وبعد ذلك أيضا، تغلب البرْكيون Les Barcides بفضل المساندة الشعبية على خصومهم، وحصلوا على وسائل تنفيذ تصميماتهم. ولقد استمر البركيون يطلبون من الشعب مساندته حتى عندما لم يعودوا بحاجة إليها، وكانت تلك المطالبة اعترافا له من جانبهم أو ضمانا منهم للمستقبل. وقد سبقت الإشارة إلى فقرة پوليبْ Polybe التي تنبئنا أن الشعب عند القرطاجيين كان له في بداية الحرب البونيقية الثانية الجانب الأهم في المناقشات السياسية، بينما كان مجلس الشيوخ عند الرومانيين يحتفظ بجميع سلطاته : «عند هؤلاء كانت مناقشات الجمهور، وعند الآخرين كانت مناقشات المفضلين». ويجب القول بأنه لا يوجد نص يشير إلى أن المدة المتراوحة بين 218-203 قد اتخذ فيها أي قرار من جانب مجلس الشعب. ولكن التاريخ الداخلي لقرطاجة مجهول جدا. لذلك فالتأكيد القاطع لكاتب ذي معلومات حسنة، لابد أن يجعلنا نسلِّم بأن الشعب كثيرا ما دعي للاجتماع في هذا العهد، وأن حقوقه التي سبق أن كانت قوية في القرن الرابع لم يقع توسيعها، وإنما أتيحت له الفرصة لاستعمالها.

ونفهم أن البرْكيين استطاعوا الهيمنة دون أن ينتهكوا حرمة الدستور، وذلك بالاعتماد على الشعب أول الأمر، ثم بالاعتماد في آن معا على الشعب وعلى مجلس الشيوخ. أما الحزب الذي كان يعاديهم، فلم يختف نهائيا، بل استحال إلى أقلية ضئيلة يسيرها حنّون الذي كان لا يزال حيا في نهاية الحرب البونيقية الثانية.

على أن هذا الحرب كان له دور كبير فيما يرويه كل من تيت ليف Tite-Live وأپّيان Appien وديون كسْيوس Dion Cassius. وربما صار يعزو لنفسه هذا الدور بعد ما تغلب الرومانيون، حيث رأى من المفيد أن يقنعهم بأن كل المسؤولية في الخلاف تقع على كاهل البرْكيين. لأن هؤلاء كانوا يعملون حسب هواهم، وكأنهم ملوك حقيقيون. ففي أسبانيا كانت فتوحاتهم التي هيأت الحرب، وكان الهجوم على مدينة ساگونت Sagonte الذي اشعل فتيلها، كل ذلك قد تحملته حكومة قرطاجة ولم توافق عليه. وحتى في وقت الانتصارات الكبيرة التي نالها حنيبعل كان كبراء قرطاجة لا يفتأون يرون، وأحيانا يجرؤون على القول، بأن وطنهم قد وقع الزج به جنونيا في معركة لم يكن الحق فيها إلى جانبه. وكان الرومانيون يكرهون البرْكيين إلى حد جعلهم يعتقدون لابد بأن هذه هي الحقيقة. حتى إن أحدهم وهو المؤرخ فابْيوس بِكْتور Fabius Pictor المعاصر لحنيبَعْل قد ردد صدى هذه الأقوال. أما پوليبْ Polybe فقد اجتهد في الرد عليها قائلا : لو أن القرطاجين كرهوا الهجوم على ساگونت، لما رفضوا أن يتبرأوا ممن قام به، ولكنهم عوضاً من أن يفعلوا هذا، فقد ساندوا الحرب وفقا لرغبات حنيبعْل، مستعملين كل قواتهم في ذلك.

ولكن الحكاية بقيت مع ذلك حية. إذ زعم بعض الكتاب الرومانيين أن عملِكار عبر إلى أسبانيا دون موافقة من حكومة قرطاجة. وحسب قول فابْيوسَ Fabius كان حَسدْرُبَعْل يطمع في الملك، أما تيتْ ليفْ فيقدم لنا حنّون الكبير Hannon le Grand مشغول البال بالميول الملكية في الأسرة البركية، ومعبرا بحدة عن مخاوفه. ففي إحدى خطبه التي قيل إنه ألقاها أمام الكورية سنة 224 وقف معارضا لإرسال الشاب حنيبعل إلى إسبانيا، عند حسدْربَعْل الذي بعث يطلبه لتعليمه مهنة الحرب وتدريبه

على أن يخلفه. ولا بد من تنحية هذه الخطبة والقصة المحيطة بها، لأن حنيبعل كان أبوه قد أخذه معه وغادر قرطاجة منذ سنة 237، ولم يعد إليها إلا بعد ست وثلاثين سنة كما يذكر ذلك عدة من المؤرخين، ومن بينهم تيتْ ليفْ Tite-Live نفسه.

ويقول أبيان Appien إن الأنصار السياسيين للبركيين بعد موت حسدربعل، قدمهم للمحاكمة الحزب المعادي الذي كان يستهين بحنيبعل بسبب كونه شابا. وكان الشعب إلى جانب القائمين بالاتهام، لأنه لم يغفر للمتهمين قسوة السيطرة التي فدحته إبان عَملْكار وحسدربَعْل. وصدر الأمر بأن الأموال الطائلة التي وزعها هذان الأَخيران على أنصارهما، تسلم إلى الخزينة باعتبار أنها أتت من الغنيمة التي تحصلت من الشعوب المغلوبة. فأعلم المتهمون حنيبعل وطلبوا منه أن ينجدهم. وأنذروه بأنه إذا أهمل من ساندوه داخل وطنه فسيكون هو ضحية لأعداء أبيه. فسارع هو على ما قيل بإحداث حرب ضد الرومانيين، ظنا منه أن مواطنيه لن يستطيعوا – والحالة هذه – الاستغناء عن خدماته، وأنه سيميلهم إليه بانتصاراته. ومع ذلك فلا يحتمل أن الحزب البركي كان مهددا جديا في هذه الحقبة، أي بين 221 و219. لأننا نعلم أن التاريخ الأول انتخب فيه الشعب حنيبعل قائدا، وفي 219 أطلق له مجلس الشيوخ اليد ليدبر قضية ساكونْت بما يريد. ونعلم أيضا أن الحرب التي كان حنيبعل يتمناها، كانت رومة في الحقيقة هي التي أشهرتها.

وقد حلا لبعض الكتاب أن يرووا خطباً لحنّون. فنقرأ في تيتْ ليفْ أن سفارة رومانية وصلت إلى قرطاجة قادمة من أسبانيا أثناء حصار ساكونت، وكان حنيبعل قد رفض مقابلتها، ويقال إن حنّون استعطف مجلش الشيوخ أن لا يقبل انتهاك التعهدات التي أخذتها قرطاجة على

نفسها، وأن تسترضي رومة بتسليمها ابن عملكار الذي تطالب به. ويضيف تيت ليفٌ قوله : إن أي واحد لم ير وجوبا للرد عليه، وإذا كان الناس قد أصغوا في صمت لهذا الرجل العظيم، فإنهم لم يوافقوه على رأيه، لأن مجلس الشيوخ بكامله تقريبا كان بجانب حنيبعل. وهذه الملاحظة صحيحة، ولكنها ليست حجة في أن تكون بقية القصة صحيحة أيضا. وحسب رواية پوليبْ Polybe – وهي أشبه بأن تكون صحيحة – فإن السفارة بعثت إلى أسبانيا (حيث قابلها حنيبعل) ثم إلى إفريقيا قبل حصار ساگونت، لذلك لم تستطع مطالبة مجلس الشيوخ القرطاجي بالمعاقبة على جريمة لم تكن قد اقترفت بعد. وحسب دِيونْ كَسْيوس يكون حنّون قد تناول الكلمة أثناء قدوم السفارة الثانية التي أعلنت الحرب، ويكون أشار بالاستجابة لما يفرضه الرومانيون، بينما پوليبْ Polybe لم يشر لأي تدخل لحنّون خلال هذا الاجتماع الذي روى تفاصيله، فلا ندري إذن في أي وقت حصل.

بعد معركة ترْازِمان Trasimène بوقت قليل استطاع حنيبعل أن يتصل بقرطاجة لأول مرة منذ مغادرته لأسبانيا. ويزعم كل من أبيان Appien ودِيون كَسْيوس بأن الناس هناك سخِروا من هذا المنتصر الذي يطلب الجنود والأموال، ثم لم يبعثوا له بشيء من ذلك. أما پوليبْ Polybe فيقول نقيضا لذلك، أن القرطاجيين فرحوا جدا بالأنباء السعيدة التي حملت إليهم، وأبدوا الاستعداد لأن يساندوا الحرب في إيطاليا وأسبانيا بجميع الوسائل. وحين قدِم ماگون Magon ليعلن لمجلس الشيوخ خبر الكارثة التي حلت بالرومانيين في كنس Cannes، اهتاج حنّون من تهكم حملْكون Himilcon عليه، وكان حملكون من أنصار البرْكيين. فقام حنّون وأَلقَى الخطبة قال فيها – حسب تأكيد تيتْ ليفْ – إنه يأسف أكثر من

أي وقت على هذه الحرب، وأنه يرجو أن يبرم على عجل عقد لصالح قرطاجة، وأن ماكون Magon ربما كان يبالغ لسوء الحظ في قيمة هذه الانتصارات التي حصل عليها أخوه، لأنه يطلب النجدات. فواضح أن تيتْ ليڤْ يريد أن يقر بأن كلام حنّون يظهر مستوحى من حقده القديم على الأسرة البرْكية، وأنه لم يؤثر إلا على القليل جدا من الناس. وطبعا فإن هذه الخطبة قد اختلقها المؤرخ، وهو من علماء البلاغة، بحيث يمكن أن نتساءل هل فاه حنّون ولو بكلمة.

8

إن إخفاق حنّون في مشروعاته قد قلل من نفوذه، بحيث لزم التخلي عن كل أمل في الانتصار على رومة لما قدم أخوه حسدُرُبَعْل إلى إيطاليا لموافاته بها، وقتل سنة 207 في معركة نهر مِيطور Métaure، وكذلك عندما اندحر سنة 206 الجيش الذي كان ماكون - أخوه الآخر - أحد قادته، وفقد القرطاجيون أسبانيا. وعندما اقتحم سيبيْون Scipion إفريقيا سنة 204، وجب التفكير في سلامة الوطن. أما الحزب المعادي للبركيين، وكان يسيره حنّون الشيخ وشخص آخر يدعى حسدربعل ويلقب بالجدي Chevreau، فقد استطاع القول بأنه برهن على بعد النظر في عدم مسايرته لهؤلاء الرجال الذين جرّوا على الجمهورية مثل هذه الشرور. ولابد أن يكون هذا الحزب قد حصل على المساندة العلنية إلى حد ما من لدن الذين لم يكونوا يعتقدون قرطاجة قادرة على متابعة الصراع، وكذلك من الذين كانوا يفكرون في مصلحتهم الشخصية على الخصوص، ويريدون صيانة ممتلكاتهم عن إتلاف الأعداء لها. فخلال سنة 203 اقترح عدة مرات بعض أعضاء مجلس الشيوخ إجراء

المفاوضات مع الرومانيين. وكان بعضهم صادقين، ويتمنون النهاية العاجلة للحرب. وكانوا أعضاء في هذا الحزب، واستنكروا إلغاء الهدنة، ومنعوا على ما يقال الجماهير من السطو على الموفدين الذين بعثهم سيبْيون. وقد كان الرومانيون الحاقدون على حنيبعل، لا يمتنعون عن الميل إلى خصومه السياسيين، لذلك ظهر أن هؤلاء صالحون ليقوموا بالمهام لدى سيبْيون في إفريقيا ولدى مجلس الشيوخ في رومة لتهييء السلام أو لعقده، وأعطيت لهم الحرية الكاملة في إلقاء المسؤوليات على البركيين.

وحتى بعد اقتحام المنطقة البونيقية، فإن حنيبعل وماگون قد مكثا في إيطاليا، حيث كان أحدهما بمقاطعة البْروتيوم Bruttium، والآخر بشمال جَنَوة في المنطقة التي قدم إليها عن طريق البحر. وأنيطت حرب سيبْيون بحَسدْرُبَعْل ابن جِسْكون الذي لم يكن عدواً صريحا للبركيين. وقبل ذلك، أي سنة 212 أو 211 كان قد وقع إلحاقه بأخَوَيْ حنيبعل للقيادة في أسبانيا. لكن الحزب البركي في هذه الحقبة كان قويا، بحيث كان بمستطاعه سنة 204 أن يمنع إسناد قيادة الحرب في إفريقيا إلى قائد لا يريده. ومع ذلك فإن حسدربعل لم يوافق على انتقاصه لجعله مجرد تابع لأسرة عملكار، الأمر الذي أحدث المشادات بينه وبين زميليه في الهضبة الإيبيرية. كان ذا أصل رفيع وذا ثروة عظيمة، ثم زاد من سطوته المعنوية بزواج بنته سُفونسْبي Sophonisbe مع سيفَكْس Syphax ملك الماسيسيلِّيين. وكان سيفكْس قد استولى على مملكة المسيليين Massyles وأصبح سيدا على القطر الجزائري كله. وأقنعه صهره (حَمُوه) وزوجته بالوقوف إلى جانب قرطاجة، لأن القوة الواضحة المتوفرة لهذا الحليف كانت تدخل الطمأنينة على صدر حسدربعل. لذلك لم يكن ييأس من الحصول بالسلاح على سلْم مشرفة. ولو أن الحرب انتهت على نحو ما كان يتمناه، لكان له حساب مع حنيبعل وأنصاره دون شك.

لكن الرومانيين الذين ساندهم مسِّنيسّا Massinissa، تغلبوا على حسدربْعل وسيفَكْس، وأسروا ملك الماسيسيليين. أما ابن جِسْكون فلم يحدثنا عن مصيره لا بوليبْ Polybe ولا تيتْ ليڤْ. ويذكر أپْيِّان Appien أنه قد حكم عليه بالموت وهو متغيب عن قرطاجة بسبب اندحاره، وعوض عنه في القيادة بحنّون ابن بوملكار Bomilcar. ولعل حنّون هذا كان ابن أخت حنيبَعْل(45)، الذي صاحبه إلى إيطاليا، والذي كان لعدة سنين أفضل مساعديه. ومع ذلك فإن حسدربعل حافظ على ما بقي له من جيوش، وضاعف من عددها بضم المتشردين والأفاقين. واقترح على حنّون أن يقاسمه القيادة، بحيث يهاجمان معا معسكر الأعداء بعدما يوقد فيه النار بعض الضالعين معهما من الأسبانيين العاملين في الجيش الروماني. ولكن هذا المشروع اكتشف سره. فاتهم حنّون حَسدربَعْل أمام الشعب بأنه كان ينوي الانضمام إلى سيبْيون. الأمر الذي زاد في حدة الحقد على حسدربعل. ولكن حنيبعل – أثناء وجوده في قرطاجة التي استدعاه الشعب للقدوم إليها – اقترح تبرئة حسدربعل ودعوته للعمل. وقد أعاد إليه حنيبعل جيشه، ولكنه لم يستطع الظهور في المدينة. وبعد قليل، كان عامة الناس لا يزالون مصممين على اعتباره خائنا، فأخذوا يبحثون عنه ليقتلوه. وقد عثر عليه ميّتاً في قبر أبيه، إذا كان تناول السم، وطاف الناس برأسه مغروسا في حربة.

ومن ناحية أخرى، فإن زوناراس Zonaras، الذي اختصر ديون كَسْيوس Dion Cassius، يحكي أن حسدربعل قد عزل عن القيادة وعُوِّضَ عنه بحنّون، وأنه كون جيشا من العبيد ومن الجنود الذين كانوا مع الرمانيين ثم فروا ليلتجئوا إليه، وأنه اعتمد على بعض الموالين له من الأسبانيين، وهيأ هجوما ليليا على معسكر سيبْيون، لكنه أخفق في

حملته هذه وبعد عودة حنيبعل إلى إفريقيا وقع عليه الحكم بالموت فشرب السم، وأن القرطاجيين عبثوا بجثمانه.

هاتان الحكايتان مع تناسبهما الكبير، لا تتفقان تماما. إذ لا شك في أن قسما مما يرويه أبيان Appien غير صحيح، لأن حنيبعل لم يعد إلى قرطاجة في التاريخ المذكور. ولا نستطيع القول بأن غير ذلك مما يرويه هذا الكاتب وكذلك ما يذكره دِيون كَسْيوس يستحق ثقة أكثر. ويمكن التسليم بأن حسدربعل المغلوب قدمه الحزب البرْكي ضحية غير مأسوف عليها، وأنه بسبب تحطيم معنويته وبسبب اتهامه بالخيانة، كما حدث لكثير من القادة التعساء قبله، قد فضل الانتحار.

وكان الحزب البرْكي هو الذي مكثت بيده مقاليد الحكم. ورغما عن الهجوم الواقع على إفريقيا فإنه كان يريد متابعة الحرب، آملاً أن يخفق سيبْيون في عمليته الجريئة، من غير احتياج لمواجهته بحنيبعل وماگون اللذَيْن، إن لم يكن وجودهما بإيطاليا خطرا كبيرا على رومة ففيه لها على الأقل قلق وإهانة. لكن، بعد الاندحارات الخطيرة التي حدثت، وقع استدعاء ابنَيْ عملكار، (ولربما يكون ماگون مات بالبحر) وجرى تقديم طلب السلام إلى الرومانيين. ويظهر جليا أن قسما من رجال السياسة بقرطاجة قد رضخوا لقبول شروطهم. بينما كان آخرون يريدون ربح الوقت فحسب، معتمدين في هزيمة سيبْيون على حنيبعل الذي مكث حتى الآن لا يقهر في المعارك ذات الجيوش المصطفة.

وكان للشعب نفس الآمال التي يذكيها التعصب العنيف، والحقد على من اتهموا بالخيانة والأحزان التي يسببها الخوف من المجاعة. فأوقع الشعب النهب خلال الهدنة بسفن رومانية جنحت بخليج قرطاجة، ثم رفض التعويض عن الخسائر. ولا شك أن سلوكه هو الذي دفع بالسلطات إلى

ارتكاب جريمة لا تغتفر. فخلافا لما تقتضيه حقوق الناس أمرت بمهاجمة مبعوثي سيبْيون. ولا شك أنه طالَبَ في الشهور الموالية بحرب الإبادة.

على أنه يجب إلغاء بعض الإشارات التي ذكرها أبيان Appien، وهي صدى لبعض المؤرخين الرومانيين عن الدور الذي يقال إن الشعب قد لعبه في عهد هذه الأزمة. والمعتقد هو أن القرطاجيين حاولوا أن يجدوا لأنفسهم مبررا أمام الرومانيين المنتصرين، فعملوا على تبرئة الحكومة باتهام الجماهير التي كانت مهتاجة ولا تعي ما تفعل.

وكان سيبْيون قد سمح للسفراء القرطاجيين العائدين من إيطاليا بالدخول إلى وطنهم في سلامة وأمان برغم الاعتداء الواقع على موفديه. وحسب أبيان Appien، فإن مجلس الشيوخ تأثر بهذا السلوك المستقيم، واستنكر عنف الجماهير، ووافق أن يعرض على القائد الروماني تعويضا عن الخسائر، وأن يطلب منه التمسك بالاتفاقية التي سبق إبرامها. لكن الشعب كان ساخطا منذ مدة طويلة على هذا المجلس، ويعتبر أنه ارتكب جناية الغفلة وعدم التبصر، كما أن الشعب كان يدفعه بعض الديماغوجيين الذين يبعثون فيه الآمال الخرقاء، لذلك استدعى حنيبعل وجيشه، وكان آنذاك في حملته ببلاد النوميديين، الأمر الذي أشعل الحرب من جديد ضد رومة.

بعد مدة وجيزة، عقب بعض الاخفاقات التي لحقت بالجيش البونيقي، بعث حنيبعل – كما يقول أبيان Appien – مبعوثين عنه إلى مسِّنيسّا، ورجاه التوسط لدى سيبْيون للحصول على الصلح. ورمى بالأخطاء المرتكبة على الشعب وعلى بعض الرجال الذين هم أشد حمقا من الشعب. فتنازل سيبْيون للطلب الذي قدمه الملك إليه، وعين التعويضات التي يطالب بها. ولما علم مجلس الشيوخ بهذا الاتفاق وافق عليه ودعا الشعب لأن

يوافق مثلما فعل، غير أن الشعب ندد بالخيانة وأصدر أمره لحنيبعل بخرق الهدنه التي وهبها الرومانيون، وبخوض المعركة[46].

لم يبق بعد خسران هذه المعركة، للقرطاجيين سوى أن يرضخوا لإرادة الغالبين. وقد أعلن سيبْيون عن هذه الإرادة للموفدين الذين جاءوا لمعسكره. ولكن أپْيان Appien يزعم أن المسألة وقعت مناقشتها عدة أيام في مجلس الشيوخ. وكان النبلاء ينصحون بالرضوخ. لكنهم لم يستطيعوا إقناع الجماهير التي كان إحساسها بالتضحيات المطلوبة أكثر من خشيتها من المصائب الواقعة حتما فيما لو رفضت. وكان أشد ما يغضبنا هو أن الولاة وافقوا على تسليم القمح للرومانيين بينما الجماهير تفتقده. وتكونت جماعات معادية أحاطت بالأرستقراطيين، وجرى الحديث بنهب منازلهم وإحراقها. وتقرر استدعاء حنيبعل إلى قرطاجة ليقول رأيه. فخشي أصحاب الرأي منهم أن يزيد حنيبعل في تهجيج العواطف. ولكنه في خطاب يملأه الوقار نصح بالصلح. غير أن الشعب زاد هياجه فشتم حنيبعل وهدد جميع الكبراء، فداخل الرعب كثيرا منهم وفرّوا إلى مسِّنيسّا، كما التجأ بعضهم إلى سيبْيون. فقرر القرطاجيون القيام بالبحث عن مؤن القمح التي ادخرها حنيبعل في مكان ما على الساحل ثم معاودة الحرب مستعدين أن يتحملوا الآلام، ولا يستسلمون. ولكن عاصفة بحرية حطمت السفن التي كانت ستنقل إليهم هذا القمح، ولما يئسوا من كل شيء قبلوا التفاوض.

هذه الحكايات المختلفة التي يرويها أپْيان Appien ليست صحيحة. فمنذ معاودة الحرب التي سببها الاعتداء على المبعوثين الرومانيين، وحتى نهاية الحرب لم تقع حسب پوليبْ Polybe سوى محاولة واحدة للاتفاق بين المتحاربين. وذلك أثناء المقابلة التي جرت بين سيبْيون

وحنيبعل، وكانت مباشرة قبل المعركة العظيمة المعروفة باسم معركة زاما Zama. ولم يكن حنيبعل قد عاد إلى قرطاجة قبل هذه المعركة. فقد كان مكلفا بتسيير العمليات العسكرية، وكان يحب العمل برأيه، ولا يقبل أن تعطيه الحكومة أو الشعب أمرا، ولا أي نصيحة. كما أن الدور المعزو لمسِّنيسّا مختلف، لأن هذا الأمير كان يجوب نوميديا في الوقت الذي قيل إنه كان أثناءه يتذاكر في الاتفاق بين القائدين المتعاديين. وأخيرا، فحسب پوليبْ Polybe، إن المبعوثين الذين أوضح لهم سيبْيُون المنتصر شروطه قد عادوا مسرعين إلى قرطاجة التي كان حنيبعل موجودا بها. فاجتمع مجلس الشيوخ وقرر أن يبعث على عجل بسفارة أخرى إلى قائد الجيش الروماني ليخبره بموافقته. وعلى هذا يكون الشعب لم يستشر، وإذا صح أن حنيبعل قد تدخل بحزم لصالح السلام، فذلك قد كان بمجلس الشيوخ. لذلك فجميع التفاصيل التي نجدها عند أَپْيان Appien والمتعلقة بما قد يكون حدث آنذاك بقرطاجة إنما هي من نسج الخيال.

ومع ذلك فلا شك في أنه قد وجد حتى بعد كارثة زاما Zama من يقولون بالمقاومة، ولو أنها أصبحت مستحيلة. ولم يكن هؤلاء المتحمسون من الشعبيين فحسب. ففي الاجتماع الذي عقده مجلس الشيوخ - حسب رواية پوليبْ Polybe - وقف أحد الأعضاء بالهيأة الإدارية لهذا المجلس وشرع يلقي خطابا ضد المعاهدة. فارتمى عليه حنيبعل وانتزعه من المنصة. فأحدث بعمله هذا ضجة كبيرة اضطرته إلى الاعتذار، مذكرا بأنه غادر وطنه قبل هذا الوقت بست وثلاثين سنة، وكانت سنه آنذاك تسعة أعوام، فلابد من مسامحته لجهله بالعادات. أما غضبه فيبرره المسلك الغريب لرجل يعرف جيدا كما يعرف جميع المواطنين أن القرطاجيين كان من الممكن أن ينتظروا شروطا أكثر قسوة. ثم رجا المشيخة أن تتخلى عن كل مناقشة وأن تقبل الاتفاقية بالاجماع. فوافق المجلس.

ويؤكد ديون كسيوس الذي نقل عن أحد الكتاب الرومانيين، أن حنيبعل وقع تقديمه للمحاكمة بعد هذه الحرب، لكونه لم يرد الاستيلاء على رومة، ولكونه استولى لنفسه على المغانم التي تحصلت في إيطاليا، غير أن المحكمة برأته. لكن هاتين التهمتين، وعلى الخصوص أولاهما، بلغتا من التفاهة حدا لم يكن من المعقول أن أحد الناس يجرؤ على تأكيدهما. أما الحزب المعادي للبركيين فقد أحس بما يكفيه من الرضى حين رأى عددا كبيرا من أنصار حنيبعل القدماء يبتعدون عن مغلوب لم يعد لهم فيه نفع، ويؤنبونه على خراب وطنه.

كانت قرطاجة منهوكة القوى بعد سبع عشرة سنة من الصراع، وانتقصت ولم يبق لها سوى تراب منطقتها الإفريقية. وكانت الأرستقراطية قد حافظت على ضياعها وتتمنى استغلالها متجنبة كل المغامرات، حتى لا تعطي لرومة أية علّة أو عذر للإجهاز على المنافسة الواهنة. كما كانت الأرستقراطية تود الحفاظ على مصدر آخر للاستفادة وهي الأرباح التي كان الولاة والموظفون وربما المتاجرون في الضرائب ينالونها بالابتزاز والاختلاس.

وكان حنيبعل مثل هؤلاء النبلاء يعلم أن التفكير في إثارة رومة غير ممكن، ولكنه كان يتمنى لها أن تجد بعيدا أعداء أقوياء تستطيع قرطاجة أن تنضم إليهم. فالجمهورية لابد أن تتوفر لها إذن الموارد الضرورية للتدخل، كما يجب أن لا تسلم إلى رجال همهم الوحيد هو مصالحهم الشخصية. ولابد أن حنيبعل قد حدث له اشمئزاز بعد عودته لإفريقيا حين شاهد التلاعبات الواقعة في الإدارة والمحاكم. وأراد أن يجعل لذلك حدا، فعمل بشدة الجندي الذي يستهين بالمناورات، ولا يخشى دسائس رجال السياسة.

بعد خمس سنين مرت على الحرب، أي سنة ١٩٦ وقع انتخابه لمنصب شوفيط. ذلك أن الشعب كان يذكر انتصاراته وينتظر من عبقريته النهوض بقرطاجة. فكان معه ضد هؤلاء النبلاء الذين لم يصبهم أي أذى من الكارثة الوطنية، والذين لا يزالون يستغلون الدولة بوقاحة، مع أن خزينتها فارغة.

وبعد شروعه في تحمل المهام بعث في طلب أحد الولاة الذي ذكره تيتْ ليڤْ بوصفه اللاتاني : Quaestor (أي المتصرف المالي). ولاشك أن الغرض من الدعوة كان يتعلق بالتدابير التي ستتخذ في الشؤون المالية. وكان الشخص المدعو من الحزب المعارض لحنيبعل، فكان لا يخشاه، لأن المتصرف عند انتهاء مهمته سيدخل في طائفة القضاة، وهم الولاة الذين يستمرون في العمل مدى حياتهم، وتربط بينهم روح من العصبية الضيقة، ويهيمنون كما يشاؤون على ثروات المواطنين وعلى سمعتهم وحياتهم. فلم يطع المتصرف أوامر الشوفيط. فغضب حنيبعل وأمر أحد الأعوان بإلقاء القبض عليه وتقديمه أمام المجلس الشعبي. ولما أخذ الكلمة ألقى بالتهمة على المتصرف العاصي. وأكثر من ذلك أنه ألقاها على طائفة هؤلاء القضاة الذين تلغي هيمنتهم المتعجرفة القوانين وسلطة الرجال الذين يحكمون الجمهورية. وكان هؤلاء الذين يهاجمهم حنيبعل قد أثاروا حقد صغار الناس بسبب عجرفتهم وطغيانهم، لذلك كان لخطابه وقع حسن. وانتهز الفرصة فقدم في الحين قانونا صودق عليه، يقضي بأن القضاة يقع انتخابهم كل سنة، وأنه لا يجوز لأي واحد أن يكون قاضيا سنتين متتابعتين. فمجلس الشيوخ لم يُدْع إذن ليدلي برأيه قبل مجلس الشعب. وكانت هذه المسطرة على ما يظهر غير قانونية. وقد أنزل هذا القانون الجديد ضربة شديدة بالأرستقراطية، لأن الهيأة التي كانت تحافظ بالخصوص للأرستقراطية على قوتها ستفقد كل تماسك،

وتقع كل سنة تحت رحمة الناخبين، أي تحت رحمة الشعب كما يحتمل جدا. وهذا الشعب كان أداة طيعة في يد حنيبعل.

وتدبير آخر زاد من سخط النبلاء، إذ كانت اختلاساتهم ومعاملة المحسوبية بينهم تحرم الدولة من مداخيلها. وكانت الحاجة ماسة إلى المال الضروري لأداء أقساط التعويض الحربي الذي فرضه الرومانيون. لذلك كان الأفراد مهددين بالضرائب الفادحة. فاطلع حنيبعل على محصول الضرائب في البر والبحر، وعلى النفقات التي خصصت لها هذه المداخيل، كما اطلع على التحملات المالية الحقيقية للجمهورية، وعلى ما تخسره بسبب الاختلاس والنهب، ثم أعلن بالمجلس الشعبي أن الدولة، لو طالبت بجميع الأموال المسروقة لكانت من الثروة بحيث تقوم بأداء التزامها نحو رومة دون فرض للضرائب على المواطنين. وقد وفى بوعده.

غير أن الذين ألزمهم برد الأموال حملوا حقدا دفع بهم للقضاء عليه بالاستعانة برومة. فبعثوا رسائل لشخصيات كبيرة متعددة، كانت لهم بها علاقات صداقة، وأخبروهم - عن صدق أو كذب - أن لحنيبعل علاقات سرية مع أنْتيوخوس Antiochus، ملك سورية الذي كان آنذاك كثير الاستعداد لمعاداة رومة. ويقال إن سيبْيون الإفريقي قد عارض التدخل مدة طويلة بحجة أنه لا يليق بوطنه أن يقحم نفسه في الشحناء الحزبية البونيقية، ولا أن يحمل النميمة لمن غلبه وطنه. ومع ذلك فإن ثلاثة موفدين قد بعثوا إلى قرطاجة ليتهموا أمام مجلس الشيوخ حنيبعل بأنه يبيّت حربا جديدة مع أنتيوخوس. وكان وصولهم لقرطاجة في وسط الصيف سنة 195، وكان حنيبعل قد انتهت مدته ولم يَعُد "شوفيطاً".

وقد أذاع الرومانيون أنباء بأنهم قادمون لتسوية الخلافات بين مسِّنيسّا والقرطاجيين، ولكن حنيبعل فهم بأنهم قادمون من أجله هو.

كان قد هيأ من قبل كل شيء لفراره، وتلافيا للارتياب في أمره ظهر في الساحة العامة. وعند نزول الظلام وصل لأحد أبواب المدينة، دون أن يغير ملابسه، ويصحبه رجلان يجهلان مقاصده. وهنا كانت الخيول تنتظره، فركبها وأخذ يركض ليلا ونهارا حتى وصل في نهار الغد إلى حصن كان يوجد في إحدى ضياعه على الساحل بين ثَبْسوس Thapsus وأشولا Acholla، على نحو خمسين فرسخا من قرطاجة. وكانت إحدى السفن تنتظره، فركبها وأسرع قاصدا جزيرة سِرْسينة Cercina (هي أكبر جزر قرقنة) التي كان بمينائها بعض السفن التجارية الفينيقية. وتسارع إليه بعض الناس للسلام عليه عند نزوله، فأخبرهم بأنه ذاهب في مهمة إلى مدينة صُور Tyr. لكنه خشي أن ترحل بالليل إحدى السفن إلى ثَبْسوس أو هَدْروميت Hadrumète وتنقل خبر وجوده في سِرْسينة، فأمر بتهيء قُربان دعا له التجار وربابنة السفن الذين استعار منهم القلوع وعارضات الصواري لينصب بها على الساحل خيمة يستظلون فيها من الشمس. وطالت المأدبة بالليل، وكانت الخمرة ترويها بسخاء. أما حنيبعل فبمجرد ما واتته الفرصة للتخلص من أنظار الذين كانوا بالميناء، فإنه ركب البحر، بينما لم يتنبه مدعووه من نوم السكْر إلا في اليوم الموالي، حيث أضاعوا عدة ساعات في إعادة أدوات سفنهم إلى أمكنتها.

أما في قرطاجة فإن الرجال الذين اعتادوا التردد على منزل حنيبعل قدموا إليه كالمعتاد، ولما علم الناس أنه غير موجود تجمع بالساحة الكبرى جمهور كبير منهم، متلهفين لمعرفة مآل الشخصية الأولى بالمدينة. فقال بعضهم إنه فر، وقال غيرهم إن الرومانيين بعثوا إليه من اغتاله. وأخيرا ذاع الخبر بأنه شوهد في سِرْسينة.

لما أدخل المبعوثون الرومانيون إلى مجلس شيوخ قرطاجة، أوضحوا أن أعضاء من مشيختهم لديهم البراهين على أن حنيبعل بعث الرسائل والموفدين عنه إلى أنْتيوخوس وإلى الإيطوليين Etiliens. وأنه كان يريد إثارة الحرب التي يجر إليها مواطنيه، وأن القرطاجيين لابد لهم من معاقبة هذه المناورات إذا كانوا يريدون إقناع الشعب الروماني بأن جمهوريتهم لم تشارك في هذه المناورات.

وكان الجواب على هذه النصيحة هو الحكم بالنفي على حنيبعل ومصادرة أملاكه، كما وقع تهديم منزله. أما النبلاء الذين انتصروا بالنجدة المخزية التي نالوها من أعدائهم الدائمين، فلا شك أنهم ألغوا القرار الذي يحطم قوة هيأة القضاة، بحيث يكونون قد ألغوه لفساد مسطرته إذا كان خلافا للقانون قد عرض على الشعب.

كان حنيبعل قد ذهب إلى صُور Tyr، فاستقبل الرجل العظيم بهذه المدينة التي هي أم قرطاجة كما لو كان في وطنه الثاني. وبعد بضعة أيام رحل إلى أنطاكية Antioche حيث كان يظن أنه سيجد أنتيوخوس، ثم إلى مدينة أفْسوس Ephèse فوجده بها.

لم يكن قد فقد الأمل في العودة إلى الحكم بقرطاجة، وفي استخدام هذا الحكم لمعاودة الصراع ضد رومة باتفاق مع أنتيوخوس. وقال إن خطته كانت تقضي برجوعه إلى إفريقيا مع أسطول وجيش يسندهما الملك إليه، وكان يريد مضاعفة هذه القوات بالقوات التي يقدمها له القرطاجيون. وإذ ذاك ينتقل هو بالحرب إلى إيطاليا، بينما يعبر أنتيوخوس إلى بلاد الإغريق. وكان لابد له من وجود أشخاص من بين مواطنيه يكون معهم على اتصال سري. ولكنه لم يجرؤ على المكاتبة

خوفا من الاطلاع على رسائله وانفضاح خطته. وكان قد التقى في أفْسوس برجل من صُور اسمه أرِسْطون Ariston، فاطمأن إلى لباقته، وأقنعه بالهبات والوعود أن يذهب إلى قرطاجة حيث يتصل بالأشخاص الذين سيعيّنهم له. وأعطاه علامات سرية تمكن من معرفة من أرسله.

بمجرد وصول أرِسْطون خلال سنة 193 فهم الجميع، من أصدقاء حنيبعل وخصومه، لماذا جاء. فتحدث الناس أول الأمر عن مهمته في المجامع الخاصة وعند تناول الطعام، ثم إن أحد أعضاء المجلس جهر وسط الاجتماع قائلا : لا فائدة في نفي حنيبعل إذا كان غيابه لا يمنعه من أن يتآمر، وإذا كان المدعو أرِسْطون الصُّوري المزود بتعليمات القائد البرْكي وأنْتيوخوس يجري كل يوم محادثات غامضة مع بعض الشخصيات، وعما قريب ستعلم قرطاجة ثمن هذه الدسائس. فارتفعت الأصوات مطالبة بمثول أرِسْطون أمام المشيخة، وإذا لم يُدل بالإيضاحات فإنه سيرسل إلى رومة مع بعض المبعوثين. ولما مثل أرِسْطون الصوري أمام المجلس حاول تبرئة نفسه بأن ادعى أنه لم يدفع أي رسالة لأي شخص كان. ولكنه لم يوضح الأسباب الحقيقية لمجيئه، كما بدا عليه الاضطراب الشديد خصوصا عند بيانه لماذا لم يزر إلا الرجال الذين هم من حزب حنيبعل. وجرت المناقشة في أمره، فكان البعض يريدون له السجن باعتباره جاسوسا، بينما كان الآخرون يؤكدون أن هذه الضجة لا مبرر لها، ومن الخطر الكبير اعتقال ضيف من غير سبب قوي، لأن القرطاجيين يمكن أن يعاملوا بنفس المعاملة في صُور وفي غيرها من المدن التي كثيرا ما تدعوهم إليها شؤونهم التجارية. ولم يتخذ أي قرار في ذلك اليوم. فاعتبر أرِسْطون أن المكوث مدة أطول يكون من قبيل الغفلة، لذلك ركب البحر في الليلة الموالية. وقبل ذلك علق لافتات بمكان مطروق جدا، كان الولاة يجتمعون به لإصدار

الأحكام. وفي الصباح، عندما قدم الشوفيط لمحكمتهم شوهدت المكتوبات، فانتزعت وقرئ بها أن التعليمات المعطاة إلى أرِسْطون ليست موجهة إلى شخص بعينه، وإنما هي موجهة إلى مجلس الشيوخ بكامله. لقد كان الفينيقي المحتال يريد التعريض بالمجلس كله للشبهة. وبهذا لا يكون الذين زارهم مشكوكا فيهم أكثر من غيرهم. ولربما إن الرومانيين سيعتقدون بأن الحكومة البونيقية تتآمر ضدهم، وهذا خطر يجب أن يدرأ. ولذلك أُرسل الموفدون إلى قنصلي رومة ومجلس شيوخها لإخبارهم بما جرى، ولتحذيرهم بأن أنتيوخوس الذي يساعده حنيبعل يتهيأ للحرب.

وقد عاش حنيبعل بعد ذلك نحوا من عشر سنين، ولكنه لم يقم بمحاولات جديدة للعودة إلى وطنه[47].

9

يقول أپْيان Appien – نقلا عن پوليبْ Polybe على ما يحتمل – إن قرطاجة كان بها ثلاثة أحزاب في الحقبة السابقة على قيام الحرب البونيقية الثالثة.

فأحد الأحزاب هو الذي كان على رأسه حنّون الكبير، الذي يميل إلى الرومانيين، وكان مستعدا لأي استخذاء لهم، لينعم القرطاجيون بخيراتهم في أمان. وكان هذا الحزب هو الذي حارب حنيبعل. ولابد أنه كان يضم عددا كبيرا من النبلاء، الذين كان من بينهم عدد ممن لهم علاقات ودية مع بعض الأسر الأرستقراطية الرومانية. غير أن رومة كانت تغضي على تعديات مسِّنيسَّا وفتوحاته في المنطقة البونيقية ولا تأذن لقرطاجة بالدفاع عن نفسها، الأمر الذي لم يكن يساعد على الزيادة في نفوذ هذا الحزب، ولا في تأمينه نفسه على المستقبل.

أما الحزب الديمقراطي فكان رئيساه هما كرثْلون Carthalon وعملِكار المعروف بلقب السمْناتي Samnite. وكان حزب البرْكيين من دون البركيين، أي كان عبارة عن جماهير عنيفة وغير واعية، بحيث إن العقول المفكرة لم تعد تسيطر عليها لتوجيهها فيما تريده. وكانت وطنيته الجامحة تكره أعداء الأمس واليوم : رومَة ومسِّنيسّا.

وأخيرا حزب ثالث تكوّن، وله رئيس هو حنيبعل المعروف بلقب "الزرزور". وكان محابيا لمسِّنيسّا، لأن الرجال الذين يكونونه، كانوا يرون أن رومة لا تحمي قرطاجة من هذا الملك، وأن قرطاجة لا تستطيع حماية نفسها بنفسها، لذلك فإن الأفضل هو محاولة التفاهم مع أمير ذكي جدا، قوي جدا، متضلع من الحضارة البونيقية (إذ قيل إنه ربُّي في قرطاجة)، ويتمنى بشدة أن ينشر هذه الحضارة بين رعاياه. ثم إن اثنين من أقرباء مسِّنيسّا قد تزوجا على التعاقب بنت أخت حنيبعل، وكذلك فإن حسدربعل ابن جِسكْون – الذي لا يقل في نبله عن البركيين – ربما كان قد واعده ببنته سُفونِسْبي، وأن أحد القرطاجيين من ذوي المنزلة الرفيعة ما كان ليظن أنه أصهر إلى من هو أدون منه، إذا أصبح صهرا للنوميدي، بحيث ليس للأرستقراطيين المزهوين حق في النظر إليه على أنه من "الباربار".

نعم لقد كان من المهين والصعب قبول كونه صار سيّدا على المستوطنات البحرية وعلى الأراضي التي كوّنت، لمدة عدة قرون، الإمبراطورية القرطاجية في إفريقيا. ومع ذلك، ففي دولة خاضعة لسلطته القوية، يكون بمستطاع القرطاجيين المالكين للضياع أن يستثمروها في سلام، كما يكون بمستطاع التجار أن يتبايعوا بحرية مع السكان الأهالي الذين تتولد لديهم احتياجات جديدة عن عيشة الرخاء، فيبيع لهم التجار منتجات الصناعة البونيقية على الخصوص. ولاشك أن المؤمل

كان هو أن يترك مسّنيسا لقرطاجة حريتها الذاتية، بحيث تبقى من الوجهة القانونية مدينة جمهورية، ومن الناحية العملية تصير عاصمة لمملكة شاسعة الأطراف، قوية بما يكفي لثباتها ودفاعها عن نفسها حتى ضد روما.

ومن المفهوم أن أصدقاء مَسِّنيسّا وأنصاره كانوا جبناء وخونة في نظر الذين يعتبرون أنفسهم وطنيين حقيقيين. وفي سنة 151-150 ق.م كان الحزب الديمقراطي في الحكم منذ عدة سنين على ما يحتمل، وقد حصل من الشعب على تصويت يقضي بنفي نحو من أربعين شخصية أعضاء في الحزب النوميدي. وأدى الشعب اليمين بأن لا يدعوهم أبدا، وأن لا يتناقش في أي اقتراح يتعلق بدعوتهم من جديد. وفي أماكن أخرى نعثر على الأحداث التي تلت، كالحرب التعيسة التي أثيرت ضد الملك، وكانت انتهاكا للمعاهدة التي فرضتها روما على قرطاجة بنصف قرن من قبل، وكالاستعدادات الرومانية المرعبة وشروطهم القاسية[48].

ذلك أن القرطاجيين الذين دحرهم مسِّنيسّا، وافقوا على عودة المنفيين، وحبّاً في استمالة الرومانيين حكموا بالموت على القائدين كَرْتَلون وحسدربَعل، وكذلك على غيرهما ممن كانوا رؤساء لا شك في الحزب الديمقراطي، كما لو كان هؤلاء الرجال وحدهم المسؤولين عن الحرب ضد الملك النوميدي. وعندما نزل بأوتيكا Utique القنصلان الرومانيان لسنة 149 ومعهما الجيش، وأعلنا أن قرطاجة يجب أن تخلى من السكان وأن تهدم، أحدث هذا النبأ المرعب فتنة عنيفة، ذبح فيها الشعب الشيوخ الذين كانوا قد أوصوا بالخضوع الأعمى لما تريده روما.

فلم يبق سوى الحرب حتى الموت. أما الحزب الروماني فقد اضمحل، وأما الحزبان الآخران فقد اتحدا. وجرى انتخاب قائدين هما حسدربعل الذي نجا من الحكم الصادر في شأنه من قبل، وشخص آخر

يحمل نفس الاسم وكان حفيدا من جهة أمه لمسنيسا. لكن حسدربعل الثاني، هذا الذي كلف بالدفاع عن المدينة، لم يلبث أن وجد نفسه في موقف عويص. ذلك أن مسِّنيسّا لم يكن يتمنى تهديم المدينة، وعلى الخصوص لم يكن يتمنى استقرار الرومانيين في إفريقيا. غير أنه لم يجرؤ على التصريح بمعارضتهم، كما لم يجرؤ على ذلك أبناؤه الثلاثة الذين تقاسموا ميراثه بعد وفاته (سنة 148). بل إن أحدهم، وهو گُلوسا Gulussa قد جاء مع جنوده لموافاة الفيالق الرومانية. أما حسدربعل الآخر الذي كانت له القيادة خارج المدينة، والذي حصل على بعض الانتصارات، فكان يغار من زميله، ولربما كان يظن نفسه على صواب في التخوف منه. فقد اتهمه بأنه يريد تسليم المدينة إلى گُلوسا. ولقد فوجيء حفيد الملك أثناء انعقاد مجلس الشيوخ بهذه التهمة، وبدا عليه اضطراب كبير، فارتمى الناس عليه وانهالوا يضربونه بالمقاعد. أما القائد الحي فقد كلف - وفق ما كان يرجوه - بالدفاع عن قرطاجة. وكان سلوكه سلوك طاغية متآمر حقيقة. بحيث إن مجلس الشيوخ أصدر توبيخاً على العذاب الذي لا يجبي نفعا والذي ألحق ببعض السجناء السمانيين، فأمر بأن يلقى القبض على عدد كبير من أعضاء هذا المجلس وأن يقتلوا. لقد كان فظا وقاسيا، وكان يهيمن بالعنف. ولربما أن الديكتاتورية يكون وجودها ضروريا لإبعاد كارثة أو لتأخير وقت حدوثها، ولكن حسدربعل لم يكن أهلا لذلك، وعندما دقت الساعة الأخيرة لقرطابة لم يعرف كيف يموت مع وطنه، وإنما ذهب يستنجد العفو المزري من الغالب المنتصر.

الكتـاب الثاني

حكومة قرطاجة

الفصل الثاني

إدارة الإمبراطورية القرطاجية

1

على غرار ما كانت عليه رومة قبل القياصرة، وعلى غرار ما كانت عليه أثينا بعد الحروب الميدية، فإن قرطاجة سيدة الإمبراطورية، قد حافظت على أنظمة المدينة. ويظهر أنها لخصت إدارة هذه الإمبراطورية في التدابير اللازمة لحفظ سيطرتها، ولضمان مداخيل الضرائب التي فرضتها، وتجنيد الفرق التي كانت تحتاج إليها.

وهكذا، فقرطاجة ذات السيادة، كانت تتبعها المستعمرات الفينيقية والقرطاجية، كما تتبعها مدن وشعوب خاضعة، يمكن أن نضيف لها بعض الحلفاء الذين لم يكونوا في الحقيقة يختلفون في شيء عن المحكومين [١٨].

١٨) فيما يتعلق بإدارة إمبراطورية قرطاجة، أنظر : ملتزير Meltzer ج 2 ص 74-104 و488-503 وفيما يخص العناصر المكونة للإمبراطورية أنظر : ديودور، كـ 20، 55، 4 وبوليب : كـ 7، 9، 5.

أما المستعمرات الفينيقية القديمة بالغرب، فقد اعترفت طوعا أو كرها بسيادة قرطاجة، التي ربما تكون قوت عناصر السكان في بعض المدن التي أصيبت بالوهن. كما أنشأت مستعمرات جديدة في جزر البحر الأبيض المتوسط الغربي، وفي أسبانيا وشمال إفريقيا. وجميع هذه المستعمرات، القديم منها والمحدث، كانت تقع على الساحل، أو لا نعرف نحن - على الأقل - أياً منها بداخل اليابسة. وبرغم الأسوار التي كانت تحميها، فإنها على عكس ما كان عند الرومانيين، لم تكن مراكز عسكرية، أو حصونا قوية في بلاد وقع الاستيلاء عليها، وإنما كانت على الخصوص مخازن تجارية وأسواقا. غير أن الكثير منها لا شك كانت لها أحواز واسعة إلى حد ما، أي لها موارد فلاحية تبعا لذلك.

لقد رأينا أن النصوص تذكر بشمال إفريقيا مجموعتين هامتين من هذه المستوطنات، وهي الأمْبوريات Emporia على طول سَدْرة الصغرى، وبين السدْرَتيْن. ثم المدن الميتاكونية بين رأس بوكرون والمحيط الأطلسي. ورأينا أيضا أن كلمة "ليبيين فينيقيين" Libyphéniciens يظهر أنها كانت تدل بصفة عامة على المعمِّرين المقيمين بالمدن البحرية التي أسسها بإفريقيا الفينيقيون أو القرطاجيون، ولكن اللفظة صار لها على ما يحتمل مدلول أضيق، بإطلاقها على المدن الواقعة بين سَدْرة الكبرى ورأس بوكرون، وليس على المدن الميتاكونية.

ويفترض مومْسِنْ Mommsen وبعض من أتى بعده، أن اللفظ الفينيقي الذي يعادله تعبير "ليبيون فينيقيون" قد اتخذ مدلولا قانونيا مثل لفظ لاتيني Latini الذي دل في عهد السيطرة الرومانية، ليس على سكان مقاطعة اللتيوم Latium فحسب، بل دل خارج هذه المنطقة أيضا على المعمرين الذين يملكون نفس الحقوق التي للاّتانيين الحقيقيين. إن هذا

الافتراض يمكن أن يغري، إذ يحتمل جيدا أن الليبيين الفينيقيين الذين بالسواحل الإفريقية قد تمتعوا بوضع اللاتانيين. وهناك ما يدفع للظن بأن المعمرين الفينيقيين والقرطاجيين كانت لهم حقوق متشابهة في جميع جهات الغرب. ومع ذلك فلا برهان لنا على أن لفظ ليبيين فينيقيين قد وقع صرفه عن مدلوله الجغرافي الخاص أو العام. فالليبيون الفينيقيون الذين وقعت الإشارة إلى وجودهم في إسبانيا كانوا على الأرجح فينيقيين من ليبيا، نقلتهم قرطاجة إلى الهضبة الأسبانية حيث استقر قبلهم فينيقيون آخرون قدموا من المشرق. أما مستعمرات الليبيين الفينيقيين التي كلف حنّون Hannon بإنشائها على الساحل الإفريقي للمحيط، فلابد أنها اقتبلت سكانا لهم نفس الأصل، وأن هؤلاء السكان أتي بهم على ما يحتمل من المدن التي كانت تسمى بصفة خاصة مدنا ليبية فينيقية، أي بإخراج مدن المنطقة الميتاگونية.

ويخبرنا دِيودور الصقلّي بأن الليبيين الفينيقيين كانوا يشاركون القرطاجيين في التزوّج Epigamie. ولا شك أن هذا الحق قد كان يصحبه مجموع الحقوق الخاصة التي كانت للقرطاجيين أنفسهم. وفي مقدمة المعاهدة المبرمة سنة 215 بين حنيبَعْل وفيليبْ المَقْدوني Philippe de Macédoine ذكر بعد القرطاجيين : «جميع الذين هم تابعون للقرطاجيين ويطبقون نفس القوانين مثلهم». فلا شك أن الأمر يتعلق بالليبيين الفينيقيين وغيرهم من الفينيقيين بالغرب.

وفي هذه المستعمرات، يظهر أن الجمهورية قد عمدت أكثر من مرة إلى إسكان مَنْ هم من أصول وأحوال مختلفة، والأفارقة منهم على الخصوص، وذلك زيادة على المواطنين من قرطاجة وغيرها من المدن الفينيقية. ولا ندري هل كانت تخولهم نفس الحقوق التي خولتها

لرفقائهم. كما أننا لا ندري إلى أي حد كان من الممكن تخويل هذه الحقوق للأهالي الذين كان عددهم كبيرا إلى حد ما، وكانوا يأتون عن طواعية للسكنى بالمدن البحرية القديمة أو الجديدة.

والذين «كانوا يطبقون نفس القوانين مثل القرطاجيين» هل كانوا ينعمون بالاستقلال البلدي ؟ لا شك في هذا بالنسبة لمدينة قادِس في أسبانيا، ولمدينة ثاروس Tharros في سردانية. ذلك أن قادس – وهي مستعمرة لصُور – كان يسيّرها الشوفيط الذين وقعت الإشارة إليهم في أواخر القرن الثالث، مع متصرف مالي Questeur مكلف طبعا بتسيير مالية الجماعة. أما ثاروس التي أسسها الصُّوريون أيضا على ما يحتمل فإن نقشا يذكر في آن واحد شوفيطَيْن محليين ويذكر الشوفيطَيْن العاملين آنذاك في قرطاجة. فالنقش إذن يؤرخ له بعهد السيطرة البونيقية. كما يظهر لقب الشوفيط بنقش فينيقي آخر من سَرْدانية. غير أن هذا النقش متأخر عن استيلاء الرومانيين على الجزيرة. ومالْطة كانت قد خرجت منذ بضع سنين من قبضة قرطاجة، لما نقشت كتابة إغريقية تَذْكر اثنين من الأرْخونْتات Archontes – والأُرخونْت لفظ يقابل الشوفيط – كما تَذْكر قراراً لمجلس الشيوخ المالطي. وكذلك يورد أَبْيان Appien الأرخونْتين اللذين كانا سنة 147 يديران الشؤون في أوتيكا، المدينة التي وهبت نفسها لرومة بسنتين قبل هذا التاريخ، وإن كان مجلس الشيوخ بهذه المدينة لم يتضح وجوده إلا بعد قرن من هذه الحقبة. ولا ندري لأي عهد يرجع أحد النقوش الفينيقية بمالطة، وهو مؤرخ باسم أحد الكبراء السنَوِيّين الذي ربما لم يكن من الولاة البلديين على كل حال، وكذلك الشأن بالنسبة لنقش آخر، ذكر فيه شعب گَاوْلُس Gaulos (أي جزيرة گوزو) كما ذكر فيه بعض الولاة أو الموظفين.

إن نقصان المعلومات التي بين أيدينا، لا يجب حسب رأينا أن يدفعنا للتسليم بأن قرطاجة قد ألغت - وباستثناء بعض الحالات القليلة - النظم البلدية في المستعمرات الفينيقية التي ضمتها إلى إمبراطوريتها، وأن هذه النظم عادت للعمل بها بعد الفتح الروماني فحسب. فافتراض كهذا يكون غير صحيح بالمرة لأوتيكا Utique ولعدة مدن بصقلية التي تركت لها قرطاجة أو منحتها بعض الامتيازات التي سنتحدث عنها. ونحن نميل إلى الاعتقاد - وإن كان البرهان يعوزنا - إلى أنها أيضا منحت الحكم الذاتي لمستعمراتها بالذات، وأنها لم تلزم نفسها بأعباء تسييرها. وبهذا إذن يكون قد وجد الشوفيط ومجلس بلدي أو للشيوخ، ومجلس شعبي في جميع المدن الفينيقية والبونيقية.

هذه المدن، يبدو أنه كان بينها نوع من التدرج في القيمة. فأوتيكا بقيت رسميا حليفة، بحيث إن اسمها يذكر بجانب قرطاجة في المعاهدات المبرمة مع الدول الأجنبية، كما تشهد بذلك وثيقتان مؤرختان بأواسط القرن الرابع ونهاية الثالث. ولا يذكر هذان العقدان سوى أوتيكا باسمها. وعلى هذا فقد كانت لها منزلة مرموقة في الإمبراطورية القرطاجية. ومع ذلك فيمكن أن مستعمرات قديمة أخرى قد حافظت - مع شبهة من السيادة - على صفة الحليفة. ومن بين هذه المدن يمكن أن نذكر قادِس معاصرة أوتيكا. وكانت هي الوحيدة التي نالت حق سك النقود بأسبانيا. ونفس الحق خول - ولسبب نجهله - للمستعمرة البونيقية إيبوسوس Ebusus أي جزيرة يابسة Ibiça، وفي صقلية كان هذا من حق المستعمرات القديمة : بالرم Palerme وسولونْتَه Solonte وموتْييه Motyé التي كانت لها عملتها قبل قرطاجة، وكذلك للمدينة التي كان اسمها الفينيقي هو روشْملْكارْت Roushmelquart (وهي إما هيركْليا مينْوا Heracléa Minoa وإما سِفالْوِيدْيون Céphaloidion). ففي

هذه الجزيرة التي كان الإغريق يسكون النفود بجميع مدنها، تكون قرطاجة قد فضلت قبول امتياز لم تسمح به في جهات أخرى.

وفوق ذلك، إذا كانت قد أعطت بعض الاعتبار لبعض المدن، فإنها جميعها قد كانت عمليا خاضعة لتبعية شديدة، كما يدل على ذلك اللفظ الذي أطلق عليها في النص الإغريقي للمعاهدة المبرمة بين حنيبعل وفيليب المقْدوني. وكانت الحكومة البونيقية تحتفظ لنفسها بالعلاقات الدبلماسية مع الدول الأخرى، بحيث إن هذه المعاهدة وغيرها تشهد بذلك، والموفدون الليبيون الفينيقيون الذين ذهبوا إلى آسيا للمثول أمام الإسكندر، لم يكونوا سوى مواكبين لسفراء العاصمة الإفريقية.

ولم تكن قرطاجة أقل اهتماما من رومة بسياسة "فرّقْ تسدْ"، فهي لم تسمح بحدوث أي تجمع بين المدن. ولا يوجد أي برهان على قيام كنفدرالية في عهد سيطرتها بين الأمْبوريات Emporia، ولا حتى بين أُويَا Oea وصَبْراتة Sabratta ولبْتيس Leptis، أي بين المدن الثلاث المهمة في البلاد، التي سماها الرومانيون فيما بعد باسم ريجْيو تْربولِتانا Regio Tripolitana، منطقة المدن الثلاث، والتي شمل اسمها من بعد منطقة شاسعة هي طرابلس Tripolitaine.

وكما يحتمل جدا، فإن المستعمرات لم يكن لها الحق، ولا الوسائل لتكفل الجيوش على العموم أو لتجهيز السفن الحربية. إذ كانت أسوار هذه المستعمرات وما لها من أسلحة كافية لحمايتها في الأوقات العادية من هجوم جيرانها الأهالي. أما إذا هددتها هجمات أشد خطرا، فإن قرطاجة تتكفل بحمايتها، بحيث كانت تعطيها الحاميات آنذاك. وفي بعض المدن كانت الجيوش تترك بها حتى في أوقات السلام احتياطا لكل مفاجأة، بحيث إن وجود هذه الحاميات يمكن أن يكون ذا فائدة

وسط السكان الذين يشتبه في وفائهم. ولكننا لم نلاحظ أن القادة العسكريين كان لهم تدخل بانتظام في الإدارة المدنية.

ولابد أن القرطاجيين الذين كانت لهم وظائف وأعمال يزاولونها بالمستعمرات قد كان عددهم قليلا. ويسوغ الافتراض بأنهم كانوا على الخصوص وكلاء ماليين في خدمة الدولة أو الشركات الفلاحية. ولربما أن موظفين أكثر أهمية كانوا منصبين على رأس الدوائر الجبائية التي كانت تضم مجموعة من المدن البحرية، أن تضم في آن معا مستعمرات وأراضي يسكنها الأهالي.

كانت قرطاجة تتقاضى رسوما جمركية، ورسوما عن الأسواق لا شك. ويحسن الاعتقاد بأنها كانت تتقاضى ضرائب مباشرة مفروضة على أهل المدن. وإن كنا لا نعرف شيئا بدقة عن هذا الموضوع. وقد ذكر تيتْ ليفْ Tite-Live أنها تقاضت تالاناً Talent واحداً في اليوم [49] من لِبْتيس الكبرى، وهذا قدر من المال كبير إلى حد أنه لا يمكن أن يطابق الأتاوة التي يؤديها سكان هذه المدينة وحدهم.

وفي سنة 218-219، عندما كانت الحرب ضد روما على الأبواب، جنّد حنيبعل جنودا من المدن الميتاگونية (أربعة آلاف من المشاة)، ومن الليبيين الفينيقيين، أي على ما يحتمل، من المدن الواقعة بين رأس بوگَرون وسَدْرة الكبرى (بضع مئات من الخيالة فحسب). ويذكر نص آخر، متعلق بحملة وقعت في أواخر القرن الخامس، عمليات للتجنيد جرت عند فينيقيي ليبيا، كما أن هذا الالتزام الذي كانت قرطاجة تفرضه عليهم قد ذكر أيضا في أواخر القرن الموالي. ولم يرد مطلقا أي ذكر لسفن تكون الدولة البونيقية قد أمرت باحتجازها للمهمات الدفاعية.

كانت جل هذه المستعمرات مضايقة في نموها الاقتصادي بالعراقل التي كانت قرطاجة تضعها أمام التجارة مع الخارج. فالمعاهدات التي يوردها بوليبْ Polybe تخبرنا أنها منذ نهاية القرن السادس منعت على الرومانيين كل متاجرة مع السواحل الشمالية لبلاد البربر، وأن هذا المنع امتد في أواسط القرن الرابع إلى ليبيا كلها وإلى سَرْدانية والسواحل الأسبانية، انطلاقا من رأس بالوس Cap Palos (في اتجاه المضيق). ومثل هذا المنع قد صدر في حق الإغريقيين. ولربما إذا استثنينا قادِس، لم يكن بالموانئ الفينيقية والبونيقية بحرية تجارية قادرة على التباري مع بحرية قرطاجة التي كانت التجارة بها حرة تماما. بحيث إن مجهزي السفن الأثرياء كانوا بالعاصمة يكادون يستولون على عمليات الجلب والتصدير التي كانت تجري بهذه المدن البحرية.

قرطاجة إذن ترفض للفينيقيين الغربيين الاستقلال الذي كانت تتمتع به المستعمرات الإغريقية، والذي حققته قرطاجة لنفسها تجاه أمها صُور Tyr. ولكي تشدهم إلى سيطرتها المتعجرفة، فإنها كانت تعتمد على العلاقات التي تتولد من وحدة الأصل، واللغة، والأخلاق والمعتقدات. وكانت تعتمد حتى على ضعفهم، لأنهم إذا فقدوا عونها فلن يستطيعوا أن يقاوموا طويلا الأعداء الذين قد يهاجمونهم برا أو بحرا. كانت هذه الأسباب، وكذلك الخوف من سيدتهم القوية والقاسية، هي التي ربطتهم بها لعدة قرون. لكن على العموم لم يَبد عليهم أنهم قادرون على حبها إلى حد التضحية. لقد مكثوا على إخلاصهم لها حتى في أشد الأزمات لاعتقادهم لا شك في انتصارها النهائي، ثم تخلوا عنها حين تيقنوا بأن سلامتهم في خطر. فأوتيكا Utique خانتها منذ ثورة المرتزقة الكبيرة – إذ وهبت نفسها للرومانيين منذ هذا العهد – وقبل بداية الحرب البونيقية الأخيرة. لقد كانت – كما يقول أپْيان Appien – منطوية

على حقد قديم لقرطاجة، وهو حقد الأخت الكبرى المعزولة، برغم الاحترام الذي تعبر لها عنه الأخت الصغرى رسميا. وبِنْزَرت انضمت للمرتزقة. وفي أواسط القرن الثاني حذت هَدْروميت وعدة مدن أخرى حذو أوتيكا. وفي 219 كانت الأوضاع في المدن الميتاگونية تدعو لبعض القلق، لأن حنيبعل بعث إليها بحاميات مكونة من الأسبانيين، بينما العساكر الذين جندوا من هذه المستعمرات قد وقع إبعادهم، بحيث يستعملون كرهائن. ويظهر أن هذه المدن الميتاگونية بعد الحرب البونيقية الثانية قد رضخت دون عناء كبير لسيطرة الملوك الأهالي التي لم يكن عنها مناص. وكذلك الحال في الأمْبوريات التي استولى عليها مسِّنيسّا، ومثل ذلك يقال على ما يحتمل عن المدن التي بقيت موجودة على الساحل المحيطي للمغرب. أما قادس ففي سنة 206 فتحت أبوابها للرومانيين لما طردوا القرطاجيين من الهضبة الإيبيرية. وفي أسبانيا وجزر البحر الأبيض المتوسط لم تبذل المدن الفينيقية التي وقعت في قبضة روما أي مجهود للإفلات من هذه السيطرة. وخلال حرب حنيبعل، عندما ذهبت الجيوش البونيقية للحرب في صقلية وسردانية، كان الذين استدعوا هذه الجيوش وساندوها هم الأهالي، لا المستعمرات التي أنقذتها قرطاجة من قبل أو أنشأتها، وخضعت لها مدة ثلاثة قرون.

2

إذا كانت معرفتنا ضئيلة بأحوال المدن البحرية، فإننا أشد جهلا بالمنطقة التي استولت عليها قرطاجة في القرن الخامس، والتي وسعتها على ما يحتمل في عدة مناسبات، ثم جعلت الخندق حدا لها. وبالطبع فإن المستعمرات الفينيقية والبونيقية المنتشرة على طول السواحل التي كانت تحدها، قد كانت خارج هذه المنطقة.

وهل أعلنت الدولة ملكيتها على الأراضي الواقعة بجميع البلاد التي استولت عليها ؟ ذلك ما نجهله. وعلى كل حال، ومع أن الجمهورية كانت تفرض أتاوات تشهد بوجود حق أعلى لم تكن تريد التنازل عنه، فإن بعض القرطاجيين نالوا أو اقتنوا أراضي صارت أملاكا خصوصية حقيقية. وكان كثير من العبيد المستعملين في الأشغال الزراعية يعيشون في هذه الممتلكات، وربما حتى في غيرها مما كانت الدولة قد حافظت فيه على المِلكية التامة وعلى الاستغلال. وقد شارك آلاف منهم في ثورات وقعت في بداية وأواسط القرن الرابع. وكانت قرطاجة تستعمل سجناء الحرب في زراعة الأرض. وهذا كان إذن هو أصل قسم كبير من عبيد الفلاحة. ولكن لا ندري هل كان لهؤلاء العبيد سادة اشتروهم ؟ أو إن الدولة عكس ذلك بقيت مالكة لهؤلاء التعساء فشغلتهم ليعملوا في الأراضي العمومية ؟ أو إنها اكترت سواعدهم من مزارع خصوصية ؟ وكذلك فإننا لا ندري هل كان يعيش بأرض النبلاء القرطاجيين فلاحون أحرار، من المزارعين الذين يؤدون ثمن الكراء مما تنتجه الأرض، مثل معمري الضيعات الكبرى الإفريقية بالعهد الروماني.

أما عدد الرجال الأحرار الذين كانوا يعيشون بالمنطقة البونيقية، فكان كثيرا دون شك، بحيث كانوا يشكلون فيالق هامة من الجنود في الجيش الذي لم يكن يقبل فيه العبيد بحكم القانون. بينما الأهالي، الذين سماهم الإغريق باسم الليبيين، وسماهم اللاتانيون باسم "الأفْري" Les Afri، قد كانوا محكومين لقرطاجة. وخارج الميادين التي تحدثنا عنها، فقد كانوا يملكون أو على الأقل كانوا ينتفعون بالأرض من غير تحديد لمدة هذا الانتفاع، إذ أن حياتهم تكون مضطربة كما يكون الأمن مهددا لو عاشوا في الخوف الدائم من أن يطردوا عن الأرض التي يستغلونها وعن المنازل التي بنوها، ودون اطمئنان على مستقبل أبنائهم.

ولا شك أن بعضهم كانوا يعيشون في ضيعات منعزلة. وقد سبق أن ذكرنا لماذا كانت المراكز السكنية كثيرة العدد كالحلل Bourgs والقرى التي سماها القدماء بأسماء مختلفة مثل البوليس Poleis والأرْبِس Urbes والأوبِدا Oppida والكَسْتيلا Castella.

ولا ندري كيف كان يحكم الليبيون. ففي نصين غامضين لأرسْطو ذكر رجال من الشعب بعثت بهم الحكومة البونيقية لمدن تجاور قرطاجة كي يقوموا فيها بوظائف نافعة. فهل كانوا مكلفين بالسهر على تنفيذ الإلزامات المفروضة على المحكومين ؟ وبإدارة مدنهم أيضا، أو على الأقل بمراقبة السلطات المحلية ؟ ويمكن أن نتساءل أيضا - مع عدم نسياننا لوهن هذه الافتراضات - ألم يكن في بعض المناطق رؤساء من الأهالي الذين عينتهم قرطاجة لمدة غير محدودة، والذين لهم سلطة غالبا ما تكون وراثية في الواقع ؟ ألم يكن في بعض المدن وُلاة منتخبون أمثال الشوفيط السَّنَويِّين الذين بالمدن الفينيقية، ولكن يراقبهم مندوبون عن الجمهورية ؟ ولا محل لذكر النقوش التي من عهد يولْيوس قَيْصر والأباطرة، والتي تذكر وجود الشوفيط بأمكنة مختلفة من المنطقة التي كانت من قبل ملكا لقرطاجة قبل أن تتحول فتصير ولاية أفريكا الرومانية. ولربما أن هذه النظم البلدية لم تكن ميراثا مباشرا من العهد الماضي، وإنما كانت اقتباسا، بحيث إن رومة بعدما رفضت طيلة قرن من الزمن أي استقلال ذاتي للأهالي، تكون قد أذنت لهم بتكوين جماعات على الطراز البونيقي، شبيهة بالجماعات التي سمحت لها بالبقاء في بعض المدن الساحلية التي أعلن أنها حرة سنة 146.

ولكي تقوم قرطاجة بالشرطة حول وداخل منطقتها، ولكي تساعد مساعدة فعالة جباة الضرائب والمكلفين بالتجنيد، فإنها كانت تكفل

قوات عسكرية موزعة لا شك على مراكز مختلفة للحاميات. حتى إن حنّون الذي كان على رأس هذه القوات سنين عديدة في أواسط القرن الثالث، قد كان حقيقة حاكما عاما تخضع لسلطته الولاية كلها. ويقول بوليبْ Polybe إن حنّون قد سبقه كثير غيره في هذه المهمة. وبعد قرن يذكر أپْيان Appien، نقلا عن پوليبْ Polybe، قائدا يصفه بلقب بيوثارك Béitharque (قائد الجيوش المساعدة) ومن المحتمل أنه كانت له نفس السلطات. ولا ندري هل الوظيفة التي أسندت إليه كانت لمدة معينة. ومن المحتمل أن الولاية قد قسمت إلى عدة دوائر جعل على رأسها ضباط تابعون لهذا الحاكم العام. ولكن لا يوجد نص يساعد على تأكيد هذا القول.

كان على المحكومين أن يؤدوا الأتاوات. وعلى غرار ما كان معمولا به في بلدان أخرى من البحر الأبيض المتوسط، فإن الفلاحين كانوا يؤدون الواجب عَيْناً، وكان المدفوع يحدد بحسب إنتاج المحاصيل، الأمر الذي جعلهم يشبهون المعمِّرين في حصص الإنتاج. ولربما أن الجمهورية، وهي من الوجهة النظرية مالكة للتراب، كانت تعتبرهم فلاحين مكترين وتطالبهم بأداء الكراء. ولكن، إذا كان الأمر على هذا النحو، فإنها قد أولت هذا المدرك القانوني بتخويلها لنفسها حق تغيير قدر الأتاوة وجعلها ضريبة حقيقية. ويخبرنا پوليبْ Polybe أنها فرضت أثناء الحرب البونيقية الأولى نصف المحاصيل. وحيث إن هذا الكاتب أضاف بأنها ضاعفت آنذاك المكوس المالية بالمثل، فقد وقع الظن بأن من الصواب الاستنتاج بأن الضرائب التي كانت تؤدى عيناً قد ضوعفت بنفس النسبة، وأن المطلوب في الأوقات العادية كان هو ربح المحاصيل.

ويقول پوليبْ Polybe إن الأتاوات العينية كانت مفروضة على المدن، غير أن السياق يوضح أن المقصود هو مدن الليبيين. ولم تكن

هذه "المدن" سوى حلل Bourgs، كان يقيم بها الفلاحون الذين يؤدون الأقساط عينا. أما الذين كانوا يعيشون من التجارة أو الصناعة، فلم تكن إدارة الضرائب تنساهم، ولكن عددهم كان ضئيلا، وجلهم من حالة متواضعة، بحيث إن الضرائب التي كانوا يؤدونها لم تكن تشكل مقادير ضخمة. ولعل الضرائب التي يتحدث عنها المؤرخ كانت بالخصوص عبارة عن ضرائب الرؤوس التي تؤخذ من جميع السكان، بل وتفرض حتى على الحيوانات الأليفة، وتؤدى في المدن، ويمكن التفكير أيضا في حقوق الأسواق.

وكان الليبيون ملزمين بالخدمة العسكرية، ويؤخذون للتجنيد. وطبعا كانت أهمية الأعداد المجندة تختلف حسب احتياج قرطاجة. وكانت هذه الاحتياجات كبيرة أثناء بعض الحروب، وعلى الخصوص منها حرب حنيبَعْل. ورغما عن كون هؤلاء المجندين كان يقع تمييزهم عن المرتزقة – المجندين عن طواعية – فإن المحكومين الأفارقة كانوا يتقاضون جراية مالية لا شك.

ورغما عن الفروض التي كانت الحكومة البونيقية تلزم بها الليبيين، ورغما كذلك عن التعسفات التي لابد أنها فدحتهم، فإنهم لم يكونوا يحيون حياة بئيسة كما توحي بذلك بعض النصوص. لقد كانوا رجالا مثابرين، وكان الكثير منهم يزرعون أراضي خصبة تدر عليهم المداخيل، بل يظهر أن بعضا منهم كان لهم عبيد. وعندما انضموا في أواسط القرن الثالث إلى المرتزقة الثائرين، وجدوا بسرعة الأموال الضرورية لأداء الأقساط المتأخرة من الجرايات التي أعلنت قرطاجة عجزها عن أدائها، كما وجدوا المال لتأجيج التمرّد، بينما كان الابتزاز في السنوات

الماضية قد وقع عليهم بصفة شنيعة. وكان النساء قد احتفظن بحليهم حتى ضحين به آنذاك.

وليس لدينا أية حجة على أن محكومي قرطاجة استطاعوا بسهولة اقتناء الحقوق المدنية والسياسية التي كانت للمواطنين. غير أن عددا كبيرا من الليبيين، سواء في أرض وطنهم أو في الجيش، قد تعلموا لغة سادتهم، وعرفوا الآلهة التي كانوا يعبدونها، كما ألمّوا إلى حد ما بحضارتهم. ولهذه الأسباب نجد تعبير "ليبيين فينيقيين" قد خصص إطلاقه في أول الأمر على الغير، ثم أطلق من بعد على قسم من ذريتهم.

ومع ذلك فأكثرية الأهالي كانت تكره السيطرة البونيقية. وربما لم تكن هذه الكراهية بسبب الخدمة العسكرية، ووجوب الذهاب للمشاركة في حروب بعيدة لم يكن جانبهم يراعى فيها، بل بسبب فداحة الضرائب التي صارت لا تحتمل بسبب العنف والابتزازات التي يقوم بها المكلفون بالجباية. ولم يكن للقرطاجيين لا فن اجتذاب القلوب، ولا إرادة اجتذابها.

خارج المنطقة البونيقية كان النوميديون يتجمعون في قبائل ودول يوصف رؤساؤها بالأمراء والملوك (دونَسْتاي Dynastai، وبازيليس Basileis وريگولي Reguli وريجِس Reges). وكان بعض هؤلاء الرؤساء حلفاء لقرطاجة، إذ كان من مصلحتها أن تربطهم بها، وعلى الخصوص منهم من كانوا يعيشون بجوار ولايتها أو بجوار المدن البحرية التابعة لإمبراطوريتها، لأن في ذلك ضمانا لأمن ممتلكاتها، كما كان ذلك أيضا وسيلة للحصول على الجيوش المساعدة في الحروب التي كان عليها أن تخوضها. وكان هؤلاء الأهالي يرتبطون بالجمهورية بروابط تتفاوت في متانتها، تبعا لقوتهم، وتبعا للسهولة ، ولرغبتها الكبيرة إلى حد ما في فرض سيادتها عليهم. فأثناء حرب حنيبَعْل كان سيفَكْس Syphax، ملك

المسيليين أبعد من أن يرضى بدور التابع، وأراد أن يعامل على قدم المساواة، بل ظن أن بمستطاعه أن يقوم بالوساطة بين القرطاجيين والرومانيين. أما النوميديون المجاورون للمنطقة البونيقية، فكانوا على النقيض من ذلك يعاملون معاملة الأتباع حقيقة، بحيث كانوا إذا خرجوا من الحلف يُنظر إليهم كعصاة. وقد ذكرت حتى الأتاوات المفروضة على البعض منهم. وعمليا كادوا يكونون رعايا، إن لم يكونوا كذلك قانونيا. وللتأكد من وفائهم كانت قرطاجة تضع الحاميات (بمدنهم) وتطالبهم بالرهائن. (ونعلم أن مدينة ثوفيست Theveste سلّمت سنة 247 ثلاثة آلاف منهم إلى حنّون). وكانت وضعيتهم شبيهة بوضعية الفودِراتي Foederati (الحلفاء) الذين كانوا يسكنون خارج الحدود العسكرية للإمبراطورية الرومانية، ولكنهم يخضعون لسلطتها. فهم الخاضعون الذين يقيمون على الحدود الرومانية كما يقول عنهم القديس أوغسْطين [50]. أما رؤساؤهم، فلا شك أنهم كانوا ملزمين باتباع أوامر الحاكم العام للولاية. ولربما أن الذين لم يكن بالإمكان التغلب عليهم بالرهب، كانوا ينالون بعض الهبات المالية. وحين تحتاج الجمهورية، كانوا يضعون في خدمتها مجموعات المجندين - الخيالة منذ القرن الثالث على الأقل - التي يتفق على تحديد أعدادها، والتي يقودونها في الحرب أو يسندون قيادتها إلى أحد أقربائهم. والمعتقد هو أن قرطاجة كانت تتكفل بالإنفاق على هذه الجيوش، بل كانت تجري الجريات على الجنود. ومع ذلك فيجب أن نميز بين الجيوش المساعدة التي يقدمها الحلفاء، وبين المرتزقة الأجانب، وكذلك بين المجندين بالولاية.

ولم يكن هؤلاء النوميديون دائمي الوفاء، بحيث كانوا إذا حدثت أزمة لقرطاجة، يفضلون الانضمام إلى أعدائها، ويقتحمون منطقتها لينهبوها. وكانت تنتقم منهم حسب الظروف والقوات التي تتوفر عليها،

بالغزوات وحتى بالتقتيل. وقد تقبل عروض الصلح والخضوع التي كانوا سرعان ما يتقدمون بها بمجرد حدوث تغير ما.

وفي منطقة الأمْبوريات بسَدْرة Syrte، كانت تعيش بعض القبائل التي لها وضعية من هذا القبيل تقريبا. ويحتمل أنها هي المقصودة بفقرة واردة عند دِيودور Diodore، تشير إلى تشكيلات من الجنود قدمها في القرن الخامس (بعض الذين يسكنون بالأرض الواقعة بجهة قورينة Cyrène). وحقيقة، صار يقال فيما بعد أن هؤلاء الأهالي غير صالحين للحرب، فهل تكون قرطاجة قد تخلت عن مطالبتهم بالجنود ؟ ولربما أنها كانت تتقاضى منهم ضرائب يؤدونها عينا، شبيهة بالتي كانت مفروضة على المزارعين الليبيين.

3

في نهاية القرن الخامس استولت قرطاجة بصقلية على مدن إغريقية هي هيميرا Himère على الساحل الشمالي، وعلى سِلِنُونة Sélinonte وأكْريجَنْت Agrigente وجيلا Géla، وكامَرين Camarine على الساحل الجنوبي. أما المدن الثلاث الأخيرة منها، فلم تحتفظ بها قرطاجة سوى سنين قليلة. لأن المعاهدة التي عقدتها مع دونيس القديم Denys l'Ancien حول سنة 376، والتي جددت في 367 و338 و313 و306 ضمنت لها تملّك غرب الجزيرة حتى نهر هيمِراس Himéras شمالا، وحتى نهر هلِيكوس Halycos جنوبا. وفوق هذا فإن مدينة هيركْليا مينوا Héracléa Minoa الواقعة شرقي مصب نهر هليكوس قد كانت ملكا لها طوال القرن الرابع تقريبا، تلك هي المنطقة البونيقية التي شملت المستعمرات الفينيقية والقرطاجية، كما شملت الأراضي التي كانت تسكنها شعوب من

الأهالي، أو على الأقل ممن استوطنوا صقلية قبل قدوم الفينيقيين، وهم السيكانيون Sicanes والإيليميون Elymes. وأخيرا شملت مدينتين أسسهما الإغريق، وهما سلِنونة وهيرَكْليا مينوا.

وليس لدينا ما يسوغ القول بأنها تدخّلت في الشؤون الإدارية للإيليميين والسيكانيين. بحيث لما أثخن المرتزقة الكمبانيون تقتيلا سنة 404 في الإيليميين بأنْتيل Entelle، وحلوا محلهم بأراضيهم، فإنها قبلت هذا التغيير، واكتفت بأن تطلب من القادمين الجدد أن لا يقل وفاؤهم عن وفاء السكان السابقين. وهناك مدينة أخرى للإيليميين، وهي إيرِكس Eryx التي كان بها تأثير الحضارة الفينيقية واضحا، قد كان لها ولاة بلديون يدعون بلقب شوفيط، واحتفظت بحق سك عملة من الفضة، عليها كتابات فينيقية حلت محل الكتابة الإغريقية والإيليمية في عمليات السك السابقة. أما الإغريق الذين صاروا من رعايا قرطاجة فقد حافظوا على قوانينهم. وربما حتى على نظمهم البلدية.

وتذكر عدة من النصوص الأتاوات المفروضة على هؤلاء الإغريق، الذين تركت لهم أراضيهم الزراعية. ولابد أن الإيليميين والسيكانيين قد فرض عليهم أداء الأتاوات، التي كانت عبارة عن قسم من المحاصيل الزراعية. بحيث إن الرومانيين لما فرضوا جباية الأعشار بالجزيرة، كانوا إنما يسيرون وفق قاعدة أجريت قبلهم، كما كان الأهالي يقدمون مجموعات الجنود في حالة الحرب.

وكانت الولاية البونيقية معرضة لهجمات مفاجئة يقوم بها الإغريق أهل شرق الجزيرة، الأمر الذي ينشأ عنه الخوف من حدوث المحاولات للثورة. وحتى في حالة السلام كان يستحسن الحفاظ على وجود الحاميات. وقد كان بهيرَكْليا مينْوا سنة 357 حاكم عسكري. ولربما كانت

جميع جيوش هذا الاحتلال تحت إمرة قائد واحد. وفي أواخر القرن الرابع كان أحد القادة، وهو عَمِلْكار على رأس قيادة صقلية لمدة سنين عديدة، دون أن يكلف بمهمة تسيير إحدى الحروب.

وقد ثار إغريق الولاية سنة 398 استجابة لنداء دونيسْ المتأمر على سرقوسة، ذلك أنهم لم ينسوا القسوة التي استعملها قبل ذلك ببضع سنين القرطاجيون عند استيلائهم على مدن الإغريق. والذين وقعوا من جديد تحت السيطرة البونيقية، تحملوها باستسلام على ما يبدو. لقد فقدوا استقلالهم، ولكنهم وجدوا الهدوء الذي كان يعوز الكثير من الجمهوريات الإغريقية. واحترمت قرطاجة لغتهم ونظمهم وعاداتهم. وبصفة عامة كانت تعلم أنها إذا ظلمت رعاياها كثيرا، فإن هؤلاء لن يذهبوا بعيدا للبحث عمن يحررهم. ونشاهد عن طريق المعاهدتين المبرمتين مع رومة حوالي 500 و348 أنها لم تحتفظ لنفسها باحتكار التجارة في القسم التابع لها من الجزيرة. ومع أن الصقليين لم يخلصوا لقرطاجة كل الإخلاص – لأنهم ارتدّوا عنها أثناء حروبها ضد سرَقوسَة وضد بيرْهُوس Pyrrhus والرومانيين – فإنهم تقبلوا المصير الذي هيأته لهم.

أما في سرْدانية فإن سكان المناطق الجبلية مكثوا على استقلالهم، بينما استولت قرطاجة على السهول الجنوبية والغربية. وكان يحرث هذه الأراضي الخصبة الأهالي، وربما حتى بعض الأفارقة الذين نقلتهم هي إلى هناك. ونجهل كيف كانوا يحكمون. ولكن لا شك أن الدولة كانت تتقاضى قسطا من المحاصيل. والقمح الذي كان يصدر من سرْدانية لتموين مدينة قرطاجة أو لإطعام الجنود المقاتلين، لم يكن كله مما يُشترى. ويسوغ الاعتقاد بأن الحصة المفروضة في الأوقات العادية كانت عشر الإنتاج مثلما كانت في صقلية. ولربما أن هؤلاء الرعايا

كانوا ملزمين كالليبيين بنفس الواجبات العسكرية. والواجب يقضي بالقول بأن لا حجة لنا على هذا. ولم تعامل قرطاجة السردانيين بما عاملت به الصقليين من المراعاة. فقد أبعدت عن الجزيرة التجار الأجانب ابتداء من القرن الرابع على الأقل. وإذا صح خبر منقول على ما يحتمل عن "تيمي" Timée، فإنها منعت غرس الأشجار بالجزيرة، إما لأنها كانت تخشى حدوث نقص في محاصيل الحبوب التي هي بحاجة إليها، وإنما لأنها كانت تريد تخصيص فوائد الزراعة الشجرية لمالكي الضياع الإفريقية.

وكان جنودها بسردانية يمنعون هجمات الجبليين، ويقومون في نفس الحين بعمليات الشرطة في المنطقة البونيقية. وفي القرن الثالث كانوا تحت إمرة قائد عسكري من رُتبة بيوتارك (Béotharque) الذي سبق أن عرفناه بولاية ليبيا. وقد وقعت الإشارة إلى فتنة حدثت سنة 376، ولربما أن فِتن أخرى قد حدثت.

في النصف الثاني من القرن الثالث أخضع البرْكيون قسما كبيرا من الأسبانيين. ولا شيء يدل على أنهم كانوا يريدون حكمهم. فقد تركوا للقبائل والشعوب أمراءهم وملوكهم (الذين سمتهم النصوص باسم دونستاي، وبازيليس، وبرْنسيبس، وأدْواق Duces، وريگولي) وربطوهم بهم بطرق مختلفة. وقد تزوج حسدربعل وحنيبعل ببنات من الأهالي. وسلم رؤساؤهم أقرب أهاليهم برهانا على وفائهم، حتى إن سيبْيون لما استولى على قَرْطجنّة Carthagène سنة 209 وجد بها أكثر من ثلاثمائة من الرهائن. وكان هؤلاء الرؤساء يعرفون فوق ذلك قوة الجيوش البونيقية، والمقدرة العسكرية التي كانت للبركيين، كما كانوا يعرفون مقدار القسوة التي تعاقب بها كل مقاومة أو تخل عن الوفاء.

وكان يطلب منهم الجنود والمال. كما كان بعض القرطاجيين، من الضباط على ما يظهر، يشاركون في اختيار المجندين. ولم يكن الأمر انخراطاً في الجيش عن طواعية كما هو الشأن في البلاد المستقلة التي تجند فيها الجمهورية المرتزقة، ولا تجنيدَ فرق يقدمها الحلفاء وتكتفي قرطاجة بأن تذكر لهم العدد الذي تريده من الجنود، من غير أن تهتم بالطريقة التي تستعمل في حشدهم. بل كانت تقوم بحشد حقيقي للتجنيد، مثلما تفعل في منطقتها الإفريقية. يذكر تيتْ ليڤْ أن شعبين، هما الأوريتانيّون Orétains والكربِتانيّون Carpétains قد غضبوا سنة 219 من الشدة التي كان يجري بها التجنيد، فاعتقلوا القائمين عليه، وكانوا على أبواب الثورة. أما المال فكان ضريبة منتظمة لا شك، وكان مقدارها يحدد مسبقا لكل قبيلة، وكان الرؤساء المسؤولون عن المقادير المفروضة هم الذين يجمعونها، كما كانت الضرائب أداءات فوق العادة يطالب بها القادة حسب هواهم. ولقد كانت هذه التكاليف العسكرية والمالية تثقل كثيرا كاهل الأهالي الذين كانوا لا يطيقون زيادة على ذلك كبرياء وقسوة القرطاجيين.

فنرى إذن أن قرطاجة، إذا كانت قد ملكت إمبراطورية مكونة من مستعمرات بحرية متناثرة ومن بعض الولايات التي يسكنها الرعايا، فإنها لم تقم بتنظيمها. فقد مكثت أجنبية عن سكانها الذين كانوا يختلفون عنها جدا، والذين لم يكونوا يحبونها. كما لم تعمل هي لتكون محبوبة. وكان يمكن أن تدوم مدة أطول لو أنها أنشأت في إفريقيا الشمالية أمة بونيقية بالرجال الذين كان بمستطاع هذه المنطقة أن تقدمهم لها، وبالحضارة التي كان بمستطاعها هي أن تهبها لهم أو تفرضها عليهم. وهي مهمة تجعلها بنية البلاد صعبة على مدينة نائية

بإحدى زوايا الرباعي المكون لأرض البربر، ولكنها مهمة لم تحاول قرطاجة القيام بها. أما الرومانيون فقد نشروا من موسّطة إيطاليا سيادتهم على شعوب كانت لها بهم أواصر كبيرة. وقد اعتمد الرومانيون على عدة مستعمرات عسكرية، وتركوا للمغلوبين الأمل في أن يصبحوا قريبا أو بعيدا مساوين لهم. فلما سيطروا على الهضبة، صاروا من القوة بحيث يصدون هجمات حنيبَعْل، ثم يخضعون عالم البحر الأبيض المتوسط. أما المنطقة التي ضمتها إليها قرطاجة في تونس الحالية، فقد كانت ضيقة جدا، ولم تنشئ فيها مستعمرات تقوي بها فتوحها وتنشر عاداتها، وإنما استعبدت الأهالي عوض أن تقربهم منها. ولم تعرف كيف تجد لنفسها بالأرض الإفريقية الوسائل الضرورية لتلعب الدور الذي تزعمه لنفسها في الغرب، ولتستمر في المعارك التي زجت بها أطماعها فيها.

4

يمكن أن نستنتج من المعلومات السابقة أن قرطاجة لم تكن تفرض على نفسها نفقات كبيرة لإدارة إمبراطوريتها. وفي العاصمة نفسها لا يظهر أن الولاة كانوا يتقاضون أجرة، بينما جرايات الموظفين الصغار لم تكن تشكل سوى تحملات خفيفة. ولربما أن النفقات الاعتيادية المرتفعة جدا، كانت هي التي تتطلبها الشؤون الدينية. أما النفقات الخارجة على العادة فقد توزعت على عدة قرون، لإنشاء الموانئ الداخلية وملحقاتها، ولبناء الأسوار وعدة بنايات رسمية، وعلى الخصوص المعابد الفخمة. ولابد أن مقادير ضخمة من المال قد رصدت لإنشاء المستعمرات بساحل البحر الأبيض المتوسط وساحل المحيط. لكن

الجيوش البرية والبحرية هي التي كانت تتطلب الأموال الكثيرة. كما أن استخدام المرتزقة كان يضاعف من نفقات الحرب، لأن تعهد جيش من 10.000 جندي وأسطول من 50 سفينة في القرنين الرابع والثالث، كان يتطلب تقريبا مليونا من عملتنا في كل شهر، عدا نفقات تسليح الجنود وشراء الخيول وأدوات الحصار وبناء سفن جديدة وغير ذلك [51]. وحين تنتهي هذه الحروب نهايات سيئة، فإن قرطاجة تكون ملزمة بأداء تعويضات تتفاوت في قيمتها، بحيث إنها بعد اندحارها في معركة هيميرا Himère سنة 480 أدت 2000 من التالَنْثات Talents الفضية لإغريق صقلية، ولما اندحر حيملْكون سنة 396 أمام سرِقوسَة، حصل من دونيس القديم على الإذن بالفرار مقابل 300 تالان كانت معه بمعسكره، وفي سنة 307 حصل الإغريق الذين كان أگاتوكْليس قد تركهم بإفريقيا على 300 تالان ليضعوا السلاح، كما أن أگاتكليس طالب في السنة الموالية بنفس القدر ليوافق على الصلح، وفي نهاية الحرب البونيقية الأولى، سنة 241، فرضت رومة أن يؤدى فورا 1000 تالان أو بوْيقي euboïques من الفضة ثم 2200 تالان أخرى تؤدى على عشر سنين [52]. وفي سنة 237 زيد على هذا القدر 1200 تالان، وحددت مدة الأداء بعشرين سنة (ابتداء من 241). وفي أحد بنود المعاهدة التي انهت الحرب البونيقية الثانية سنة201 أرغم القرطاجيون على أداء 10.000 تالان أو بويقية مقسّطة على خمسين سنة أقساطا متساوية. ولما دحرهم مسِّنيسّا سنة 150 حاولوا الصلح وعرضوا 1000 تالان فضية، منها 200 تؤدى حالا، لكن بعد أن ساءت حالهم جدا تعهدوا بأداء 5000 على خمسين سنة.

لكي تواجه هذه النفقات، كانت قرطاجة تقوم بجباية رعاياها، وربما حتى المستعمرات الفينيقية القديمة والبونيقية. وقد سبق لنا القول

بأن المزارعين في ليبيا وصقلية وسردانية كانوا يؤدون قسما من محاصيلهم. وكانت هذه الضرائب تقع الزيادة فيها وتصير فادحة عندما تكون الجمهورية في احتياج كبير. وحسب تيتْ ليفْ Tite-Live (الذي ينقل عن پوليبْ Polybe لا شك)، بلغت الضائقة المالية سنة 196 ق.م حدا أظهر لزوم إشراك الخواص في الأداء، غير أن التدابير التي اتخذها حنيبعل – وهو آنذاك شوفيط – أبعدت هذه المخاوف. فيظهر إذن أن المواطنين كانوا معفيين من الضرائب في الأوقات العادية، لا حينما تيأس الدولة من الحصول على المال من جهة أخرى. فقد طالبت المواطنين بالأداء قبل ذلك ببضع سنين، أي سنة 201، حين لزمها بعد إبرام الصلح أن تؤدي القسط الأول من التعويض الذي فرضه الرومانيون. ولربما أن تكاليف خاصة كانت تقع على الأغنياء، مثل بناء سفينة وتسليحها عند قيام حرب. وليس هذا سوى مجرد افتراض، بحيث يمكن الاعتقاد من جهة أخرى بأن الأرستقراطية المسيّرة لم تكن تستسلم عن طواعية للتضحيات الكبيرة.

أما الرسوم الجمركية التي يشير إليها تيتْ ليفْ إشارة غير واضحة، فكانت تؤدى في المدن البحرية وفي أماكن أخرى على البضائع المستجلبة والمصدرة. ولا ندري هل خصت الدولة نفسها باحتكارات أم لا، وهل كانت في إفريقيا وسَرْدانية تستغل بعض المناجم، أو تفرض الضرائب على المستغلين. لكن المتأكد هو أن الدولة خصت نفسها في أسبانيا بقسم من المناجم الغنية بالفضة الواقعة في الجهة التي فتحها البركيون، كما استمدت منها موارد ضخمة تعهدت بها جيوشها. ولابد أن المناجم المجاورة لقرطجَنّة Carthagène قد كانت ملكا للشعب القرطاجي قبل أن تؤول إلى ملك الشعب الروماني الذي كانت تدر عليه

25.000 دراخْماً يوميا كما يقول پوليبْ Polybe. أما المناجم المعروفة باسم بايبلو Baebelo فكانت تدر على حنيبعل 300 لبرة وزنا كل يوم [53].

وهناك رقم دقيق آخر يتعلق بالمداخيل التي كانت قرطاجة حول بداية القرن الثاني تستمدها من لبْتيس Leptis الكبرى الواقعة بين السدرتين، بحيث إن هذه المداخيل ارتفعت إلى تالان واحد يوميا. وهو قدر من المال ضخم جدا بالنسبة لمدينة واحدة - كما سبق أن ذكرنا - حتى ولو كان التالان المؤدى أقل قيمة من التالان الأوبْويقي. ومع ذلك يظهر أن لا لزوم لرفض المعلومة التي أوردها تيتْ ليفْ رفضا باتا. إذ الواقع أنه يسوغ التساؤل هل لم تكن لبتيس فيما يخص الإدارة المالية عاصمة لمنطقة شاسعة تمتد حول سَدْرة الصغرى وبين السدْرتَين، وتشمل أيضا الموانئ التي كانت قرطاجة تملكها في خليج سدْرَة الكبرى حتى أضرحة فيلين Philène حيث تنتهي سيادتها. فالتالان اليومي يمثل مجموع مداخيل هذه المنطقة التي يبدو أنها تركزت في لِبْتيس.

وزيادة على الضرائب المباشرة التي كانت تجبى عينا في الأرياف ونقدا في المدن، كان الجمارك يساهم مساهمة حسنة في السواحل التي كان يتردد عليها دون شك السفن التجارية المتعاملة مع إغريق سرنيكا (برقة)، والتي كانت تنتهي إليها الطرق التجارية الرابطة بين داخل إفريقيا والبحر الأبيض المتوسط.

ويضاف للموارد العادية الأموال التي كانت الخزينة العامة تتلقاها عقب بعض الأحكام وكذلك الفوائد الحربية. فكثيرون هم القادة غير الأكفاء أو الذين خانهم الحظ في الحرب، وحكم عليهم بغرامة مالية ضخمة. بحيث إن أحدهم وهو حنّون قد فرض عليه إبان الحرب البونيقية الأولى أداء 6000 قطعة ذهبية. والأحكام بالموت أو النفي كانت

تصحبها المصادرات. وهكذا استولت الدولة على ثروات ضخمة، من بينها ثروة حنيبعل. وكذلك فإن قسما من الغنائم التي غنمها البركيون في إسبانيا قد بعثه هؤلاء إلى قرطاجة ودفع إلى الصناديق العمومية. ولنذكر أيضا التعويض الحربي الذي فرض أداؤه حول سنة 376 على دونيس القديم Denys l'Ancien، وقد بلغ 1000 تالان، وكذلك العقاب المالي الثقيل الذي فرض في أواسط القرن الثالث على بعض الأهالي الأفارقة الذين حملوا السلاح.

والمعتقد هو أن قرطاجة كانت تريد إراحة نفسها من متاعب الإدارة المعقدة، فاستعملت لذلك سبيلا مزدوجا، هو جباية الضرائب عن طريق بيعها، والتعامل مع المؤسسات المقاولة للقيام بالخدمات العامة. ولابد أن النبلاء لم يهملوا هذا المصدر للأرباح العظيمة. إذ لا شك أن المتاجرين في الضرائب والمقاولين كانوا يتفاهمون مع الولاة على حساب الدولة ودافعي الضرائب. وهكذا كانت الخزينة تحرم من قسم كبير من مداخيلها وتتحمل زيادات كبيرة في النفقات. وقد رأينا من قبل أن حنيبعل حين كان "شوفيطاً" قد أصلح المالية بوضع حد لهذه الأعمال الإجرامية.

وبالرغم عن هذه المفاسد التي ترجع لاشك إلى عهد بعيد، فإن موارد قرطاجة كانت عظيمة، وفي أوقات السلام كانت تقوم بعمليات الادِّخار. وهكذا استطاعت في نهاية القرن السادس وبداية الرابع أن تقوم في عهد سيطرة الماگونيين بسلسلة من الحروب، أغلبها كانت له نهاية حسنة، وأن تعاود بعد استراحة طويلة الحرب في صقلية بكل قوة ابتداء من سنة 409. ويدل العدد الكبير من الحلي الذي عثر عليه في مدافن القرن السادس أن المعادن الثمينة كانت آنذاك توجد بكثرة في العاصمة الإفريقية. ويقول أحد السِّرَقوسِيّين على لسان توسديد Thucydide في

سنة 415 «إن القرطاجيين يملكون الكثير من الذهب والفضة اللازمين للحرب ولكل شيء آخر». وكان قسم من هذا الذهب، الذي يحتمل أنه جمع في إفريقيا الوسطى، ينقل إليهم بواسطة السفن التي كانت تسير بمحاذاة سواحل المحيط، وربما حتى بواسطة القوافل التي كانت تخترق الصحراء. أما الفضة فكانوا يقتنونها على الخصوص من تجارتهم مع الأسبانيين. ومع ذلك فقد ظهرت عليهم علامات التعب أكثر من مرة أثناء الحروب التي خاضوها طوال القرن الرابع ضد إغريق صقلية. فقد كانت هذه الحروب باهضة التكاليف. وإذا طالت فإنها تستهلك المدخرات، والذهب والفضة لا يدخلان خزائن الدولة بالقدر الكبير الكافي لأداء النفقات. وقد مرت قرطاجة في هذا العهد وفي القرن الموالي بأزمات مالية، يظهر أن جفاف مواردها كان فيها أقل سببا من النقصان في قيم المبادلات التي كانت متوفرة عليها.

ولا شك أن قلة المعادن الثمينة هي التي دفعت إلى إحداث العملة المتعارف عليها. ونقرأ في الإيركْسِياس Eryxias، وهو حوار عزي خطأً إلى أفلاطون وكتب في القرن الرابع أو الثالث على الأصح : «أن القرطاجيين يستعملون عملة إليكَ طبيعتها : في قطعة صغيرة من الجلد، يغلفون شيئا له حجم ستاتير واحد (54). أما عن الشيء المغلف، فذلك مالا يعرفه إلا العاملون بهذه الصناعة. ويوضع طابع على قطعة الجلد، ويتداول هذا كالعملة. والذي يملك أكبر عدد من هذه الأشياء يعتبر أن له مالا كثيرا، وكأنه الأشد ثروة. لكن أياً ما كان العدد الذي يملكه من ذلك أحد الرجال عندنا، فإنه لن يكون أغنى مما لو كان يملك مثله من الحصا». إن الشيء المغلف في هذا النوع من الغشاء كان لا شك من مادة قليلة القيمة، كان خليطا معدنيا احتفظ بسره منعا للتزوير. أما

الطابع المدموغ فكان يخول التعامل القانوني للقطعة التي هي نوع من الأوراق البنكية، ويبين على ما يحتمل أيضا القيمة التي أعطيت لها.

لكن هذه العملة الورقية لم يكن بالمستطاع استعمالها إلا في قرطاجة وفي المدن أو البلاد الخاضعة لسيطرتها. وكان لابد من العملة الحقيقية للمرتزقة وللأجانب الذين كان على الجمهورية أن تؤدي لهم الأداءات. وأثناء الحرب الأولى ضد رومة احتاجت للمال، إلى حد أن طلبت دون جدوى من بطلِمي فيلَدِلْف Ptolémée Philadelphe ملك مصر أن يقرضها 2000 تالان. وفي نهاية هذه الحرب لم تستطع أن تؤدي فورا لمرتزقتها المتأخر من جراياتهم، الأمر الذي أحدث ثورة عنيفة.

وكانت فتوح عملْكار بَرْكا ومن خلفه بالهضبة الإيبيرية، والاستغلال النشيط جدا لمناجم الفضة بهذه المنطقة، قد درت على القرطاجيين كثيرا من المال، بحيث إنهم لم يتحملوا النفقات العسكرية الضخمة فحسب، بل استطاعوا أن يضعوا مقادير ضخمة في الاحتياطي. وفي سنة 216 حين وصلت أنباء الانتصار في كنس Cannes، قرر مجلس الشيوخ أن يبعث 1000 تالان إلى حنيبعل، وجد منها سيبْيون 600 تالان في المدخرات التي كونها البركيون في قرطجَنّة.

فقدت قرطاجة إسبانيا، وأنهكت موارد ممتلكاتها الإفريقية فترددت في ضائقة عميقة عند نهاية الحرب البونيقية الثانية، وصعب عليها جمع 200 تالان كان الرومانيون يفرضون أداءها فورا. وفي السنوات التي تلت كانت تتخبط في مصاعب كبرى، زاد من حدتها الاختلاسات التي قمعها حنيبعل بشدة. ومع ذلك، فنظرا لأنها لم يعد لها جيش ولا أسطول تنفق عليهما، استطاعت بالموارد التي بقيت لها أن تعيد التوازن المالي

بسرعة، بل وأن تكون لها بعض الفائض. وفي سنة 191 أي بعد عقد الصلح بعشر سنين، يظهر أنها عرضت على الرومانيين أن تصفي ذمتها كلية من جميع ما كانت لا تزال به مدينة لهم، عوض أن تستمر في أداء أقساط سنوية لهم من 200 تالان. فإذا كان هذا الخبر صحيحا، وإذا كانت قرطاجة من جهة أخرى في سنة 196، أي عندما كان حنيبعل "شوفيطاً"، مثقلة بالديون إلى الحد الذي يقال، فلابد من الاستنتاج بأنها في مدة خمس سنين قد ادخرت 8000 تالان، وذلك مع قيامها بالنفقات ومع أدائها لروما 200 تالان سنويا. وهذا بعيد عن الاحتمال[55]. وعلى كل حال، ففي أواسط القرن الثاني، وعلى أبواب الحرب التي اضمحلت فيها، كان وضعها المالي مزدهرا، بحيث أن پوليبْ Polybe يقول – مع مبالغة – إنها كانت تعتبر أغنى مدينة في العالم.

5

بالرغم عن الأهمية التي كانت للتجارة القرطاجية، فإن قرطاجة قد تأخرت كثيرا في ضرب العملة عن الإغريق، بل تأخرت حتى عن أمها صُور والمستعمرات الفينيقية بصقلية. ولا شك أن المعادن الثمينة التي كانت تستعمل في المبادلات قد كانت تروج على شكل سبائك مختلفة الوزن. كما أن القرطاجيين استعملوا، علاوة على ذلك ودون شك، العملات الأجنبية، إذ أن الإغريق سكوا العملة بكل مكان منذ القرن السادس.

وأول العملات البونيقية يرجع تاريخها لنهاية القرن الخامس، وكانت قد ضربت في صقلية. وكان ذلك على ما يحتمل لأداء أجور المرتزقة الذين عملوا في جيش قرطاجة أثناء الحروب التي خاضتها في هذه الجزيرة منذ 409. ولربما أيضا لتسهيل العلاقات التجارية في وقت السلام مع المدن

الإغريقية. ونقرأ على بعض القطع منها الكتابات الفينيقية الآتية : مهنت Mahanat، أو عمّ مهنتْ Am mahanat، أو عَمْ هامَـهنَتْ Am hamahanat أو شَعم هامهنتْ Sham hamahanat، التي معناها على ما يظهر : (المعسكر) (شعب المعسكر) (لشعب المعسكر). وبهذا يمكن أن تكون ضربت لتستعملها الجيوش. ومن ناحية أخرى، فإن مقاييس هذه العملة وأنماطها تدل على أن القطع قصدَ بها أن تروج مع عُملة إغريق صقلية. إذ على غرار هؤلاء استخدم القرطاجيون النظام الأتيكي، بحيث إن القطع الفضية هي من فئة أربعة دراخْماً Tétradrachmes بعيار حسن جدا. أما الرسوم فأسلوبها رشيق وإغريقي محض، وعلى ما يبدو فإنها من صنع فنانين إغريق. والرسوم الأكثر ورودا هي رأس امرأة بشبه بِرْسِفون Perséphone المتوّجة بالسنابل، أو الشبيهة بِأَرِيثوس Aréthuse المتوّجة بالقصب كما في عملة سِرَقوسَة، وعلى قطع أخرى رأس هيرَكْليس المغطّى بجلد الأسد، وهذه تقليد لقطع الإسكندر التي هي من أربعة دراخماً. وتظهر على ظهر القطع النخلة وحدها أو مصحوبة بالفرس، وتارة يصحبها الأسد. الأمر الذي يذكر بالفينيقيين، وإن كان لا يعرف هذا سوى الذين يعرفون الإسم الإغريقي لهذه الشجرة (فوينكس). ولا تتضح أصول هذه العملة التي نتحدث عنها إلا بالكتابات الفينيقية التي تحملها (ومن بينها اسم قرطاجة)، وإن كانت هذه الكتابات مفقودة في الغالب. وتضم المجموعة قطعا من الفضة، وأخرى من البرنز، ولو أن هذه غير كثيرة العدد. وقد استمر صنعها على الأقل نحوا من مائة سنة، إلى ما يقارب نهاية القرن الرابع أو بداية الثالث.

ونظرا لطراز العملة المضروبة في قرطاجة نفسها، فإن أقدمها يمكن التأريخ له تقريبا بموسطة القرن الرابع. وتوجد قطع ذهبية وفضية ذات قطر كبير، عليها كتابة : بورْصَتْ Borsat التي أراد البعض أن يرى

فيها صيغة لاسم بيرسا Byrsa كما كتب الإغريق، ومعلوم أن دار الضرب كانت تقع على تل الأكْرُبول. والنقود المسكوكة استعمل فيها النظام الفينيقي، الذي اتخذه كذلك بطلِمي سوتير Ptolémée Sotêr، ثم اتخذته جزيرة رودِس كما طبقته مرسيليا وسِرَقوسة. أما الأمثلة فاستمرت إغريقية، مع شيء من عدم الإتقان الفني إذا قورنت بالعملة المصنوعة في صقلية. ولربما أن النقاشين كانوا قرطاجيين. لأن الأفراس التي نقشوها أعطوها الشكل الثقيل الثخين الذي للأفراس الإفريقية. ويظهر في الغالب على وجه القِطَع رأس المرأة المنقول عن عملة سِرَقوسَة. ويصعب القول هل هذه العملة كانت في قرطاجة تعرف على وجهها بِرْسِفون Perséphone التي أدخلت عبادتها لهذه المدينة مع عبادة ديمتير Déméter في بداية القرن الرابع، أو كانوا يطلقون عليها اسم أكبر آلهة بونيقية، أي التي تسميها آلاف النقوش باسم تانيتْ بيني بَعْل Tanit Pené Baal. أما ظهر القطعة فغالبا ما يبدو عليه الفرس في أوضاع مختلفة. (وتارة يكون لهذا الحيوان أجنحة على غرار الفرس بيگاس Pégase). أما صورة النخلة المعبرة، فتكررها أقل مما في عملة صقلية، ثم إنها قلما تظهر وحدها. وتشير بعض النصوص المتعلقة بالقرن الثالث إلى وجود قطع ذهبية. ولا شك أنها قد ضربت منذ البداية، وكذلك الشأن في قطع البرنز. ولم تظهر العملة الفضية على ما يحتمل إلا فيما بعد. ولربما كان ذلك في عهد البركيين، أي عندما كان القرطاجيون يستغلون مناجم أسبانيا.

ويظهر أن سك الذهب كان من اختصاص دار الضرب بالعاصمة. وعلى النقيض من ذلك، لا يستبعد أن تكون بعض القطع البرنزية قد صنعت في سَرْدانية. ولا يشك مطلقا في أن داراً مهمة لضرب الفضة قد وجدت بقرطجنة Carthagène، لأن هذا المعدن يوجد بكثرة في أسبانيا،

حيث البركيون كانوا يحتاجون لنقود كثيرة. فلابد أنهم لم يتوقفوا عن تحويل هذا المعدن إلى عملة في عين المكان. ولكن، هل اكتفى عَملْكار ومن خلفه بتقليد النماذج المستعملة في قرطاجة، برأس الآلهة على الوجه وبالفرس على ظهر القطعة ؟ أو أنهم اتخذوا زيادة على ذلك نماذج خاصة ؟ فقد عثر بجنوب الهضبة وشرقها على عملات من فضة جيدة، تنتمي للنظام الفينيقي. ويظهر على وجهها رأس بدون لحية وله إكليل أحيانا، أو رأس بلحية وبإكليل. كما يظهر على ظهر القطعة فرس ونخلة، أو فيل إفريقي. ولا يشك في قرابة هذه القطع مع الحملة البونيقية. والقطع ذات الفيل يكون فيها الرأس المكلل، الذي هو هنا ذو لحية، وهناك غير ملْتح، مصحوبا بدبّوس. فهي تمثل هيركْليس، أو على الأصح تمثل الإله الفينيقي ملْقارْت الذي هو هيركْليس عند الإغريق. ونظن أن بمستطاعنا قبول نفس البيان عن عملات أخرى من المجموعة. وفي غير هذا، فإن الرأس غير الملتحي يبدو وكأنه صورة لشخص. ولكن لا يجب تأكيد هذا بكثير من الإطمئنان، لأن الأداء سيء جدا، وإذا لم تكن التقاسيم مثالية، فلربما لأن يد النقاش قد خانت مقاصده. وقد عزا مولّر Müller وغيره هذه القطع إلى بعض الملوك النوميديين مثل مسنِّيسّا ومِسبْسا ويوغرْطة. غير أن هذه العملة لا يعثر عليها بإفريقيا. فالمحتمل جدا هو أنها ضربت بأسبانيا حيث يعثر عليها اليوم، وعلى يد البركيين، كما يدافع عن ذلك زوبل دُ سنْگرُنيگْ Zobel de Zangronig. فملْقارْت، من معبده الشهير الذي أسس قبل ذلك بعدة قرون بجزيرة قادس، كان يحمي الفينيقيين بأسبانيا، وكان الفاتحون القرطاجيون يكنّون له أكبر الاحترام، بحيث نعلم أن حنيبعل قبل الشروع في حملته على إيطاليا جاء ليقدم إليه الخضوع باحتفال كبير.

وقد اتضح سقوط قرطاجة في عملتها، إذ أن طريقة الصنع بدا عليها الإهمال شيئا فشيئا وصارت ثخيئة، وقبل الحروب البونيقية كانت القطع الذهبية من عيار جيد، ثم أصبح هذا المعدن يخلط بنسبة من الفضة تتزايد دائما. وكان هذا تزييفا حقيقيا، لأن القطع ذات العيار الناقص كانت شبيهة تماما في المقاييس بالقطع الذهبية الخالصة، لأنهم كانوا يخضعونها لعملية تمحو الفضة من سطحها. وكذلك الشأن في قطع الفضة التي كانت من نوع جيد أول الأمر، ثم زيفت بدورها، إذ أضيف النحاس والرصاص إلى المعدن الثمين. وبعد حرب حنيبعل، حين قدم القرطاجيون الدفعة السنوية الأولى من القدر الواجب للرومانيين، أعلن المتصرفون الماليون - كما يقول تيتْ ليڤْ Tite-Live - أن الفضة لم تكن خالصة، وقد أكد أحد الاختبارات أنها حقيقة كانت تشتمل على خليط بمقدار الربع، بل كان من الممكن أن يؤدى لرومة Rome أسوأ من ذلك، لأن علماء المسكوكات لاحظوا أن قرطاجة في القرن الثاني ضربت عملة كان فيها من الرصاص والنحاس أكثر مما بها من الفضة.

الكتاب الثاني

حكومة قرطاجة

الفصل الثالث

جيوش قرطاجة

1

في أوقات السلام، كانت قرطاجة تحافظ على بعض الجيوش في ممتلكاتها بإفريقيا وفيما وراء البحر، وذلك حفظا للأمن ولمواجهة أي هجوم قد يهددها فجأة. ولم تكن تحشد الجيوش الحقيقية إلا عندما تكون مقبلة على حرب ستخوضها، ثم كانت تسرح هذه الجيوش في نهاية الحرب. وكانت تود لو أن هذه الحروب الباهضة النفقات، تكون مدتها قصيرة. لذلك كانت تقبل دون كبير عناء إنهاءها باندحار، حين لا يواتيها الحظ. هكذا كانت حروبها ضد إغريق صقلية. ولا ننسى أنها كانت لا تعرّض مطلقا سلامة قرطاجة للخطر، بحيث كان الأمر يتعلق بمعرفة ما ستربحه إمبراطوريتها الاستعمارية أو ما ستخسره، وفي حالة الخسارة يبقى الانتقام أمرا ممكنا في مستقبل قريب أو بعيد.

أما حين قدم آكاتوكْليس Agathoclès ليحارب عدوته في إفريقيا، فإنها فهمت أن واجبها يقضي بأن لا تتفاوض معه إلا بعد إخفاق هذه

العملية الجريئة. لذلك استمرت شاهرة سلاحها عدة سنين. أما الحرب التي خاضتها ضد رومة فكانت طويلة جدا (من 264 أو 263 إلى 201 ق.م). وكان الاستيلاء النهائي لسيدة إيطاليا على صقلية خطرا على القرطاجيين لا يماثله اشتداد قوة سِرَقوسَة. وقد تباطأوا في الاعتراف باندحارهم. والحقيقة هي أن هذه الحرب لم تكن لهم، ولا للرومانيين، توترا مستمرا لجميع قواتهم، إذ غالبا ما كان الخصوم يعيون فيخلدون للهدوء.

وتطلبت فتوحات البركيين في إسبانيا جيوشا عديدة لمدة عشرين سنة، كما تطلبت وسائل الإنفاق عليها. ثم اندلعت الحرب الثانية ضد الرومانيين، ولم تنته إلا بعد سبع عشرة سنة بذلت فيها الجمهوريتان معا جهودا متساوية. وكان لقرطاجة جيوش دائمة مدة ست وثلاثين سنة (من 237 إلى 202). ومن بين المعلومات المتعلقة بعدد هذه الجيوش، يوجد ما نستطيع الاطمئنان إليه. فهي تمكننا من تقدير قيمة الأخبار الواصلة إلينا عن حقب أخرى، كانت الجهود العسكرية للقرطاجيين فيها أقل ضخامة بالتأكيد.

نجد في دِيودور Diodore سلسلة من الأرقام المتعلقة بالحملات التي أجريت ضد إغريق صقلية، وفي عدة مناسبات يذكر الاختلافات الواقعة بين إيفور Ephore وتيمي Timée، المؤرخَيْن الذين استقى منهما. على أن أعداد تيمي أقل بكثير من أعداد إيفور، ومع ذلك تظهر أعداد تيمي عالية جدا. فالإغريق لم تكن لديهم معلومات دقيقة، لذلك كانوا أَمْيل إلى المبالغة في أعداد أعدائهم كما يحدث دائما. ونلاحظ بصفة عامة أن الأعداد المرتفعة جدا تذكر عن الحروب التي جرت في عهود بالغة في القدم. وهي التي يجهلها الناس كثيرا دون شك. أما الحروب القريبة من عهد تيمي (نهاية القرن الرابع أو بداية الثالث) فهذا المؤرخ لا يبعد في

شأنها عن الصواب كثيرا، وإليك الأعداد : في 480 كانوا 300.000 رجل، وفي 409 ما يزيد قليلا عن 100.000 حسب تيمي، أو 200.000 من المشاة و4000 فارس حسب إيفور. وفي 406 ما يزيد قليلا على 120.000 رجل (فيهم الفرسان) حسب تيمي و300.000 عن إيفور. وفي 397 كانوا 100.000 رجل قدموا من إفريقيا و30.000 جندوا من صقلية حسب تيمي، بينما يجعلهم إيفور 300.000 من المشاة و4000 فارس. وفي 392 كانوا 80.000 رجل. أما سنة 383 في معركة كبالا Cabala فإن 10.000 جندي قرطاجي يكونون قد قتلوا كما أسر منهم 5000 رجل بينما استطاع الفرار قسم كبير من الجيش. وحوالي 345 عبر إلى صقلية 50.000 من المشاة، كما أن 50.000 حسب ديودور أو 60.000 حسب بلوتارك Plutarque قد ذهبوا إلى سِرَقوسَة بعد ذلك بزمن قليل (يحتمل أن الأمر يتعلق بنفس الجيوش). وفي 339 تكون بمدينة ليليبي Lilybée جيش من 70.000 رجل، به 10.000 فرس تشمل حتى أفراس الجر والحمل. وقدم تيموليون Timoléon يقود ضد هذا الجيش 11.000 جندي حسب إيفور أو 6000 حسب تيمي، فقتل منه 12500 رجل أو 10.000، كما أسر15.000 أسير، ولا جدوى في مناقشة هذه الأعداد. وفي 311 كان عملكار على أرس 40.000 من المشاة وما يقارب 5000 فارس. وفي سنة 309 هجم على سرقوسة مع 120.000 من المشاة و5000 فارس، ولنلاحظ أن الحكومة القرطاجية طلبت منه، قبل ذلك بقليل، أن يبعث إليها بالجيوش لمواجهة أگاتُكليس، وكان الخطر المحدق بوطنه شديدا إلى حد أن عملكار بعث بجميع القوات التي أمكنه التخلي عنها دون أن يجازف بتعريض نفسه للخطر. لكنه لم يرسل سوى 5000 رجل. أما آگاتكليس فقد وقف في وجهه جيش من 40.000 من المشاة و1000 فارس و2000 من العربات، وقد تكوّن هذا الجيش على عجل بقرطاجة نفسها. وفي سنة

307 خاض المعركة ثلاثة جيوش ضد الإغريق في ليبيا. وحسب ديودور كان عدد جنودها جميعا 30.000 رجل. وهو عدد يمكن أن يكون صحيحا. وفي 278 وقف أمام سرقوسة 50.000 رجل على ما قيل.

وكذلك فإن بعض الأرقام التي ذكرت بمناسبة الحرب الأولى ضد رومة، مشكوك فيها مثل أكثر الأعداد التي سبق ذكرها. فحنّون زحف سنة 261 على أكْريجَنت Agrigente حسب رواية فيلنوس Philinos (الذي كان من المدينة) بجيش قوامه 50.000 من المشاة و6000 فارس، وخسر في معركتين 3000 راجل و200 فارس، وأسر له الرومانيون 4000 أسير. غير أن پوليبْ Polybe يناقض فيلنوس بوضوح، إذ يؤكد أن معظم الجيش البونيقي قضي عليه. أما أوروز Orose (نقلا عن تيتْ ليڤْ) فيعزو لحنّون هذا، 30.000 راجل و1500 فارس. وكان القنصل ريگُلوس Régulus قد انتصر في إحدى المعارك بإفريقيا، ويقال إنه قتل 17.000 أو 18.000 من الأعداء، وأسر 5000 رجل. وهي أرقام مبالغ فيها لا شك، وكذلك حول ما يزعم من أن القرطاجيين خسروا 9000 رجل في إحدى المعارك الإفريقية سنة 254. وخلال ذلك وقع القضاء النهائي تقريبا على جيش ريگلوس، وكان الذي قضى عليه جيش ماگون من 12.000 من المشاة و4000 فارس. إن پوليبْ Polybe هو الذي روى هذا الخبر الذي يمكن قبوله. وفي 250 خاض حسدربعل المعركة أمام بالِرْم ومعه أكثر من 30.000 رجل، قتل من بينهم 20.000 على ما قيل. وكانت مدينة ليليبي محاصرة منذ نفس السنة، ودافع عنها أول الأمر نحو من 10.000 رجل انضم إليهم بعض الوقت 10.000 آخرون لمحاولة فك الحصار عن المدينة. وفي نهاية الحرب لم يكن بصقلية أكثر من 20.000 جندي هم حاميات ليليبي ودْريبان Drépane وجيش عملكار بَرْكا.

أثناء ثورة المرتزقة التي حدثت سنة 240 أو سنة 239، خرج عملكار من قرطاجة وخاض الحرب ومعه 10.000 من المشاة والفرسان. وكان آنذاك جيش آخر يقوده حنّون يخوض المعركة. ولابد أن عدده لم يكن أكثر من سابقه.

وحسب دِيودور، فإن حسدُرْبَعل، صهر عَمِلْكار، كان معه في أسبانيا أول الأمر (سنة 228) 50.000 راجل و6000 فارس، ثم 60.000 راجل و8000 فارس، ولا يعقل مطلقا أن يكون حنيبعل زحف على ساگونت Sagonte بجيش من 150.000 رجل سنة 219. فماذا كان يفعل بكل هذا الحشد ضد مدينة صغيرة يحميها موقعها ومتانة أسوارها على الخصوص.

ولربما إن فترة ما بين الحرب البونيقية الأولى والثانية هو العهد الذي أقيمت فيه الأسوار التي صانت قرطاجة من جهة البرزخ الرابط بين المدينة واليابسة. وقد كانت تشتمل على منازل يسكنها 20.000 من المشاة و4000 فارس.

وفي شتاء 219-218 أخذ حنيبعل التدابير اللازمة للحرب التي كان سيخوضها، فبعث إلى إفريقيا 13.850 من المشاة و1200 فارس من الأسبان. كما بعث 870 من أهل الباليار، أي إن جميع من عبر إلى إفريقيا كان 15.920 رجل. ومعظم هذه الجيوش ذهب إلى المدن الميتاگونية، والآخرون إلى قرطاجة. وترك حنيبعل لأخيه حسدربعل الذي كان سيبقى بأسبانيا 11.850 من المشاة الأفارقة، و2550 من الفرسان الأفارقة أيضا، كما ترك له 300 من الليغوريين Ligures و500 من أهل الباليار، أي ترك له 15.200 رجل. ويحدثنا پوليبْ Polybe أنه استقى هذه المعلومات من نقش وضعه حنيبعل بنفسه في معبد يونون اللّيسينية Junon Lacinienne قرب كروتون Crotone.

وحسب المؤرخ الإغريقي فإن حنيبعل، عندما غادر قرطجنة إلى إيطاليا في ربيع سنة 218، قد صحب معه نحو 90.000 من المشاة و12.000من الخيالة. وترك لمساعدة حنون، بين نهر الإيبر وجبال البريني 10.000 راجل و1000 فارس، وسرح نفس العدد من الرجال، وعبر جبال البريني مع بقية جيوشه التي يذكر پوليبْ Polybe أن عددها كان 50.000 راجل و9000 فارس. إذن فلابد من استنتاج أنه قد فقد 21.000 رجل في حملته بشمال نهر الإيبر. ويؤكد نفس الكاتب أن حنيبعل بعد عبوره لنهر الرُّون Rhône كان معه 34.000 راجل و8000 فارس، فيكون قد فقد نحو 13.0000 جندي منذ دخوله لبلاد الغال. ولكن لا يظهر أنه خاض معارك حقيقية بين جبال البريني ونهر الرون.

لقد نقل پوليبْ Polybe عن نقش معبد يونون اللَّسينية Junon Lacinienne الأعداد التي ذكرها حنيبعل لقواته عندما وصل إلى إيطاليا، وهي 20.000 راجل و6000 فارس. ولا مسوغ للاعتقاد بأن حنيبعل قد زيف الحقيقة. لذلك لابد من إطراح الأعداد الأخرى التي لقيها تيتْ ليڤْ عند بعض الكتاب، والتي يقول عنها إن أعلاها يبلغ 100.000 راجل و20.000 فارس. وإذا قبلنا مع پوليبْ Polybe أن الجيش كان يبلغ 46.000 رجل بعد عبور نهر الرون، يكون 20.000 منهم قد فقدوا بين النهر وإيطاليا. ومع أن الخسائر كانت كبيرة – دون شك – أثناء عبور جبال الألب، فإن العدد المذكور يبدو مبالغا فيه، وكذلك أعداد الخسائر التي حدثت لحنيبعل بين نهر الإيبَرْ والبِريني، وبين هذه الجبال ونهر الرُّون. والنتيجة هي أن الأعداد الواردة في النقش، هي وحدها التي تستحق الثقة. ولربما أن الجيش الذي عبر نهر الإيبر ولم يكن يبلغ 60.000 رجل.

وبين هذا النهر وأعمدة هرقل، كان يوجد آنذاك ما يزيد بقليل عن 15.000 جندي. وبإفريقيا نعد قرابة 16.000 من الأسبان وأهل الباليار، و4000 مجند من المدن الميتاكونية. ويقال لنا أن معظم الأسبانيين كانوا ينزلون بهذه المدن، مع أن قرطاجة كانت مهددة بهجوم روماني كان يتهيأ في مدينة ليليبي. وعلى هذا فبضعة الآلاف من الرجال الذين بعثهم لها حنيبعل من أسبانيا أو من سواحل المغرب والجزائر، لم تكن تكفي لضمان سلامتها وسلامة منطقتها. فيحسن إذن افتراض أنها قامت من جانبها بعملية للتجنيد، ولا طائل في محاولة لتحديد العدد بدقة. والخلاصة هي أن بداية هذه الحرب التي أخذت من التاريخ حيزا كبيرا، كان بها مجموع الجنود التي حشدتها الجمهورية الإفريقية لا يتعدى بكثير 100.000 رجل، لابد أن يطرح منهم عدد كبير من الأسبان (11.000 حسب پوليبْ Polybe)، الذين سرحهم حنيبعل ليعودوا لمنازلهم قبل دخوله لبلاد الغال.

وقد قوى جيشه الكلْتيون les Celtes من أهل بلاد الغال القريبة Cisalpine. بحيث كان في تريبْيا Trébie نحو من 40.000 رجل منهم، بينهم 11.000 فارس. وفي كنس Cannes ما يزيد بقليل عن 40.000 راجل و10.000 فارس. ويمكن للأعداد المذكورة عن هاتين المعركتين أن تكون صحيحة، إذ لابد أن تكون مستقاة عن القيادة البونيقية العامة التي كان بها مؤرخان إغريقيان هما سِلينوس Silénos وسوسيلوس Sosylos اللذان رجع إليهما پوليبْ Polybe.

وبعد انتصار كنس Cannes بعث مجلس الشيوخ إلى حنيبعل بالخيالة النوميديين. وكانوا الجيش الوحيد الذي وصله من إفريقيا، ولم يصله الغاليون، ولكن كثيرا من الإيطاليين جعلوا أنفسهم تحت إمرته،

ويستحيل أن نعرف كم كان معه من الجنود أثناء الثلاثة عشر عاما التي قضاها من بعد في إيطاليا بين 216 إلى 203. فلقد رأى أن عدد هذه الجيوش يتناقص شيئا فشيئا. ولربما أنه صحب معه إلى إفريقيا ما بين 15.000 إلى 20.000.

لقد قلنا أن حسدربعل كان على رأس 15.200 رجل في الهضبة الإيبيرية في ربيع 218، وفي هذه السنة حارب الرومانيين ومعه 8000 راجل و1000 فارس. لكن قيل إنه سنة 217 فقد 19.000 جندي في معركتين ضد الكِلْتِبِيرِيّين Celtibères (منهم 15.000 قتيل و4000 أسير). وهذا لا يقبل حتى ولو كان في الأشهر المتقدمة قد جند الأسبانيين. وفي 216 وصلته من إفريقيا نجدات من 4000 راجل و1000 فارس، وبعد ذلك بقليل وصلت جيوش إفريقية أخرى إلى الهضبة، ولكن لم يذكر أحد عددها. ولما اندحر حسدربعل على نهر الإيبر، ذهب أخوه ماگون إلى أسبانيا مع 12.000 راجل و1500 فارس. وذهب جيش له نفس العدد تقريبا ليحارب الرومانيين في نفس الحقبة بسَرْدانية، حيث تم القضاء عليه. وفي 213 نزل بصقلية 25.000 من المشاة و3000 فارس قضى عليهم المرض أمام سِرَقوسة في صيف سنة 212. وبعد الاستيلاء على هذه المدينة، بعثت قرطاجة سنة 211 إلى الجزيرة جيشا من 8000 راجل و3000 فارس.

ونجهل عدد جنود القوات البونيقية في إسبانيا ما بين 215 إلى 208. والأرقام التي أوردها الأخباريون الرومانيون بهذا الصدد بينة الخطأ. ولقد وقعت عمليات للتجنيد بهذه الأرض، كما قدمت إليها الجيوش من إفريقيا. وفي سنة 208 خاض ب. سيبْيون P. Scipion معركة كبيرة ضد حسدربعل البرْكي. وحسب پوليبْ Polybe، فإن الرومانيين المنتصرين

أسروا أكثر من 12.000 أسير. فإذا صح هذا الرقم فلابد أن يكون الجيش البونيقي كثير العدد، لأن أخا حنيبعل استطاع الفرار مع قسم من جيشه. وكانت جيوش أخرى موجودة بأسبانيا في نفس الحقبة.

أما حسدربعل الذي اقتحم إيطاليا في السنة الموالية، فيكون حسب أپْيان Appien دخلها مع 48.000 راجل و8000 فارس. وفي معركة نهر ميطور Métaure التي خسرها ومات فيها، فإن 56.000 من جنوده قد قتلوا، كما أن 5400 قد أسروا تبعا لرواية تيتْ ليڤْ غير أن پوليبْ Polybe يذكر 10.000 قتيل فحسب. ويضيف أن جيش حسدربعل كله قد قضي عليه تقريبا. غير أنه هو يخبرنا بأن الرومانيين بعد انتصارهم قتلوا كثيرا من الأعداء الذين لم يشاركوا مطلقا في العملية الحربية، كما أسروا الكثير منهم. وفوق هذا يحتمل أن بعض الغاليين فروا. وعلى هذا يمكن أن نقبل كون هذا الجيش، إذا لم يبلغ الأرقام التي ذكرها له أپْيان Appien وتيتْ ليڤْ Tite-Live فإنه يفوق 12.000 أو 15.000 رجل، كما يرى ذلك بعض المؤرخين المحدثين.

إن آخر الجيوش القرطاجية الكبرى التي حاربت في أسبانيا، هي الجيش الذي اندحر في إيليا Ilipa سنة 206، وكان حسب پوليبْ Polybe مكونا من 80.000 راجل و4000 فارس. ويشير تيت ليف إلى أنه وجد عند أحد الكتاب عددا أقل بالنسبة للمشاة وهو 50.000 رجل. ويزعمون أن ماگون قدم سنة 205 من أسبانيا عن طريق الباليار، ونزل في ليغوريا Ligurie ومعه 12.000 راجل ونحو من 2000 فارس، كما وصله 6000 راجل و800 فارس بعثت بهم قرطاجة إليه.

على أن قرطاجة كانت تجمع آنذاك بإفريقيا كل الرجال الذين أمكنها العثور عليهم لتواجه بهم هجوم سيبْيون الوشيك. وفي 204 كان

تحت إمرة حسدربَعْل ابن جِسْكون جيش قوي يتكون حسب پوليبْ Polybe من 30.000 راجل و3000 فارس. ويقال إن سيفَكْس حليف القرطاجيين قدم ومعه 60.000 رجل. ولما تخرب المعسكران النوميدي والبونيقي، لم يستطع حسدربعل وسيفكس أن يوقفا على الجبهة سوى 30.000 رجل في معركة السهول الكبرى في صيف سنة 203.

ويحتمل أن يكون حنيبعل قاد - كما ذكر أپْيان Appien - نحوا من 50.000 رجل في معركة زاما Zama (الجمة)، تقريبا نفس العدد الذي قاده في معركة كنس Cannes. ولربما أن نفس العدد وقع الوصول إليه في معركة إيليا. فهل حشدت قرطاجة جيوشا أضخم من هذه قبل الحرب البونيقية الثانية ؟ نشك في ذلك.

يقال إن القائد حسدربعل وقف سنة 150 في وجه مسِّنيسّا بجيش من 58.000 رجل. ويؤكد أبيان أنهم قضي عليهم جميعا، لكن حسدربعل كان بعد ذلك بزمن قليل يهيمن على الأرياف بجيش قوامه 20.000 جندي. وفي 147 كان 30.000 رجل يدافعون عن قرطاجة المحاصرة، كما أن جيشا آخر كان يوجد بنفريس Nephéris في معسكر استولى عليه 4000 من الرومانيين. ويقال إن سيبْيون الإيميلي أسر 10.000 أسير، وأن 70.000 رجل، فيهم غير المحاربين، قد لاقوا حتفهم/ وأن نحوا من 4000 رجل قد فروا. فالمعسكر إذن كان يضم 48.000 رجل، وهو عدد مبالغ فيه ولا شك.

2

في المعارك الأولى التي خاضتها قرطاجة، لابد أن معظم جيوشها كان متكونا من المواطنين. وحوالي منتصف القرن السادس، كان الأمر

كذلك أيضا، بحيث إن الجيوش التي عاد بها ملْكوس Malchus من سردانية، واستخدمها للقيام بعملية الانقلاب كانت على ما يحتمل من القرطاجيين.

بعد ملْكوس Malchus بدأت سلسلة الحروب التي دفع إليها ماكون وقادها هو، ثم أبناؤه وحفدته من بعد. لكن مدينة واحدة، مهما بلغت كثافة سكانها، لم يكن بمستطاعها أن تقدم الجيوش الضرورية لسياسة هذه الفتوح، دون أن تنهك نفسها. كان يستحيل انتزاع المواطنين من عائلاتهم ومهنهم ومصالحهم لتعريض حياتهم أو للتضحية بها في حملات متتابعة وبعيدة. ويكون معنى ذلك تخريب التجارة والصناعة اللتين يقال إنهما تنموان بفتح أسواق جديدة لهما. ولربما أن الماگونيين فكروا أيضا أن سيطرتهم تكون مضمونة أكثر، إذا كانت لديهم جيوش لا تعنيها الخلافات بين الأحزاب، وإذا فقد الشعب ميله إلى السلاح وعادة استعماله.

فاتجهت قرطاجة إذن إلى استعمال المرتزقة وقد ذكروا لأول مرة سنة 480 بمناسبة الحملة الكبرى على صقلية التي قادها أحد أبناء ماكون. وسوغ الاعتقاد بأن هذه الطريقة في التجنيد قد دشنت، أو على الأقل وقع تعميمها، على يد ماكون نفسه، الذي (رتب النظام العسكري) كما يقول جستان. وفي القرن الخامس تمكنت الجمهورية باستيلائها على منطقة ترابية في ليبيا من تجنيد العديد من الرجال من بين الأهالي، كما أن أحلافها جعلتها تحصل على المساعدين.

ومع ذلك لم يختف المواطنون من الجيوش، وحتى من الحروب فيما وراء البحر. وبغض النظر هنا على الضباط، فإننا نجد القرطاجيين بين الجيوش التي حاربت بصقلية في 480 و409، و405-406، وفي 396-397، وكذلك في 383. ويذكر ديودور في عدة مناسبات أن عددهم كان كثيرا.

فالجيش الذي اندحر سنة 339 على يد تيموليون Timoléon كان به منهم 10.000 على رواية بلوتارك. ويقول أرسطو : في قرطاجة اعتاد الناس أن يحملوا من الحلقات بقدر ما خاضوا من المعارك. وذلك برهان على أن المواطنين كانوا معتزين بجهودهم العسكرية.

ولا ندري كيف كانوا يؤخذون للجيش. وكل ما نستطيع قوله، هو أن الكثير منهم لم يكونوا من الطبقة الدنيا من الناس. فلم يكونوا يتخلون عن بعض عادات الرفاهية، وكانت لهم أسلحة صنعت بإتقان فني ولا شك أنها كانت مِلكاً لهم، وكذلك بعض الأشياء الثمينة التي من بينها أقداح من ذهب وفضة. وقد امتدح أرسطو أحد القوانين القرطاجية الذي يمنع على الجيش شرب الخمر. ولا شك أنه كان يجهل أن هذا القانون كان لا يطبق. وفي سنة 339 كان 2500 شاب من الأغنياء وذوي الأصول الرفيعة يكونون فيلق النخبة، (الفيلق المقدس)، وأبدوا بطولتهم في معركة كريمِسوس Crimisos حيث ماتوا جميعا، فبلغ التأثر بقرطاجة مبلغا عظيما، وتقررت صيانة هذا الدم العزيز. وبعد هذه الكارثة كانت الجيوش التي عبرت إلى صقلية تتكون من المرتزقة. وفي سنة 311، أي بعد نحو من ثلاثين سنة جند المواطنون أيضا للقيام بإحدى الحملات في صقلية. وكانوا 2000 فحسب، فيهم كثير من النبلاء، على أن أكثرهم ماتوا بسبب هيجان البحر قبل أن يصلوا إلى الجزيرة. فتقرر الحداد العام، ولعل هذه الكارثة الجديدة ساهمت في تنحية المواطنين عن جيوش ما وراء البحر.

ولا تذكر النصوص وجود المواطنين بالجيش في صقلية أثناء الحرب الأولى ضد رومة، ولا في أسبانيا أثناء فتوحات البركيين، كما يظهر أنهم لم يرسلوا إلى أوربا إبان حرب حنيبعل.

يقول پوليبْ Polybe «إن القرطاجيين يهملون المشاة تماما، ولا يعتنون مطلقا بالخيالة، وسبب هذا التهاون هو أنهم يستخدمون الجنود الأجانب والمرتزقة». وكانوا أيضا يعتبرونهم أناسا تنقصهم جدا الخبرة بالشؤون العسكرية، كما أن جرأتهم قليلة.

ومع ذلك كان لابد من استخدامهم عندما يكون الوطن مباشرة مهددا بهجوم من قبل العدو أو الثوار. فلعدم خبرتهم، ولكونهم غير متعودين على مشاق الحرب، فإنهم على العموم يكونون جنودا رديئين.

لقد رأينا عندما علم خبر نزول آگاتُكْليس سنة 310، أن جيشا قويا من 45.000 رجل كما قيل قد تكوّن بالمدينة نفسها. وكاد يكون جميعه من المشاة. ويتحدث ديودور عن "فيلق مقدس" ربما كان قليل العدد، ولكنه في المعركة التي خاضها ضد الإغريق أبدى الشجاعة أول الأمر، ثم لم يرض بالتخلي إلا بعد فقدان كل أمل. ولا شك أن هذا الفيلق قد وقع تجنيده من أرفع الأسر كما حدث سنة 339. وأثناء المعارك التي تلت واجهت الجيوش البونيقية، إما جيوش آگاتكليس، وإما الأفارقة الذين تولوا عن قرطاجة.

وكذلك، فإن الجمهورية جندت المواطنين حول أواسط القرن الثالث، لمقاومة الهجوم الروماني الذي كان يقوده ريگُلوس Régulus، ثم لإخماد ثورة المرتزقة وبعض الأهالي.

كما أن عمليات للتجنيد جرت بقرطاجة سنة 205 وفي السنوات الموالية، أي قبل وبعد عبور سيبْيون إلى إفريقيا. ويظهر أن النبلاء كانوا يعملون في الخيالة على الخصوص، وأنهم كانوا مالكين لخيولهم. وقد فر القرطاجيون على عجل في معركة السهول الكبرى. ولربما أن حنيبعل

قصد منعهم من معاودة الفرار، لذلك جعلهم في معركة زاما في الخط الثاني مع الرعايا الأفارقة، خلف المرتزقة وأمام قدماء جنوده الذين حاربوا في إيطاليا.

ولم يكن سنة 150 سوى 400 فارس بونيقي في الجيش الكبير الذي قاده حسدرُبَعل ضد مسِّنيسّا. ونجهل هل وقع آنذاك تجنيد للمشاة من سكان المدينة. وسنتحدث عن بطولة القرطاجيين في دفاعهم مدة ثلاث سنين، من 149 إلى 146، عن مدينتهم التي أمرتهم رومة بإخلائها.

ولا نكاد نعرف شيئًا عن أسلحة المواطنين. فأما الذين شاركوا في معركة كرِيمِسوس Crimisos فكانوا محاربين ذوي سلاح ثقيل. يحملون خوذات من البرنز، ودروعا من حديد، وتروسا بيضاء دائرية الشكل، لها حجم كبير، وبأيديهم الرماح والسيوف. ولم يصلنا شيء عن شكل السيوف، ولعلها كانت سيوفا قصيرة شبيهة بالتي كانت مستعملة بأوربا في القرنيَن السابع والسادس. وعلى غرار الرومانيين والأسبانيين، يبدو أن القرطاجيين حافظوا على هذا السيف، ليس فحسب في عهد حروبهم ضد الإغريق، بل ولما بعد ذلك من الزمن أيضا.

في أوقات الحرب ضد رومة كان المواطنون المجندون يحاربون عادة حرب الصفوف، فيكونون إذن مزودين بشكات كاملة Armures. أما مصانع الأسلحة بالمدينة، فكانت متوفرة على جميع ما يمكنها من تقديم العتاد الكافي لتسليح عدة آلاف من الرجال على عجل. وكان الرومانيون قد تسلموا جميع ما كانت تشتمل عليه مصانع الأسلحة. ومن بين ما تم صنعه بسرعة سنة 149، ذكرت السيوف والرماح والتروس الطويلة. وإذا صح هذا الخبر الأخير، يكون القرطاجيون قد تخلوا عن الترس

المستدير، واتخذوا الترس المستطيل الشكل على غرار الذي كان لبعض الإيبيريين، والذي كان يستعمله الغاليون والرومانيون وإيطاليون آخرون. ويظهر على أحد الأنصاب الحجرية بقرطاجة صورة أحد هذه التروس، وله شكل السكوتوم Scutum الروماني(56)، وبجانبه صورة لأحد الأسلحة الهجومية، وهو عبارة عن مزراق، أو على الأصح حربة، أي إحدى هذه الحراب القصيرة التي يقول بلوتارك إن القرطاجيين كانوا يمسكونها في أيديهم. ويضيف بلوتارك أنهم لم يكونوا يستعملون المزاريق مطلقا، وأنهم كانوا يحاربون عن قرب. ومع ذلك فلا يستحيل أن يكون عدد منهم شكلوا جيوشا خفيفة مزودة بالأسلحة المقذوفة. فلصد هجوم، أو لإيقاف المهاجمين على بعد، كانت هذه الأسلحة ضرورية لمن يقفون فوق الأسوار. وقد تم صنع عدد كبير من المزاريق سنة 149. وكثيرا ما يعثر في تراب المدينة القديمة على خراطيش المقاليع، وهي بيضوية الشكل ومن طين مشوي. بحيث إن أكثر من 20.000 منها كانت مختلطة بكرات حجرية. ويرجع تاريخها بالتأكيد إلى العهد البونيقي. وكانت مودعة في خزين مجاور للميناء المستدير، على بعد قليل من مكان السور المساير للساحل البحري. ولا شك أن الخزين قد كونه آخر المدافعين عن المدينة.

ويمكن أن نضيف للقرطاجيين جنود المستعمرات البحرية التي تكونت على يد الفينيقيين المشارقة أو على يد قرطاجة. وقد سبق أن ذكرنا النصوص القليلة التي تشير إلى عمليات لتجنيد الجيوش بهذه المدن.

بغض النظر عن المواطنين، فإن الجيوش كانت تشمل :

أولاً : الرعايا من الأهالي المولودين بمناطق التراب الذي تملكه قرطاجة في إفريقيا وأسبانيا، وربما في سردانية أيضا. وكانت الخدمة العسكرية مفروضة عليهم، كأداء الضرائب.

ثانياً : المساعدين، ويقدمهم الشعوب والأمراء، وهم حلفاء رسميون، وإن كان جلهم من الأتباع في الواقع. ومن بين هؤلاء الحلفاء من كانت الجمهورية تدمج جموع مقاتليهم في الجيوش، بينما كان غيرهم يحاربون بجانب القرطاجيين مع محافظتهم على استقلالهم، مثل سيفَكْس في نهاية القرن الثالث. لكن هذا التمييز هو مما يصعب جعله مستمرا. فهل كان دائما كامل الوضوح ؟ إن قرطاجة، مع إلحاحها على أن تطاع، ربما كان من مصلحتها أن لا تظهر بمظهر الآمر، وبمستطاعها إما أن تعطي الجراية للمساعدين مباشرة، وإما أن تترك ذلك لرؤسائهم الذين تعطيهم الإعانات المالية.

ثالثاً : المرتزقة المرتبطين بعقدة عمل تنتهي بنهاية الحرب التي انخرطوا من أجلها خصوصا. وكانت قرطاجة تأخذهم من كل مناطق البحر الأبيض المتوسط الغربي ومن بلاد الإغريق. فتارة كان تجنيدهم يتم على يد قائد يحارب في أرض مجاورة لهم، أو في نفس الأرض التي يؤخذون منها، وأحيانا كان يتم تجنيد الذين كانوا يحاربون. وتارة كان المنتدبون يذهبون إلى الشعوب الأجنبية ويعودون بالرجال الذين حشدوهم. وكان يقوم لهم بدور الوساطة حَشَدة الجنود Racoleurs ورؤساء الجماعات المسخرة Condottières. وكانت هذه العمليات تتطلب

مساعدة السلطات المحلية، أو على الأقل موافقتها. ولابد أن تكون المعاهدات قررتها أو ساعدت عليها. فبعد الحرب البونيقية الأولى منع الرومانيون على قرطاجة تجنيد المرتزقة من المناطق التي كانت خاضعة لهم (أي الهضبة الإيطالية). وبعد الحرب الثانية منعت عليها تجنيدهم من أي بلد كان.

وتميز بعض النصوص بوضوح بين هذه الأنواع الثلاثة من الجنود الذين هم الرعايا والحلفاء والمرتزقة. بينما تَدَعنا نصوص أخرى في غموض. ولقد سبق أن رأينا أن كلمة ليبيين Libyes تعني في الغالب المحكومين الأفارقة (الرعايا)، ولكن يمكن أن تقع على القرطاجيين، وعلى الليبيين الفينيقيين، وعلى النوميديين والموريين. وكان الرعايا يوصفون بأنهم سوماخوي Sùmmachoi، مثلهم في ذلك مثل الحلفاء (أي الأعوان). وكذلك كان اللاتانيون يسمون باسم Auxilia ; Auxiliares المرتزقة والحلفاء. وفوق ذلك، فإن الأنواع الثلاثة لم تكن تختلف فيما بينها إلى الحد الذي يظن. فالرعايا والحلفاء كانوا كالمرتزقة يتقاضون الجراية المالية. ويبدو جيدا أنه كان من بينهم - على الأقل في بعض الحروب - متطوعون في الجيش، كالرعايا الذين سبق أن أدوا واجبهم العسكري، والحلفاء الذين يزيدون على المجموع الرسمي. فقد كان هؤلاء مرتزقة حيقيقيين تقبل قرطاجة خدمتهم، بل وتحث عليها حين تكون بحاجة إلى عدد كبير من الرجال.

وبالتأكيد فإن الجراية لم تكن واحدة للجميع. فالراجل الإغريقي ذو السلاح الثقيل Hoplite لابد أنه كان يتقاضى أجرا أعلى من أجرة الليبي الذي نودي عليه للجندية، أو الليغوري الآتي من جباله الفقيرة. وزيادة على هذا، فليس لدينا أي معلومة دقيقة حول هذا الموضوع.

بعد الحرب الأولى ضد رومة، طالبت الجيوش التي عادت من صقلية، بالمتخلف من جراياتها، وطالبت زيادة على ذلك بأثمان خيولها التي فقدتها، وبثمن القمح الواجب لها، بأعلى سعر بلغه القمح طيلة مدة الخدمة. وعلى هذا فإن قرطاجة كانت قد تعهدت للمرتزقة - وعلى الأقل هم يؤكدون هذا - بتعهدين، منعتها الظروف من تنفيذهما : التعويض عن الخيول للفرسان، وإعطاء القمح بالمجان. ولزوم إعطاء القمح أشار له أيضا ديودور بمناسبة حادثة جرت في نهاية القرن الخامس. وبالطبع فإن الفرس الأول كانت الدولة هي التي تقدمه.

ويظهر أن المرتزقة كانوا يحاربون في الغالب حسب العادات العسكرية المعمول بها في أوطانهم. لذلك فالمحتمل هو أن كثيرا منهم كانوا يأتون من أراضيهم بأسلحة ربما تؤدى لهم قيمتها. ولكن قرطاجة كانت لها مصانع للأسلحة، تصنع بها الأدوات الضرورية لتسليح الجيوش، سواء منها المرتزقة والرعايا أو المواطنين.

4

كثير من النصوص تذكر أن من بين جنود قرطاجة يوجد الليبيون Libyes، وباللاتانية الأفري Afri. ففي سنة 480 كانوا بالجيش الكبير الذي قاده عملكار بصقلية. ولا شك أنهم كانوا من المرتزقة، لأن مستعمرة صُور Tyr آنذاك، لم يكن لها رعايا بعد، يمكنها أن تفرض عليهم بإفريقيا منطقة ترابية أخضعت الأهالي للتجنيد.

كما أن "ليبيين" قد شاركوا في جميع الحروب بصقلية، منذ نهاية القرن الخامس إلى أواسط القرن الثالث. وتوجد معلومات دقيقة تساعد

غالبا على التأكيد بأنهم كانوا رعايا لقرطاجة. بحيث إنهم في سنة 311 كانوا يشكلون جيشا من 10.000 فرد داخل جيش متكون على ما يقال من 40.000 راجل. أمّا الجنود الذين غادروا الجزيرة في نهاية الحرب الأولى ضد رومة، وكان عددهم 20.000 جندي، فمعظمهم كان من الليبيين. ولابد أن يكون الرعايا الأفارقة قد ساهموا بنصيب وافر أيضا في المعارك التي خاضها البركيون بأسبانيا منذ سنة 237.

وكان مع حنّيبَعْل منهم 12.000 في المشاة الذين بلغ عددهم 20.000، أخذهم معه إلى إيطاليا. وترك في أسبانيا 11.850 من المشاة الليبيين تحت إمرة أخيه حسدربعل. ومن المحتمل أن تكون قرطاجة قد جندت من منطقتها معظم جيش المشاة الذين بعثت بهم أثناء الحرب البونيقية الثانية إلى أسبانيا وإلى سردانية وصقلية.

ولاشك أنها استخدمت رعاياها – أي الذين مكثوا على وفائهم لها – في الحروب التي خاضتها بإفريقيا في القرنين الرابع والثالث ضد الأهالي، وضد آگاتكليس وريگُلوس. ثم قامت بعمليات شديدة للتجنيد عندما أصبح لازما عليها أن تدافع عن نفسها ضد سيبْيون في نهاية القرن الثالث. وفي زاما كان الليبيون الذين أضيفوا إلى القرطاجيين، يكونون كما سبق أن قلنا الخط الثاني في جيش حنيبعل.

أما في سنة 150 والسنوات الموالية لها، فإن قرطاجة لم تستطع مواجهة مسِّنيسا والرومانيين إلا بمواطنيها ورعاياها، بحيث إن الجيوش التي دمرها الملك النوميدي بالقرب من أورُسْكبا Oroscopa والتي دمرها سيبْيون قرب نِفِريس Néphéris لابد أنها تقريبا كانت متكونة من الليبيين بالخصوص.

في كل الأزمنة، كان أهل بلاد البربر مقاتلين بارعين. فهم نحيلو الأجسام عصبيو المزاج، سريعو الحركة، قنوعون ويصبرون على المشاق والحرمان، ويحسنون الاستفادة من وضعية الأرض لتهيء المعارك، سواء كانت مكشوفة أو كانت بكمائن في الغالب، ويرتمون في قلب المعركة بنوع من الجنون.

في القرون الأخيرة قبل الميلاد، وبعده أيضا، كان سلاحهم بسيطا على العموم، يتكون من عدة مزاريق ليس لها سيور، ومن خنجر، ومن ترس جلدي صغير - هو ما يسميه الكتاب اللاتانيون باسم كايْترا Caetra - يصلح على الخصوص لإتقاء السهام والأحجار، ولم يكن لهم سيف ولا خوذة ولا درع. وكان هذا النوع من السلاح يمكن أن يكفي في حرب ضد قوم من الباربار، سلاحهم رديئ كهذا، لا عند مواجهة جندي من الهوبليت الإغريق أو من الفيالق الرومانية. أما الأفارقة العاملون في الجيش الخفيف للمشاة، الذين كانوا يتحاشون الاشتباك جسما لجسم، فقد تركت لهم قرطاجة سلاحهم الوطني، بينما الذين كانوا يعملون في جيوش الصف فإنهم كانوا بحاجة إلى أحسن وسائل الهجوم والدفاع. بحيث إن حنيبعل أعطاهم بعد معركة ترازِمان Trasimène أسلحة الأعداء الذين أسروا أو قتلوا. فقد كانت إذن أحسن من أسلحتهم.

وهناك نص واحد يشير بوضوح إلى الفرسان الليبيين، الذين كانوا مع ذلك قليلي العدد، إذ الجنود المنخرطون بالمنطقة البونيقية كانوا تقريبا، جميعا من المشاة.

وكثيرا ما جربت قرطاجة مصابرتهم وشجاعتهم. وكانوا في أيدي حنيبعل العظيم أداة طيّعة لينة. ففي معركة كنس Cannes نفذوا على

هؤلاء إلى صاحب انتصار كنس Cannes. وإن كثرة ذكر هؤلاء الأهالي لتشهد بأهمية الخدمات التي قاموا بها.

كان حنيبعل قد ترك لأخيه بأسبانيا 1800 من المسيليين Massyles، والماسيسيليين Masaesyles والماكويين Maccoiens والموريين، كما ترك له 300 فارس من اللرجتيين Lergètes. فأما المسيليون والماسيسيليون فكانوا أقوى شعبين نوميديين بين المنطقة البونيقية والموريين أهل المغرب الشمالي. ولا نعرف شيئا عن الماكويين، ولا عن اللرجتيين Lergètes الذين التبس أمرهم على تيتْ ليفْ، فجعلهم من الأسبانيين الإيلرجيتيين Ilergètes. بينما هم شعب إفريقي. وقد قدم إلى الهضبة الأسبانية نوميديون آخرون من بعد، فلمدة نحو من ست سنين، كان مسِّنيسا ابن گايا Gaïa يقود بها عدة آلاف من رجاله، كما أن آخرين منهم عبروا إلى صقلية (وكانوا 3000 سنة 211).

وقد حصلت قرطاجة عليهم عندما كانت تحشد القوات لصد هجوم سيبْيون. كما حصل حنيبعل بعد عودته إلى إفريقيا على 2000 فارس من أمير أهلي يدعى تيخَيُوس Tychaios. غير أن مسّنيسا كان في هذا العهد صديقا للرومانيين، فبفضله كان لسيبْيون في زاما Zama خيالة أكثر عددا مما كان لخصمه، وهذا هو السبب الأهم في انتصاره.

وبعد نصف قرن، أي في سنة 150، حينما كانت قرطاجة من جديد في الحرب ضد مسِّنيسا، ترك الجيش الملكي قائدان نوميديان وانضما إلى العدو مع 6000 فارس. ومثل ذلك فعله سنة 148 شخص يدعى بيثياس Bithyas، الذي والى القرطاجيين مع 800 فارس ليحارب الرومانيين.

كان النوميديون متعودين على الحياة في الهواء الطلق، وعلى الرحلات الطويلة خلال الجبال والوهاد، قادرين على تحمل الجوع والعطش وعدم النوم، وكانوا يحبون الحرب أكثر من أي شيء آخر. كانوا يخوضونها دون أمتعة، وتقريبا من غير تجهيز، ولم يكن بإفريقيا فرسان أفضل منهم. ويركبون دون سروج أفراسا صغيرة هزيلة لا تبعث على الثقة، غير أنها كانت سريعة ثابتة القوائم، طيعة إلى حد أنها تنصاع للقيادة من غير شكيمة ولا زمام، وإنما بقضيب بسيط. وكانت في قناعتها ومصابرتها مثل راكبيها. وقد كان هؤلاء يقودون فرسَيْن أحيانا، بحيث إذا أنهك أحدهما، قفزوا حتى في قلب المعركة على الآخر. وعلى غرار المشاة من الأهالي، لم يكن للفرسان سلاح غير ترس صغير ومستدير من جلد، وبعض الحربات القصيرة وخنجر.

وفي المعركة كانت خطتهم دائما نفس الخطة، التي لم تنسها ذريتهم حتى اليوم. كانوا يرتمون من كل جهة على العدو، ويهجمون راكضين، وهم يصيحون صيحات عنيفة، ويرسلون العديد من القذائف. وكانوا يتفادون المصادمة، بحيث إذا ثبت الآخرون، فإنهم يتفرقون، ويرجعون إلى الخلف ليتسع المجال أمامهم، ثم يعودون بنفس الحماس، وكأنهم زوبعة من نحل تربك الخصم. غير أن فرسانا أو مشاة إذا كانوا متماسكين في صفوف متراصة، وكانوا رابطي الجأش، ويثقون في قيمة أسلحتهم، فإنهم يقاومون هذه الهجمات المتخلخلة. فإذا استهلك النوميديون كل حرابهم فإنهم يبتعدون لابد، سالمين زيادة على ذلك، ويتعذر العثور عليهم. ولكن ويل للجيوش التي تنفتح فيها ثغرة، سواء على يدهم أو على يد غيرهم من المقاتلين! فإنهم يتتبعونهم دون رحمة ويقتلونهم.

إن سرعتهم، والسهولة التي يتحركون بها في كل ميدان، جعلتهم أكثر صلاحية للاستطلاع. لذلك كان القادة يفضلون جعلهم في المقدمة أثناء المسيرات. كانوا يبرزون أمام الرومانيين، ويظهرون أنهم سيهاجمونهم، ثم يفرون، ويعودون ثم يتراجعون. ويجرونهم قليلا قليلا إلى المكان الذي يريد القائد أن يخوض فيه المعركة الحقيقية، وكانوا ينقضون نهارا أو ليلا على الفرق وهي تسير، وعلى الجيوش وهي تستريح، فيتعبونها بالمناوشات، ويقطعون طريق المؤونة والماء والمواصلات، ويباغتون الفصائل العسكرية والجنود المتعزلين - كانوا يكمنون ثم يظهرون فجأة ويربكون من يقعون عليهم بغتة. وينتشرون على بعد، فيقوون ثقة الحلفاء، ولكنهم يخربون وينهبون أرض العدو، وهي مهمة كانوا يؤدونها باندفاع، لأنهم كانوا يستفيدون منها. إن هؤلاء الباربار قد كانوا بالنسبة للقرطاجيين مثلما كان القوزاقيون بالنسبة للروس في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، على حد قول هيرن Heeren [57].

أما الموريون، فيظهر أنهم لم يعطوا لقرطاجة كثيرا من الجنود، رغما عن الأحلاف المبرمة مع بعض أمرائهم، ورغما عن العلاقات التي كانت لهؤلاء الأهالي مع المستعمرات المصطفة على سواحلهم. لقد بعثوا بمجموعات من الجنود إلى صقلية في أواخر القرن الخامس. كما أن فرسانا موريين قليلي العدد، كان حنيبعل قد تركهم بأسبانيا في بداية الحرب البونيقية الثانية. ولربما أن بعض المشاة، من المستطلعين المزودين بالمزاريق، قد يكونون عملوا أيضا في جيش حسدربعل لبركي. وقد كان منهم ومن الفرسان مع حنيبعل في جيوشه بإيطاليا. أما الموريون الذين كانوا تحت قيادته في معركة زاما، فقد كانوا من المرتزقة. ولنلاحظ أيضا ما ذكره فرونتان Frontin عن المساعدين الذين

لهم بشرة سوداء، أي الزنوج لا شك، الذين شاركوا في إحدى الحملات بصقلية في القرن الخامس. لكن يحتمل أن هذا مجرد خرافة.

5

أما الأسبانيون (الإيبيريون) فقد حاربوا بأعداد كبيرة في حروب صقلية ضد الإغريق وضد الرومانيين. وكانوا مرتزقة، لأن النصوص تذكر ذلك بوضوح. وفوق هذا، فيحتمل جدا أن قرطاجة قبل فتوح عَملْكار بَرْكا، لم تكن تملك سوى بعض المستعمرات والمتاجر على ساحل الهضبة.

فلما أصبحت مسيطرة على قسم كبير من أسبانيا، فرضت على محكوميها الجدد الفروض العسكرية التي كانت تشغل كواهل الأهالي بمنطقتها الإفريقية، وطبق عليهم نظام التسجيل في الجيش بشدة، كما استمر أخذ المرتزقة من الشعوب التي مكثت مستقلة، وكان بمستطاعها أن تقدم الجنود الأشداء، خصوصا من الكِلْتيّين Celtes المقيمين بالأراضي العليا لقشتالة.

وقد استفاد البرْكيون Les Barcides عن سعة من المجموعات الاحتياطية الكبيرة من الرجال الذين أراد عَملْكار أن يجعلهم رهن إشارة وطنه، قبل معاودة الحرب ضد الرومانيين. أما حنيبعل، فإنه عند مغادرته قرطجَنّة في ربيع 218، قد أخذ معه أكثر من 30.000 أسباني، غير أن معظمهم لم يعبروا جبال البيرِني، فلما وصل إلى إيطاليا، لم يكن قد بقي معه منهم على وجه التقريب سوى 10.000، من بينهم 8000 راجل. ولابد أن هذه الجيوش كانت متكونة من الرعايا على الخصوص. وكان الجنود الرعايا هم الذين بعث بهم حنيبعل في شتاء 219-218 إلى إفريقيا، عندما

اتخذ التدابير اللازمة لسلامة الإمبراطورية القرطاجية، بحيث كان نقلهم بعيدا عن وطنهم، ضمانا منهم لسلوك الشعوب التي وقع تجنيدهم منها. وكما قلنا، فقد كان عددهم 13.850 راجلا و1200 فارس. وأثناء الحرب جنّد بعض المسجلين Conscrits والمرتزقة ليحاربوا الرومانيين بأسبانيا، أو ليشاركوا في زحف ثان على إيطاليا، ويظهر أن الجيش الصغير الذي عبر به حسدربعل أخو حنيبعل جبال البيرني سنة 208، قد كان متكونا تقريبا من الأسبانيين وحدهم. وحتى بعد أن فقدت قرطاجة جميع ممتلكاتها بالهضبة، فإنها عرفت أيضا كيف تأخذ المرتزقة من هذه المنطقة، بحيث إن سيبْيون وجد في مواجهته سنة 203 بالسهول الكبرى لنهر مجَرْدة جيشا قوامه أكثر من 4000 من الكلتبيريين Céltibères.

وقد كان للأسبانيّين نفس المزايا التي كانت لأجداد البربر من خفة ومصابرة وجرأة. إنهم كانوا يعبرون أشد الأراضي صعوبة بخفة يعجب لها، ويسيرون طويلا دون أن يتعبوا، ويجرون مسرعين دون أن ينبهروا. وكانت لهم، كذريتهم من بعد، براعة في حرب العصابات. والحرب كانت لديهم عبارة عن مناوشات حادة في أغلب الأحيان، يلعب فيها المزارق دورا كبيرا، فهي اندفاع مهتاج ومتخلخل، كما هي تعاقب بين الهجوم والتراجع السريع. ولكن قرطاجة كان لها أيضا في جيوشها إيبيريون يكوّنون مشاة للصف، منظمين عادة وصامدين عند التصادم.

وأثناء حروب صقلية، لفت المرتزقة الأسبان إليهم الأنظار، فقد دخلوا مدينة سِلنونة Sélinonte سنة 409، كما دخلوا إلى هيمرا Himère من ثغرات الأسوار. وفي سنة 405، أمام مدينة جيلا Géla، صدّوا الإغريق الذين توغلوا حتى المعسكر البونيقي. وبعد سنين قليلة، تخلى عنهم حيمِلْكون بكل خسة أمام سرقوسَة، فرفضوا الاستسلام وأشهروا

عريض النصل – مماثل لهذا – في أوربا الغربية والوسطى. وقد تخلى عنه الغاليون عند بداية القرن الثالث، بينما احتفظ به الرومانيون والأسبانيون، وعلى الخصوص منهم الكلتبيريون. لقد كان هؤلاء يجدون بأرضهم مناجم للحديد من نوع جيد، وكانت لهم أساليب ماهرة، يحسنون بها صنع السيوف التي كانت بشبواتها ومرونتها ومتانتها تفي بالمطلوب، فنالت بذلك شهرة كبيرة. وابتداء من حرب حنيبعل تتلمذ عليهم الرومانيون، ولو أنهم لم يستطيعوا معادلتهم، وأطلقوا على السيوف التي كانوا يصنعونها تقليدا للكِلْتِبيريون اسم Gladii Hispanienses : السيوف الأسبانية. على أن سيفا آخر قصيرا ومحدبا كالْياتغان Yatagan كان مستعملا بالهضبة، بجنوبها على الخصوص، في العهد الذي كانت فيه قرطاجة تحشد منها الجنود.

أما الحراب فكانت سلاح الجيوش الخفيفة، التي كانت تحسن استخدامها. ويحتمل أن مشاة الصف كانوا – على غرار جنود الفيالق الرومانية – يطلقون الرماح على العدو قبل تجريد السيوف. ويعرفنا الكتاب القدامى والاكتشافات الأثرية بعدة أنواع من الحراب الإيبيرية. فبعضها له سنان يبلغ طوله نحو 25 سنتمترا يركب على قناة من عود. وبعضها يبلغ طوله 1,80 أو مترين، وكله من معدن، وله سنان مثلث الشكل، ونابان معوجان خلف هذا السنان. ونوع آخر كان عبارة عن قضيب مربع من حديد طوله ثلاث أقدام، ويركب في قناة من خشب. هذه هي الفالاريات Phalariques التي كانت تشبه جدا الپيلا Pila الرومانية، والتي ربما كانت تقليدا لها.

وعلى غرار خيول شمال افريقيا، كانت الخيول الاسبانية صغيرة الأبدان، مكابدة، سريعة وصالحة لجميع الأراضي، وتستجيب جيدا

لسادتها الذين يستعملون الخطم لقيادتها. وكثيرا ما كان الفرسان ينزلون عن ظهرها أثناء المعركة، الأمر الذي يدل لابد على أنهم كانوا مسلحين بصفة تمكنهم من المقاتلة عن قرب.

وجاء ذِكْر أهل الباليار بصقلية في نهاية القرن الخامس. وفي 311، كان عددهم بإحدى الحملات يبلغ الألف، وأخيرا كانوا أثناء الحرب الأولى ضد رومة. كما كانوا مع حنيبعل في جيشه الإيطالي. وقد بعث منهم إلى إفريقيا 870 في شتاء سنة 219-218، كما ترك منهم 500 لأخيه حسدربعل. ولربما أن آخرين منهم وقع تجنيدهم من بعد للمحاربة بأسبانيا. وفي نهاية خريف سنة 206 أخذ منهم ماگون Magon، وهو الأخ الثاني لحنيبعل، 2000 بجزيرة منورْقة. وكان قد بعث بهؤلاء الجنود إلى قرطاجة، فشاركوا بعد أربع سنين في معركة زاما Zama.

لم تمتد السيطرة البونيقية إلى داخل جزر الباليار. وحتى على السواحل فمن المشكوك فيه أن القرطاجيين كانت لهم مستعمرات زاولوا فيها سلطة السيادة. وعلى كل حال فإن ماگون لم يجد في نهاية القرن الثالث أي نقطة للارتكاز في ميورْقة Majorque، حيث منعه الأهالي من الرسو، ولا في منورْقة Minorque حيث لزمه أن يقيم معسكرا محصنا قبل الدخول إلى المدينة المجاورة للميناء الذي اختاره للنزول به من البحر. وعلى هذا، فأهل الباليار الذين عملوا في جيوش قرطاجة لم يكونوا رعايا فُرض عليهم التجنيد، بل كانوا مرتزقة. وقد سمح المؤرخ تيمي Timée لنفسه فقال بأنهم كانوا يصرفون كل جرايتهم المالية في شراء النساء والخمر، إذ لم يكن بمستطاعهم أن يحملوها لبلدهم، لأن إدخال الذهب والفضة إليه كان ممنوعا.

أما المقْلاع – وهو سلاحهم الوطني – فكان على ما يزعم من اختراع الفينيقيين المشارقة، وهم الذين عرفوهم به. وهذان الخبران يجب أن لا يُقالا بكثير من الثقة. كان أهل الجزيرة يحملون ثلاثة مقاليع لها أعنة متفاوتة في الطول، ويستعملونها بالتعاقب حسب مسافة الهدف، وكانوا يحملون مقلاعا واحدا في اليد، ويلفون الاثنين الآخرين على الرأس وعلى الجسم. وكانوا يتدربون على استعمالها منذ الصغر، لذلك اكتسبوا مهارة فائقة يعجب منها الجميع، بحيث إن سواعدهم كانت تنفعل فترمي بأحجار يبلغ وزنها منا Mine (كيلو ونصفه تقريبا)، وتذهب لتكسر الخوذات والدروع والتروس.

ومن المؤكد أن أهل كُرْسيكا Corse الذين انخرطوا في الجيش سنة 480 قد كانوا من المرتزقة لأن قرطاجة لم تكن لها ممتلكات بجزيرتهم. ويمكن أن نعجب من كون السردانيين لم يذكروا سوى مرتين، في 480 وفي 392. فهل كانوا خاضعين للتجنيد بالتسجيل كالليبيين ؟ أم كانوا مرتزقة أُخذوا من المناطق الجبلية، حيث الأهالي يبقون مستقلين، ومُعادين غالبا ؟ إننا نجهل ذلك.

أما في صقلية فقد كان لقرطاجة حلفاء من بين الإيليميّين Les Emyles منذ القرن السادس، وكذلك من بين الشعوب الأخرى من نهاية القرن الموالي وفيما بعد. وقد رأينا أنها في المنطقة التي ضمتها لممتلكاتها بغرب الجزيرة، قد طلبت بمجموعات الجنود إلى السيكانيّين Les Sicanes والأيليميّين.

وشارك الليغوريون les Ligures في حملتَيْ 480 و339 بصقلية وفي الحرب الأولى ضد الرومانيين. ففي سنة 480 كان بجيش عَملْكار جنود

أخذوا من غرب نهر الرُّون وشرقه على السواء. وهيرودوت يذكر الإيليزيين Elisyques وهم شعب كان يسكن منطقة نَرْبونة Narbonne التي وقعت من بعد في يد الغاليين - وكان الليغوريون في جيش حنيبعل بإيطاليا. وترك منهم 300 بأسبانيا. ويزعم تيتْ ليفْ أن حسْدُرُبْعَلْ تسارع إليه منهم 8000 لما دخل وادي نهر الْبِو Pô، وقد حاربوا حسب هذا الكاتب بنهر ميطور، حيث لم يذكر پوليبْ Polybe لهم وجودا. وأخذ منهم ماگون للجيش عددا كبيرا أثناء إقامته التي طالت مدة سنتين بشمال خليج جنِوَة (205-203). ونقلت منهم طائفة إلى إفريقيا، حيث نجدهم في معركة زاما Zama.

كل هؤلاء الرجال كانوا مرتزقة. وقد كان لقرطاجة في عهد حنّيبَعْل على الأقل، معاهدات تحالف مع الشعوب التي ينتمون لها. وكان الرؤساء الأهالي يتكفلون بحشدهم للجيش.

كان الليغوريون يشبهون كثيرا الليبيين والإيبيريين والسردانيين. فقد كانت أجسامهم صغيرة ونحيلة، ولكنهم كانوا خفافا، ومطبوعين جدا بشدة الحياة التي فرضها عليهم فقر أرضهم، فكانوا بذلك (أشداء في الحرب). ولا نعلم كيف كانوا يستخدمون في الجيوش البونيقية، ولربما أنهم كانوا على العموم يشكلون فرقا خفيفة مسلحة بالمزاريق، ومع ذلك فإنهم حاربوا في الصف في معركة زاما.

ويظهر الغاليون لأول مرة حول سنة 340. وقبل ذلك بأكثر من ربع قرن كان دونيس المتأمر Denys le Tyran قد جند المرتزقة من بينهم. أما قرطاجة فقد جندت منهم أثناء الحرب التي خاضتها بصقلية ضد الرومانيين. ففي هذا العهد استخدمت طائفة من أكثر من 3000 مغامر، كانوا قد طردوا من وطنهم بسبب بعض الأعمال السيئة التي ارتكبوها.

وقد بعث بهم إلى [illegible]، وحصل لهم خلاف بشأن أجرتهم، فأحدثوا فتنة وشرعوا في نهب المدينة التي أنقذت بتدخل رئيس إغريقي للمسخرين. وحاول بعد ذلك نحو مائة منهم أن يسلموا موقع إريكس Eryx الحصين، فلما أخفقوا في مشروعهم هذا، انضموا للعدو، الأمر الذي أتاح لهم الاستيلاء على المعبد الشهير، الذي هو معبد أَفْروديتْ إيرِسين Aphrodite Erycine، والذي كان آنذاك في قبضة روما. فلما أبرم الصلح سارعت روما للتخلص من هؤلاء المساعدين العتاة، فجندهم أهل الإيبر Epirotes، فخانوهم بدورهم. وخلال نفس الحرب، فإن غاليين آخرين قرروا على ما قيل أن ينضموا للخصم بسبب إهمال وقع في أداء عدة شهور من جراياتهم. ولما أخبر القائد القرطاجي بذلك هدأهم بأن عرض عليهم مغنما حسنا غير متوقع، إذ دعاهم أن يذهبوا لينهبوا إحدى المدن المجاورة. وفي نفس الحين احتال ليطلع القنصل أوتَسيلْيوس Otacilius على زحفهم. فوقعوا في كمين وتقاتلوا مع الرومانيين ولكن لعل الأفضل عدم التصديق بهذه الحكاية ولما سحبت قرطاجة جيوشها سنة 241 من صقلية، كان لا يزال حسب بوليبْ Polybe نحو 2000 رجل من الطائفة التي جندت قبل ذلك بعشرين سنة تقريبا. وقد نقلوا إلى إفريقيا وشاركوا مشاركة واسعة في ثورة المرتزقة.

كان حنيبعل ينتظر من الكِلْتيين Celtes أهل وادي نهر الْپو Pô أن يضخموا جيشه الصغير، المتكون من 26.000 جندي، الذين دخل بهم أرض إيطاليا. وكان لانتصاره في تيسين Tessin، بل أكثر من ذلك، كان انتصاره في تْريبيا Trébie دافعا للكثيرين منهم أن ينضموا إليه. ففي تْريبيا كان معه نحو 9000 راجل و5000 فارس من الغاليين. وعند مروره بأتْروريا Etrurie كان معه من الجنود على الأقل ضعف العدد الذي كان يصحبه لما نزل من جبال الألْب Alpes، بحيث إن مُشاته كانوا يفوقون

40.000 راجل، أكثر من نصفهم كان من الغاليين. ولابد أن هؤلاء كانوا إما منخرطين عن طواعية في الجيش، وإما أنهم قدمتهم لحنيبعل الشعوب التي أبرم معها معاهدات باسم قرطاجة. ويمكن الافتراض بأن هؤلاء وأولئك كانوا يتقاضون الجراية المالية، ولكن تنقصنا الحجة على ذلك. وقد أخضعهم القائد البرْكي لنفس الطاعة التي كان يلزم بها جنوده الأفارقة والأسبانيين. وكان حفاظه عليهم أقل، بحيث إنه في معركة تْرِيبْيا وبحيرة ترازِمان Trasimène وكنس Cannes قد جعلهم بالمواقف التي كان يتوقع أن يضحي فيها بالكثير من الرجال. وكان الغاليون بالخصوص هم الذين سقطوا صرعى في هذه المعارك. ولم يقم حنيبعل بالتعويض عنهم كما كان يرجو لا شك، لأن الرومانيين قطعوا مواصلاته مع منطقة "الألب القريبة" Cisalpine. ولا شك أن من بقي منهم معه كان قليلا حين أركب أبطاله البحر ليعود بهم إلى إفريقيا، بعد اقتحامه الهضبة الإيطالية بأربع عشرة سنة مضت.

وكان أخوه حسْدُربَعْل في 207-208 قد أخذ الجنود من بلاد الغال قبل وبعد اختراقه لجبال الألب. ولا ندري كم كان معه منهم على نهر ميطور الذي انتهت فيه حملته بكارثة. وكذلك عن ماگون، الابن الثالث لعَمِلْكار، فإنه أيضا أخذ الجنود من بلاد "الألْب القريبة"، وقد عبر البحر بضعة آلاف من هؤلاء المجندين مع الليغوريين، وكانوا جميعا تحت إمرة حنيبعل في زاما.

لم يكن الغاليون يحبون الحرب بالمخاتلة والمناوشات، على طريقة الإيبيريين والأفارقة، بل كان أكثرهم لا يعرفون غير القتال بالحملات العنيفة في صفوف متراصة. ونعلم مقدار جرأتهم، كما نعلم مقدار الذعر الذي غالبا ما سببته لشعوب البحر الأبيض المتوسط هذه الكتل من

الرجال ذوي القامة الطويلة والمظهر المخيف، والذين كانت هجماتهم لا تقاوم على ما يظهر، كان بعضهم يزحفون والنصف العالي من أجسامهم عارٍ، ليظهروا احتقارهم للموت، كما أن الآخرين منهم لم يكونوا يرتدون الدروع. والقليل منهم كانوا يلبسون الخوذات. والوقاية الوحيدة للمشاة الغاليين، كانت هي الترس الذي كان في الغالب بيضوي الشكل من خشب، وله قطعة معدنية تبرز في وسطه، ولم تكن الخيالة تستعمله. ومعلوماتنا ضئيلة حول استعمالهم للرماح والمزاريق التي ذكرتها بعض النصوص، وعثر عليها في بعض المدافن. وكانت العادة هي أن يتقدم المشاة والخيالة إلى الأعداء وفي أيديهم سيوفهم. وهي سلاح ذو رأس غير حاد، يبلغ طول الواحد منها مترا واحدا تقريبا، يهوون بشفرته في ضربات عنيفة. أما الترس فكان ثقيلا. وكان السيف يتطلب بذل مجهود كبير وحركات واسعة، يتعرى لها قسم كبير من البدن، وكانت تحدث جروحا عرضها أكثر من عمقها. ويذكر پوليبْ Polybe في حديثه عن إحدى المعارك التي جرت سنة 225، أن هذا السيف الطويل كان ينثني عند الضربة الأولى، فكان المقاتلون يقومونه بأقدامهم، ليتسنى لهم استعماله من جديد. ويظهر أن هذا ليس صحيحا على العموم، لأن السيوف الكِلْتية Celtiques التي وقع العثور عليها كان جلها من صنع جيد. وأياً ما كان الأمر، فإن الغاليين كانت وقايتهم غير جيدة، وسلاحهم لا يكفي لخوض المعركة ضد جيوش لا يخيفها تدافعهم العنيف، ولا ضد رجال خفاف يستعملون بسرعة السيوف ذات الرؤوس النافذة. وكانت حميتهم سرعان ما تهدأ، فقد انخرقت صفوفهم في تْرِيبْيا، وارتدوا على أعقابهم في غير نظام بكنس Cannes، كما أسروا أو قتلوا في معركة نهر ميطور Métaure.

أما خارج ميدان المعركة، فكانوا من أسوإ الجنود. فقد كانوا يكرهون المسيرات الطويلة المتعبة التي لم يتعودوها، حتى إن حنيبعْل كان يخترق سهولا فيها مستنقعات، فجعل خيالته من خلفهم لتبحث عن المتباطئين ومن أنهكهم التعب، وكانت حرارة صيف الجنوب ترهقهم، ويغالون في شرب الخمر ولا يتحملونها، ويظهرون بمظهر الكبرياء، والصخب وعدم التقيد بالنظام، كما كانوا يسارعون إلى المجادلات والخصام. والذين يحسنون منهم الكلام – إذ لم يكن الكِلْتيون ينقصهم مثل هؤلاء – كانوا يعرفون كيف يهيجونهم أو كيف يعرضون شكاياتهم.

وحسب خبر تلقاه دِيودور، فإن قرطاجة جندت المرتزقة من إيطاليا، (أي من الهضبة الإيطالية) للحملة الكبرى على صقلية سنة 480 كما أن "باربار إيطاليا" قدموا لها جنودا مرتزقة سنة 392.

وفي السنوات الأخيرة من القرن الخامس، كثيرا ما ذكر اسم الكَمْبانيين Campaniens. ولا شك أن المقصود هم القوم الذين يرجع أصلهم لمقاطعة السامنيوم Samnium، فالسَّمّناتيون Samnites شعب محارب سبق أن استولى على كَمْبانْيا، كما استولوا في جنوب الهضبة على لوكانيا Lucanie والبروتيوم Bruttium. وفي عهد الحملة الأثينية، جند إغريق صقلية 800 من المرتزقة الكمبانيين ليحاربوا سِرَقوسَة. ولكنهم وصلوا متأخرين ومكثوا بالجزيرة دون عمل. فضمتهم قرطاجة إلى جيشها حول سنة 410، وأعطتهم جراية مالية حسنة، كما أعطتهم الخيول، وجعلتهم بحامية ساجِسْت Ségeste، المدينة التي انضمت أخيرا إلى قرطاجة، فقاموا بواجبهم حين هاجمها أهل سلِنونة. وبعد قليل صاحبوا القائد حنيبعل لمحاصرة سلنونة. وقد اقتحموا المدينة بعنف من إحدى الثغرات، غير أن الضربات انهالت عليهم من كل جهة فتراجعوا

تاركين منهم الكثير على الأرض. وقد سرحوا بعد الاستيلاء على هيمرا Himère. وكانوا ينتظرون جزاء أحسن، لذلك غضبوا من هذا النكران للجميل، وانضموا يعملون في جيش أَكْرِيجَنْت Agrigente لما هددتها قرطاجة. وقد جندت هذه الأخيرة كمبانيين آخرين من إيطاليا وبعثت بهم إلى إفريقيا، ثم أمام أكريجنت. وعندما لم يستطع حيمِلْكون أن يسلم إليهم القمح الواجب لهم، أحدثوا فتنة وأعلنوا أنهم ذاهبون لموالاة العدو، غير أن المسألة سويت. وحدث العكس، لأن الكمبانيين المحصورين في أكريجنت هم الذين تخلوا عن الإغريق وانضموا إلى القرطاجيين. وقد تمت هذه الصفقة مقابل خمسة عشر تالاناً. فلما انتهت الحرب ترك حيمِلْكون هؤلاء الإيطاليين بحاميات المدن الصقلية التي كانت ملكا لقرطاجة. وفي السنة الموالية (404) كان دونيس السِّرَقوسي Denys de Syracuse في حالة يائسة بسبب ثورة حدثت عليه، فدعاهم لنجدته وعرض عليهم كل ما يطلبون من المال، فتسارع إليه 1200 من الفرسان، ساهموا كثيرا في انتشاله من الوهدة. فجازاهم أحسن جزاء وعجل بإرجاعهم، لخوفه على ما قيل من طبعهم الذي لا يستقر. فتولى الكمبانيون إلى جهة الغرب، وتقدموا بصفتهم أصدقاء إلى مدينة أَنْتيل Entelle. ولكنهم في إحدى الليالي ذبحوا الرجال، أما النساء فقد تزوجوهن، وبذلك أصبحوا سادة للمدينة. وبمثل هذه الطريقة، بعد مرور 116 سنة، استقر مغامرون إيطاليون آخرون بمدينة ميسِّينة Messine. وكانت أَنْتيل جزءا من الولاية القرطاجية، فخضع سكانها الجدد لما ورثوه من الالتزامات حتى إنهم في بداية القرن الخامس، عندما هاجم دونيس المنطقة البونيقية رفضوا المفاهمة معه، بل قاوموه مقاومة شديدة. ومع ذلك فإن كمبانيين آخرين، ولعلهم رفقاؤهم القدامى في السلاح، قد أحسن

المتآمر معاملتهم، وأسكنهم أول الأمر في مدينة كاتان Catane، ثم في مدينة بسفح الإتْنة Etna.

كان القرطاجيون طوال عدة قرون أصدقاء للأتْروريين Etrusques غير أننا لا نعثر إلا على عبارة واحدة واضحة عن المرتزقة المأخوذين من تُسْكانيا Toscane وذلك في سنة 311، أي في العهد الذي كانت فيه الأمة الأترورية قد بلغ بها الضعف مبلغا كبيرا، ولم تعد فيه معاهدات التحالف تربطها مع الجمهورية الإفريقية على ما يحتمل.

كما أن مرتزقة إيطاليين قد ذكروا أيضا بصقلية أثناء الحرب ضد بيرْهوس Pyrrhus، ولا يستحيل أن يكونوا قد جندوا بإذن من رومة التي كانت حليفة آنذاك لقرطاجة. بل إن هذه كان في خدمتها - على ما قيل - بعض الإيطاليين عندما اندلعت الحرب البونيقية الأولى، فعملت على هلاكهم. وقد اتهمت بارتكاب كثير من الجرائم الأخرى التي لم تقترفها.

إن الانتصار الذي ناله حنيبعل في معركة كنس Cannes قد منحه بموسطة إيطاليا وجنوبها أصدقاء، تخلى عنه أكثرهم من بعد، كالسمناتيين Samnites، واللوكانيين Lucaniens والبروتيين Bruttiens وغيرهم. وقد تعهدت هذه الشعوب بمقتضى اتفاقيات أبرمتها مع القائد البرْكي أنها تشارك في الحرب ضد رومة - على غرار الغاليين أهل بلاد الألب القريبة - ولكن من دون أن تتخلى عن استقلالها. بل أظهروا أحيانا استعدادهم للعمل وفق هواهم، لكن حنيبَعْل لم يكن يرى هذا الرأي، لأنه لم يكن يريد شركاء، بل جنودا يطيعون أوامره ويخلصون لمصيره. وقد وجد هؤلاء خصوصا في البروتيين الذين أقام طويلا بين ظهرانيهم، كما صحبه قدماء جيشه الإيطاليون إلى إفريقيا، حيث سقطوا صرعى بضربات جنود سيبْيون.

إن الصراع الطويل الذي خاضه إغريق صقلية ضد قرطاجة، لم يمنعهم جميعا من أن يساعدوا أو أن يبيعوا مساعدتهم لعدوهم الدائم. ففي سنة 480 كانت سِلْنونة الحليف الرسمي لقرطاجة، وواعدت عملكار بفيلق من الخيالة. وبعد ذلك نعثر من حين لآخر بالجيش البونيقي على بعض المرتزقة، ولربما أيضا على الغاضبين والمطرودين والموالين، الذين كانت الحزازات الحربية أو المصلحة تقتل فيهم الشعور الوطني، ولربما أيضا على رجال من أهل المدن الخاضعة للسيطرة القرطاجية. ويقال إن حنيبعل كان معه سنة 409 مساعدون إغريق في حصار سلنونة، وأن آخرين – وكان عددهم قليلاً – قد شاركوا في الدفاع عن مدينة موتْيه Motyé سنة 398، وأن دونيس لما دخل هذه المستعمرة الفينيقية، اعتبرهم خونة وعاقبهم بالصلب.

وعمل المرتزقة الإغريق تحت إمرة ماگون، الذي قدم إلى سِرَقوسة حول 343 ليحارب تيموليون الكورَنْثي. ويحكي عنهم بلوتارْك Plutarque حكاية يمكن الشك في صحتها. يقول : أثناء فترات الهدنة كانوا يقضون أوقات فراغهم في صيد النون بالمستنقعات المجاورة لأسوار المدينة، وكان إغريق آخرون مجندون بالمعسكر المعادي، يعملون نفس العمل. فتجاذبوا أطراف الحديث. ولام جنود تيموليون بلطف جنود ماگون على أنهم يكرون سواعدهم للباربار كي يستعبدوا مدينة إغريقية. ووصلت هذه الأحاديث إلى أسماع القائد القرطاجي، فأقلقته إلى حد أنه خشي الخيانة فركب البحر عائدا على عجل. ونفس الكاتب ينبئنا في مكان آخر أن القرطاجيين الذين دحرهم تيموليون سنة 339 في معركة كْريمِسوس قد جندوا مرتزقة من الإغريق. وأضاف قائلا : «حتى ذلك الحين، لم يسبق أنهم أخذوا الإغريق لخدمتهم، ولكنهم أعجبوا بهم أخيرا على أنهم

لا يُقهرون، وعلى أنهم أشد مقاتلي العالم مهارة». وإذا كان لابد من التوفيق بين هاتين الفقرتين الواردتين عند بلوتارك، فيمكن الافتراض بأن الثانية منهما تعني المرتزقة المأخوذين من بلاد الإغريق نفسها، حيث كان يسهل تجنيد فرق جاهزة مكونة من أفراد مسلحين جيدا ومتعودين على المهنة العسكرية. أما الإغريق الذين ذكروا في عهد سابق، فكانوا على ما يبدو من أهل صقلية. ويذكر دِيودور أيضا القرار الذي وقع اتخاذه بعد معركة كريمِسوس بتجنيد الإغريق، فيروي أن عددا كبيرا منهم أتوا، وقد اجتذبهم الوعد بجرايات مالية عالية. كما أن آگاتُكْلِيس المتآمر على سِرَقوسَة وجد بعد ذلك بثلاثين سنة بإفريقيا أمامه جنودا من الإغريق، بل وجد أيضا بضع مئات من السِّرَقوسيّين في معركة خاضها ضد جيش قرطاجي، وكان من بينهم فيلق للخيالة.

وقد حافظ لنا پوليبْ Polybe على اسم أحد الآخيين Achéens الذي كان رئيسا للمسخرين، وهو ألِكْسون Alexon. وقد انخرط في خدمة قرطاجة أثناء الحرب البونيقية الأولى. وكان حول 262 في أگْريجَنت، حيث استطاع أن يخمد فتنة قام بها الغاليون. كما كان بعد نحو اثنتي عشرة سنة في مدينة ليليبي Lilybée، حيث كشف القائد حيملكون عن إحدى المؤامرات، واستخدم نفوذه لدى المرتزقة ليمنعهم من الميل مع الخونة. والمعتقد أنه لم يأت وحده من المشرق، وأن الإغريق الذين كانوا من جملة حامية ليليبي قد حاربوا لاشك تحت قيادته، وفي سنة 255 عاد أحد المنتدبين إلى قرطاجة بالجيوش التي ذهب لتجنيدها من بلاد الإغريق، وكذلك كْسانْتيب Xanthippe اللّسديموني. وسنتحدث عن دور هذا الرئيس الشهير في المعركة ضد ريگُلوس Régulus.

في نفس الحقبة تلفت قرطاجة ضمن جنودها عددا كبيرا من الناس الذين أطلق عليهم پوليبْ Polybe اسم أنصاف الإغريق، والذين كان جلهم من قدماء العبيد، أو من الآبقين، وهم رعاع صقلية وبلاد الإغريق الكبرى (جنوب إيطاليا). وقد دفع أحدهم المرتزقة إلى الثورة ونصب نفسه عليهم قائدا، وهو سبانْديوس Spendios الكَمْباني، الذي كان على استعداد لعمل أي شيء، وكان قويا كأنه مصارع، وله مهارة في الكلام كما أنه عنيف.

وكما نرى فإن شعوبا كثيرة قد ساهمت في تكوين الجيش القرطاجي. وكثيرا ما أكد القدماء والمحدثون على هذا الاختلاط في الأجناس، وعلى هذه البلبلة في الألسنة، وهما أمران كانا يفرضان وجود التراجمة في جيوش الجمهورية. ومع ذلك فلا يجب أن ننسى أن جيوشا أخرى في العهود العتيقة كانت مكوّنة من عناصر متباينة جدا. ومن غير أن نصعد إلى عهد خرْشيش Xerxès، يكفي أن نذكّر بما كان عليه جنود السلوقيّين Sélekeides، وحتى في الغرب فإن المتآمرين على سرِقوسة حاربوا قرطاجة برجال من أصول مختلفة جدا.

وفوق هذا فإن الاختلاف بين الأمم كان يتمثل بصفة غير متعادلة في الجيوش البونيقية. فاستخدام الإغريق يظهر أنه جرى على نطاق ضيق، ويحتمل أن القرطاجيين لم يكونوا يودون كثيرا استخدام هؤلاء الرجال المعتدّين جدا بحضارتهم، والذين كانوا يحبون أن يتقاضوا أجورا واسعة. كما لا يبدو أن الإيطاليين كانوا كثيري العدد، باستثناء الذين انضموا إلى حنيبعل ليعملوا تحت إمرته في إيطاليا، وكذلك الغاليون. وفيما عدا المواطنين فإن معظم الجنود كانوا من البارْبار الذين كانت مساقط رؤوسهم حول البحر الأبيض المتوسط الغربي،

والذين كان يماثل بعضهم بعضا : كالمحكومين الليبيين منذ القرن الخامس، والمساعدين النوميديين في القرن الثالث على الخصوص، والمرتزقة، وكالمحكومين الإيبيريين أيضا في عهد البرْكيين، وإن أكثر الجيوش القرطاجية مجدا هو الجيش الذي قاده حنيبعل في إيطاليا، ولم يكن به مطلقا سوى البربر والأسبانيين. وهكذا فإن ابنة صُور Tyr، التي كانت تطمح إلى إمبراطورية الغرب، لم يكن لها مع الأسف لا الوقت، ولا الإدارة لتجعل من هؤلاء الغربيين قرطاجيين.

6

كان الجنود يمكثون مجتمعين أمة أمة. إذ كان لا يحسن الجمع بين رجال لا يتفاهمون وليس لهم جميعا نفس السلاح، ولا نفس الطريقة في الحرب.

أما تقسيمات هذه المجموعات وتفريعاتها، فلا شك أنها لم تكن بطريقة موحدة، ولابد أنها كانت تخضع للعادات العسكرية عند مختلف الشعوب، كما كانت ترجع للأهمية العددية للمجموعات التي يقدمها كل منها. وفوق هذا يمكن أن تتغير بحسب العهود وبحسب الإصلاحات التي كانت قرطاجة تراها ضرورية. ويلاحظ البعض أن أعداد الفرسان الأفارقة والأسبانيين الذين ذكرهم حنيبعل في نقش معبد يونون اللسينية Junon Lacinienne هي مضاعفات لعدد مائة وخمسين. فلربما أن هذا كان هو عدد فرسان الكوكبة(58). وتذكر نصوص أخرى وحدات متكونة من 500 فارس. وليس لدينا معلومات عن المشاة. ومن المحتمل أن أعلاما استعملت كعلامات تنضوي تحتها المجموعات المتفاوتة العدد. ولكن يجب أن نبحث لهذا عن برهان في الفقرات التي أوردها تيتْ ليفْ،

واستقاها من مصادر مشكوك فيها جدا ذكرت أن هذه الأعلام كانت تظهر في معارض الانتصارات الرومانية.

أما الضباط الصغار الذين كانوا على اتصال دائم بالجنود، فكانوا ينتمون لشعوب هؤلاء الجنود، وكذلك كان الأمر بالنسبة لبعض الرؤساء الذين لهم رتبة أعلى، وليس هذا لمجموعات الحلفاء فحسب، بل حتى بالنسبة للمرتزقة الذين كانوا تحت إمرة رؤسائهم. وفي عهد الحروب البونيقية، كان الفرسان النوميديون، وعددهم عدة آلاف، يقودهم أمراؤهم.

ومع ذلك، فإن قرطاجة عادة لم تكن تترك للأجانب الوظائف العالية التي تتطلب رجالا موثوقا بهم كل الثقة، كما لا تترك لهم تسيير الفيالق المتكونة من جيوش لها جنسيات مختلفة. وكان المواطنون أعضاء الأرستقراطية الذين يحمون المواقع الحصينة المهمة، هم الذين يبعثهم القائد العام للقيام بعمليات خاصة، ولخوض المعارك الحقيقية، وللاستيلاء على أرض أو الدفاع عن أخرى، وهم الذين كان يكلفهم في إحدى المعارك بقيادة الجناحين، ويعينهم في مصالح المعسكر، كما يجمعهم في المجلس الحربي.

وأحيانا كانت كل الخيالة بأحد الجيوش تسند إلى قائد واحد، تابع طبعا للقائد العام الذي عينه لا شك، ولكن يمكنه أن يتخذ الكثير من المبادرات، فكان بهذا كأنه في المرتبة الثانية.

عند الإغريق، قبل العهد المقدوني، كان مصير المعركة موقوفا على الهوبْليت Hoplites، أي الجنود المشاة الثقال، الذين كانوا يقفون في صفوف متفاوتة الكثافة، ويشرعون في المعركة عن قرب، جاهدين

بصدامهم وكتلتهم في أن يزحزحوا العدو. أما بقية الجيش فكانت تساهم بحظ قليل في المعركة. ولقد نال الإسكندر انتصاراته في آسيا بالهجوم العنيف لخيالته، ولكن في عهد خلفائه عاد من جديد العدو الأهم لجيش المشاة الضخم. ونعلم أن الأمر كان كذلك عند الرومانيّين. وكانت هذه، هي أيضا خطة القرطاجيين، على الأقل في حروبهم ضد الإغريق والرومانيين. وقد قلنا من قبل بأن مواطني الجمهورية الإفريقية - على غرار مواطني أثينا ولَسِديمون ورومة - إذا حاربوا كان أكثرهم مشاة مسلحين بالسلاح الثقيل. أما الليبيون والأسبانيون، وغيرهم أيضا على ما يحتمل، فكانوا يشكلون جيوش مشاة الصف. وكان تنظيم المعركة يتم على أساس الجحفل Phalange المتراص والعميق. ولم يتخل حنيبعل عن هذا التنظيم، ولكنه أراد أن يجعله ذا فاعلية أكثر، فزود الليبيين بأحسن الأسلحة، كما أنه بمناورات خيالته التي جعلها بالجناحين، كان يحمي الجانبين من خطر الهجمات. وفي كنس Cannes لم يرتب جبهة جيشه في خط مستطيل كما هي العادة، بل جعل له شكل هلال، ثم أشرك قسما من مشاته الثقال في تطويق العدو. أما في زاما Zama حيث نقصان خيالته فرض عليه خطة غير الخطط التي عمل بها في إيطاليا، فإنه لم يصفف مشاته في صف واحد، بل جعلهم ثلاثة صفوف متدرجة، تشتبك مع العدو بالتعاقب. وقد أبدى جيش المشاة القرطاجيين الضخم صمودا وبطولة أكثر من مرة. ومع ذلك فإن حنيبعل ما كان لينتصر، لا في تْريبْيا ولا في كنس Cannes، لو لم تكن له وسائل أخرى للعمل، بحيث إن هؤلاء المشاة قد اندحروا عند ما خاضوا المعركة وحدهم بنهر ميطور وفي زاما. أما المشاة الرومانيون، حين لا يمكنون الخصم من أن يحصرهم في مجال ضيق - مثلما وقع لهم في كنس - فإنهم يتحركون بسهولة كبيرة، ولا يكونون كتلة متراصة، بل مجموعة من

السريات المتميزة القادرة على أن تحارب منفصلة أو أن تجتمع. ولربما يكون حنيبعل اتخذ التدابير ليعطي لجحفله أكثر ما يمكن من المرونة، ولكن عمله لم يعادل ما كان للفيالق الرومانية منها.

كان للقرطاجيين أعداء آخرون غير الإغريق والرومانيين. وقد اضطروا أن يخوضوا الحرب ضد الأفارقة والأسبانيين والسردانيين، وأن يخمدوا ثورات من صاروا رعايا لهم، وأن يصدوا غزوات من بقي منهم على استقلاله. غير أن هذه الشعوب كانت تفضل حرب العصابات على الحرب الحقيقية. وكانوا حين تفرض عليهم المواجهة، يتحاشون الصراع جسما لجسم. وإذا لم ينتصروا كانوا ينجحون تقريبا دائما في الفرار، ثم يتجمعون من جديد على مسيرة يومين أو ثلاثة أيام من البعد. وللوصول إليهم ودحرهم كان لابد من جيوش سريعة الحركة. إذن فيحتمل أن قرطاجة كونت لنفسها من عهد باكر جيشا خفيفا من المشاة. وقد وجدت دون عناء عناصره في الليبيين الذين أخضعتهم، وفي الأسبانيين الذين اشترت خدماتهم قبل الفتوح التي قام بها البرْكيون. وكان هؤلاء المشاة أيضا نافعين في الحروب التي يكون فيها المشاة أصحاب السلاح الثقيل يحاربون في الصف. كما أن المشاة الخفاف كانوا ينفضون الطرق أو يحمون المسيرات، ويسبقون العدو لاحتلال المواقع المجدية، ويجذبون العدو أو يثيرونه، وينقضون عليه بظهورهم من الكمائن، وينفصلون قصد تنفيذ بعض العمليات السريعة. وإذا وقع على المعسكر هجوم، فإنهم يمطرون المهاجمين بوابل من السهام أو الحجارة. عند الحصار كانوا يعملون جاهدين لتجريد الأسوار عن حماتها، وفي المعركة كانوا يتقدمون إلى الأمام، ويشتبكون في المعارك من بعيد، وهم أشتات، ثم بعد بعض الروحات والغدوات يتراجعون منسحبين نحو الجناحين، أو مارين بين الهوبْليت les Hoplites، ويتركون

لهم الميدان فارغا للصراع جسما لجسم. وإذا اندحر العدو وفر هاربا فإنهم ينطلقون في إثره. ومعظم هؤلاء المشاة كانوا يحملون المزاريق في أيديهم. وكان يصحبهم المقلاعيون من أهل الباليار. أما القواسون فيظهر أن عددهم كان ضئيلا جدا.

في عهد البرْكيين، كان المشاة الخفاف يشكلون قسما هاما من القوات العسكرية القرطاجية، وقد ذكر وجودهم في حروب أسبانيا، وعلى الخصوص في جيش حنيبعل الذي كان معه منهم بعد عبوره لجبال الألب نحو 8000 مقابل 12.000 من الهوبليت. والخلاصة هي أن هذه الجيوش كانت ثمينة في العمليات الثانوية، ولكنها في ميدان المعركة كانت تقوم بخدمات ضعيفة. بحيث إن هجومها في بداية العمليات لم يكن يسبب أذى كبيرا، حتى إذا انتهت هذه المهمة، فغالبا ما كانت هذه الجيوش تبقى كالمتفرجة. وقد استخدمها حنيبعل أحسن استخدام، لأنها بعد ما تراجعت في معركة تريبيا خلف الجحفل، جعل جنودها في أقصى طرفي الجبهة، ثم أرسلهم مع الخيالة النوميديين على الجانبين المنكشفين من العدو. ويحتمل أنه أعطى أسلحة رومانية للأفارقة الذين كانوا ينتمون لمشاته الخفاف بقصد مضاعفة عدد من كان معه من الهوبليت الذين كان يحتاج إليهم كثيرا. وأخيرا يظهر أنه تخلى تماما في زاما Zama عن الاستخدام التقليدي لهؤلاء المشاة، لأن المعركة ابتدأت من جانب القرطاجيين بمناوشات الخيالة وبحملة للفِيَلة. ولم يشر پوليبْ Polybe لتدخل المشاة الذين قد يكونون حاربوا من بعيد. وكان الخط الأول من خطوط حنيبعل، المهيأ للمصادمة، مكونا على غرار الخطين الآخرين من الليغوريين والغاليين والموريين وأهل الباليار. أما الغاليون فقد جعلتهم عاداتهم الحربية صالحين للمهمة التي أنيطت بهم، بينما لم يكن الأمر

كذلك بالنسبة للموريين وأهل الباليار، ومع أن أپْيان Appien يقول بأن أهل الباليار كانوا أصحاب مقاليع، وأن الموريين كانوا قواسة، فيمكن الافتراض بأن حنيبعل زودهم بأسلحة تمكنهم من القتال عن قرب، لأنه لم يكن يعتمد على خيالته، فأراد أن ينتصر بالتفوق العددي لجيوشه مشاة الصف.

منذ نهاية الألف الثانية ق.م كان بعض الليبيين جيران مصر يملكون العربات الحربية التي انتشر استعمالها إلى بعيد بين أهالي شمال إفريقيا. وقد استعملها كذلك قورينة Cyrène وقرطاجة.

ففي 480 حملها عملكار معه إلى صقلية. ولكنها على ما قيل تحطمت مع الخيالة بسبب الهيجان البحري. وذكر وجودها في حروب القرن الرابع، بحيث كان عددها 400 في سنة 397. وكانت 300 تجرها أربعة خيول، وأكثر من 2000 بفرسين حوالي سنة 345. وكان عددها كثيرا من النوعين معا سنة 339 (حتى أن تيموليون المنتصر في معركة كريمسوس استولى على 200 منها). وفي 310 كان عددها 2000 في المعركَة التي خاضها القرطاجيون غير بعيد من أسوارهم ضد أگاتُكْليس. وطبعا، فليس مؤكدا أن هذه الأرقام صحيحة، والأخير منها على الخصوص : ذلك أن المتآمر السِّرَقوسي عند قدومه المفاجئ، كان الجيش الذي قوبل به قد تكون بقرطاجة في بضعة أيام، فهل أمكن العثور بالمدينة على مثل هذا العدد الكبير من رجال العربات المستعدين للقتال ؟

كانت العربات الحربية في العهود العتيقة خفيفة جدا تسير على عجلتين، وتكاد تمر بكل مكان، كما كان يجرها فرسان أو أربعة أفراس، وكانت تستخدم في نقل رجال مسلحين تسليحا جيدا. وكان هؤلاء عادة ينزلون إلى الأرض ليشتبكوا في المعركة عن قرب، ثم يعودون لركوب العربات إما للفرار إذا لم يواتهم الحظ، أو لمطاردة الأعداء الفارين.

ويحتمل أن يكون القرطاجيون استخدموا عرباتهم بهذه الطريقة. غير أننا نلاحظ أنهم استخدموها على وجه آخر سنة 399 وسنة 310. فقد فوجئوا في كريمِسوس بهجوم مباغث قامت به الخيالة الإغريقية، فأطلقوا العنان هنا وهناك لعرباتهم إلى الأمام ليكسروا حملة المهاجمين. وفي سنة 310 جعلوها أمام الجحفل لبدء العمليات، وللدنو من مشاة آكاتكليس بقصد إحداث الاضطراب في صفوفهم، لكن هذه الخطة آلت إلى الفشل، وحيث أن العربات لزم أن تندفع إلى وسط المعترك، فقد كان الأفضل تقوية قدرتها الهجومية وقوتها على المقاومة ولو على حساب الخفة والسرعة. ويزعم بلوتارك Plutarque أن عرباتهم في كريمسوس كانت رهيبة. فلعل قطعا من المعدن أو الجلد كانت وقاية للخيول. وهل كانت هذه العربات - على غرار ما كان عند الفرس - مزودة بمناجل كبيرة مثبتة في رؤوس مجراتها، وفي أنبارها ومحاورها ؟ نجهل ذلك.

وقد اختفت العربات من الجيوش القرطاجية قبل الحروب ضد الرومانيين، وعُوّض عنها إما بالفيلة وإما بالخيالة. وكذلك تخلى عنها أهالي بلاد البربر الشرقية.

وقد اضطر عملكار سنة 480 إلى أن يطلب الخيالة من سِلْنونة حليفة قرطاجة، ويزعمون أن البحر كان قد أغرق له خيالته، ويذكر دِيودور قوات الفرسان في معارك نهاية القرن الخامس والقرن الموالي له، غير أن الأرقام التي يوردها تستحق القليل من الثقة، لأنها مصحوبة بأرقام أخرى تتعلق بالمشاة، ويجب اعتبارها مبالغا فيها جدا. فعدد الفرسان غير مرتفع بالنسبة للمشاة، الأمر الذي يجعلنا نستنتج أن دور الخيالة كان آنذاك دورا ثانويا. ولم تذكر إلا قليلا في قصة الأحداث العسكرية بحيث إنها سنة 311، بعد معركة إكنوم Ecnome، تابعت الفارين وقتلت

الكثير من بينهم. وبعد أيام قليلة انفصلت عن الجيش كوكبة من 300 فارس ودخلت مدينة جيلا Gela حيث تم القضاء عليهم. وفي 310 وضعت الخيالة مع العربات أمام المشاة الثقال، وهاجموا جيوش أكاتكليس التي صدتهم بكل سهولة.

وشاركت الخيالة بنصيب مهم جدا في حروب القرن الثالث، خصوصا في عهد البركيين. وكان الإسكندر قد أبان بأنها يمكن أن تربح المعارك، ويمكنها أن تحطم العدو بمطاردة لا هوادة فيها. وكان القرطاجيون في منطقتهم الإفريقية يملكون اصطبلات مليئة بالخيول، كما أن حلفاءهم النوميديين كانت لديهم خيول كثيرة، ونعلم إلى أي حد استفادوا منها. وكان بأسبانيا فرسان جيدون، سهل ضمهم للجيش في الفتوح التي قام بها عملكار وخلفاؤه. أما في إيطاليا فإن عددا كثيرا من الكوكبات الغالية جاءت لتضع نفسها تحت إمرة حنيبعل. وعندما اقتحم الرومانيون إفريقيا في القرن الثالث، أملت قرطاجة أن تدحرهم – وقد دحرتهم – بخيالتها، بحيث إن 16.000 رجل الذين قاتلوا ريكلوس Régulus سنة 255، قد كان من بينهم 4000 فارس، جندوا لاشك من بين المواطنين. وكانت نسبة الخيالة أيضا قوية جدا في جيش حنيبعل. فقد مثلت الربع تقريبا عند الدخول إلى إيطاليا، ومثلت أكثر من الربع في معركة تْريبْيا، وخمس الجيش في كنس Cannes. أما في الجانب الروماني فلم تمثل سوى عشرة بالمائة في تْريبْيا، وسبعة بالمائة في كنس، إذ لم يكن للرومانيين في هذين اليومين سوى 4000 و6000 من الخيول يواجهون بها 11.000 و10.000 فرس التي كانت للقائد البرْكي. لذلك فإن النقص الواضح الحاصل لهم في هذا النوع من السلاح، وكذلك شعورهم البين بعبقرية حنيبعل، كل ذلك جعلهم يفهمون وجوب تلافي المعارك الكبيرة في السهول.

لقد سبق أن ذكرنا جميع الخدمات التي كان النوميديون يؤدونها في المعترك. وزيادة على هذه الخيالة الخفيفة، كانت قرطاجة تستعمل جيوشا أكثر عتادا وأقوى سلاحا، صالحين على الخصوص في معارك الصفوف، التي كانت هذه الجيوش تنزل فيها عن خيولها لتشتبك جسما لجسم، إذا لم يكن العدو قد فر عند اقترابها.

وقد كانت الخيالة في هذه المعارك. تجعل على الجناحين حسب العرف العسكري الإغريقي. فلقد أخذ الإسكندر يهاجم الأعداء ويصدعهم بجناح واحد، بينما كانت بقية جيشه تدافع عن نفسها أول الأمر. أما حنيبعل فقد أسند للجناحين دورا، وأناط بهما أهم عمل في تنفيذ خطته للتطويق. أما مشاة الفيالق الرومانية فكانوا أشد قوة من أن تتصدع جبهتهم، لا بصدمة للمشاة الأعداء ولا بحملة من خيولهم. وكانت وقايتهم هي الفرسان على الجانبين. لذلك كان لابد من تعرية هذين الجانبين، وذلك هو ما كانت الخالية القرطاجية تفعله دون عناء كبير، لأنها كانت أقوى وأكثر عددا. ثم كانت تنقض من الجانبين ومن الخلف على المشاة الرومانيين المشتبكين مع المشاة الثقال القرطاجيين الذين هاجموهم من أمام، فتدفع بعضهم على بعض وتثخن فيهم قتلا. تلك كانت هي المناورات التي عادت بالنصر على حنيبعل في سهول تْريبْيا وكنس. ولم يكن حنيبعل هو مبتدع هذه الخطة. ففي255 كان ريگُلوس قد حوصر، وتم القضاء عليه بمناورات مماثلة نفذت بإشارة من كْسانْتِب اللَّسِديموني. كما انتصر سيبْيون في معركة زاما بنفس الطريقة، إذ كان معه النوميديون رجال مسِّنيسا. ففي هذا اليوم كان تفوق الخيالة في جانب الرومانيين، لأن قائدهم استخدم طريقة حنيبعل ضد حنيبعل نفسه.

أما في سنة 150، عندما قررت قرطاجة أن تخوض الحرب ضد مسِّنيسّا، فإنها لم تجند من منطقتها المنتقصة المهاجمة سوى بضع مئات من الفرسان. وفي هذا العهد وبعده بقليل، حين كانت تدافع عن وجودها ضد رومة، كان يطيب لها أن تقبل النوميديين الفارين إليها. وقد قام هؤلاء لصالحها بحرب العصابات بما عهد فيهم من مرانة.

7

كانت الفيلة موجودة بكثرة في أرض المغارب في العهد الذي ندرسه، بحيث إن قرطاجة لم تكن تذهب بعيدا لاستجلابها كي تستخدمها في الحرب. ولم يكن ذلك قبل القرن الثالث، وقد تعرف الإغريقي على ما يمكن أن تستعمل فيه هذه الحيوانات أثناء حروب الإسكندر، في معركة إربيل Arbèles أولاً، ثم في وادي الهندوس l'Indus، كما استعملها خلفاؤه في جيوشهم من بعد. بحيث إن بطلِمي فيلَديلف Ptolémée Philadelphe الذي لم يكن يهيمن على الهند، قد جهز حملات لصيدها في أثيوبيا. وكذلك فإن بِرْهوس Pyrrhus أتى بالفيلة إلى جنوب إيطاليا. ونقلها إلى صقلية لمحاربة القرطاجيين. ولا شك أن هؤلاء – تقليدا منهم لملوك مصر والإبير Epire – أرادوا أن يستفيدوا مما تقدمه لهم إفريقيا في هذا المجال. وذلك أنهم عندما أقاموا السور خلال البرزخ الذي يربط مدينتهم باليابسة، جهزوا بالسور إصطبلات لإيواء 300 فيل.

وفي سنة 261 كان الجيش الذي حاول فك الحصار عن مدينة أكريجنت Agrigente يضم 50 أو 60 منها. كما أن قرطاجة كانت تعتمد في القضاء على ريكلوس Regulus على خيالتها وعلى فيلتها التي صففت منها نحو المائة في المعركة الكبرى التي اندحر فيها البْروقنصل سنة

وحسب إشارة واردة عند أپيان Appien – وإن كانت غير أكيدة – فإن حسدربعل جمع منها 140. وصفف منها حنيبعل أكثر من 80 في معركة زاما. والمعاهدة التي عقبت هذه المعركة فرضت على قرطاجة تسليم جميع فيلتها إلى الرومانيين، كما فرضت عليها منع ترويضها من بعد. ولم يكن قد مر أكثر من ستين سنة منذ أن أخذت تستعملها.

كانت فيلة الملوك الشرقيين، وكذلك فيلة بِرْهوس Pyrrhus غالبا ما تحمل على ظهرها برجا يتخذ المحاربون فيه مواقفهم. ويصف سيليوس إيطالِكوس Silius Italicus فيلة حنيبعل ولها نفس التجهيز، غير أن هذا الشاعر قلما يهتم بأن يكون دقيقا. وكذلك فإن الأبراج قد ذكرت في فقرة لكاتب مجهول وصلتنا عن طريق اللغوي سويداس Suidas، وهي تخص (حنيبعل قائد القرطاجيين)، أي حنيبعل البركي دون شك. وأكيد أن الفيلة الإفريقية التي استعملها الملكان الأهليان يوبا الأول ويوبا الثاني كانت مزودة بالأبراج. ومع ذلك فلم يذكر پوليبْ Polybe ولا غيره من المؤرخين الأبراج في رواياتهم عن حروب القرن الثالث، بل إن بعض الفقرات من هؤلاء الكتاب تساعد على الاعتقاد بأن فيلة الجيوش البونيقية لم تكن تحمل عادة سوى موجهها[61]. بحيث إن قطعة نقود عزيت – مع احتمال للصحة – إلى البِرْكيين تمثل لنا فيلاً إفريقيا يسيّره رجل بيده منخاس. ويصف پوليبْ Polybe وأپْيان Appien هؤلاء الموجهين بأنهم هنود. فيحتمل أن القرطاجيين استدعوا من الهند أشخاصا قادرين على تعليمهم طريقة ترويض وتسيير الحيوانات التي يجري اصطيادها في إفريقيا. لكن لابد أن مروضين حاذقين سرعان ما تكونوا بإفريقيا. ولهذا فالوصف الذي جرت العادة بإطلاقه عليهم، وهو أنهم هنود، كان على ما يظهر يعني حرفتهم لا أصلهم.

ويظهر أن الفيلة كانت تحميها قطع من درع واقيه، وكانت تتدلى من أعناقها نواقيس صغيرة ذات رنين يحثها، وتقوم فوق الرأس قنزعة للزينة.

وكانت الفيلة تصطف على شكل خط أمام الجبهة بكل طولها، وتحميها من هجمات الجنود ذوي السلاح الخفيف، وقد تجعل على الجناحين لتخيف قبل كل شيء أفراس الخيالة المواجهة لهم. وكان يرمى بها على المشاة ذوي السلاح الثقيل لتكسر الصفوف، ولتجندل أو تصد الرجال الذين لا يستطيعون اتقاءها، وهكذا فإنها تسلم للمشاة القادمين وراءها جيوشا مختلة النظام وقريبة من الهزيمة. وربما احتفظ بها كاحتياطي للاجهاز على عدو أعياه طول الصراع. وبعد ربح المعركة فإنها تطارد الفارين بالسهول. وكانت تطلق على المعسكرات فتنتزع سياجاتها، وتكسرها وتهاجمها، فتحدث الهلع والاضطراب. كما تستخدم لسحق الأسرى الذين يعتبرون غير أهل للعفو.

لقد شاهد سكان جبال الألب بهلع هذه الوحوش المخيفة التي كانت تصاحب حنّيبعْل. كما أن جنود الفيالق الرومانية غالبا ما كانت فرائصهم ترتعش عند اقتراب الفيلة، وذلك منذ اليوم الذي رأوا في لوكانيا Lucanie "ثيران" بِرهْوس، حتى حرب قيصر في إفريقيا. وكان لابد للمرء من الكثير من رباطة الجأش حتى لا يتزعزع أمام هجمات هذه الوحوش الضخمة، التي تصيح صيحات حادة، وتحرك بين أنيابها المخيفة «أيديها على شكل الأفاعي»، وتسير قدماً برغم السهام الكثيرة التي تغترز في أبدانها. والخيول التي لم تتعلم معرفتها، كما تعلمتها خيول النوميديين، لم تكن قادرة حتى على رؤيتها وتحمّل رائحتها.

لقد كانت الفيلة أكثر من مرة ذات نفع كبير للقرطاجيين : في الحرب مثلا ضد ريگُلوس، وفي الحرب ضد المرتزقة، وعلى نهر التاج

سنة 220 وكذلك في معركة ترْيبيا. وتمكنت خشيتها من الرومانيين بعد كارثة ريگلوس إلى حد أنهم صاروا لمدة طويلة لا يغامرون في السهول التي يكون عليهم أن يحاربوا فيها.

ومع ذلك كانت الفيلة مساعدا مزعجا وخطيرا. إذ كان لابد من استعمال عوامات أو سفن مجهزة تجهيزا خاصا تحملها لتعبر البحر بها. أما الأنهار الكبرى والجبال الوعرة فكانت عوائق لا يتخطاها الجيش إلا بصعوبة كبيرة إذا كان يجر معه الفيلة. وقد جرب ذلك حنيبعل على نهر الرّون وفي جبال الألب. ولم يكن استعمالها ممكنا إلا في المعارك التي تجري بالأراضي المنبسطة.

وقد عرف الرومانيون كيف يمنعونها من أن تحدث شرا كبيرا. فلمقاومة هجومها جمع ريگُلوس مُشاتَه في كتلة متراصة جدا، ولكن هذا الوضع لم يصن خطوطه الأمامية. أما في زاما Zama فإن سيبْيون الذي استوحى من الإسكندر على ما يحتمل، قد اتخذ وضعا أكثر توفيقا: ذلك أنه قسم خطوطه من الجبهة حتى المؤخرة بعدة ممرات، كان قسم من قطيع الوحوش يندفع فيها ويمر منها دون أن يحدث خسائر. وكانت الفيلة تهاج بجلبة الأصوات ويزعيق الأبواق وبوابل السهام والأحجار، وكذلك بضربات المزاريق والرماح التي تنزل بمهارة، فتحز العراقيب أو تجرح المواطن الحساسة. ومن أجل ذلك تستولي على هذه الحيوانات عدوى من الغضب. فلا تنقاد لمواجهيها، وتعدو هنا وهناك، تقلب وتسحق كل ما في طريقها، ثم تدور وتذهب حاملة معها الاختلال والموت إلى صفوف من يستعملونها. فكانت كما يقال «عدواً مشتركا» يخشاه على السواء الجيشان المتواقفان. أما الموجهون، فإنهم إذا لم يقعوا على الأرض فلا تبقى لهم من حيلة سوى أن يغرسوا في عنقها – وبواسطة

دبّوس شفرة من حديد تودي بها في الحين[62]. وهذه الطريقة اخترعها حسدْرُبعْل البرْكي على ما يظهر.

وبرغم كل ذلك، فإن كبار رجال الحرب مثل عملكار وحنيبعل، لم يريدوا التخلي عن الفيلة. ولم يكن لحنيبعل منها عدد أضخم مما كان معه في معركته الأخيرة. أما الرومانيون، فإنهم لم يهملوها، فقد منعوا على أعدائهم المغلوبين استعمالها. منعوها على قرطاجة وعلى أنْتيوخوس Antiochus، واحتفظوا لأنفسهم بعدد مما كانوا قد تسلموه من القرطاجيين. وكثيرا ما طلبوا من حلفائهم الملوك النوميديين أن يعيروها لهم لتستعمل في الحروب التي كان عليهم أن يخوضوها في الشرق وأسبانيا.

8

إن الحملات الكبرى التي جرت بصقلية في سنوات 409 و405-406 تستحق مكانا خاصا في تاريخ الحصارات العسكرية. فعندما تقدم الماگونيان، حنيبعل وحيملْكون، أمام مدن سلِنُونَة Sélinonte وهيمِرا Himère وأگْريجَنت Agrigente وجيلا Géla الإغريقية، كانا يريدان الاستيلاء عليها بقوة وفي أسرع وقت ممكن، عوض أن يحاصراها وينتظرا في أناة أن يفتح لهما أبوابها الجوع والاحتيال والخيانة، وكلها أمور كانت حتى ذلك العهد هي الوسائل المعتادة في التغلب على مقاومة المدن في أراضي البحر الأبيض المتوسط.

كان الأشوريون قد عرفوا كيف يسيّرون الحصارات التي لم تكن مجرد تطويق، وعن طريق مدينة صُور استفادت قرطاجة من عملهم. ولربما أن فينيقيي المشرق والمغرب أدخلوا على ذلك بعض التغييرات

الموافقة. وتعزو بعض المأثورات، التي كان ترِتْوليان Tertulien يعرفها معرفة غامضة، إلى القرطاجيين اختراع الآلة المعروفة باسم الكبش Bélier أي العارضة الخشبية ذات الرأس المعدني، التي تهدم الأسوار. وكان يحكي – وبدقة أكثر – أن فكرة تعليق الخشبة اعتراضيا إلى عماد مثبت في الأرض، كانت قد وردت على ذهن أحد الصوّريين الصانعين للسفن، وذلك أثناء حصار القرطاجيين لقادس. (ربما كان ذلك في القرن السادس)، وأن فينيقياً من قرطاجة أدخل على هذه الآلة البسيطة تحسينا، بأن صنع لها هيكلا مركبا على عجلات، ويقيه سقف، وبداخل هذا الهيكل كان الكبش معلقا. وكان عدد كبير من الرجال يدفعون هذا النوع من البيوت حتى تحاذي السور الذي يجب أن تنقبه العارضة. غير أن الكبش المتحرك المسقوف كان معروفا عند الآشوريين منذ القرن التاسع. وإذا كان في هذه الحكاية المأثورة ظل للصدق، فإن القرطاجي الحاذق لا يكون له سوى فضل تجويد الآلة.

في نهاية القرن الخامس، تجهز حنيبَعْل وحِملْكون قبل مغادرتهما لإفريقيا بعتاد كان يكفي تركيبه عند بداية هجماتهما. ويعطينا دِيودور Diodore بعض التفصيلات عن أعمالهما للحصار، وهي إحداث سطوح للدنو لتدفع الآلات حتى تحاذي الأسوار، وإقامة أبراج عالية جدا من خشب. وقد أقيمت منها ستة أمام سِلِنُونة واثنان أمام أكْريجَنت. وهي مركبة على عجلات، وتتقدم لتكون على مرمى القذائف إلى السور الذي تشرف عليه. وكان المقاتلون الذين يأخذون بها مواقفهم يستطيعون أن ينالوا أو ينحوا حماة الأسوار. وبهذه الطريقة يحمون أشغال التلغيم وإحداث الثغرات بأسفل هذه الأسوار، أي فتح الثغرات بالكباش ذات الرؤوس الحديدية، وحفر الأنقاب بأسفل الأسوار لتعرية أسسها التي

كانت تدعم بدعائم من خشب توقد فيها النار من بعد، حتى إذا انهارت الأسس جرّت معها المداميك العليا للانهيار. هذه إذن كانت وسيلة أخرى لإحداث الثغرات. وكان الهجوم يقع من الفتحات التي أحدثتها الكباش والألغام، ولربما أن الأبراج كانت تتقدم في نفس الوقت ليوصل بينها وبين أعلى السور بواسطة جسر متحرك. وقد استطاع حنيبعل بفضل هذه الطريقة أن يدخل بعد بضعة أيام إلى سِلِنُونَة وهِميرا، بينما أكريجَنْت وجيلاَ قاومتا مقاومة أشد، ولم يستطع حيملكون دخولهما حتى أخليتا من السكان.

أعطت قرطاجة للإغريق دروسا لم تذهب سدى. فبعد قليل من السنين استولى دونيس القديم Denys l'Ancien بنفس الطريقة على موتْية Motyé، المستعمرة الفينيقية. واقتدى به في عمله فِيلِبْ المَقدوني Philippe de Macédoine، وابنه الإسكندر، ثم خلفاء الإسكندر الذين كان مهندسوهم يتوفرون على وسائل أقوى. فحسنوا فن الحصار. وبالطبع فإن القرطاجيين لم يتخلوا عن الطريقة التي اختطوها. ففي عهد الحروب البونيقية كانوا دائما يقيمون الأبراج العالية الخشبية للهجوم، ويستعملون الكباش التي تحميها بيوت، ويحفرون للتلغيم. لكن، لما تفوق عليهم الإغريق، فإنهم اقتبسوا من تلامذتهم. إذ بعد هؤلاء عبأ القرطاجيون على ما يحتمل الطبقات المتعددة في الأبراج بآلات القذف.

وحسب إحدى المأثورات التي تلقاها پْلين الطبيعي Pline le Naturaliste، فإن فينيقيي سوريا هم الذين اخترعوا المنجنيقات والعرادات Catapultes. وهي آلات يقع تشغيلها بتلوي حزمة أو حزمتين من الألياف أو السبائب المرنة، فتستطيع بذلك أن ترمي السهام أو الحجارة على بعد مئات عديدة من الأمتار. لقد كان بفينيقيا رجال بارعون في الآليات برهنوا

على حذقهم ودرايتهم التقنية أثناء حصار الإسكندر لمدينة صُور. ومع ذلك يبدو من الصعب رفض شهادة ديودور (أي تيمي Timée لاشك الذي يؤكد أن المنجنيق وقع اختراعه في سرَقوسَة على عهد دونيس القديم، وإنه استعمل لأول مرة في حصار موتْيَة سنة 398 ق.م.

اتخذت قرطاجة هذه الآلات، بحيث إن بِرْهوس عندما ظهر أمام مدينة ليليبي Lilybée سنة 227، واجهته أسوار مجهزة بآلات قذف الأحجار والسهام، وبعد محاولتين لم تجديا، تخلى عن الاستيلاء على المدينة التي كانت محمية شديد الحماية. ولما استولى سيبْيون سنة 209 على قرطجنّة Carthagène عاصمة إسبانيا البونيقية، وجد فيها – حسب قول تيتْ ليفْ – 120 منجنيقا من أكبر الأحجام، و281 منجنيقا صغيرا، ووجد بها 23 عرادة كبيرة و52 صغيرة، كما وجد عددا ضخما من العقربانات[63] Scorpions الكبيرة والصغيرة. ويحسن أن نضيف أن هذه الأعداد ليست مؤكدة رغما عن دقتها، وأن بوليبْ Polybe لا يذكرها. أما العقربانات التي هي آلات أصغر حجما من المنجنيقات والعرادات، فإن تيت ليف في مكان آخر يذكر عنها هذه الملاحظة فيقول : «لو صدقتُ الكاتب الإغريقي سِلِنوس[64] Silenos. لكتبتُ أن الاستيلاء وقع على 60 عقربانا صغيرا وكبيرا، ولكن حسب فاليرْيوس أَنْتياس Valérius Antias، فإن عدد العقربانات الكبيرة يكون 600، وعدد الصغيرة هو 13.000، إذ ليس في الكذب منزلة وسطى).

عندما سلم القرطاجيون إلى الرومانيين سنة 149 جميع ما كانت تحتوي عليه مصانعهم للسلاح، كان ما سلموه عبارة عن 2000 من آلات قذف السهام، والأحجار. ولما اندلعت الحرب صار لابد من تعويض ما ضاع من ذلك. فجرى صنع أكبر عدد ممكن من المنجنيقات والقذائف

اللازمة لها، وحلّت شعور النساء محل الحبال المفقودة. كما صنعت عدة آلات لرمي الحجارة. ذلك ما تشهد به الاكتشافات التي وقعت بقرطاجة. ففي ناحية درْماش قرب البحر، وبالتالي في موقع السور الذي كان يساير الساحل، جُمعت المئات والآلاف من القذائف ذات الشكل الكروي من الكَلْكير الرمادي اللون. وبعض هذه الكرات نقشت عليها حروف من الأبجدية البونيقية، الأمر الذي يشهد بأنها صنعت قبل تهديم الرومانيين للمدينة، كما أن التي لا تحمل هذه العلامات كانت مماثلة للأخرى وترجع لنفس الحقبة. فبهذا نكون على ما يحتمل أمام خزين، أحدث لتزويد الآلات التي كانت منصوبة على الأسوار القريبة من الخزين، ومن بين ذلك خزينان اكتشفا بالشمال الشرقي للميناء المستدير، ويحتويان على ما لا يقل عن 2500 كرة. وهذه القذائف لها أحجام مختلفة، أصغرها يبلغ قطره 12 سنتمترا، بينما يتعدى قطر بعضها الآخر 26 سنتمترا، ومن بينها ما يتجاوز وزنه 30 كيلو، ولكن أغلبها (وهو أربعة أسباع العدد تقريبا) يتراوح وزنه ما بين 5 كيلو إلى سبعة ونصف، بقطر من 16 إلى 19 سنتمترا.

كانت المنجنيقات تستعمل في الهجوم وفي الدفاع عن المواقع الحصينة. وهي إذا لم تكن تحدث أضراراً مادية جسمية، فبمستطاعها أن تكون قاتلة، وأن تجعل الأسوار غير ثابتة، كما تبعد المحاصرين. ولم يكن استعمالها في المعارك أمرا معتادا، لأن نقل هذه الآلات، وتركيبها وتفكيكها أمور صعبة، وتتطلب وقتا طويلا جدا، وفي حالة الاندحار لا يستطيع المغلوب نقلها. وكان حَنّون أثناء حرب المرتزقة قد أخرج من أوتيكا Utique جميع ما عثر عليه بها من الآلات، ولم يكن ينوي خوض معركة الصف ضد الثوار، بل كان عازما على الاستيلاء على معسكرهم

القريب من المدينة. غير أنه ندم على قراره هذا لأن العدو عاد إلى الميدان بعد أن طرد عنه، فكان لابد من ترك هذه الآلات القاذفة.

9

كان الرومانيون يجعلون لمعسكرهم شكلا مربعا، ويفضلون إقامته على المنحدرات الخفيفة، ومع ذلك فقد كان يحدث لهم أن يخرجوا عن هاتين القاعدتين. أما القرطاجيون فكانوا كالإغريق يبحثون عن الأماكن التي لها تحصينات طبيعية. وكانوا يفضلون أن يعسكروا على المرتفعات التي تحيط بها أجراف أو شعاب، بحيث إن شكل الأرض كان يملي شكل النطاق. وقد كان اختيار هذه المواقع يساعد بسهولة على صد الهجمات، غير أنه اختيار لا يخلو من مساوئ كبيرة. فالماء لا يكون قريبا دائما، كما إنه إذا لزم إخلاء المكان فالهروب يصبح خطيرا بسبب المنحدرات والمهاوي، خصوصا بالنسبة للخيول، وأكثر من ذلك بالنسبة للفيلة، إذ لا يرجى من هذه أي نفع إذا لزم القتال بجوار المعسكر على أرض وعرة. وكانت دروس التجربة مع نصائح كْسانْتيت (65) Xanthippe قد علّمت القرطاجيين أن لا يضحّوا بكل شيء في سبيل الموقع الحصين. فلم يعودوا يخشون الإقامة بالسهل أو على المرتفعات القليلة العلو. ومع ذلك ظلوا يفضلون المواقع التي يصعب منالها على العدو. وهكذا، ففي سنة 150 عندما تواجه الملك مسِّنيسا مع حسْدُرْبَعْل، عسكر الأول بأرض منبسطة، وعسكر القائد القرطاجي على أحد التلال حيث ظن نفسه في أمان كبير.

إن المعسكرات البونيقية – وعلى الأقل تلك التي يكون فيها المكوث لوقت ما – قد كانت محصنة. فكان يمتد حفير عميق على طول الجوانب

التي لم تحمها الطبيعة حماية كافية، ويقوم خلف الحفير سياج بأعلاه رؤوس حادة، ولاشك أن السياج أقيم على ركام التراب المستخرج من الحفير. وفي سنة 396 كان حيملْكون قد أخذ في تحويط معسكره أمام سِرقوسَة بأحجار المقابر التي أَمر بتهديمها. كما أن معسكر نيفِريس Néphéris أثناء الحرب الأخيرة ضد الرومانيين قد كان عبارة عن موقع حصين مزود بالأبراج.

انتشر استعمال الخيمة بين أهالي شمال إفريقية في عهد متأخر، ولم يعمّ استعمالها إلا بعد الفتح العربي. ولا نعلم هل استعملتها الجيوش القرطاجية. ففي سنة 308 وسنة 203 كانت بعض الجيوش تقيم غير بعيد عن العاصمة، وكانت تسكن أكواخا من القصب والقش ومن الخشب وأوراق الأشجار التي التهمتها النار في طرفة عين. ويمكن أن نتساءل هل جنود التجريدات، وهم ينتقلون كل يوم تقريبا، كانوا يجدون الوقت والمواد الضرورية لإقامة مثل هذه المآوي ؟ أو هل كانوا من جهة أخرى يستسلمون للنوم في العراء ؟ لهذا يسوغ أن نفترض أنهم كانوا يحملون معهم خياما من إهاب الحيوان وجلده، مماثلة لما كان عند الرومانيين.

10

كانت قيادة الجيوش وقفا على القادة الذين ينتخبون خصوصا لتسيير حملة أو حرب. وقد رأينا أن هذه القيادة في القرنين الخامس والرابع كان بالمستطاع أن يقوم بها "الملوك"، وهم أعلى الولاة في الدولة. ومع ذلك كان منصب القائد ومنصب الشوفيط خطتين متميزتين منذ ذلك العهد، وإنهما منذ القرن الثالث لم يكن يجمع بينهما على ما يظهر. وكان

القادة يُعرفون في الإغريقية واللاتانية بأسماء، هي : ستراتيكوس Strategos ودوق Dux وإمبراطور Imperator ودكتاتور Dictator ولربما كانوا يلبسون رداء الأرجوان الشبيه برداء Paludamentum الروماني، رمز منصبهم.

قلنا إن الشعب كان ينتخبهم. وأحيانا يفقد أحد الجيوش قائده بغتة فيعين غيره، لكن هذا التعيين عبارة عن عمل مؤقت، ولابد أن يوافق عليه الشعب الذي يستشار بصفة منتظمة. وكما يلاحظ أرسطو[66]، فإن اختيار القادة العسكريين لا تراعى فيه مقدرتهم فحسب، وإنما الثروة أيضا، أي أنهم كانوا يؤخذون من الطبقة الأرستقراطية التي كانت تختص بجميع الوظائف العليا. ونظرا لكونهم ولاة فوق العادة، فقد كانوا يُنصّبون في مهامهم لزمن غير محدود، ويحتفظون بهذه المناصب طوال مدة الحرب التي فرضت انتخابهم، وذلك ما لم يتخلوا عنها عن طواعية، أو ما لم يُقالوا منها. وفي هذه الحالة فإن الشعب لاشك هو الذي يقضي بإقالتهم. وكان حسْدْرُبَعْل ابن ماكون في نهاية القرن السادس قد زاول إحدى عشرة "دكتاتورية"، بمعنى أنه كان قائدا عسكريا في إحدى عشرة حربا مختلفة. ومن بعده حافظ البرْكيون لمدة سنين طويلة على القيادات العسكرية التي أسندت إليهم، ومن بينهم حنّيبعل الذي حافظ عليها عشرين سنة. ولا شيء يبرهن على أنهم كانوا معرضين لعملية إعادة الانتخاب.

وزيادة على هؤلاء القادة الذين كان تعيينهم خاضعا للظروف، كان هناك آخرون مكلفون حتى في أوقات السلم - بالسلطة العسكرية في أحد أجزاء الإمبراطورية القرطاجية، أي في الولاية الإفريقية، وبصقلية وفي سرْدانية. ويسمي كل من پوليبْ Polybe وأپْيان Appien بعض هؤلاء

ـتخبون من قبل الشعب.

كان تسيير إحدى الحروب يسند عادة إلى قائد واحد. غير أننا ـرف مع ذلك بعض الحالات التي أشرك فيها قائدان أو ثلاثة مع ـساويهم في السلط. فعند إغارة أگاتُكليس، وثورة المرتزقة جرى ـسباب سياسية تقسيم القيادة بين أشخاص ينتمون لأحزاب متخالفة، ـهو عمل غير مرضٍ من الوجهة العسكرية. وأحيانا أخرى وقع الاحتفاظ ـوحدة القيادة رغما عن وجود قائدين بالجيش، بحيث كان أحدهما تابعا ـلآخر، ويحل مكانه إذا لزم ذلك.

وإذا كانت الحرب تجري في عدة ميادين متباعدة جدا فيما بينها، ـكان من الطبيعي أن يقع انتخاب عدة قادة ويحتفظ كل واحد منهم ـاستقلاله تجاه زملائه، غير أن الحكومة القرطاجية التي كانت تهتم ـالحد من سلطة القادة، كثيرا ما عملت بهذه القاعدة أيضا لمختلف ـلجيوش العاملة بنفس الجهة. فكان عدم وجود تصميم كلي، مضافا إلى ـلغيرة بين القادة، أمرين يمكن أن تنشأ الكوارث عنهما.

وعلى النقيض من ذلك، فإن عَملْكار بَرْكا والقائدين الذين خلفاه على التوالي، قد كانت لهم القيادة العليا، لاَ في أسبانيا فحسب، بل على ما يظهر حتى في إفريقيا الشمالية. ونحن نعلم مدى الحرية التي عملوا بها. ونعلم أيضا أن حنيبعل قد سيّر حسب رأيه الحرب ضد رومة. وقبل البركيين يحتمل أن الماگونيين كانوا على رأس الجيوش دكتاتورية حقا وصدقا.

خلال ذلك، كانت الأرستقراطية، وبيدها مقاليد الحكم، تجتهد في كبح القادة العسكريين. ومع ذلك فلا نرى أنها تدخلت في تسيير

العمليات المسندة إليهم، كما لا برهان لدينا على أنها جعلت بجانبهم منتدبين مكلفين بنصحهم أو مراقبتهم. لكن منذ إحداث محكمة المائة صار بالإمكان أن يسألوا بعد نهاية الحرب عن أعمالهم، بل حتى قبلها إذا وقع تغييرهم أثناء الحرب. فكان الخوف من الحكم عليهم يمنعهم غالبا من استعمال سلطتهم لصالح مطامحهم الشخصية. وكانت هذه الأحكام لا تقع فحسب على الرؤساء المتهمين بأنهم ضحوا بمصلحة الدولة في سبيل مصلحتهم الخاصة، وإنما تقع أيضا حتى على الذين قبلوا الغلب. ويحكي تيتْ ليڤْ أن جميع الشخصيات الرسمية في رومة قد وردت على القنصل ڤارون Varron بعد كارثة كنس Cannes، وأنهم هنأوه على عدم يأسه من الجمهورية، ثم يضيف الكاتب قائلا : «فلو أنه كان قائدا للقرطاجيين لعاملوه بكل أنواع العذاب». والواقع أن كثيرا من قادة قرطاجة ماتوا مصلوبين. بل كان يحدث أن الجنود لا ينتظرون حكم القضاة. من ذلك أن حنيبعل اندحر في سردانية أثناء الحرب البونيقية الأولى فأعدمه جنوده. بينما انتحر قادة آخرون تعساء، وكانت جثتهم هي التي علقت على المشنقة. ويجب القول مع ذلك أن الاندحار لم يكن دائما ينال عقابه بهذه الصفة القاسية. من ذلك أن حَنّون اندحر سنة 261 أمام مدينة أَكْريجَنْت ولم يكن عقابه سوى الغرامة، ثم نال من بعد قيادة مهمة جدا، وكذلك حنيبعل الذي فقد في السنة الموالية قسما كبيرا من أسطوله في مياه صقلية فقد كلف بقيادة أسطول آخر في سردانية. وتزعم إحدى الحكايات بأنه اتقى الحكم عليه بحيلة من حيل البونيقيين، ذلك أنه مباشرة عقب معركة ميلِس Myles، وقبل أن تعرف نتيجتها في قرطاجة، طلب إلى مجلس شيوخها هل يستطيع بمائتين من السفن أن يهاجم أسطولا رومانيا به 120 سفينة. فكان الجواب بالإيجاب طبعا. فقال رسوله : «إذن لقد خاض المعركة واندحر، لكنه لا يستحق أي عقاب، لأنه

فعل ما أمرتم به». ولا شك أن حنيبعل كان له من أصدقائه السياسيين سند يعفيه من تخيل مثل هذا العذر الواهن. على أن الحكاية تدل فحسب على أن قرطاجة لم يشتهر عنها التساهل مع قادتها. هؤلاء القادة الذين إذا نالوا انتصارات عظيمة كانوا محلا للحسد، ولشكوك النبلاء الخائفين من هؤلاء الأقوياء، من هؤلاء الذين تحبهم الجماهير، والذين بيدهم وسائل التخلص منهم، وإذا اندحروا أصبحوا مجرمين يلح الجمهور مطالبا بتعذيبهم. لذلك فإن الذين يقبلون القيادات غالبا ما يكونون متحرزين وأكثر رغبة في تلافي الإخفاق عوضا عن المغامرة في عمليات حاسمة. لكن البرْكيين تخلصوا من هذه المخاوف لاطمئنانهم بالاعتماد على الشعب ثم على أكثرية الأرستقراطية.

إذا كان القادة القرطاجيون لم يبدلوا دائما كل جهودهم، وإذا كان منهم من ظهر أنه غير قادر حقيقة، فإن منهم آخرين يرهنوا على مقدرة عسكرية حقيقية [68]. وهذا بغض النظر عن عَملْكار بَرْكا وحنّيبَعل الذين كانا عبقريين، وبغض النظر حتى عن حسْدْرُبَعْل، الابن الآخر لعَملكار، فهو لم يكن أدْوَن من أحد غير أخيه، ذلك أن طريقة تعيين قادة الجيش، كانت تساعد على أن يختار لكل حرب الرجل الذي يعتقد أنه الأصلح لتسييرها، مع الاحتفاظ به في مهمته طوال المدة اللازمة، وبهذا يستفاد من تزايد خبرته. وهذا أفضل من النظام الروماني القاضي بقنصلين في السنة، يزاولان القيادة بحق القانون، يزاولانها معا، ويتركانها حين تنتهي مدة ولايتهما.

ولم يكن هؤلاء القادة يترفعون عن الأمثلة التي قد تقدمها لهم شعوب أخرى، فقد اقتبسوا من الشرق القديم فن الحصار، ومن "باربار" Barbares شمال إفريقيا ممارسات حرب العصابات، كما اقتبسوا من

الهلينيين سلاح المشاة الثقال وتنظيم المعارك. واتخذوا إلى جانبهم بعض الإغريق العارفين عن طريق التجربة أو العلم : من قادة جربوا الحرب وخبروها، وعلماء كانوا يشرحون لهم الحروب الكبيرة السالفة. وقد ساعد كْسانْتيب اللَّسِدِموني Xantippe le Lacédémonien القادة الذين دحروا ريگُلوس. ولا شَكَّ أن نصائحه لم تضع، لأن هذه المعركة تشبه كثيرا المعارك التي نظمها حنيبعل بعد ذلك.

وكان القادة لا شك هم الذين يعينون الضباط الكبار. ولا نعرف منهم إلا الذين رافقوا حنيبعل في إيطاليا بعد أن تعلموا على ما يحتمل حرفتهم على عملكار وحسْدُرُبَعْل بأسبانيا. وهم : حنون ابن (الملك) بوملكار، وماگون أصغر البركيين، ومهربعل MaharBal وحسدربعل وغيرهم. وكلهم كانوا لحنيبعل أحسن المساعدين، يجرون المناورات بكثير من الذكاء وكذلك العمليات الخاصة التي يكلفهم بها، ويترك لهم حرية واسعة في اختيار الوسائل.

كانت قرطاجة على حق في الاعتماد على وطنية ضباطها الذين هم زهرة نبلائها. ومع ذلك فإن أحدهم خانها، وهو حيملكون فماياس H. Phamaias قائد الخيالة في الحرب الأخيرة ضد رومة. كما أن ضابطا آخر هو موتين Muttine، قائد الخيالة النوميدية بصقلية أثناء حرب حنيبعل قد مال إلى العدو. وكان أصل موتين هذا من إحدى المستعمرات الليبية الفينيقية. وكانت له أسباب جعلته يتبرم من قائده الذي أنزله عن منصبه ظلما. وقد صار موتين مواطنا رومانيا يحمل اسم فاليريوس موتينس Valérius Muttines. وبعد مرور عشرين سنة كان يقود النوميديين في جيش يخترق تراقيا Thrace ذاهبا لمحاربة الملك

أنتيوخوس Antiochus في آسيا، ونال التشريفات الرسمية في جزيرة دلفة Delphes.

إن الغرب، وعلى الأخص منه بلاد البربر وأسبانيا، كان يجعل رهن إشارة الجمهورية عددا كبيرا من الجنود الذين لم يكن دمهم ثمينا كالدم البونيقي، ولم تكن الجمهورية يعني نفسها بالمحافظة عليهم. بحيث إن قرطاجة إذا كانت تستفيد غاية الاستفادة في عملياتها الاستعمارية من الانتصارات التي تنالها بواسطة محكوميها ومرتزقتها، فإن إخفاقهم قليلا ما كان يؤلمها. وهؤلاء الرجال كانت حرفتهم هي الحرب، أو كانوا يتعلمونها بحملهم للسلاح مدة طويلة، فكانوا متعودين على المشاق، ويحسنون القتال. ولم يكونوا أقل قيمة ممن يواجهون من رجال دونيس وأگاتُكليس، إذ على غرار قرطاجة كان سادة سِرَقوسَة يجيّشون المرتزقة، لا من الإغريق فحسب، بل حتى من الغرب : من الكمبانيين والطُّسْكانيين Tescans والليغوريين Ligures والغاليين. وعندما يتواجه هؤلاء الجنود الذين انخرطوا في الجيوش بهذه الصفة، لابد أن يكون لهم ميل إلى أن لا يضر بعضهم ببعض ضررا كثيرا في خصومات لا شأن لهم بها. ومع ذلك لم يكونوا يرضون بأن يوصفوا بالجبن. وكانوا ينساقون لمن يحرضهم بوعود الهبات والغنائم. والعادة أن سلوكهم كان يتسم بالشجاعة.

كان الباربار المنخرطون في الجيش يصطبغون خلال عملهم به ببعض الصبغة الحضارية البونيقية. فإذا عادوا لمنازلهم ساهموا في بث هذه الحضارة وفي تقوية ونشر تجارة المدينة الإفريقية الكبيرة.

إن اختلاف اللغات، ومعه على ما يحتمل مشاعر الكراهية، التي تتولد عن الاختلاف في العادات، والتي يذكيها الفرق في الجرايات المالية،

كل هذا كان يمنع الجيوش من الاتفاق بينها ضد قادتها القرطاجيين. كما أن القادة الذين قد يريدون استعمال الجيش في قلب نظام الحكم لا يسهل عليهم وجود الفرصة المناسبة لعملهم هذا، لأن أكثرية الحروب كانت تقع بعيدا، ولأن الجيوش لم تكن تمر بقرطاجة إلا عند بداية حرب وعند نهايتها، أي عند تكوين هذه الجيوش وعند تسريحها. ففي الوقت الذي كان فيه أگاتكليس أمام المدينة، ظنّ بومِلْكار Bomilcar المكلف بالدفاع عنها أن بمستطاعه تحقيق مقاصده ومطامعه بمساعدة ألف أو عدة آلاف من المرتزقة، معهم بضع مئات من المواطنين، ولكنه أخفق. وقد نجح انقلاب آخر قبل ذلك بقرنين، ولم يكن تنفيذه قد وقع على يد الأجانب، وإنما على يد المواطنين رفقاء مَلْكوس Malchus.

ومن دون شك، فإن الجيوش البونيقية كانت لها نقائص كبيرة. فقد كان يصعب أن تخضع للطاعة الكلية هذه الجيوش المتباينة، التي كان القائد يبلغها أوامره بواسطة الترجمان، هذه الجموع من المغامرين الذين كانوا يخاطرون بحياتهم في المعارك ويحاولون خلالها أن يخففوا من عنفها، هذه الجماعات من أنصاف المتوحشين ذوي النفوس الحارة والطباع الحرة. ولا شك أن الغاليين لم يكونوا وحدهم الذين يعربدون، وإذا كان يقع حجز نساء وأطفال المرتزقة الذاهبين في الحملات الحربية، فإن هؤلاء كانوا يجدون دون شك من يعوضن المحجوزات.

وأشد ما في الأمر، هو بغض جل هؤلاء الرجال لقرطاجة، التي كان محكوموها يؤاخذونها على قسوتها في الحكم. فالنوميديون كانوا يخدمونها طاعة منهم لأمرائهم، ولأنهم كانوا يحبون الحرب والنهب، وكان من الممكن أن يحاربوها، بل إنهم قد حاربوها فعلا لما تحالف ملكهم مسّنيسا مع الرومانيين. والمرتزقة لم يكونوا أوفياء إلا لمن يدفع لهم

أحسن الثمن، ولم يكونوا يأنفون من الانتقال عن أحد المعسكرات إلى معسكر غيره حين يجدون فيه منفعة. وكثيرا ما أغضبهم القرطاجيون بالشح والتباطؤ في أداء الجرايات، كما أنهم بكبريائهم وبقسوتهم المهينة، وبانعدام الوفاء كانوا مدعاة للحقد.

في سنة 396 اندحر حيمِلْكون أمام سِرَقوسَة، ففر ليلا مع المواطنين تاركا بكل نذالة بقية جيشه. وتحكى أيضا حكايات أسوأ من هذه : يقول تيمي Timée : عقب إحدى الحروب ضد السرقوسيين، طالب 6000 من المرتزقة بشدة بالمال الواجب لهم، ولم يكن بالمستطاع أداؤه لهم لأن الخزينة كانت فارغة. وبأمر سري من مجلس الشيوخ، دعاهم قادتهم إلى إحدى الحملات وهم يمنونهم بالمغانم لا شك، وبعد ما أنزلوهم في إحدى الجزر الصغيرة، أخذت السفن طريقها في عرض البحر، فمات البؤساء جميعا من الجوع، وسميت الجزيرة منذ ذلك باسم جزيرة العظام(69). وقد انتشرت هذه الحكاية، كما أذيعت من بعد، حيث اتهمت قرطاجة بأنها، لمرتين أثناء الحرب الأولى ضد رومة قد تركت بالجزر الجرداء المرتزقة الذين ألحوا في المطالبة بجراياتهم. فكانوا بسطاء وقعوا في خديعة أصبحت معتادة. كما أن غيرهم ألقي بهم في البحر، أو جرى تقتيلهم ليلاً على يد عَمِلْكار بَرْكا، وغيرهم أسلموا بلباقة إلى ضربات الرومانيين. وهذه خرافات يجب تنحيتها. إن بعض النصوص الموثوق بها تبرهن على أن التمرد والفرار لم يكونا نادرين في الجيش القرطاجي، والمعتقد هو أن الغاضبين لم يكونوا دائما على خطأ. وقد عقبت الحرب البونيقية الأولى ثورتان، إحداهما انتزعت سردانية من يد قرطاجة، والأخرى كانت هي "الحرب المبيدة"، أي الفتنة القاسية التي طال إشكالها لتفاقم الأحقاد فيها.

لقد أنقذ عملكار وطنه بالقضاء على جنوده القدماء.. ورغما عن هذه التجربة فإنه كوّن بعد ذلك جيشا مماثلا جدا للجيوش السابقة، التي كانت أيضا مكوّنة من المحكومين والحلفاء والمرتزقة - ولو أن الآخيرين كان عددهم قليلا - وبذلك كانت نقيض ما يسمى بالجيش الوطني. ذلك هو الجيش العظيم الذي كونه البرْكيون، وحافظوا عليه، وجددوه طوال سنين عديدة، الجيش الذي أخضع قسما كبيرا من إسبانيا، وسحق الرومانيين في تْريبيا وفي تْراسِمان وكنس Cannes، وصارت بقاياه الأمل الأكبر لابن عملكار في زاما.

يقول پوليبْ Polybe : «إن حنيبعل طيلة ست عشرة سنة من حربه ضد الرومانيين في إيطاليا لم يعط أية عطلة لجيوشه، بل إنه على غرار السائق الماهر احتفظ بها تحت يده، من غير أن تقع أي فتنة بين أفرادها أو ضده هو. ومع ذلك لم يكن جيشه متكونا من قبائل فحسب، بل كان يضم أجناسا مختلفة جدا، فكان معه الليبيون والإيبيريون والليغوريون والغاليون والفينيقيون والإيطاليون والإغريق، الذين لم يكن يجمعهم قانون ولا عادات ولا لغة، بحيث لم يكن بينهم أي رباط طبيعي... وكان له من الحصافة ما مكنه أن يلزم بطاعة واحدة، وإن يخضع لفكرة واحدة رجالا شديدي التباين، رغما عن تحولات الحرب ورغما عن تقلبات الحظ التي هي موافقة حينا ومخالفة حينا آخر... ولم يواجه مؤامرة أبدا، كما لم يخنه أبدا رفقاؤه في السلاح»(70). فإعجاب المؤرخ ودهشته لهما ما يبررهما. ومن دون شك فقد عرف حنيبعل - كما عرف عملكار من قبله - كيف يغرسان الوفاء الثابت في نفوس جنود لم يكونوا يشعرون بأية مودة لقرطاجة، ووجدا فيهم الأداة الطيعة لمقاصدهما الكبرى.

إذن فلقد أظهر النظام العسكري الذي ابتكره الماكونيون صلاحيته، وأعطى لمستعمرة صُور Tyr أمبراطورية في الغرب، كما أن الحملتين الكبيرتين اللتين وقعتا بصقلية في نهاية القرن الخامس قد علمتا الإغريق – وعلى حسابهم – فن الحصار. وكذلك فإن استيلاء البركيين على أسبانيا يمكن أن يستحق الذكر بجانب استيلاء يوليوس قيصر على بلاد الغال لو كنا نعلم قصة ذلك الاستيلاء. والمعارك الكبرى التي خاضها حنيبعل مكثت مثالا للستراتيجية العصرية. ويظهر سِيسرُون Cicéron التناسي حين كتب أن قرطاجة بانهماكها الكلي في التجارة والملاحة قد أهملت الزراعة والأسلحة، قرطاجة هذه التي ألف فيها ماگون كتاب الفلاحة الذي ترجم إلى اللاتانية بأمر من مجلس الشيوخ، هذه المدينة "الشديدة جدا في أعمال الحرب" كما قال عنها قِرْجيل Virgite مادحاً.

ومع هذا، وبالرغم عن قرنين من الجهود المبذولة، فإنها لم تستطع تنحية الإغريق عن صقلية باب امبراطوريتها في البحر الأبيض المتوسط، حتى طردها الرومانيون عن هذه الجزيرة، كما فقدت أسبانيا ولم يمر سوى ثلاثين سنة على بدء استيلائها عليها. والمعاهدة التي أنهت حرب حنيبعل جعلتها تحت رحمة مزاحمتها الإيطالية وتحت رحمة مسِّنيسا.

وإذا كانت قد أخفقت في صقلية، فمرجع ذلك على الخصوص إلى حكومتها الأرستقراطية التي لم تكن تحب الحرب، وهي لذلك تنتظر غالبا أن تهاجم لتتحرك، ولم يكن لها العزم الوطيد على أن لا تضع السلاح إلا بعد النصر الكامل. إن وجود القادة العازمين، والجيوش التي تتجدد بسرعة عقب الاندحار، وتتقوى بعد النصر، كل هذا كان من شأنه أن يقهر الإغريق. غير أن الولاية الإفريقية لم تكن شاسعة الأطراف، بحيث تمون وحدها جيوش الجمهورية. ونفقات المرتزقة كانت باهظة. ولم تكن

المقادير المالية اللازمة موجودة دائما. أما القادة العسكريون فنعلم لماذا كانوا غير متحمسين. إذن فليس النظام العسكري بقرطاجة هو المسؤول عن إخفاق مطامعها في الجزيرة، وإنما المسؤول عنه هو سوء استعمال حكومتها لذلك النظام.

لقد رأى حنيبعل حين شرع في المعركة الحاسمة ضد الرومانيين، أن قوات قرطاجة، حتى ولو انضافت لها خيرات أسبانيا، لن تكون كافية لجعلها تنتصر، وأنه لابد من دعوة الشعوب الأخرى لمد يد المساعدة. غير أن هذا الحلف لم يتكون على النحو الذي كان يرجوه.

ورغما عن كل ما قيل، فإن قيمة جنود الفيالق الرومانية كانت أحسن من قيمة الجنود البركيين. لقد كانت أجسامهم قوية عادة، ولا يقلون عن الآخرين جرأة، وكانت أسلحتهم أقوى، ويحبون المجد، ويعلمون أنهم يقاتلون من أجل عائلاتهم وخيراتهم، وتصحبهم حيثما كانوا فكرة التضحية التي يفرضها الوطن عليهم. وهو شعور أشد عملا من إخلاص أصحاب حنيبعل لشخص قائدهم. وبعد الاندحارات التي لقيتها رومة، والتي كان أحد أسبابها قلة خيالتها، وجدت من المواطنين ومن الحلفاء بالهضبة الإيطالية ما يكفي لتكوين جيوش جديدة. وقد ساعدها الحظ أيضا فاستطاعت أن تواجه القادة القرطاجيين بأسبانيا، وتواجه حنّيبَعل في إفريقيا بمن هو أشد مهارة من أولئك، وبمن يكاد يعادل الآخر. ففي زاما Zama كانت التخطيطات التي وضعها الخصمان تتسم بالدهاء. غير أن الجنود القدماء الذين شهدوا الحروب الإيطالية لم يكونوا بالجيش البونيقي أكثر من ثلثه، أما الباقي فكان متكونا من المجندين القرطاجيين والليبيين ومن المرتزقة الذين جندوا حديثا. وقد صمد المشاة الرومانيون في وجه المشاة الأعداء الوقت الضروري

لتمكين الخيالة من العمل الذي قرر النصر. فشوهد في ذلك اليوم أن جيوشا متباينة، ولو كان يحركها مثل حنيبعل، ولو أنها تتفوق بالعدد، لم تستطع الانتصار على رجال يوحد بينهم حب الوطن المشترك.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي استعملت فيها قرطاجة المرتزقة. فقد كان جلهم من النوميديين وكانوا قد تخلوا عنها. أما بداخل أسوارها فكان يعيش أناس لهم وداعة وقلما يصلحون لأن يستعملوا الأسلحة الموضوعة في أيديهم استعمالا حسنا. وكذلك فإن منطقتها الضيقة جدا، والتي زاد من ضيقها اغتصابات مسِّنيسَا، كان يعيش بها الأهالي الذين فدحتهم فروضها من غير أن تفكر في تقريبهم منها.

كانت فيما مضى قد انتصرت على زحف أگاتُكْليس وريگلوس. ولكن الأمر آنذاك كان يعني محاربة بضعة آلاف من الأعداء المعزولين في إفريقيا، وتستطيع هي أن تتمون عن طريق البحر بالزاد، وأن تستقدم الجنود الذين تؤدي لهم ثمن خدمتها. وأثناء الثورة المرعبة التي قام بها المرتزقة ومحكوموها وجدت من النوميديين حلفاء، وكانت آنذاك لا تزال تتصرف في البحر.

أما في أواسط القرن الثاني. فكان من جنونها أن تهاجم مسِّنيسَا الملك القوي وتواجه حربا ضد رومة، جنون البطولة الذي أضفى على نهايتها شعاعا من المجد ! لأن أسوارها التي ربما تم بناؤها في عهد البركيين العظيم قد ساعدتها على المقاومة مدة ثلاث سنين.

حكومة قرطاجة

الفصل الرابع

الملاحة الحربية

1

تتطلب الحملات إلى ما وراء البحار أساطيل لنقل الجيوش والخيول ومعدات الحصار والمؤن. وبالطبع فإن الدولة كانت تحتجز السفن التجارية التي يملكها الخواص، وهي منشآت عريضة كان الفينيقيون يسمونها السفن المستديرة، وكانت تسير بالقلوع. وتضم القوافل مئات إن لم نقل آلافا من هذه السفن كما تدل النصوص على ذلك[71].

وكان لابد من حمايتها بالسفن الحربية، التي كانت لها مهام أخرى تقوم بها، كالقتال في المعارك المصفوفة ضد أساطيل الأعداء، والعمل على تحطيمها، وإحداث الخسائر بالموانئ والسواحل التي تظهر بها بغتة، وجمع المغانم منها، وحصار المدن البحرية أو تخليصها، ومنع محاولات إنزال الجيوش من جهة البحر. وإذا أبرم الصلح فإن أغلب هذه السفن الحربية ينزع عنها سلاحها. على أن بعضا منها يستعمل مع ذلك في الحراسة ضد القراصنة ولحماية سلامة الطرق والمواقع التجارية.

لم يحدث أن تواجهت قرطاجة مع ملاحة الأتروريين Etrusques الذين كانوا حلفاءها، ونجهل هل اصطدمت في القرن السادس ببحرية مملكة طَرْطِسوس Tartessos الأسبانية القوية. ولكنها في هذا العهد، وحتى فيما بعد على ما يحتمل، حاربت الفوصيّين Phocéens في مياه الغرب. كما اضطرت في القرنين الخامس والرابع أن ترد على التسلح الواسع الذي كان لسِرَقوسَة، مزاحمتها في البحر والبر. أما الحرب البونيقية الأولى فكانت على الخصوص حربا بحرية، وكانت أكبر حروب الأعصر العتيقة، بينما كادت القرصنة أن تكون بلية دائمة الوجود بالبحر الأبيض المتوسط. ومن دون شك فإن القرطاجيين كانوا يرغبون في القضاء عليها حين تزاول ضدهم، ويزاولونها لصالحهم.

ونجد عند الكتاب عدة معلومات تتعلق بأعداد سفن الأساطيل الحربية القرطاجية. غير أنها في الأعم ليست أكثر وثوقا من الأعداد المذكورة عن الجيوش.

فحوالي سنة 535 خاضت المعركة، كما يقول هيرودوت، 60 سفينة بونيقية، وبجانبها 60 سفينة أَتْرورية، ضد 60 سفينة فوصية في المياه القريبة من جزيرة كُرْسيكا. وفي 480 قاد عَمِلْكار 200 سفينة في حملته على الإغريق بصقلية. كما أن عمارتين Escadres إحداهما من 60 قادسا Galères والأخرى من 120 قد ورد ذكرهما في سنة 409 وسنة 406. وفي السنين الموالية أنشأ دونيس Denys لسِرَقوسَة أسطولا عظيما، والمعتقد أن قرطاجة أخذت هي أيضا تتهيأ حتى لا تؤخذ على غرة. وكذلك، فإن حيملكون وقف سنة 398 ومعه 100 من أحسن سفنه أمام موتْية التي كان الإغريق يحاصرونها، كما أنه – حسب إيفور Ephore الذي اعتاد أن يذكر أعداد مبالغا فيها – قاد بعد ذلك بسنة واحدة إلى صقلية أسطولا

من 400 سفينة حربية. غير أننا إذا اعتمدنا نصوصا أخرى ربما هي أكثر دقة، فإن الأسطول البونيقي يكون أقل عددا، وإن كان يتجاوز عدد 200 سفينة بما فيها الكبيرة والصغيرة. وقد حطم معظمها أمام سرقوسة سنة 396. ولا يظهر أن قرطاجة سارعت إلى إنشاء غيرها. ثم لا نعثر على أسطول من 200 قادس بعد ذلك إلا في سنة 368. كما جرى ذكر لعمارات مكونة من 150 سفينة حوالي 345-343، ومن 200 في سنة 339 ومن 70 في سنة 338، ومن 130 سفينة في سنة 311، ومن 120 أو 130 وكذلك من 100 سفينة في سنة 287.

ولا تتفق النصوص فيما يتعلق بأعداد القوات البحرية التي تحاربت فيما بينها أثناء الحرب القرطاجية الرومانية الأولى. ولكن قد لا يبعد عن الصواب أن يكون القرطاجيون حشدوا نحو 200 سفينة بصقلية عند بداية الحرب، وأن تكون لهم 130 سفينة في معركة ميلس Myles التي ضاعت لهم فيها على ما يقال 50 سفينة، منها ما وقع إغراقه ومنها ما وقع أسره. وبعد أربع سنين، أي في معركة إكنوم Ecnome التي جرت سنة 256، كان معهم 350 سفينة، بينما كان الأسطول الروماني يضم 330 سفينة تحمل كل واحدة منها 300 من الجدافين و120 من الجنود المقاتلين، الأمر الذي يعطينا رقما إجماليا يقارب 140.000 رجل. وعلى ما يبدو فقد كانت هذه السفن كلها من الخماسيات Quinquérèmes (لها خمسة صفوف من الجدافين). هذه هي المعلومات التي يذكرها پوليبْ Polybe الذي يحصي أن 350 سفينة بونيقية كانت تحمل أكثر من 150.000 رجل. ولكن، لابد أن الأسطولين كانا يضمان أيضا سفنا أصغر حجما، وتحمل أقل من 420 رجلا، كما أن عدد السفن بهما مبالغ فيه، حتى لو قلنا إن العدد لم يكن من الخماسيات فحسب. ويتابع المؤرخ الإغريقي قائلا : إن القرطاجيين فقدوا في هذا اليوم 94 قادسا.

فبقي لهم إذن 256 سفينة. لكنهم عندما كونوا بعد ذلك بقليل أسطولا من 200سفينة، لم يكتفوا بإصلاح ما كان عندهم منها، بل أخذوا يصنعون سفنا أخرى. ولقد اندحروا من جديد سنة 254 في مياه الرأس الطيب، فاستولى الرومانيون حسب پوليبْ Polybe على 114 سفينة، بينما يذكر كتاب آخرون أرقاما أخرى. وأنشأت قرطاجة من جديد أسطولا آخر ربما كان من 200 سفينة، إذ أن 100 أو 120 قادسا قامت سنة 248 بحملة على الشواطئ الجنوبية لصقلية. وبالطبع فإن هذا لم يكن هو مجموع القوات البحرية الموجودة في هذا العهد. وفي معركة جزر إيگات Aegates التي جرت سنة 241 كان حنّون، قائد البحرية، أميرا على 200 قادس حسب رواية ديودور الصقلي، أو على 400 سفينة حسب رواية تيتْ ليڤْ، فأغرق الرومانيون منها 117 سفينة وقيل 120، وقيل أغرقوا 188 سفينة. ويؤكد پوليبْ Polybe أن القرطاجيين فقدوا أثناء هذه الحرب نحوا من 500 سفينة.

أما الحرب البونيقية الثانية فكانت فيما يتعلق بالبحرية أقل أهمية من سابقتها. ويظهر أن القرطاجيين لم يكونوا عند بداية هذه الحرب يتوفرون إلا على عدد ضئيل من القوادس، بحيث إن 57 منها كانت بأسبانيا، غير أن 37 من بينها فحسب هي التي كانت مزودة بالبحارة. وفي السنة الموالية سلح حسْدُرُبَعْل، أخو حنّيبعل، أسطولا من 40 سفينة، لكن 27 منها أغرقت أو أسرت في معركة جرت عند مصب نهر الإيبَر. وعندما استولى سيبْيون على قرطاجنة Carthagène سنة 209 لم يجد بها سوى 18 سفينة حربية. وفي 218 غادرت قرطاجة عمارتان، بإحداهما 20 قادسا وبالأخرى 35، وذهبتا على ما قيل إلى مياه إيطاليا الجنوبية وإلى صقلية. (ويقال إن هذا العدد وهو 55 قد أسر منه 10 سفن)[72]. كما أن 70 سفينة قد وقع تجهيزها سنة 217 وظهرت عند

شواطئ أتّروريا. وكذلك فإن 60 سفينة كانت أول الأمر مهيأة للذهاب إلى إيطاليا، قد خفرت جيشا إلى أسبانيا خلال سنة 215، بينما خفر أسطول آخر جيشا ثانيا إلى سردانية. وفي 213 ثم 212قدم أمير البحر عملكار إلى صقلية ومعه 55 قادسا، ثم 100 وأخيرا 130 منها. وحسب تيتْ ليڤْ، شاع الخبر سنة 210 وفي السنين الموالية لها، بأن القرطاجيين يهيئون أسطولا كبيرا للقيام بحملة على صقلية أو على سردانية أو على إيطاليا، وقد جرى الحديث كما يقول الكاتب عن 200 سفينة سنة 208. أما العمارات التي تحدثت نصوص غير ثقة عن وجودها بين سنة 210 و205 فإنها لم تكن مع ذلك عمارات قوية، أي كانت 40 سفينة سنة 210 عند شواطئ سردانية، كما كانت 83 سفينة سنة 208 و70 في سنة 207 في المعارك التي جرب بالقرب من الرأس الطيب وأوتيكا. أما في سنة 205 فإن نحوا من 30 سفينة قادمة من أسبانيا قد غادرت مينورقة Minorque قاصدة ليغوريا. وعند نهاية الحرب تم تجهيز أسطول عظيم بقرطاجة، وهاجم سنة 203 أسطول سيبْيون الذي كان راسيا أمام أوتيكا. أما عدد 100 سفينة الذي نجده عند أبْيان Appien فليس عددا أكيدا. ولما أرغم القرطاجيون على إبرام الصلح، فرض عليهم سنة 201 تسليم جميع سفنهم الحربية باستثناء 10 ثلاثيات. ويقال إن سيبْيون أحرق 500 من هذه السفن على مرأى من المدينة. فإذا صح هذا العدد يكون جل السفن من حجم صغير. ولنتذكر أن حول الحوض المستدير للكوثون Cothon كان يوجد 220 موقفا، من بينها 160 إلى 170 يمكن أن تؤوي السفن الخماسية. وهي مراقف لا يرجع تاريخ إنشائها على ما يظهر إلى عهد أقدم من القرن الرابع.

ولقد امتثلت قرطاجة مدة تفوق خمسين سنة لما فرضته رومة عليها، وهو أن لا تملك أكثر من عشر ثلاثيات. ويقول بعض الكتاب عن

خطأ إن قرطاجة هيأت في السر أسطولا خلال سنوات ما قبل الحرب البونيقية الأخيرة، وأنشأت أسطولا عندما كان الرومانيون يحاصرونها. وحسب أپْيان Appien كان هذا الأسطول يضم 50 سفينة كبيرة وكثيرا من السفن الصغيرة، ولربما يكون المجموع هو 120 سفينة، أي العدد الذي ذكره سْترابون Strabon.

2

إن الدولة التي كانت تقرر تكوين الأساطيل، كانت تتكفل دون شك ببناء السفن أو بترميمها وكذلك بتكوين ما يلزمها من البحارة، وكان أسطولها هو الذي كانت تؤويه مقاصير الميناء العسكري، الذي تشرف عليه البناية العالية، حيث مقر أمير البحر. على أن إحدى روايات پوليبْ Polybe توضح لنا أن بعض الخواص كانوا يملكون سفنا مماثلة لقوادس الدولة. ولا محالة أنهم كانوا يستخدمونها في القرصنة. ويحتمل أيضا أنهم كانوا يجعلونها عند إشارة الجمهورية حين تحتاج إلى مضاعفة عدد سفن الخط.

إلى ما حول بداية القرن الخامس كانت العمارات الإغريقية تتكون على الخصوص من سفن لها خمسون مجدافا Pentéconteres ومن هذا النوع كانت سفن الفوصيين التي أغرقها القرطاجيون حوالي سنة 535 بالقرب من كُرْسيكا. والقرطاجيون أيضا كانت لهم سفن بخمسين مجدافا، واستعملوها لمدة طويلة. فقد اصطحب حنّون معه 60 منها في حملته الشهيرة على طول السواحل الإفريقية، الحملة التي ربما جرت في القرن الخامس. كما أن 40 منها على الأقل كانت ضمن الأسطول الذي قاده حيملكون سنة 396 أمام سرِقوسَة، وقعت الإشارة لوجودها سنة 240 ق.م.

حسب إحدى الروايات التي نجد صداها عند كليمَنْت السكندري Clément d'Alexandrie، فإن الفينيقيين من أهل صَيْدة هم الذين اخترعوا الثلاثيات، أي السفن التي لها ثلاثة صفوف متراكبة من المجاديف، أما حسب توسديد Thucydide فإن هذا الاختراع وقع في كورَنْث Corinthe حول سنة 700. وعلى كل فإن السفينة الثلاثية صارت في القرن الخامس هي السفينة الحربية الممتازة. واستعملها الفينيقيون المشارقة كما استخدمها فينيقيو المغرب. وبنوا الثلاثيات حتى قبيل تحطيم قرطاجة.

وكذلك فإن اختراع السفينة الرباعية يعزوه أرسْطو إلى القرطاجيين، (وهذا إذا كان الناسخون لأرسطو لم يخطئوا). ومع ذلك فإن النصوص التي تذكر وجود الرباعيات بالأساطيل البونيقية قليلة العدد، وترجع إلى القرن الثالث. أما الخماسية فكانت على النقيض من ذلك هي النوع الذي تفضله الملاحة القرطاجية في عهد الحروب ضد رومة : فالأسطول الذي تركه حنّيبعْل في أسبانيا، كان به 50 خماسية، رباعيتان فحسب و5 ثلاثيات. ولا ندري متى أخذ الفينيقيون الغربيون يستعملون الخماسية. أما الأثينيون فقد انتظروا حتى الثلث الأخير من القرن الرابع، ثم بنوا سفنا لها أربعة أو خمسة صفوف من المجدفين، ولا يبرهن أي نص على أن القرطاجيين استخدموها قبل هذا، ولكن يسوغ مع ذلك القول به. فمنذ بداية نفس القرن أمر دونيس القديم Denys l'Ancien مصانع سِرقوسَة بصنع الرباعيات والخماسيات، وحسب دِيودور الذي ينقل عن تيمي Timée دون شك، لم يقع أن بنيت الخماسيات قبله. فيمكن الافتراض بأن قرطاجة لم تتباطأ كثيرا في استعارة هذا الاختراع النافع من عدوها.

أما خلفاء الإسكندر فكانت لهم سفن يصطف بها المجدفون على 6 وعلى 7 صفوف، بل على أكثر من ذلك. وبالغرب كانت سفينة أكاثُكليس

الملكية تساعية (بتسعة صفوف من المجدفين)، كما كان بأسطوله عدد من السداسيات. وفي معركة إكنوم Ecnome التي جرت سنة 256، كان القنصلان الرومانيان يركبان السداسيات. ويذكر كاتب من عهد متأخر(73). أن پوليبْ Polybe ذكر مقاييس السفن السداسية التي كثيرا ما استعملها الرومانيون والقرطاجيون في الحروب التي جرت بينهم. ومع ذلك لا يظهر أن هذه السفن كانت لها حظوة عند القرطاجيين، لأن المؤرخين لا يذكرونها. وفي ميلس Myles، كان أمير البحر حنيبعل على ظهر سفينة سباعية (لها سبعة صفوف من المجدفين)، ولكنهم أضافوا بأنها كانت على ملك بيرْهوس Pyrrhus، فلابد أنها قد أسرت أثناء الانتصار على هذا الملك سنة 276. ويحتمل أن القرطاجيين - وبصفة عامة - قد تمسكوا بالخماسية.

زيادة على سفن الخط، وبغض النظر عن زوارق الانقاذ، كانت البحرية العسكرية تضم سفنا صغيرة مثل المخبرات Avisos والشراعيات Brigantins الخفيفة، التي كانت توجه حركات الأسطول، وتبلغ الأوامر والأنباء بسرعة، والتي زودت بمهماز في صدرها. فكانت تشارك في المعارك، وتنتقل وسط العدو، وتناوشه، وتكيل له الضربات المباغتة، وتطارد بحارة السفن المعطوبة وتغرقهم.

وليس لدينا أية صورة صادقة عن السفن القرطاجة، لكن لابد أنها لم تكن مخالفة للسفن الإغريقية التي يسميها الكتاب بنفس الأسماء، وكانت مثالا احتذاه الرومانيون في عهد الحرب البونيقية الأولى. ولقد كانت الخطة البحرية تفرض سفنا خفيفة، تناور بسرعة، ولها قدرة كبيرة في الاندفاع، فكانت تصنع ضيقة ليمكنها شق الماء بسهولة، وطويلة كي تحمل عددا كبيرا من المجدفين، وكي تتضاعف قوة الصدم في المهماز.

ولابد أيضا من أن تكون متينة الصنع لتقاوم ضربات الخصم، وبالغة الاتزان رغم ضيقها - لتجابه الهياج البحري. وقد كان القرطاجيون يتقنون صنعها، ويجدون في غابات شمال تونس المواد الضرورية، ولربما أنهم كانوا يذهبون بعيدا إلى الداخل لجلب خشب الصنوبر الذي كان يفضل غيره من جميع الأنواع. أما المسد الذي كانوا يصنعون منه الحبال، فكان يوجد بكثرة في أسبانيا بناحية قرطاجة.

إننا نعلم الوصف الذي أورده أپْيان Appien نقلا عن پوليبْ Polybe للميناء العسكري بقرطاجة. غير أن أمكنة أخرى كانت توجد فيها موانئ تقيم بها العمارات، كما توجد فيها مصانع للأسلحة. ففي أسبانيا كانت قرطجَنّة في عهد البركيين محطة بحرية مهمة بها مصانع ومعامل. ولربما أن منشآت مماثلة كانت توجد في بعض الموانئ الحسنة بصقلية وسَرْدانية كبَالِرْم وليليبي وكالْياري. أما السفن التي كانت تشارك في الحملات فيما وراء البحر، فكانت تُجرّ عادة إلى اليابسة حيث تبقى طيلة فصل الشتاء أو حين تكون الجيوش في القتال. وهكذا تصان عن الهياج البحري ويحميها عن الهجمات المحتملة سور حصين.

كان الرجال العاملون في سفينة ثلاثية نحوا من 200 رجل من المجدفين والبحارة، وبالخماسية نحو 300، بحيث إن عمارة مكونة من 100 سفينة، مثلا من 60 خماسية و20 ثلاثية و20 خمسينية Pentéconteres كانت تتطلب نحوا من 24.000 رجل، عدا المحاربين. وليس لدينا عن استنفار رجال البحرية سوى خبر واحد من كاتب مريب هو أپْيان Appien الذي يقول : في سنة 205-204 كان المنتظر وقوع حملة رومانية على إفريقيا، وكان حسدربعل قائدا أعلى للقوات القرطاجية بهذه المنطقة، فاشترى 5000 من العبيد لمزاولة المجاديف. ونجهل هل كان يقع

احتجاز العبيد الذين على ملك الخواص. يطلق تيتّ ليفّ على رجال السفينة اسم حلفاء الملاحة Socii navales. ولكن هذا التعبير كان جاريا عند الرومانيين الذين كانوا يطلبون من المدن الحليفة السفن ومن يعملون على ظهرها. ولقلة اهتمامهم بالدقة الكاملة، فإنهم استخدموا نفس التعبير بالنسبة للقرطاجيين. ولا يبرهن هذا على أن الرجال الذين كانت قرطاجة تحتاج إليهم لبحريتها قد أخذ معظمهم من المدن الساحلية الفينيقية والبونيقية. ومع ذلك يحتمل أن هذه المدن كانت تزود قرطاجة بالمجدفين والبحارة. ففي سنة 206 مرّ ماگون البرْكي بجزيرة بيتْيوس Pityuse (أي جزيرة يابسة Ibiça) وهي مستعمرة للقرطاجيين منذ أربعة قرون ونصف، فأخذ من رجالها للعمل في أسطوله، كما فعل مثل ذلك عند قضائه الشتاء بجزيرة مينورقة التي كان يسكنها الأهالي المستقلون. إذن فقد كان من أخَذهم ماگون Magon مرتزقة، إذ لم يكن له وقت للاختيار، فكان يأخذ كل من تقع عليه يده. وقبله ببضع سنين كان أخوه وحسْدُرُبَعْل قد أخذ رجالا من المحكومين الأسبان. ورغما عن انعدام البراهين المؤكدة، فيمكن أن نقبل على وجه العموم بأن الجمهورية كانت تجد معظم رجال السفن بقرطاجة نفسها، التي كان رجال البحر بها يوجدون بكثرة في الطبقة الشعبية السفلى.

كانت دون صعوبة تجد بين مواطنيها الربابنة ذوي التجربة، الذين كان يركب اثنان منهم ظهر كل قادس، وبذلك لا يحدث ارتباك إذا فقد أحدهما، كما تجد في نبلائها قادة خبيرين بالشؤون البحرية. ومع ذلك، ففي عهد كانت فيه البحرية البونيقية متدهورة، أسند حسدربعل أخو حنيبعل بعض السفن إلى ضباط أصلهم من جنوب أسبانيا. فأظهروا جليا عدم كفاءتهم، ثم غضبوا من التوبيخات الصائبة التي تعرضوا لها، ودفعوا بمواطنيهم إلى الثورة.

وطبعا فإن القيادة العليا كانت موقوفة على شخصيات عليا من الأرستقراطية. ولم يكن هناك تمييز واضح بين قادة البر وقادة البحر. فنفس الرجل كان يجعل تارة على رأس جيش وتارة على رأس أسطول كبير، وربما جعلت تحت إمرته في آن معا قوات برية وبحرية. وقد يحدث أيضا أن قائدا أعلى يكون له مساعد مكلف بالأسطول خصوصا.

وكان الإغريق والرومانيون يعترفون بوضوح بأن القرطاجيين بحارة مهرة كإخوتهم أهل فينيقيا. فالبحر الأبيض المتوسط لم يكن له سر عنهم، ولا فيه مفاجأة لهم. كانوا يعرفون جهاته الخطيرة، وسواحله المأمونة، وممرات الموانئ، والأوقات التي يمكن أن يخشى فيها وقوع الهياج، حتى ولو كانت في فصول الصحو، ولا يخطئون توقع العواصف. وفي الليل كانوا ينظمون رحلتهم على النجم القطبي الذي هو دليل أضمن من الدب الأكبر المفضل عند الإغريق. وعند عبورهم البحر كانوا يستعملون القلوع إذا كانت الرياح موافقة. بل إنهم بفضل ما لبحارتهم من مهارة، كانوا أحيانا ينشرون قلوعهم بنشاط على مرأى من العدو، فينجون منه حين يظن أنهم وقعوا في قبضته. أما في المعركة فتطوى القلوع، وكل المناورات كانت تجري بالمجاديف. ولقد مدح كثير من الكتاب خبرة ومهارة المجدفين القرطاجيين، الأمر الذي يسوغ الاعتقاد بأن الذين كانوا يؤخذون للعمل لمدة إحدى الحروب، قد كانوا من أهل المهنة على الخصوص، وبالتالي من سكان العاصمة المشتغلين في البحر.

كانت الخطة ترتكز على إحداث نقب في السفن العدوة بواسطة المهماز الموضوع في مقدم الجؤجؤ، كما ترتكز على تلافي الوقوع في مثل ذلك. فكان لابد من الروغان بسرعة لأخذ الخصم من جانبه، وإحداث النقب ثم تخليص المهماز لتلافي الأخطار والرد السريع. وفي حالة ما

إذا كان الوضع لا يساعد على إنزال الضربة المصيبة، يمكن أيضا المرور بالقرب من السفينة وتكسير مجاديفها. ولا أمل في النجاة للقادس الذي توصلت للاحداق به عدة قوادس وتألبت عليه. وقد ذكر سوسِلوس Sosylos الكاتب الذي أرخ لحنّيبعل العظيم مناورة كان القرطاجيون يفضلونها، قال : عندما يواجهون أحد الأساطيل، وقد اصطفت قطعه عارضة جآجئها، فإنهم كانوا يتقدمون إليها، ولكن عوض أن يهاجموها في الحين، كانوا يمرون بين السفن، ثم يستديرون ويرتمون على جوانبها وينقبونها.

وكان لهم، على غرار ما في بحرية الغير، كلاليب ومخاطف (أي أيد من الحديد) يرمونها على السفن الحائرة أو التي انقلبت وذلك ليمسكو بها ويجروها. غير أنهم لم يكونوا على ما يظهر يستعملون هذه الكلاليب لتهيئة اقتحام السفن العدوة، لأنهم كانوا لا يحبون معارك المصارعة جسما لجسم، حيث لابد أن يواجهوا أعداء غالبا ما يكونون أقوى أبدانا وأكثر جرأة. كانوا يحبون التوصل للغلب بضربات مهاميزهم وبمهارة مناوراتهم. لهذا فإن قوادسهم على ما يحتمل لم تكن تحمل سوى عدد صغير جدا من الجنود المزودين على الخصوص بأسلحة القذف كالقسي والمقاليع والرماح. على أن الخطة الرومانية التي اضطرتهم لقبول الصراع برجل مقابل رجل كما على اليابسة، قد فرضت الزيادة في جيوش البحرية، بحيث إن أمير البحر حَنّون لم يكن سنة 241 ينوي خوض المعركة قبل أن يركب في السفن قسما من قدماء جيش عَمِلْكار، غير أن الرومانيين لم يتركوا له الوقت ليركبهم.

3

لا شك أن البحرية البونيقية استحقت المدائح التي لم يبخل بها أعداؤها عليها. ومع ذلك فكثيرا ما كانت تندحر.

ومهما يكن قول الفوصيين، فلا يجب أن نعد القرطاجيين اندحروا في تلك المعركة العظيمة التي جرت بالبحر الترهوني Tyrrhenienne، والتي اتحد فيها القرطاجيون مع الأتروريين ضد أسطول أضعف من أسطولهم مرتين. لكن مرسيليا الفوصية قد نالت من بعد على مزاحمتها الإفريقية انتصارات لايشك فيها.

أما سِرَقوسَة فقد كان لها في عهد دونيس المتأمر Denys le Tyran بحرية تضاهي ما كان لقرطاجة. وتعادل النصر والهزيمة بينهما، فاندحر حيملكون سنة 398 أمام موتْية Motyé، كما حطم أسطوله أمام كاتان Catane سنة 396 قسما من الأسطول الإغريقي الذي هاجمه دون تبصر، غير أن نفس الأسطول أصابته نفس الكارثة في ميناء سِرَقوسَة العظيم، بينما كان النصر سنة 368 حليف القرطاجيين الذين أوقعوا الهزيمة بأسطول أقل عددا من أسطولهم (200 سفينة ضد 130).

لم تجر معارك بحرية عظيمة في عهد أكاتُكْليس. والمعارك القليلة الأهمية التي وقعت، كانت القوادس البونيقية تصاب فيها بالإخفاق تارة ويصيبها النجاح تارة أخرى. ولم تقدر هذه القوادس على منع أكاتكليس من أن يخرج مرتين من سِرَقوسة وهي تحاصرها، ولا أن تمنعه من إنزال جيوشه بإفريقيا، كما أنها لم تجرؤ على مهاجمة بيرْهوس عندما عبر من إيطاليا إلى صقلية، غير أنها أخذت بثأرها من بعد : في سنة 276 عند رجوع الملك إلى إيطاليا، فأغرقت 70 سفينة من 110 كانت تصحبه. وكان العديد من هذه السفن على ملك سِرَقوسة التي لم تعوض ما فقدته. وبعد هذا النصر الكبير أخذت قرطاجة تظن نفسها سيدة البحر الأبيض المتوسط الغربي. وكان الرومانيون قد اعترفوا بضعفهم البحري في معاهدة حلف عقدت سنة 279-278، وبمقتضاها واعدتهم

الجمهورية الإفريقية بأن يساعدهم أسطولها. كما تكفلت بأن تنقل بالبحر جيوشهم كما تنقل جيوشها إلى الجهات التي قد يحاربون فيها جميعا[74]. وفي الوقت الذي كانت ستبتدئ فيه الحرب البونيقية الأولى جرت مناقشة حادة بين أحد القرطاجيين وجماعة من الرومانيين، فقال القرطاجي بجرأة إن مواطنيه لو أرادوا لما سمحوا لهم حتى بغسل أيديهم في البحر[75].

أخذت رومة تصنع قوادس شبيهة بالقوادس القرطاجية. لكنها لم تتقن صنعها ولم تتوفر على المجدفين الأكفاء إلا بعد نهاية صراع دام ربع قرن. إذ أن أمراء بحريتها لم يسبق لهم أن أعدوا لماموريتهم، وكانوا تقريبا يجهلون كل شيء عن الملاحة. وقد تركوا أساطيل عظيمة يحطمها الهياج البحري. وبسبب ارتداد المياه، جنح بالرمل أحد هذه الأساطيل بالقرب من جزيرة جربة. فواضح إذن أن أحدا لم يكن يعرف حركة المد والجزر بخليج قابس. وأثناء الحرب فقدت رومة نحو 700 سفينة، أكثرها ضاع بفعل البحر لا في المعارك. لكنها بعد فترات من الوهن العابر عادت فجددت قواتها التي أضاعها عدم خبرتها.

كانت تعلم أنها إذا قبلت خطط القرطاجيين، فإن ضعف بحريتها في السفن والرجال سيؤدي بها من هزيمة إلى هزيمة. لذلك اتخذت خطة من شأنها أن تمنع العدو من المرور بين الصفوف المتراصة، وتمنعه من المناورة على جوانب سفنها وخلفها. وذلك معناه جعلهم يخفقون في هجومهم. ولكي تتغلب عليهم، استعملت جسورا طيارة تسمى الغربان، كانت تنزل على القادس العدو فتكون ممرا للجنود الشجعان الحاملين لأحسن سلاح، يقول پوليبْ Polybe [76] : «فتكون المعركة بهذا شبيهة بمعركة على الأرض».

أصيب القرطاجيون أثناء هذه الحرب بعدة كوارث بحرية. وذلك بغض النظر عن الاندحارات الصغيرة التي حدثت لهم. ولم ينالوا سوى انتصار عظيم واحد، هو الذي حصل سنة 249 في دْريبان Drépane حيث تقدم آذربْعل Adherbal بجرأة لملاقاة خصم متهور ليس له كفاءة، واستطاع أن يستخدم ضده الخطة التقليدية. ولم تعرف قرطاجة كيف تحافظ على التفوق الذي ضمنه لها هذا الانتصار، والانتصارات التي تلته، وتحطيم البحر لأسطول روماني. ولما كانت معركة جزر إيكات Aegates لم يكن لها حتى المجدّفون المهرة.

كان البركيون قد كرسوا جهودهم للاستيلاء على أسبانيا، كمقدمة للأخذ بالثأر من رومة. فعملكار الذي كانت تحت إمرته عمارة بحرية أثناء الحرب السابقة، لم يكن يهمل البحرية. وكان صهره حسدربعل، المهيأ ليخلفه على رأس الجيش، قد صحبه إلى الهضبة الأسبانية بوصفه قائدا للقوات البحرية. لكن المتأكد هو أن أياً من الرجلين لم ينشئ أسطولا كبيرا في الموانئ الإيبيرية. وكذلك لم يقع أي اهتمام في قرطاجة بتجديد القوة البحرية للجمهورية. فهل كان ذلك من جانب الحكومة حبا في تجنب نفقات عظيمة ؟ وهل البركيون من جانبهم كانوا آنذاك عازمين على مهاجمة رومة من جهة البر، باختراق بلاد الغال ؟ هل أرادوا – كما افترض الغير ذلك – التخفيف عن الشعب القرطاجي الذي كانوا في حاجة لمساندته، بإعفائه من كل خدمة عسكرية على ظهر السفن أو في الجيوش؟ لقد سبق لنا القول بأن الطبقة الشعبية السفلى كانت على ما يحتمل تغطي من صفوفها قسما لابأس به من الرجال العاملين على ظهر السفن.

ولكن يبقى دائما أن الأساطيل البونيقية لعبت دورا تافها جدا في حرب حنيبعل. وإذا كانت قرطاجة قد أحست بأنها لابد من أن تكون قوية

في البحر، فإنها لم تستطع تحقيق هذا المطمح. ورومة لما رأت ضعف مزاحمتها، اكتفت بتعهد العمارات الكافية لتامين مواصلاتها، ونقل جيوشها عبر البحر الأبيض المتوسط، وصد كل محاولة للهجوم أو للنهب من جانب بعض عمارات العدو، وكذلك للذهاب قصد القيام ببعض الغارات على السواحل الإفريقية. فكانت المعارك البحرية قليلة. واشتبك فيها من السفن أقل مما كان يشتبك في الحرب البونيقية الأولى، وكادت جميعا تنتهي باندحار القرطاجيين وفرارهم. وأحيانا لم يجرؤ هؤلاء على خوض المعركة حتى حين كانوا متفوقين في عدد السفن. ففي أسبانيا استولى سيبْيون على 18 قادسا في ميناء قرطجنة، وبعد ذلك بسنة نزع أسلحة سفنه وحول قسما من رجالها إلى جيشه، لأنه كان يرى أن لا خطر يتهدده مطلقا من جهة البحر. وفي سنة 205 استولى الرومانيون بمياه سردانية على مجموعة من 80 أو 100 سفينة ناقلة لا تصحبها سفن حربية. فلا شك أن هذه لم تكن متوفرة عند القرطاجيين. وحين عبر سيبْيون إلى إفريقيا اكتفى بحراسة 40 قادسا. وانصرم نحو من تسعة أشهر قبل أن تحاول قرطاجة تحطيم أسطوله. ولم يكن القائد الروماني ينتظر هذه الغارة التي كان من الممكن أن تنجح لو أن خصومه سارعوا بالهجوم عليه في الحين. ولكنهم أخروا المعركة للغد، وبذلك تركوا لسيبْيون الوقت ليستعد لمقاومتهم. وجرت الأمور تقريبا على نفس المنوال سنة 147. فالأسطول البونيقي الذي بني في السر، وخرج من مخرج جديد من الموانئ الداخلية، هذا الأسطول لو أنه ارتمى في ذلك اليوم على الأسطول المعادي لكان من المحتمل أن يحطمه. ولكنه لم يجد بعد ذلك هذه الفرصة عندما خرج للمرة الثانية. ولم يكن أمراء البحر القرطاجيون لايعادلون سفن قرطاجة ولا بحارتها. وفي كثير من

المناسبات بدوا غير متحمسين، شأنهم في ذلك شأن قادة الجيوش، فكانوا مثلهم غير أكفاء ليستفيدوا من الظروف المواتية، وكانوا يخشون كثيرا عواقب الاندحار على أنفسهم ربما أكثر مما يخشونها على وطنهم، لأن روح عَمِلْكار وحنيبعل لم تكن تملأ صدورهم.

انتهى الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث

شروح وإحالات

1) أپْيـــان Appien في ك 95 و ك 119. أمــا أوروز Orose في الرد على الوثنيين ك 4، 22، 5 فيذكر نقلا عن تيتْ ليڤْ Tite-Live ثلاثة أميال، أي 4440 مـترا وهـي تعـادل 25 اسْطاداً التي ذكـرها بـوليب Polybe. أما بوليب فإنه في ك 17، 3، 14 قد أخطأ حين جعل للبرزخ عرضا من 60 اسْطاداً، وهي 11 كيلومترا تقريبا.

2) عُرف هذا الخط عند كل من الإغريق واللاتان باسم اللسان أو اللسين Gloussa أو Ligula وLingua.

3) سْتـرابون Strabon، ك 17 ، 14، 3 يذكـر 360 اسْطاداً، أي قـرابة 64 كيلومترا. ويذكر سترنجير أن مدينة بابل هي أيضا قد ذكر لها 360 اسْطادا، بينما لم يكن لها في الحقيقة سوى 18 كيلومتر، ويتساءل هل هذا من قبيل الصدفة ؟

4) فيتروف Vitruve ك 8، 3، 24.

5) بوليب Polybe ك 38، 7، 3 يذكر أن لقاء جرى بين القادة حَسدْرُبَعْل الذي كان محصورا في قرطاجة آنذاك وبين گلوسا ملك النوميديين. فـانفصل حسـدر بعل عن الرجـال الذين يصـاحبونه، وكـان يحـميه الخندق والسياج، ثـم أشـار إلى گلوسا أن يقترب.

6) عبر المؤلف بكلمة Plèthre الفرنسية وهي من بليثرون Plêthron الإغريقية التي هي مقياس طولي يبلغ سدس السطاد. فهو إذن 100 قدم أي نحو من 30 مترا.

7) يقول أپْيان : 95 «كان سور ثلاثي يحمي القسم الذي من جهة اليابسة من البرزخ»، ويقول سترابون، ك 17، 3، 14 : «القسم من السور الممتد من البحر إلى البحر حيث كانت حظائر الفيلة».

ويقول أوروز : ك 4، 22، 5 : «إن البرزخ كان عرضه ثلاثة أميال، وكان به سور من الحجر المنجور، ويبلغ عرضه 30 قدما، إلخ...» ويتعلق الأمر في هذين النصين من سترابون وأوروز بالسور الأعلى الذي لا يمكن أن يكون هنا الخط الدفاعي الثالث وهناك الخط الدفاعي الأوحد. وحين استولى مانيليوس على البرزخ فإنه هاجم الخط الثلاثي كله أي الخندق والسور الأمامي والسور الأعلى (أپيان 97). فالمفروض أنه لو كان القسم المواجه له عبارة عن سور معتاد لتوجه بمحاولته الهجومية إلى هذه الناحية.

8) Revue archéol, P : 248-9 وكذلك ص 79-80 – من Documents واللوحة الثالثة.

9) هناك نصان أحدهما بالرحلة المعزوة خطأ لسيلكس Scylax، والثاني عند ديودور Diodore الصقلي. وكلاهما يرجع للقرن الرابع ق.م. غير أن أولهما ليس فيه جدوى بينما النتائج التي نستخلصها من الثاني ليست متأكدة.

10) لعل لفظ "خوما" يكون فينيقيا من جذر ثلاثي سامي، نجد مقابله العربي في كوم : الموضع المشرف كالتل وكذلك في الكومة وهي

18) ديودور الصقلي ك 20، 57، 4-6.

19) ارجع للجـزء الأول ص 145 و ص 303 من الأصل الفـرنسي، وهمـا بهامش ترجمتنا العربية. إن بلاد خمير بالشمال الغربي للقطر التونسي أرض كثيرة الأشجار. وهي الناحية التي نظرا لقربها من قرطاجة تمكن من الحصول على المواد الضرورية لبناء السفن. ولعل هذا السبب جعل القرطاجيين يودون الاستيلاء عليها.

20) بوليب Polybe : ك 1، 73، 1. ديودور : ك 24، 10، 2.

21) Commentaires de la lettre de Saint Paul aux Galates, 2 (patrol. Lat., XXVI, P : 353).

22) ذكر أميان مرسلان في ك 17، 4، 3، أن القرطاجين استولوا على طيبة المصرية، قبل عهد قمبيز، فيحتمل أن خلطا شنيعا وقع بين طيبة وثوفست.

23) كمـا عند أوروز في ك 5، 15، 8 من Adv. Pagan (ربما نقلا عن تيت ليفْ). لكن سالست Saluste في ك 89، 4 يسميه هرقل الليبيين.

24) هيرودوت Hérodote ك 2، 32. وك 4، 197 وغير ذلك.

25) ديودور: ك 20، 55، 4 وك 13، 80، 3 بوليب : ك 3، 33، 15-16 وك 15، 11، 2-3 وجُسْتَان Justin في اختصاره لطْروكْ Trogue-Pompée : ك 19، 2، 4 وك 21، 4، 7 وك 22، 6، 12 وتيت ليف : ك 21، 22، 2 وك 23، 29، 4 وك 27، 18، 7 وك 29، 29، 2. وك 30، 7، 1 و33، 5...

26) ديودور : ك 20 ، 55، 4 وبوليب : ك 3، 33، 15.

27) انظر مولر في فقراته من مؤرخي الإغريق، ج 3، ص 102 و622 (رقم 47).

28) كُرنيليوس نيبوس Cornélius Népos في ترجمته لعملكار Hamilcar : ك 2، 5.

29) بوليب : ك 1، 73، 3.

30) بوليب : ك 1، 29، 7 يذكر 20.000، بينما أوتروب ك 2، 2،21 وأوروز : ك 4، 8، 9 ويذكر ان عدد 27.000.

31) ديودور: ك 14، 77، 3 وك 20، 17، 1-2 و18، 2 و33، 8 و 60، 1 و61، 1 و ك 20، 17، 2 و18 و1 و33، 8 وكذلك : بوليب : ك 1، 30، 15 و 67، 13 و 69، 1 و73، 3 و76، 10 و 77، 4 و79، 14 وك 1، 86، 4 و84، 12 و86، 2 وك 14، 10، 4 وك 15، 1، 6 وتيتْ ليڤْ : ك 30، 9، 10 و 16، 1، 36، 6-9.

32) لعل أدون هذه هي مدينة أدنة Oudna. كما أن نفريس التي سيرد اسمها من بعد قد وقع التعرف على موقعها الذي هو هنشير بوكر. ومن ناحية أخرى، لا يعقل أن تكون السهول الكبرى خاضعة للقرطاجيين ولا تكون باجة – التي سيرد اسمها من بعد – خضعت هي أيضا لسلطتهم، بسبب وقوع هذه المدينة بين السهول الكبرى وقرطاجة، وفيما يخص جميع المدن الواردة أسماؤها في هذه الفقرة من گسيل Gsell، انظر ما يلي: بوليب: ك 1، 30، 5، 74، 13 وك 14، 6، 12، 7، 5 وتيت ليف ك 29، 29، 2 و34، 4 و35، 4 وك 30، 7، 10 و7، 12 وبطلمي : ك 4، 3، 8 وأوروز : ك 4، 22، 8 وسترابون : ك 17، 3، 16 وبلين : ك 5، 23.

33) سالُسْت Saluste في حرب يوغرطة : ك 78، 4 كما أن متين أحد مساعدي حنيبعل Hannibal كان ينتسب لإحدى المدن الليبية الفينيقية، وقد وصفه بوليب في ك 9، 22، 4 بأنه ليبي، فلعله كان من السلالة الإفريقية. وإذا كان ديودور الصقلي وتيت ليف يعتقدان ان لفظ ليبيين فينيقيين يدل على المولدين كما سبق أن رأينا، فلأنهما كانا يعلمان بأن سكان المستعمرات أو المستوطنات الساحلية قد كانت دماؤهم مختلطة جدا.

34) أبجدية ظهرت قبل منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، ولكن لم يعم استعمالها إلا بعد هذه الحقبة.

35) عرفت باسم لِبْتي على بعض النقود المضروبة بالحرف البونيقي الجديد Néo-punique، وذكرها بعض كتاب العهد الروماني بصيغتي لِبْتيس ولبكيس Lepcis ويميّز بلين Pline في ك 5، 27 خطأ بين لبتيس ونيابوليس. ويذكرها تيت ليف في ك 34، 62، 3 باسم لبتيس، كما عرفت أيضا في العهد الروماني باسم لبتيس الكبرى Leptis Magna تمييزا عن لبتيس الصغرى Letis minor التي هي لمطة الواقعة بين هدروميت وثبسوس بالقطر التونسي.

36) المتفق عليه هو أن اسم قرطاجة محرف عن قَرَتْ حَدَشْت، أي القرية (المدينة) الحديثة. وعلى هذا، فلِمَ لا تكون أوتيكا Utique هي المدينة العتيقة، أي القديمة بالنسبة لتلك الحديثة ؟ خصوصا وأن أوتيكا تأسست في أواخر القرن الثاني عشر ق م. والمؤلف لا يستبعد ذلك . ثم لم لا يكون اسمها مثلا عوتيكا - أو ما يشبه ذلك - أي الحمراء، باسم هذه الصبغة التي نعلم أنها ارتبطت بالفينيقيين دائما؟ فالرأي إذن هو أن اسم أوتيكا لابد أن يرجع لواحد من الجَذْرين

الساميين اللذين تجدهما حتى اليوم في اللغة العربية – أخت الفينيقية – ممثلين في مادة عتق = قدم، وفي أختها عتك = أحمر.

37) بوليب : ك 3، 33، 12 وتيت ليف : ك 21، 21، 12 و13 وغير أن تيتْ ليفْ الذي نقل عن بوليب لم يذكر لا ميتاگونيت. هذا وعدد 4000 من المشاة يتناسب تقريبا مع مجموع قد جند جميع الرجال القادرين على حمل السلاح، وذلك ما نجهله، بل المحتمل ان ذلك لم يقع.

38) بومبونيوس ميلا Pomponius Méla : ك 5، 22 وك 3، 5، 5 وبطلمي : ك 4، 1، 5.

39) انظر الكتاب الثاني، الباب الثامن "كتاب السياسة" لأرسطوطاليس في الترجمة العربية بقلم أحمد لطفي السيد. مطبعة دار الكتاب المصرية 1947.

40) من ذلك مثلا الوفد المبعوث لمدينة صُور Tyr سنة 322، والوفد الذي كلف بإصلاح ذات البين بين عَمِلْكار وحنّون، والوفد المبعوث إلى سبيون Scipion بعد معركة زاما Zama، والسفارة المبعوثة إلى رومة سنة 149، وكذلك الوفد المرسل إلى القنصلين في أوتيكا من بعد.

41) أ– الفرَتْري Phratrie عند الإغريق اليونيين والدوريين كانت تعني قسما (فخذة) من القبيلة. وكانت القبائل الأربع الأولى بمقاطعة الأتيك تضم كل واحدة منها ثلاث فرتريات، وكل واحدة من هذه الأخيرة تضم ثلاثين أسرة. وبعد الإصلاحات التي قام بها كلستين أصبحت الفرتريات جماعات دينية، كل واحدة تنتخب رئيسها، ولها ناديها وصندوقها المالي.

ب- والكوري Curie أيضا لها نفس المدلول عند الرومان. والقبائل الثلاث الأولى كانت مقسمة إلى ثلاثين من الكوريات. ويقال إن الكوريات في العهد الملكي قد أعطت كل واحدة منها لرومة 100 من المشاة وعشرة من الفرسان وعشرة آباء أي شيوخ كانوا هم الإطار الأصلي لمجلس الشيوخ الأول في رومة.

ج- أما الهيتيريات Hétaries فكانت بمقاطعة أوتيك تطلق على الجمعيات المسموح بها، وإن كان اللفظ يطلق غالبا على الجمعيات السياسية السرية العاملة لمصلحة الأوليغرشية ضد النظام الديمقراطي.

4) مثال ذلك حنّون وبوملكار سنة 310، ويقول ديودور في ك 20، 10، 1-2 : «كان القرطاجيون يظنون أن الحذر المتبادل بين هذين القائدين وعداوتهما تضمنان سلامة الجمهورية». لكننا نتساءل هل هذا صحيح ؟ فلربما كان حنون وبوملكار رئيسين لحزبين، ولكنهما في الظروف الخطيرة جدا اتحدا على ما يظهر حبا في سلامة الوطن، وانظر عن عملكار بركا وحنون أثناء الحرب في إفريقيا ضد المرتزقة، ثم ضد النوميديين : بوليب ك 1-81، 1-82، 1، 1، 75 و14، 87، 3-6، 88، 4.

4) يصعب علينا ان نصدق أنه وحده كان يملك 20.000 عبد. ولعله أن يكون دعا للقيام معه بالثورة جميع رجاله من أتباع (وأصحاب) وعبيد، ولعل هؤلاء العبيد يكونون استدعوا أمثالهم من عبيد الأرستقراطية القرطاجية. وبهذا يمكن قبول العدد المذكور. اما الأفارقة فهم الأفراس Afros ويسميهم اللاتانيون باسم أفري Afri وهم الأهالي الساكنون بمنطقة تراب قرطاجة.

44) عاد حَسدربعل إلى إفريقيا في حياة عملكار، وقام بحمله ضد النوميديين. فإذا جعلنا محاولته الانقلابية التي ذكرها فابيوس أثناء هذه الرحلة، لزم أن نسلم بأنه كان ينوي تكوين الملكية لفائدة عملكار الذي هو حموه ورئيسه. ولكن يفهم من أسلوب فابيوس أن حسدربعل قبل ذهابه إلى إفريقيا وبعده لم يكن مرتبطا بغيره في أسبانيا (التي كان بها عند موت عملكار). وعلى هذا فيكون قد عبر مرة ثانية إلى إفريقيا وذلك بعد ما حل هو محل عملكار في أسبانيا. ولكن هل صحيح هذا الذي يرويه فابيوس بكتور ؟

45) بوليب في ك 14، 8، 14 اكتفى بالقول بأن حسدربعل بعد معركة السهول الكبرى فر إلى قرطاجة مع فلول جيشه.

46) في هذه الآونة، حَسَبَ أبيان، بحث الشعب عن حَسدْرُبَعْل بن جِسْكون ليقتله، ولكنه وجده ميتا في قبر أبيه، فاحتز الجمهور رأسه وجعله على رأس حربة وطاف الناس به.

47) في 193 أثناء قنصلية ل. كرنيليوس Cornélius وك. مينوكيوس Minucius وهي السنة التي وصل فيها أرسطون لقرطاجة، قدم حنيبعل ومعه خمس سفن إلى سرنيكا (برقة) متمنيا دفع مواطنيه للانضمام إلى أنتيوخوس لمحاربة الرومانيين (كرنيليوس نيبوس في ترجمته لحنيبعل ك 2، 8، 1) واستدعى إليه ماگون Magon. فلما علم بذلك القرطاجيون حكموا عليه بنفس ما حكموا به على أخيه، لذلك تخلى الأخوان عن المشروع وابتعدا عن الشواطيء الإفريقية، إذ عاد حنيبعل إلى جانب أنتيوخوس، بينما غرق ماگون في البحر ومات حسب قول بعضهم، أو اغتاله عبيده على قول آخر ويظهر أن هذا الكلام لا يعتد به، لأن ماگون مات على

قول تيت ليف سنة 203. ولماذا ذهب حنيبعل إلى برقة بهذا العدد من السفن الذي لا يمكن أن يخفى على الأنظار ؟ وبالطبع لم يكن بمستطاعه أن يتابع سيره حتى قرطاجة، التي لا يمكنه دخولها إلا على رأس جيش، وبعد أن يكون أنتيوخوس من جهته قد بدأ العمليات الحربية ضد رومة.

48) انظر حول هذه الأحداث أبيان في ك Lib 70.

49) يعبر تيتْ ليفْ بلفظ تالان Talent وهو وحدة حسابية في العملة الإغريقية لا القرطاجية. ولهذا فلا ندري المقابل القرطاجي للتالان. وعلى كل حال فإن الإغريق تعاملوا بالمن Mnâ وهو 100 دراخْماً، وبالتالان وهو 60 منا أي 6000 دراخْماً. ونُضيف أن التّلاَن من غير تمييز يقصد به التلان الفضي على العموم. اما الذهبي فيساوي 10 تالانات فضية.

50) الرسالة رقم (CXCIX)، 12، 46.

51) قول المؤلف : «يتطلب مليونا من عملتنا في كل شهر» يقصد به مليونا من الفرنكات الفرنسية، بسعر الفرنك في العشرينيات أو الثلاثينيات من هذا القرن العشرين، وذلك لأن هذا الجزء الثاني من الكتاب ظهر في طبعته الأولى سنة 1917 أما گسيل Gsell نفسه فقد توفي سنة 1932.

52) كانت التالانات الأوبويقية أو الأتيكية التي أداها أنتيوخوس ملك سوريا للرومانيين تزن 80 لبرة رومانية، حسب بوليب : ك 21، 43، 19 أو 26 كيلو و 196. ونجهل هل استعملت هذه المعادلة في المعاهدة المبرمة بين رومة وقرطاجة، أو كانت التالانات الأوبْويقية

المذكورة ذات وزن أقل (25 كيلو و92). أما معاهدة 201 فيذكر عنها بلين القديم Pline l'Ancien : ك 33، 51 تعويضا هو800.000 لبرة، بينما يذكر بوليب 10.000 تالان أوْبويقية. ولكن ليس مؤكدا أن الرقمين قد ذكرا في المعاهدة.

53) مناجم بايبلو باسم من اكتشفها كما يؤكد ذلك بلين. ونجهل أين كان موقعها، ويقال إن المناجم المجاورة لقرطاجة اكتشفها شخص يدعى أليتيس Alétès (بوليب ك 10، 10، 11)، وفي هذا ما يدعو إلى الافتراض بأن منجم بايبلو كان يقع بمكان آخر، ومحصولها حسب ما ذكر في النص يبلغ أكثر من 35.800 كيلو سنويا.

54) ستاتير Stater عند قدماء الإغريق عيار مختلف الوزن، ثم هو أيضا عملة فضية تساوي من 2 إلى 4 دراخماً. ثم مثال لعملة ذَهبٍ تساوي من 20 إلى 28 دراخما.

55) بعيد الاحتمال حتى إذا أدْخلنا في الاعتبار المداخيل التي كانت مهمة لاشك، وناتجة عن مصادرة ثروات حنيبعل التي دخلت للخزينة العامة سنة 195.

56) سكوتوم Scutum تِرْسٌ روماني كان في أول الأمر بيضوي الشكل ومقعراً، ثم صار مستطيل الشكل ومقعرا دائما.

57) هيرْن في كتابه :

De la politique et du commerce des peuples de l'Antiquité

الترجمة الفرنسية، ج 4، ص 291.

58) بالفعل كان عدد 150 يكوّن الكوكبة في الجيش المقدوني.

59) تيت ليف : ك 23، 13، 7 و41، 10 و43، 6.

60) نفس المصدر: ك 23، 29، 14 عن معركة 216 وك 23، 49، 11-13 عن معركة 215.

61) ترجمة كلمة Cornac بموجه وهو لفظ فيه تعميم. وقد فضلتُه على لفظ سائق الذي يكون في الخلف ويسوق أمامه، وكذلك لفظ قائد الذي يكون في الأمام متقدما غيره. بينما الكاتب يريد هنا راكب الفيل الذي يسيره.

62) تيتْ ليفْ : ك 27، 49، 1-2 يقول إن عدة من الفِيلَة قتلها موجهوها بهذه الطريقة في معركة الميطور Métaure. أما بوليب في ك 11، 1، 2 فاكتفى بقوله إن فيلة حسدربعل العشرة قد قتل منها 6 مع موجهيها، وقبض على 4 بدون موجهين.

63) أفضل تخصيص لفظ العقربات Scorpion لهذه الآلة الحربية، وترك لفظ عقرب للدلالة على الحشرة السامة المعروفة. وهما معا في الفرنسية يحملان نفس الاسم.

64) تيتْ ليفْ : ك 26، 49، 3 أما سِلِنوس Silénos فكان أحد رفقاء حنيبعل، ولاشك أنه لم يكن يميل إلى المبالغة في الغنائم التي حصل عليها الرومانيون.

65) كْسانتيب Xanthippe ذكره بوليب في ك 32، 1 بأنه إغريقي لاسِدِموني، كانت له تربية إسْبَرْطية وتجارب كبيرة بشؤون الحرب ليعمَلَ في جيش قرطاجة بعد الكارثة التي لحقت بها على يد القائد الروماني ريگُلوس Régulus.

66) السياسة لأرسطوطاليس : ك 2، 8، 5.

67) لا أعتقد ان هناك مجالا لتشبيه منصب هؤلاء الحكام العسكريين القرطاجيين بالبيوثرك Béotharques، حتى ولو كانوا ينتخبون جميعا. لأن البيوثرك هم جماعة الرؤساء المسيرين لرابطة بيوثيا الإغريقية التابعة بجميع مدنها لمدينة طيبة. وإذا كانت هذه الرابطة تضم 10 مدن، تنتخب تسع منها تسع بيوثرك - واحدا عن كل مدينة - إلا طيبة فقد كانت تنتخب اثنين عنها. وكان جميعهم يتقاسمون فيما بينهم المهام المدنية والقيادات العسكرية. فهذا النظام الإغريقي مخالف تماما للذي يتحدث عنه المؤلف. والظاهر أن كلا من بوليب وأبيان قد أخطأ فيما ذكر.

68) من بينهم مثلاً جِسْكون ابن حنّون في أواسط القرن الرابع، وعَملِكار ابن جِسْكون في نهاية نفس القرن، وعملكار القائد بصقلية وشمال إفريقيا من 260 إلى 254، وحِمِلْكون المدافع عن ليليبي بصقلية أثناء الحرب البونيقية الأولى...

69) هي جزيرة أُسْتيكا Ustica بشمال الشمال الغربي لمدينة بالِرْم الصقلية.

70) بوليب : ك 23، 13، 2 وانظر تيت ليف : ك 28، 12، 3-4 وديودور : ك 29، 19 وجُسْتان : ك 32، 4، 12. ولهذا فلا عبرة بالنصوص التي تذكر ما وقع أو ما كان سيقع مع عمليات الفرار بجيش حنيبعل.

71) ديودور : ك 11، 20، 2 يذكر أنها كانت أكثر من 3000 ، سنة 480. وك 13 ، 54، 1 أنها كانت نحوا من 1500سفينة سنة 409. وك 13، 80، 5 اكثر من 1000 في 406، وك 14، 54، 5 أكثر من 60 سنة 396 / 397. وك 16، 77، 4 أكثر من 1000 سنة 339. و ك 19، 106، 3 أن 200 من

الناقلات المبعوثة إلى صقلية أغرقها الهياج البحري سنة 311. كما يذكر تيت ليف: ك 25، 27، 4 أن بوملِكار غادر قرطاجة ومعه 700 سفينة ناقلة كان يريد الوصول بها إلى سرقوسة سنة 212.

72) تيتْ ليڤْ : ك 21، 49، 2-4 وكذلك 50، 5 ولا توجد هذه المعلومات في بوليب.

73) زوزيم Zosime : ك 5، 20، 4.

74) بوليب : ك 3، 25، 4 و 5.

75) ديودور : ك 23، 2، 1 وديون كاسيوس، Dion Cassius فقرة 43، 9 طبعة Melber. وعن سيادة القرطاجيين على البحر في بداية هذه الحرب، انظر بوليب : ك 1، 20، 5.

76) بوليب : ك 1، 23، 6 وانظر كذلك نفس الكاتب في : ك 1، 23، 5-6 و 12، 27 و28، 11 فيما يخص استعمال الغربان في معركتَيْ ميلس وإكنوع.

الفهرس

الجـزء الثاني